

فَاتِحُ الْإِسْمِ الْأَسْمَاءِ

تأليف

أبي محمد الفخر بن أبي الفتح بن زائدة المعافى

ووزير الناصر الأيوبي بالجامعة المصرية

(الطبعة الثانية)

﴿حقوق الطبع محفوظة﴾



مكتبة المكتبة القومية الكبرى بأول شارع محمد علي
لصاحبها مصطفى محمد

١٣٤٤ — ١٩٢٦

طبعة مطبعة
مكتبة المكتبة القومية بأول شارع محمد علي

(فهرست الجزء الثانى)

صفحة

صفحة	المحاضرة الحادية والعشرون
٤٤ فتح اذرييجان	٣ عمر بن الخطاب
٤٤ فتح الري	٣ كيف انتخب
٤٤ فتح الباب	٤ ترجمة عمر
٤٦ فتح خراسان	٦ أول خطاب لعمر
٤٧ فتوح أهل البصرة	٦ الفتوح في عهد عمر
٤٩ المحاضرة الرابعة والعشرون	٦ في بلاد الفرس
٤٩ الفتوح في بلاد الروم	١٢ أمر القادسية
٥١ الوقعة بمرج الروم	١٥ المحاضرة الثانية والعشرون
٥٢ فتح حمص	١٥ تمام القادسية
٥٤ فتح بيت المقدس	١٥ فتح المدائن
٥٩ المحاضرة الخامسة والعشرون	٣٠ المحاضرة الثالثة والعشرون
٥٩ القضاء في عهد عمر	٣٠ جلولا
٦٢ سيرة عمر في عماله	٣٢ تمصير الكوفة
٦٦ معاملته للرعية	٣٤ فتح الجزيرة
٦٩ غفته عن مال المسلمين	٣٥ فتح الاهواز
٧٢ ميله للاستشارة وقبوله للنصح	٣٦ غزو فارس من البحرين
٧٣ رأي عمر في الاجتماعات	٣٨ فتح رامهرمز والسوس وتستر
٧٣ الوصف علي الجملة	٤١ فتح نهاوند
٧٤ بيت عمر	٤٣ فتح اصبهان

صفحة	صفحة
١٢١ أول أعمال علي	٧٦ المحاضرة السادسة والعشرون
١٢٢ اضطراب الحبل	٧٦ مقتل عمر
١٢٨ المحاضرة التاسعة والعشرون	٧٩ عثمان بن عفان
١٢٨ وقعة الجمل	٧٩ كيف انتخب
١٣٤ أمر صفين	٨٣ ترجمة عثمان
١٤٢ المحاضرة الثلاثون	٨٣ أول قضية نظر فيها
١٤٢ عقد التحكيم	٨٤ كتب عثمان الى الامراء والامصار
١٤٦ نتائج التحكيم	٨٥ أول خطبة له
١٥٠ اجتماع الحكمين	٨٦ الامصار والامراء لاول عهد عثمان
١٦٢ المحاضرة الحادية والثلاثون	٨٦ الفتوح في عهد عثمان
١٦٢ مقتل علي	٩١ المحاضرة السابعة والعشرون
١٦٤ بيت علي	٩١ الاحوال في الداخلية
١٦٥ صفة علي وأخلاقه	١٠٩ المحاضرة الثامنة والعشرون
١٧٠ الحسن بن علي	١٠٩ أسباب مقتل عثمان
١٧٠ مدنية الاسلام في عهد الخلفاء	١١٥ بيت عثمان
الراشدين	١١٦ علي بن أبي طالب
١٧١ الخلافة	١١٦ كيف انتخب
١٧٣ القضاء	١١٨ ترجمة علي
١٧٦ قيادة الجيوش	١١٩ أول خطبة له

صفحة	صفحة
٢٢١ مقارنة الحكم في عهد معاوية	١٧٩ الخراج وجبايته
بالحكم مدة الخلفاء الراشدين	١٨٢ الصدقات
٢٢٣ بيت معاوية	١٨٣ العشور
٢٢٤ وفاة معاوية	١٨٥ النقود
٢٢٦ المحاضرة الرابعة والثلاثون	١٨٥ الحج
٢٢٦ يزيد الاول	١٨٦ الصلاة
٢٢٦ كيفية انتخابه	١٨٦ العلم والتعليم
٢٢٧ حادثة الحسين	١٨٧ المحاضرة الثانية والثلاثون
٢٣٦ وقعة الحرة	١٨٧ الدولة الاموية
٢٣٩ حصار مكة	١٩١ معاوية بن أبي سفيان
٢٤٠ الفتوح في عهد يزيد	١٩١ ترجمته
٢٤١ وفاة يزيد	١٩٢ طريقة انتخابه
٢٤٢ بيت يزيد	١٩٣ حال الامة عند استلام معاوية
٢٤٢ المحاضرة الخامسة والثلاثون	الامر
٢٤٢ معاوية الثاني - عبدالله بن الزبير	١٩٥ زياد بن أبي سفيان
٢٤٤ حال الشام	٢٠٢ المحاضرة الثالثة والثلاثون
٢٤٧ ترجمة مروان	٢٠٤ المغيرة بن شعبة
٢٤٧ عبدالملك	٢١١ الفتوح في عهد معاوية
٢٥٢ الحجاج بالعراق	٢١٥ البيعة ليزيد بن معاوية

صفحة	صفحة
٣٠١ وفاة الحجاج	٢٦٣ ١ المحاضرة السادسة والثلاثون
٣٠٢ وفاة الوليد بن عبد الملك	٢٦٣ الخوارج
٣٠٣ سليمان	٢٧٩ المحاضرة السابعة والثلاثون
٣٠٥ الفتوح في عهده	٢٧٩ بناء الكعبة
٣٠٦ ولاية العهد	٢٨٠ الاحوال الخارجية
٣٠٦ وفاة سليمان	٢٨٠ الفتوح في الشرق
٣٠٧ المحاضرة التاسعة والثلاثون	٢٨٣ الفتوح في الشمال
٣٠٧ عمر بن عبد العزيز	٢٨٤ الحج
٣١٧ وفاة عمر	٢٨٥ السكة الاسلامية
٣١٧ يزيد الثاني	٢٨٥ ولاية العهد
٣٢٠ ولاية العهد	٢٨٦ وفاة عبد الملك
٣٢٠ وفاة يزيد	٢٨٦ بيت عبد الملك
٣٢٠ المحاضرة الاربعون	٢٨٧ صفة عبد الملك
٣٢٠ هشام	٢٨٨ الوليد الاول
٣٢١ الاحوال الداخلية في عهده	٢٨٩ الحال في عهد الوليد
٣٢١ في العراق والشرق	٢٨٩ الاصلاح الداخلي
٣٢٨ في أرمينية وأذربيجان	٢٩٢ المحاضرة الثامنة والثلاثون
٣٣٠ في الشمال	٢٩٣ الفتوح في عهد الوليد
٣٣١ في الحجاز	٣٠٠ ولاية العهد

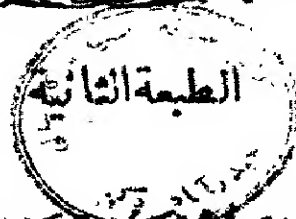
صفحة	صفحة
٣٤٦ الخلافة الاسلامية	٣٣٣ ولاية العهد
٣٤٨ الانتخاب والبيعة	٣٣٣ وفاة هشام
٣٤٩ ادارة البلاد	٣٣٣ صفته
٣٥٢ قيادة الجنود	٣٣٤ الوليد الثاني
٣٥٤ القضاء والاحكام	٣٣٧ يزيد الثالث
٣٥٧ الدواوين	٣٣٩ مروان الثاني
٣٥٩ السكة الاسلامية	٣٤٦ الخاتمة
٣٦٣ أسباب السقوط	٣٤٦ مدنية الاسلام في عهد الدولة
﴿ تمت ﴾	الاموية

تأليف

الشيخ محمد الطنيزي بك المفيد بوزارة المعارف

ومدرس التاريخ الاسدي بالجامعة المصرية

المجلد الثاني



مطابع المكتبة التجارية الكبرى بأول شارع محمد علي بصر
لصاحبها مصطفى محمد

١٣٤٤ — ١٩٢٦

مطبعة مصطفى محمد
صاحبها السيد محمد علي محمد

(٤)

قال افعل فقال له أبو بكر لو تركته ما عدوتك وما أدري لعله تاركه والخيرة له ألا يلي من أموركم شيئاً ولو ددت أني كنت خلواً من أموركم وأنى كنت فيمن مضى من سلفكم

ولما تم له الرأي دعا به عثمان بن عفان فأملى عليه (بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما عهد أبو بكر بن أبي قحافة الي المسلمين أما بعد) - ثم أغشى عليه فكتب عثمان - (فاني قد استخلفت دليكم عمر بن الخطاب ولم آلكم خيراً) ثم أفاق أبو بكر فقال اقرأ على فقرأ عليه فكبر أبو بكر وقال أراك خفت أن يختلف الناس إن افلتت في غشيتي قال نعم قال جزاك الله خيراً عن الاسلام وأهله وأقرها أبو بكر من هذا الموضع قال الطبري ثم أشرف على الناس وزوجه أسماء بنت حميس ممسكته فقال لهم أترضون بمن أستخلف دليكم فاني والله ما ألوت من جهد الرأي ولا وليت ذا قرابة واني قد وليت عليكم عمر بن الخطاب فاسمعوا له وأطيعوا فقالوا سمعنا وأطعنا

وكان بدء خلافة عمر بن الخطاب يوم الثلاثاء ٢٢ جمادي الثانية

سنة ١٣ هـ (٢٣ أغسطس سنة ٦٣٤ م)

ترجمة عمر

هو عمر بن الخطاب بن قحيل من بني عدي بن كعب بن لؤي وأمه حنتمة بنت هاشم بن المغيرة من بني مخزوم بن يقظة بن مرة ولد لثلاث عشرة سنة خلت من ميلاد رسول الله صلى الله عليه وسلم . تربى على الشهامة والنجدة والجرأة وقول الحق لا يري فيه هوادة فلما تشرف رسول الله بالرسالة كانت سنة ٢٧ سنة ولما دعي الى الاسلام لم يكن في بدء أمره

• فتتبعاً بصحة الرسالة فخارب الاسلام حرباً شديدة حتى كان ينال المسلمين منه أذى
 كبير حتى كانت هجرة الحبشة ورأى شدة تمسك المسلمين بدينهم وتحمل الأذى
 ومفارقة الاوطان فكان ذلك مما دعا الى أن يستمع الدعوة بقلب مفتوح
 فأمن وصدق وذهب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم في دار الارقم بن أبي
 الارقم المخزومي التي كان المسلمون مستخفين بها وهناك أعلن إيمانه فكانت به
 للمسلمين قوة وذهب الى البيت الحرام نادياً لقريش تصديقه بالدين الاسلامي
 وهناك أصابه من أذى المشركين ما كان يصيب اخوانه وكادوا يقتلونه لولا
 أن أجارهم منهم العاصي بن وائل السهمي ولما كانت هجرة المدينة كان الناس
 يخرجون متسللين خيفة أن يجسدهم أهلوهما أما هو فأعلن أنه مهاجر وقال
 من أراد أن تشكله أمة فليقتني وراء هذا الوادي ثم خرج مهاجراً فلم يتبعه أحد
 وحضر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم شاهده كما فلم يتخاف عن واحدة
 منها وكان كثيراً ما يشير على الرسول فينزل القرآن • وادقاً لما أشار وكان هو
 وأبو بكر بمنزلة الوزيرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقد صاهره
 عليه السلام فتزوج بنته حفصة بعد أن تتل دنها زوجها : ولما لحق عليه
 السلام بربه كان لعمر أكبر الفضل في الاسراع ببيعة أبي بكر قطعاً للانزاع
 في أمر الخليفة وخوفاً أن يتشتت الامر وكان لابي بكر بمنزلة الوزير الاول
 يشير عليه ويعينه وكان أبو بكر يحيل عليه فصل القضايا فكانه كان قاضيه
 وإن لم يتسم باسم القاضي وقد أفادته صحبة أبي بكر الاناة في الامور
 وكثيراً غيرها

أول خطاب له

بعد أن بويغ بالخلافة عقب وفاة أبي بكر صعد المنبر فقال هذه الكلمات القصيرة وهي تنبيء عن سياسته التي ساس بها العرب قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه (إنما مثل الجمل كمثل جمل أنف اتبع قائده فليتنظر قائد دأين يقوده أما أنا فأورب الكعبة لأحملنكم على الطريق) والجمل الأنف هو الجمل الذليل الموائى الذي يأنف من الزجر والضرب ويعطى ما عنده من السير نفوً سهلاً وهذا تشخيص حسن للامة الإسلامية لعنده فإنها كانت سائمة مطيعة إذا أمرت ائتمرت وإذا نهيت انتهت ويتبع ذلك المساواة الكبرى على قائدها فإنه يجب عليه أن يتبصر حتى لا يواجه هذه الامة الى ما فيها خطر عليها بل يتخير لها أسلح الطرق وأسهلها ولذلك وعدم مقسما فقال أما أنا فأورب الكعبة لأحملنكم على الطريق وينهم بالبداهة أنه الطريق الاقوم الذى لا اعوجاج فيه والعرب من شأن انتها الاكتفاء بدلالات الاحوال ﴿الفتوح في عهد عمر﴾

فى بلاد الفرس

لما صرف أبو بكر خالد بن الوليد الى العراق أمره أن يستخلف على البلاد المثنى بن حارثة الشيباني ويترك عنده نصف الجنود ففعل خالد ما أمر به وأقام المثنى بالحيرة وهي دار أمارته وكان قد استقام أمر الفرس على شهر براز فوجه الى المثنى جنداً يقوده بهمن جاذويه فسار اليه المثنى والتقى به عند بابل وأوقع به وقعة شديدة انهزم فيها بهمن وجنده وتبع

الطلب الفل الى قرب المدائن ثم عاد المثنى الى الحيرة وأبطأت عليه أخبار أبي بكر وتوقع أن الفرس يجمعون له جموعاً لا يقدر على مقاومتها فخلف الجند بشير بن الخصاصية وخرج نحو المدينة ليخبر أبا بكر خبر المسلمين وأعدائهم وليستأذنه في الاستعانة بمن قد ظهرت توبته وندمه من أهل الردة وليخبره أنه لم يخلف أحداً أنشط الى قتال فارس وحربها ومعوثة المهاجرين منهم فقدم المثنى وأبو بكر في مرضه الاخير فاستدعى عمر فقال له اسمع يا عمر ما أقول لك ثم اعمل به اني لارجو ان أموت من يومى هذا فان أنا مت فلا تمسين حتى تندب الناس مع المثنى وان تأخرت الى الليل فلا تصبحن حتى تندب الناس مع المثنى ولا تشغلنكم مصيبة وإن عظمت عن أمر دينكم ووصية ربكم وقد رأيتنى متوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وما صنعت ولم يصب الخلق بمثله وبالله لو أني أني عن أمر الله وأمر رسوله لنخذلنا ولعاقبنا فاضطربت المدينة ناراً وان فتح الله على أمراء الشام فاردد أصحاب خالد الى العراق فأنهم أهلهم وولاه أمره وحده وأهل الضراوة بهم والجرادة عليهم ومات أبو بكر من يومه فبعد أن دفنه عمر ندب الناس مع المثنى وقال عمر كأن أبا بكر قد علم أنه يسوءنى أن أوامر خالد على العراق حين أمرني بصرف أصحابه وترك ذكره : كان الناس يجمعون عن الخروج الى فارس لما في أنفسهم من عظمتها وشوكتها القديمة فخطبهم المثنى فقال - أيها الناس لا يعظمن عليكم هذا الوجه فانا قد تبجبعنا ريف فارس وغلبناهم على خير شقى السواد وشاطرناهم ونلنا منهم واجترأ من قبلنا عليهم ولها ان شاء الله ما بعدها : وقال لهم عمران الحجاز ليس لكم بدار الا على النجعة ولا يقوى

عليه أهله الا بذلك أين الطراء (١) المهاجرون عن موعود الله سيروا في الارض التي وعدكم الله في الكتاب أن يورثكموها فانه قال (ليظهره على الدين كله) والله مظهر دينه ومميز ناصره ومولى أهله مواريث الامم أين عباد الله الصالحون - فكان أول منتدب للمسير أبو عبيد بن مسعود الثقفي ثم قفاه رجلان سعد بن عبيد وسليط بن قيس فأمر عمر على هؤلاء المنتدبين أسبقهم اجابة وهو أبو عبيد وقال له اسمع من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأشرركم في الامر ولا تجتهد مسرعاً حتى تتبين فانها الحرب والحرب لا يصلحها الا الرجل المكث الذي يعرف الفرصة والكف . فسار أبو عبيد بالجند وهو الامير حتى بلغ الحيرة - كان الفرس في ذلك العهد قد ولوا عليهم آرميدخت ملكة واختارت هي رستم أحد عظماء الفرس قائداً عاماً للجنود الفارسية فدانت له الفرس عقب ورود أبي عبيد

كان أول ما صنعه رستم أن كتب الى دهاقين السواد ان يثوروا بالمسلمين ودس في كل رستاق رجلاً ليثور بأهله وكان ممن أرسله جابان ونرسي من القواد فاثاروا الناس من أعلى الفرات الى أسفلها واجتمع جند عظيم قام في النمارق (٢) لما رأى ذلك المثنى ضم اليه مسالحه وحذر وحينما جاء أبو عبيد أراح الجند قليلاً ثم سار الى النمارق فخارب جابان ومن معه وهزم جنده وأسر جابان أسره رجل من عامة العرب من ربيعة فقال له جابان إنكم معاشر العرب أهل وفاء فهل لك أن تؤمنني وأعطيك كذا وكذا

(١) الطراء الغرباء وهم الذين يأتون من مكان بعيد (٢) موضع قريب الكوفة من ارض العراق

قال نعم قال فادخلني على ملككم حتى يكون ذلك بمشهد منه ففعل
فاجاز أبو عبيد ما فعل الربى ولما دلم القوم أنه الرئيس كلموا فيه أبا عبيد
فقال ما تروني فاعلا ما شر ربيعة أبوؤنه صاحبكم وأقتله أنا معاذ الله ما لزم
بعض المسلمين فقد لزمهم كلهم

لما اهزم النمرس ذهبوا الى كسكر (١) لاجئين الى نرسي فاجتمع اليه
الجند الذين معه وذل جابان فتبهمهم أبو عبيد والتقي بهم أسفل من كسكر
فهزمهم وذل علي كسكر نرسي وأرضه وأخرب ما كان حول معسكرهم
من كسكر : وهناك جاءه الدهاقين مسالين فسالمهم وجاءوه بهدايا من أطعمة
فارس وألوانها فلم يأكل منها وتال بثس المرء أبو عبيد ان صحب قوماً من
بلادهم أهرقوا دماءهم دونه أولم يهرقوا فاستأثر عليهم بشيء يصيبه لا والله
لاياً كل مما أفاء الله عليهم الا مثل ماياً كل أو ساطهم

لما جاء رستم خبر الهزيمة جهز جيشاً آخر عظيماً يقوده بهمن جاذويه
وأعطاه الراية الكبرى لفارس المسماة درفش كايان وعرضها ثمانية أذرع
وطولها اثنا عشر متراً من جلود النمر فصار اليه أبو عبيد حتى نزل المروحة (٢)
موضع البرج والعاقول فبعث اليه بهمن اما أن تعبروا الينا ونحكم والعبور
واما أن تدعونا نعبركم فأشار الناس على أبي عبيد بعدم العبور فلجج وترك
الرأي وعبر بالمسلمين فدارت رحا الحرب وفي آخر النهار قتل أبو عبيد
بجال المسلمين جولة ثم تموا عليها وركبهم أهل فارس فبادر رجل من

(١) كورة واسعة كانت قصبتها قبل أن يحضر الحجاج واسطاً خسر وسابور
ثم صارت واسطاً قصبتها ومن مشهور نواحيها المبارك والمذارونغا وميسان ودست
ميسان (٢) على شاطئ الفرات الغربي تجاه قس الناطف وذلك بالقرب من الكوفة

ثقيف فقطع الجسر فانتهى الناس اليه والسيوف تأخذهم من خلفهم فتهافتوا في الفرات فأصيب منهم يومئذ أربعة آلاف بين نريق وقتيل وحى المثنى ومن معه الناس حتى دق الجسر ودبروا فأقاموا بالمروحة وهرب من الناس بشر كثير على وجوههم وافتضحوا في أنفسهم واستحيوا مما نزل بهم وبلغت هذه المصيبة عمر فقال اللهم ان كل مسلم في حل مني أنا فئة كل مسلم يرحم الله أبا عبيد لو كان عبر فاعتصم بالخيف أو تحيز الينا ولم يستقل لكننا له فئة وحصل في هذه الواقعة ظلمتان الاولى مخالفة أبي عبيد لمن معه من رؤساء الجيش فانهم نهوه عن العبور فلم يأتته والذي زاد تلك الغلظة تأثيراً ما فعله ذلك الرجل الاحق عبد الله بن مرثد الثقفي من قطعة الجسر عند مارأى جولة المسلمين وارادتهم العبور ولولا ثبات المثنى بن حارثة لهلك المسلمون عن آخرهم

لم يبق مع المثنى من الجنود الا القليل لا قدرة لهم على أن يحافظوا على مراكزهم ولا أن يردوا عنهم هجمات عدوهم وقد علم بذلك عمر فشرع يبعث الامداد الى المثنى منهم جرير بن عبد الله البجلي في قومه من بني بجيلة فلما علم المثنى بقدمهم طلب منهم أن يسيروا اليه حتى يقابلوه على البويب (١) وتقدمهم هو اليه فساروا اليه وكان رستم قد أرسل الى المسلمين جنداً مع فائد اسمه مهران فوقف أمامهم ويفصل بين الفريقين الفرات فأرسل مهران الى المثنى يخبره بين أن يعبر بجنوده أو يعبر مهران اليه وكان الجواب طبعاً أن طلب من مهران العبور لأن واقعة الجسر لم يحج أثرها

بمعد فمهر الفرس واقتتلوا مع المسلمين وكان ذلك في رمضان وقد أمر
 المثنى بالافطار فأفطروا وكانت تعبئة الجيش خالدية فابصر المثنى رجلاً يستوفز
 ويستنتل من الصف فقال ما بال هذا قالوا هو ممن فر يوم الجسر وهو يريد أن
 يستقتل فقرعه بالرمح وقال لا أبالك الزم موقفك فاذا أتاك قرنك فاغنه عن
 صاحبك ولا تستقتل قال انى بذلك لجدير فاستقتل ولزم الصف وكانت الحرب في
 هذه الموقعة من أشد ما صادفه المسلمون هو لا لكثرة عدوهم ولكنهم اضطربوا
 صبراً جليلاً وكانت الهزيمة على الفرس بعد أن كاد يفنى قلب جنودهم ولما شرعوا في
 الهزيمة سبقهم المثنى الى الجسر فقطعه فارادوا العبور فلم يمكنهم فذهبوا في البلاد
 مصعدين ومنحدرين بعد أن قتل منهم ما قدر بمئة الف ومما يؤر عن المثنى حكمه
 على نفسه في قطعه الجسر واحراجه العدو قال لقد تجزت عجرة وفي الله
 شرها بمسابقة ايام الى الجسر وقطعه حتي أخرجتهم فاني غير عائد فلا
 تعودوا ولا تقتدوا بي أيها الناس فانها كانت منى زلة لا ينبغي احراج أحد
 الا من لا يقوى على الامتناع : ثم أرسل المثنى في أثر المهزمين من اتبعهم
 الي أن وصلوا الى السيب (١) بعد أن عقد لهم جسراً : وكانت هذه الواقعة
 من الوقائع الكبرى التي أوقعت الرعب في قلوب أهل فارس حتي سار
 المسلمون فيما بين الفرات ودجلة لا يمنهم مانع لا يقف في وجوههم محارب

وأقام المثنى بعد ذلك يصعد ويصوب في الجزيرة ويبيت السرايا
 للاغارة ومما يدل على تنبه عمر لما كان يحصل بين اولئك الجنود أن المثنى
 أرسل رجلين من بكر بن وائل في جند فأغاروا على صفين وبها النمر

وتغلب متساندين فأغاروا عليهم حتى رموا بطائفة منهم في الماء فاشدوه فلم يلقوا عنهم وجعلوا ينادونهم الفرق الزرق وجعل عتيبة وفرات البكر يان يذمران الناس وينادونهم تغريق بتحريق يذكرونهم يوماً من أيامهم في الجاهلية أحرقوا فيه قومًا من بكر بن وائل في غيضة من الغياض ثم انكسروا راجعين إلى المشي وقد غرتوهم: كانت لهم ريوز في كل جيش فكتب العين إلى عمر بما قال عتيبة وفرات يوم بني تغلب والماء فاستقدمهما عمر فسألهما فأخبراه أنهما قالا ذلك وجه أنه مثل وأنهما لم يفعل ذلك على وجه حاب ذحل الجاهلية فاستحسناهما فخلفنا أنهما أرادا بذلك إلا المثل وأعزاز الإسلام فصدقتهما ورددتهما حتى قدم على المشي

أمر القادسية (١)

نظر الفرس بعدهزيمة مهران إلى أنفسهم فوجدوا أنفسهم ضاعون أمام العرب ورأوا أن الاختلاف الذي هم فيه مما ساعد العرب على تقدمهم وانتصاراتهم فقاموا لرستم والفيرزان وهما عظيمي فارس والمتنافسان في أمر سلطانهما أن يذهب بكما لم يبرح بكما الاختلاف حتى وهنتما أهل فارس وأطمعتما فيهم عدوهم وأنه لم يبق من خطر كما أن تقر كما فارس على هذا الرأي وأن تعرضاها لله لكما بعد بداد وساباط وتكريت الالمدائن والله لتجتمعان أولئبد أن بكما قبل أن يشمت بنا شامت فرأي الرجلان أن كلام القوم حق فبحثا في نساء كسري وسرار يه عن عقب له بينهما فبعدلاًى وجدار جلاً يدعى يزدرج دمن ولد شهر يار بن كسرى وهو ابن

(١) بينها وبين الكوفة ١٣ فرساً وبينها وبين العذيب أربعة أميال وهي على

احدى وعشرين سنة فملكه الفرس واجتمعوا عليه وتبارى الرؤساء في طاعته ومعاونته وحينئذ سعى الجنود لكل مسلحة كانت لكسري أو موضع موضع ثغر فسمى جند الحيرة والانبصار والمسالخ والابلة . بلغ المشني ذلك كله فكتب به الى عمر ولم يصل الكتاب الى عمر حتى كفر أهل السواد من كان له عهد ومن لم يكن له عهد فخرج المشني على حمايته حتى نزل بذي قار (١) ثم جاءهم كتاب من عمر يأمرهم بالانسحاب من بين أظهر الاعاجم والتفرق في المياه التي تلى حدود بلادهم فكان منزل المشني ذا قار ونزل الناس بالجل (٢) وشراف (٣) الى غضى وغضى حيال البصرة وكانوا بحيث يفيث بعضهم بعضاً ان كان فزع تم ذلك في ذي القعدة سنة ١٣

أما عمر فكتب الى عمال العرب على الكور والقبائل في ذي الحجة سنة ١٣ لا تدعوا أحداً له سلاح أو فرس أو نجدة أو رأى الا انتخبتموه ثم وجهتموه الى والعجل العجل وكان يريد توجيه جيش كثيف الى العراق حتى يقاتل جموع المعجم بجموع العرب فأما القبائل التي طرقها علي مكة والمدينة فوافته بالمدينة وكذلك من كان من أهل المدينة على النصف ما بينه وبين العراق وأما من كانوا أسفل منهم فانضموا الى المشني فلما تكامل ورود الجنود على عمر خرج بهم من المدينة حتى نزل على ماء يدعي صرار (٤) فعسكر به ولا يدري الناس ما يريد أيسير أم يقوم وكانوا اذا

(١) ماء لبكر بن وائل قريب من الكوفة بينها وبين واسط (٢) موضع بالبادية على جادة طريق القادسية الى ذبالة بينه وبين القرعاء ١٦ ميلاً (٣) بين واقصة والقرعاء ومن شراف الى واقصة ميلان (٤) موضع على ثلاثة اميال من المدينة على طريق العراق

أرادوا ان يسألوه عن شيء رموه بعثمان أو بعبد الرحمن بن عوف وكان عثمان يدعى في اماره عمر رديفاً والرديف الرجل الذى يكون بعد الرجل فاذا لم يقدر هذان على علم شيء مما يريدون ثلثوا بالعباس بن عبد المطلب فقال عثمان لعمر ما تريد فنادى الصلاة جامعة فاجتمع الناس عليه فأخبرهم الخبر وانتظار ما يقول الناس فقالت العامة سروسر بنا معك فدخل معهم في رأيهم وكره أن يدعم حتى يخرجهم منه في رفق فقال استعدوا وأعدوا فاني سائر الا أن يجي رأي أمثل من هذا ثم بعث الى أهل الرأي فاجتمع اليه وجوه الصحابة وأعلام العرب فاجتمع رأيهم جميعاً على أن يبعث رجلاً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقيم ويرميه بالجنود فان كان ما يرجو من الفتح والا أعاد رجلاً وندب جنداً آخر فنادى عمر الصلاة جامعة وبعث الى علي وكان قد خلفه على المدينة والى طلحة وكان علي مقدمته ولما تكامل جمعهم قال لهم ان الله قد جمع على الاسلام أهله ذأف بين القلوب وجعلهم فيه اخوانا والمسلمون فيما بينهم كالجسد لا يخلو منه شيء من شيء أصاب غيره وكذلك يحق على المسلمين أن يكون أمرهم شورى بينهم بين ذوى الرأي منهم فالناس تبع لمن قام بهذا الامر ما اجتمعوا عليه ورضوا به لزم الناس وكانوا فيه تبعاً لهم ومن أقام بهذا الامر تبع لا ولي رأيهم ماراً والهم ورضوا به لهم من مكيدة في حرب كانوا فيه تبعاً لهم أيها الناس اني انما كنت كرجل منكم حتى صرفني ذوو الرأي منكم عن الخروج فقد رأيتم أن أقيم وأبعث رجلاً وقد أحضرت هذا الامر من قدمت ومن خلفت (يريد علياً وطلحة) وهذا الخطاب يبين ما كان يدور في رأس عمر من النظام الشوري ويوضح الاساس لذلك

النظام . ثم أجال معهم الرأي فيمن يوليه قيادة ذلك الجيش العظيم واتفق
الرأى أخيراً على تولية القائد العظيم سعد بن أبي وقاص الزهرى القرشى
وكان فى ذلك الجيش حد الامة العربية فان عمر لم يدع رئيساً ولا ذا شرف
ولا ذا رأى ولا ذا سطة ولا خطيباً ولا شاعراً الا رماهم به فرماهم بوجوه
الناس وخررهم

المحاضرة الثانية والعشرون

تمام القادسية - فتح المدائن

ثم أمر سعداً بالمسير وقال اذا انتهيت الى زرود (١) فأترل بها فصار
حتى اذا وصل الى زرود نزل بها وتفرق الجنود فيما حولها من أمواه تميم
وأسد وانتظار اجتماع الناس وأمر عمر وفي ذلك الوقت مات المثنى بن حارثة
من جراحة كانت أصابته وقبل وفاته أرسل الى سعد وصيته لانه قد اختبر
أمر العجم قبله أوصاه أن يقاتل الفرس على حدود أرضهم على أدنى حجر
من أرض العرب وأدنى مدر من أرض العجم فان يظهر الله المسلمين
عليهم فلهم ما وراءهم وان تكن الاخرى فاؤا الى فئة ثم يكونون أعلم
بسبيلهم وأجراً على أرضهم الى أن يرد الله الكرة لهم . ثم سار سعد من
زرود حتى أتى شراف وفيها جاءه كتاب من عمر يقول فيه اذا جاءك
كتابي هذا فمشر الناس وعرف عليهم وأمر على أجنادهم وعيهم ومر
رؤساء المسلمين فليشهدوا وقدرهم وهم شهود ثم وجههم الى أصحابهم
وواعدهم القادسية واكتب اليّ بالذي يستقر عليه أمرهم ففعل سعد ما أمر

(١) رمال بين الثعلبية والخزيمية على طريق الحاج الى الكوفة

به فقدر الناس وعباهم بشراف وأمر أمراء الاجناد وعرف العراف
فعرّف على كل عشرة رجلا وأمر على الرايات رجلا من أهل السابقة وعشر
الناس وأمر على الاشرار رجلا من الناس لهم وسائل في الاسلام وولى
الحرب رجلا فولى على مقدماتها ومجنيباتها وساقتها ومجرداتها وطلاتها ورجلها
وركبانها فكان أمراء التعبئة يلون الامير ويليهام أمراء الاشرار ثم أصحاب
الرايات ثم القوادع وس القبائل ولم يفصل سعد من شراف الا على تعبئة
وباذن عمر وهذا كتابه الذى أمره فيه بمبارحة شراف

أما بعد فسر من شراف نحو فارس بمن معك من المسلمين وتوكل على
الله واستعن به على أمرك كله واعلم أنك تقدم على أمة عددهم كثير وعدتهم
فاضلة وبأسهم شديد وعلى بلد منيع وإن كان سهلا كثود لبحوره وفيوضه
ودآدنه (١) الا أن توافقوا فيضاً من فيض وإذا لقيتم القوم أو أحداً منهم
فابذوهم الشد والضرب وإياكم والمناظرة لمجوعهم ولا يخذعنكم فانهم خدعة
مكرة أمرهم غير أمركم الا أن تبادوهم وإذا انتهيت الى القادسية والقادسية
باب فارس فى الجاهلية وهى أجمع تلك الابواب لمادتهم ولما يريدونه من تلك
الاصل وهو منزل رغب خصب حصين دونه قناطر وأنهار ممتعة فتكون
مسالكك على أنقابها ويكون الناس بين الحجر والمدرع على حافات الحجر وحافات
المدر والجراخ بينهما ثم الزم مكانك فلا تبرحه فانهم اذا أحسوك أنقضتهم رموك

بجميعهم الذي يأتي على خيلهم ورجلهم وخدمهم وجدهم فان أنتم صبرتم لعدوكم واحتسبتم لقتاله ونوئتم الامانة رجوت أن تنصروا إليهم ثم لا يجتمع لكم مثيلهم أبداً الا أن يجتمعوا وإيست معهم قلوبهم وان تكن الاخرى كان الحجر من ورائكم فانصرفتم من أدنى مدرة من أرضهم الى أدنى حجر من أرضكم ثم كنتم عليها أجراً وبها أعلم وكانوا عنها أجبن وبها أجهل حتى يأتي الله بالفتج عليهم ويرد لكم الكرة) وكتب اليه باليوم الذي يرتحل فيه من شراف فصار سعد على تعييته والكتب بينه وبين عمر متواصلة

ثم جاءه كتاب آخر يقول له فيه — واكتب الى أين بلغ جمعهم ومن رأسهم الذي يلي مصادمتكم فانه قد منعني من بعض ما أردت الكتاب به قولة علي بما هجمتم عليه والذي استقر أمركم عليه فصف لنا منارل المسلمين والبلد الذي بينكم وبين المدائن صفة كأنني أنظر اليها واجعلني من أمركم على الجلية — فكتب اليه سعد بصفة البلدان القادسية بين الخندق (١) والعتيق وان ما عن يسار القادسية بحراً أخضر في جوف لاح (٢) الى الحيرة بين طريقين فأما أحدهما فعلى الظهر وأما الآخر فعلى شاطئ النهر يدعي الخضوض (٣) يطلع عن سلكه على ما بين الخورنق (٤)

(١) خندق سابور في بركة الكوفة حفره سابور بينه وبين العرب خوفاً من شرهم واوله من هيت يشق طف البادية الى كاظمة مما يلي البصرة وينفذ الى البحر وبني عليه المنظر والجواسق ونظمه بالملاح ليكون مانعاً لاهل النادبة من السواد (٢) ضيق (٣) نهر كان بين الحيرة والقادسية (٤) قصر كان بظاهر الحيرة بناه أحد ملوك العرب بالحيرة وهو النعمان بن امرئ القيس شرقية الفرات وغريه بساتين

والخيرة وان ما عن يمين القادسية الى الوجة فيض من فيوض مياههم وان جميع من صالح المسلمين من أهل السواد قبلي إلى أهل فارس قد خفوا لهم واستعدوا لنا وان الذي أعدوا لمصادمتنا رستم في أمثال له منهم فهم يحاولون انفاضنا واقحامنا ونحن نحاول انفاضهم وابرأهم وأمر الله بعد ما ض وقضاءه مسلم الى ما قدر لنا وعلينا فنسأل الله خير القضاء وخير القدر في عافية — فكتب اليه عمر يأمره بالمقام بالقادسية وكان مما حضه به على الوفاء بالامانة قوله له اني قد ألقى في روعي أنكم اذا لقيتم العدو هم متموم فاطرحوا الشك وآثروا التقية عليه فان لاعب أحد منكم أحد من المعجم بأمان أو قرفه بإشارة أو لسان كان لا يدري الا عجمي ما كلمه به وكان عندهم أماناً فأجر وا ذلك مجرى الامان واياكم والضحك الوفاء الوفاء فان الخطأ بالوفاء بقية وان الخطأ بالعدو الهلكة وفيها وهنكم وقوة عدوكم وذهاب ربحكم واقبال ربحهم واعلموا اني أحذركم أن تكونوا شيناً على المسلمين وسبباً لتوهينهم

كان الفرس قد اتفقوا على تولية رستم أعظم قوادهم قيادة الجيش الذي يوجهونه لحرب المسلمين فرضي بذلك وقبل أن يفصل بجنوده بعث سعداً الى الملك حسب أمر عمر فاختر من جنده قوماً عليهم نجار ولهم آراء وتفرأ لهم منظر وعليهم مهابة ولهم آراء فخرجوا من العسكر حتي جاؤا المدائن فاستأذنوا بالدخول على الملك فأذن لهم ومع يزدجرد وزرأوه وجوه ارضه فلما دخلوا عليه أمرهم بالجلوس ثم قال لترجمانه سلمهم ما جاء بهم ومادعاهم الى غز وناو الولع ببلادنا من أجل اننا أجمعناكم وتشاغلنا عنكم اجترأتم علينا فرد عليه النعمان بن مقرن وكان رئيس الوفد قد كرتاريخ

ارسل الرسول وما كان من شأن العرب معه ودخولهم في دينه وقال بعد ذلك
ثم أمرنا أن نبداً بمن يلينا من الأمم فندعوهم إلى الانصاف فنحن ندعوكم إلى ديننا
وهو دين حسن الحسن وقبح القبيح كله فإن أبيت فأمروا من الشر هو أهون من
آخر شر منه الجزاء فإن أبيت فالمناجزة فإن أجبت إلى ديننا خلفنا فيكم كتاب الله
وأقمناكم عليه على أن تحكموا بأحكامه ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم وإن
اتقيتمونا بالجزاء قبلنا منكم ومنعناكم والاقاتلناكم فقال يزدجرد انى لا أعلم في
الأرض أمة كانت أشقى ولا أقل عدداً ولا أسوأ ذات بين منكم قد كنا نوكل
بكم قرى الضواحي فيكفوننا إياكم لا تغزوكم فارس ولا تطعمون أن تقوموا
لهم فإن كان عدو لحق فلا يغرنكم منا وإن كان الجهد قد دعاكم فرضنا لكم قوتاً
إلى خصبكم وأكرمنا وجوهكم وكسوناكم وملكنا عليكم ملكاً يرفق بكم
فسكت القوم فقام المنيرة بن زرارة الأسيدى فقال أيها الملك ان هؤلاء رؤوس
العرب وجوهم وهم أشرف يستحيون من الأشراف وانما يكرم الأشراف
الأشراف ويمظم حقوق الأشراف الأشراف ويفخم الأشراف الأشراف
وليس كل ما أرسلوا به جموه لك ولا كل ما تكلمت به أجابوك عليه وقد
أحسنوا ولا يحسن بمثلهم الا ذلك فجاء بنى لا كون الذي أبلغك ويشهدون على
ذلك . أما ما ذكرت من سوء الحال فما كان أسوأ حالاً منا وأما جوعنا فلم يكن
يشبه الجوع كننا نأكل الخنافس والجمالان والعقارب والحيات فنرى ذلك
طعامنا وأما المنازل فانما هي ظهرا الأرض ولا نلبس الأرض ولا نلبس الأما
غزلنا من أوبار الابل وأشعار الغنم ديننا أن يقتل بمضنا بعضاً ويغير بعضنا على
بعض وإن كان أحداً ليدفن ابنته حية كراهية أن تأكل من طعامنا فكانت

حالنا قبل اليوم على ما ذكرتك فيبعث الله الينا رجلاً معروفاً ونعرف نسبه
 ونعرف وجهه وولده فأرضه خيراً من أرضنا وحسبه خيراً من أحسابنا وبيته
 أعظم بيوتنا وقبيلته خير قبائلنا وهو بنفسه كان خيرنا في الحال التي كان فيها
 أصدقنا وأحلنا فدعانا إلى أمر نلزمه يحبه أحد أول من ترب كآله وكان الخليفة من
 بعده فقال وقتلنا وصدق وكذبنا وزاد ونقصنا فلم يقل شيئاً إلا كان فقدف الله
 في قلوبنا التصديق له واتباعه فصار فيما بيننا وبين رب العالمين فيما قال لنا فهو قول
 الله وما أمرنا فهو أمر الله فقال لنا إن ربكم يقول إني أنا الله وحدي لا شريك لي
 كنت إذ لم يكن شيء وكل شيء هالك إلا وجهي وأنا خلقت كل شيء وإلى بصير
 كل شيء وإن رحمتي أدر كتكم فيبعث إليكم هذا الرجل لادلحكم على السبيل
 التي بها أنجيكم بعد الموت من عذابى ولا حل لكم داري دار السلام فنشهد عليه أنه
 جاء بالحق من عند الحق وقال من تاب معكم إلى هذا فله مالكم وعليه ما عليكم ومن
 أبى فاعرضوا عليه الجزية ثم امنعوه مما تمنعون منه أنفسكم ومن أبى فقاتلوه فأنا
 الحكم بينكم فمن قتل منكم أدخلته جنتي ومن بقي منكم أعقبته النصر على من
 ناواه فاختران شئت الجزية عن يد وأنت صائر وإن شئت فالسيف أو تسلم
 فتجى نفسك فقال كسرى أتستقبلني بمثل هذا فقال لا استقبلت إلا من كلمنى ولو
 كلمنى غيرك لم استقبلك به فقال لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتكم لاشي إليكم عندي
 ثم قال اثبتوني بوقر من تراب فاحملوه على أشرف دؤلاء ثم سوقوه حتى يخرج من
 المدائن ارجعوا إلى صاحبكم فأعلموه أني مرسل اليهم حتى يدفنكم ويدفنه في
 خندق القادسية وينكل بكم وبهم من بعد ثم أوردكم بلادكم حتى شغلكم في أنفسكم

بأشد مما نالكم ثم قال من أشرفكم فقال عاصم بن عمرو أنا فحملوه وقر التراب على عنقه فحملة حتى أتى راحلته فحملة عليه ثم ساروا فأثوا بالتراب سعداً وبشروه بالظفر متناثرين فصل رستم من المدائن في تعبئة كبري وعدد جنده ١٢٠ ألف داً من تبعهم وسارت طلائعه حتى أتت الحيرة فنزلت بها ثم سار رستم حتى أتى النجف فمسكربها والطلائع تسير أمامه ولم يزل الجيشان يتقاربان حتى كان رستم على العتيق وسعد أمامه وكانت بين الفريقين مراسلات قال المسلمون فيها لرستم كثيراً ومما قيل في مجلسه ما قاله المغيرة بن شعبة أحد الوفد فانه لما جاء جلس مع رستم على سريرته فوثب عليه الفرس وأنزلوه فقال لهم كانت تبلغنا عنكم الاحلام ولا أري قوماً أسفه منكم إنا معشر العرب سواء لا يستعبد بعضنا بعضاً الا أن يكون محارباً لصاحبه فظننت انكم تواسون قومكم كما نتواسي وكان أحسن من الذي صنعتهم أن تخبروني أن بعضكم أرباب بعض وأن هذا الامر لا يستقيم فيكم فلا نصنعه ولم آتكمم واكنكم دعوتكموني اليوم علمت ان أمركم مضى محل وأنكم مغلوبون وأن ملكاً لا يقوم على هذه السيرة ولا على هذه العقول فقال السفلة صدق والله العربي وقالت الدهاقين لقد رمى بكلام لا يزال عبيدنا ينزعون اليه قاتل الله أولينا ما كان أحملهم حين كانوا يصغرون أمر هذه الامة

ثم اجتمع رستم أمره على عبور العتيق فسكبه ثم عبر هو وجنوده وكان البريد بينه وبين المدائن متصلاً بحيث تصل الاخبار اليه يزدجرد ساعة حدوثها وكان سعد قد عبأ الجيش وانتظامت حماه ولم يكن سعد مع المقاتلين لانه لم يكن يستطيع أن يركب لحبون كانت به فكان مقبلاً على

القصر يشرف علي الناس ويرمى بالرقاع فيها الامر والنهي الى خالد بن عرفة وهو أسفل منه وكان الصف بجانب القصر ثم قام في الناس الخطباء فخطبوا وحشواهم دلى الصبر وكان وراء الفرس العتيق ووراء المسلمين الخندق وميدان الحرب بين ذلك وبعد أن أذن المؤذن بالظهر وأتموا صلاتهم كبر سعد تكبيراته الثلاث التي كانت آخرها علامة بدء الحرب فبرز أهل النجدات فأنشوا القتال وبرز غالب بن عبد الله الاسدي وهو يقول

قد علمت واردة المسائح ذات اللبان والبنان الواضح
أنى سهام البطل المشايخ وفارج الامر المهم الفادح
وبرز عاصم بن عمرو وهو يقول

قد علمت بيضاء صفراء اللب مثل اللجين اذ تغشاه الذهب
أنى امرؤ لا من يعنيه السبب مثلي على ملك يغريه العتب
ثم كبر سعد التكبير الرابعة وهي علامة الهجوم العام فزحفت الجنود واصطدمت صدمة هائلة وكان مما صعب الامر على المسلمين فيلة الفرس فانها لما حمل أصحابها خافتها الخيل فتفرقت فكادت بجيلة ان تؤكل حين فرت عنها خيلها تفاراً فأعانهم سعد ببني أسد وكان لهم في ذلك أعظم فخر ولرئيسهم طليحة الاسدي ولم يكن للمسلمين حيلة في الفيلة هذا اليوم الا أن أعدوا رماة النبل يرمون ركبان الفيلة فلما أعريت الفيلة من ركبائها عادت الى مواقعها فنفس عن بني أسد بعد الجهد الشديد فقد أصيب منهم خمسة رجل وجالت المجنبات جولة خفيفة ولم يزل القتال الى أن مضي جزء من الليل وكان النجاح أظهر في صفوف الفرس

في هذا اليوم ويسمى يوم ارمات

وفي اليوم الثاني نقلوا القتلى والجرحى من الميدان فأما القتلى فدفنهم وأما الجرحى فأسلموهم الى النساء يداوينهم وقبل الالتحام جاءت جنود خالد التي أمر عمر أبا عبيدة أن يصرفها الى العراق وأميرها هاشم بن عتبة ابن أبي وقاص فتوى بها المسلمون وكانوا قد جاءوا بالابل وجللوها وبرقموها حتي صار لها شكل خريب وأطافت بها خيولهم تحميها فلقيت خيول الفرس من هذه الابل في اليوم الثاني مالقت جنود المسلمين من الفيلة في اليوم الاول ولم يزل القتال بين الفريقين شديداً الى نصف الليل ويسمى هذا اليوم يوم أغواث وكانت كفة المسلمين فيه أرجح

وفي اليوم الثالث نقلت القتلى والجرحى ثم اصطدمت الجنود على حلق وفيلة الفرس تفعل فعلها في الخيول فانتدب لأكبرها رجلان من أصحاب النجدة فومعما رجليهما في عيني الفيل ونقض رأسه فطرح سائسه وولى مشفره فنفضه أحدهما بالسيف فرمي به ووقع لجنيه ثم فعلا مثل ذلك بفيل آخر فولي فوثب في العتيق فتبعه الفيلة فخرقت صفوف الفرس وكان ذلك مما أضعف قوتهم وقوى المسلمين وما زال القتال مشتداً حتي جاء الليل فلم ينفصل الفريقان وخشعت أصوات الناس فلم يكن يسمع الا صليل السيوف وهرير الفرسان ورأي العرب والعجم أمراً لم يروا مثله وما زال القتال مشتداً حتي أصبحوا والناس حشري لم يغمضوا ليلتهم فسار القمعاق في الناس يقول لهم ان الدبرة بعد ساعة لمن صبرها فاصبروا ساعة فما قام قائم الظهيرة حتي انهزمت مجنبتا الفرس

وانفرج القلب وكانت همة أصحاب النجدة موجهة الى سرادق رستم فلما رأى ذلك أراد الحرب فتبعه هلال بن علفة حتى قبض عليه وقتله وصعد على سريره ثم نادى قتلت رستم ورب الكعبة فأطاف به الناس وكبروا وتنادوا فلم يكن للقلب بعد ذلك مقام وتتابع الهزيمة وأخذوا الراية الفارسية وهى درفش كايان ثم تتبعوا بقية المنهزمين حتى أجلوهم الى ما وراء القنطرة وكان اليوم الثالث من أيام القادسية يسمى يوم عماس وليلته تسمى ليلة الحرير ولم يمر على المسلمين موقعة أشد منها هولا لامع الفرس ولا مع غيرهم قتل منهم فيها نحو ثمانية آلاف فارس ومن الفرس نحو ثلاثين ألفاً وبعد أن انتهت الموقعة كتب سعد الى عمر هذا الكتاب (أما بعد فان الله نصرنا على أهل فارس ومنحهم سنن من كان قبلهم من أهل دينهم بعد قتال طويل وزلزال شديد وقد لقوا المسلمين بعدة لم ير الرءءون مثل زهائها فلم ينفعهم الله بذلك بل سلبهموه ونقله عنهم الى المسلمين واتبعهم المسلمون على الانهار وعلى طفوف الآجام وفي الفجاء وأصيب من المسلمين سعد بن عبيد القارىء وفلان وفلان ورجال من المسلمين لا نعلمهم الله بهم عالم كانوا يدوون بالقرآن اذا جن عليهم الليل دوى النحل وهم آساد الناس لا يشبههم الاسود ولم يفضل من مضي منهم من بقي الا بفضل الشهادة اذ لم يكتب لهم) : كان عمر مشغول القلب جداً بأمر القادسية فكان في كل يوم يخرج متنسماً أخبارهم من حين يصبح الى انتصاف النهار فيرجع الى أهله ومنزله وفي اليوم الذى ورد فيه البشير لقيه عمر فسأله من أين فأخبره فقال يا عبد الله حدثني قال هزم الله العدو وعمر يجري وراءه

ويستخبره والاخر يسير على ناقته ولا يعرفه حتى دخل المدينة فاذا الناس
يسلمون عليه بأمره المؤمنين فقال الرجل فهلا أخبرتنى رحمتك الله أنك
أمير المؤمنين وعمر يقول لا عليك يا أخى فقريء كتاب الفتح على الناس
ثم ورد عليه كتاب آخر من سعد يقول فيه (ان أقواماً من أهل السواد
ادعوا عهوداً ولم يقيم على عهد أهل الايام انما ولم يف به أحد منهم الا أهل
بانقيا وبسما وأهل ألبس الاخرة وادعى أهل السواد ان فارساً اكراهوهم
وحشروهم فلم يخالفوا إلينا وام يذهبوا في الارض) ثم كتاب آخر يقول
فيه (ان أهل السواد جلوا فجاءنا من أمسك بمعهده ولم يجلب علينا فتمننا
لهم ما كان بين المسلمين قبلنا وبينهم وزعموا ان أهل السواد قد لحقوا
بالمدائن فأحدث إلينا فيمن تم وفيمن جلا وفيمن ادعى انه استكره وحشر
فهرب ولم يقاتل أو اتسلم فانا في أرض رغيبة والارض خلاء من أهلها
وعدونا قليل وقد كثر أهل صاحبنا وان أعمر لها وأوهن لمدونا تألفهم
فقام عمر في الناس واستشارهم فيما طلبه سعد فأجمعوا على أن الوفاء لمن أقام
وكف لم يزد عليه الا خيراً وان من ادعى نصدق أو وفي في منزلتهم وان كذب
نبذ اليهم وأعادوا صلحهم وان يجعل أمر من جلا اليهم فان شاءوا دعوهم
وكانوا لهم ذمة وان شاءوا تموا على منعمهم من أرضهم ولم يعطوهم الا القتال وان
يخبروا من أقام واستسلم الجزاء أو الجلاء وكذلك الفلاح - فكتب عمر
جواب الكتاب الاول يقول

(أما بعد فان الله جل وعلا أنزل في كل شئ رخصة في بعض الحالات
لا في أمرين العدل في السيرة والذكر فأما الذكر فلا رخصة فيه في حالة

ولم يرض منه الا بالكثير وأما العدل فلا رخصة فيه في قريب ولا بعيد ولا في شدة ولا رخاء وان رؤى اينافهوا أقوى وأظناً للجور واقمع للباطل من الجور وان رؤى شديداً فهو أنكش للكفر فمن تم على عهده من أهل السواد ولم يمن عليكم بشيء فلهم الذمة وعليهم الجزية وأما من ادعى أنه استكره ممن لم يخالفهم اليكم أو يذهب في الارض فلا تصدقوهم بما ادعوا من ذلك الا ان تشاءوا وان لم تشاءوا فانيذاليهم وأبلغوهم ما منهم وكتب جواب الكتاب الثاني (أما من أقام ولم يحل وليس لهم عهد فلهم ما لاهل العهد بمقامهم لكم وكفهم عنكم اجابة وكذلك الفلاحون اذا فعلوا ذلك وكل من ادعى ذلك وصدق فلهم الذمة وان كذبوا نبذ اليهم : وأما من أذاع وجلا فذلك أمر جعله الله لكم فان شئتم فادعوه الى ان يقيموا لكم في أرضهم ولهم الذمة وعليهم الجزية وان كرهوا ذلك فاقسموا ما أفاء الله عليكم منهم) — فلما عادت كتب عمر عرضوا على من يليهم ممن جلا وتنجي من السواد ان يراجعوا ولهم الذمة وعليهم الجزية فراجعوا وصاروا ذمة كمن تم ولزم هذه الا أن خراجهم أثقل أثقل فأنزلوا من ادعى الاستكراه وهرب من زلتهم وعقدوا لهم وأنزلوا من أقام منزلة ذي العهد وكذلك الفلاحون ولم يدخلوا في الصلح ما كان لآل كسرى ولا ما كان لمن خرج معهم ولم يجبههم الي واحد من اثنتين الاسلام أو الجزاء فصارت فيثا لمن أفاء الله عليه فهي والصوافي الاولى ملك لمن أفاء الله عليه وسائر السواد ذمة وأخذوهم بخراج كسرى وكانت خراج كسرى على رؤوس الرجال علي ما في أيديهم من الحصاة والاموال - ولم يتأت قسمة ما كان لآل كسرى ومن صوب معهم لانه

كان متفرقا في السواد فكان يليه لاهل الفىء من وثقوا به وتراضوا عليه
كان عمر يتخوف أن يؤتى المسلمون من جهة الابلّة لانها لم تكن
فتحت بعد فتخير فصيلة من الجيش تليها عتبة بن غزوان ووجهها الى الابلّة
لتمنع امداد فارس من هذا الوجه فساروا حتى أتوا المربد مربد البصرة
فنزلوا هناك واختطوا مدينة البصرة ونزل الجند منازلهم فيها ومن هناك
فتحوا الابلّة وهي مرفأ فارس على خليج عمان الموصل الى بحر الهند وكان
فتحها في رجب من سنة ١٤ وصارت البصرة بعد ذلك مركزاً حريياً عظيماً
تنصل منه الجنود لحرب فارس الا أنها لم يتم تمهيرها الا سنة ١٧ حينما
مصرت الكوفة

أقام سعد بالقادسية شهرين ليرتاح الناس ولينظر أمرهم ثم أجمعوا
أمرهم على السير الى قاعدة الملك فكان مما يلعب به الصبيان في العسكر
وتلقيه النساء عليهم وهم على شاطئ العتيق أمر كان النساء يلعبن به في
زرود وذى قار وتلك الامواه حين أمروا بالسير في جمادى الى القادسية
وكان كلاماً أبدن فيه كالا وابد من الشعر لانه ليس بين جمادى ورجب شيء

العجب كل العجب بين جمادى ورجب

أمر قضاء قد وجب يخبره من قد شجب

نحت غبار ولب

ثم ان سعداً ارتحل وكان على مقدمته زهرة بن الحوية وكان معظم الجيش
فرساناً مما غنموه من خيل الفرس ولقيتهم في سيرهم جنود فارسية
يبرس وبها قل القادسية وبقايا رؤسائهم وفيهم الهرمزان فخاربهم حرباً

غير طويلة ثم بلغهم أن الجنود قد تجمعت لهم بيبال على الفرزان فساروا إليهم وهزموهم في أسرع من لفت الرداء فتنفرق رؤساء الفرس فسار الهرمزان نحو الالهواز وخرج الفرزان إلى نهاوند وصعد الباقون إلى المدائن وقطعوا الجسر . فأقام سعد بيبال أياماً ثم سير المقدمة مع زهرة حتى وصل بهر سير وهي المدائن الدنيا على شاطئ دجلة الغربي وتلاحقت به الجنود وفي مقام سعد على بهر سير راسلته الدهاقين راضين أن يدفعوا الجزية على أن يمنهم المسلمون فرضي منهم سعد بذلك وصالحهم وحاصروا بهر سير شهرين ثم فتحوها بعد أن تركتهم مقاتلة العدو وهدرت إلى المدائن القصوي الشرقية فنزل سعد بهر سير وأنزل بها الجند ثم دلهم أهل البلاد على مخاضة يعبرون منها إلى الجهة الشرقية لأنه لم يكن هناك مراكب يعبر عليها الناس فان الفرس كانوا قد ضموها إلى الشاطئ الثاني وكان سعد قد أعد فصية تحمي القراض حتى يعبر الجند ثم أمر بالعبور فعبأ الجند كله خوفاً والذي جعل سعداً يسرع بذلك خوفه أن يزدجر دينقل كل ما في المدائن من ذخائره فعمله ذلك على السرعة والمخاطرة ولما رأي أهل المدائن ما يفعل المسلمون دهشوا ولم يكن منهم إلا أن تركوا المدائن وخرج يزدجرد هارباً على وجهه وذهب بعياله إلى حلوان أما أهالي المدائن فأقاموا بها راضين بالجزاء والذمة

نزل سعد القصر الأبيض وهو يقول (كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين كذلك وأورثناها قوماً آخرين) وصلي فيه صلاة الفتح وجعله مسجداً وفيه تماثيل الجص رجال وخيل ولم يمتنع هو والمسلمون لذلك وتركوها على حالها وأتم سعد الصلاة

توم دخول المدائن لانه أراد المقام بها وكانت أول جمعة جمعت بالعراق جمعت
 جماعة في المدائن في صفر سنة ١٦ تم جمع سعد ما في خزائن كسرى من الاموال
 والغنائم وكان ذلك شيئاً كثيراً وأصاب الفارس من المغنم اثنا عشر ألفاً وكلهم
 كان فارساً ومعهم من الجنائب شيء كثير ثم قسم دور المدائن بين الناس
 وأوطنوها ثم جمع الخمس وأدخل فيه كل شيء أراد أن يعجب منه عمر من ثياب
 كسرى وحليته وسيفه ونحو ذلك وما كان يعجب العرب أن يقع اليهم ومما
 أرسله بساط ستون ذراعاً في مثلها فيه طرق كالصور وفصوص كالانهار وخلال
 ذلك كالديرو في حافاته كالارض المزروعة والارض المقبلية بالنبات في الريس
 من الحرير على قضبان الذهب وفوارية بالذهب والفضة واشباه ذلك ولما ورد
 الخمس على عمر قسمه على مستحقيه ثم قال أشيروا على في هذا القطف فأجمع
 ملؤهم على أن قالوا قد جعلوا ذلك لك فرأيتك الا ما كان من على فانه قال يا أمير
 المؤمنين الامر كما قالوا ولم يبق الا التروية انك أن تقبله علي هذا اليوم لم تعدم في
 غدم من يستحق به ما ليس له فقطعه عمر بينهم

وصدر بعد ذلك أمر عمر بولاية سعد بن أبي وقاص صلاة ما تلعب عليه
 وحر به وولي النعمان وسويدا ابني عمر بن مقرن الخراج الأول علي ما سقت
 دجلة والثاني علي ما سقى الفرات



المحاضرة الثالثة والعشرون

جلولاء - تمصير الكوفة والبصرة - فتح الجزيرة - الأ هواز - نزو فارس
من البحرين - فتح فارس - فتح نهاوند وما بعدها
واقعة جلولاء

لما انتهى فل الفرس الى جلولاء كانت هي مفترق طرقهم الى آذر بيجان
والباب والى الجبال وفارس فتذا مرو وقالوا ان افترقتم لم تجتمعوا أبدا وهذا
مكان يفرق بيننا فلهما فلنجتمع للعرب به ولنقاتلهم فان كان لنا فهو الذي نريد
وان كانت علينا كنا قد قضينا الذي علينا وأبلىنا أذرا فقصنوا جلولاء واحتفروا
الخنديق حولها واجتمعوا هناك على مهران الرازي وأقام يزدجرد في حلوان
وصار يمدد بالرجال والأموال فأقاموا في خندقهم وأحاطوا به الحسك من
الخشب إلا طرقهم فأرسل سعد بالخبر الى عمر فأمره أن يسرح اليهم جيشا أميره
هاشم بن عتبة وعين له أمراء تعييته ففصل هاشم من المدائن في صفر سنة ١٦ (مارس
سنة ٦٣٧) في اثني عشر ألفا حتى نزل بجلولاء وحاصرها فكان الفرس يراحفون
المسلمين ثم يعودون الى خندقهم ولما طال المطال صدم المسلمون على
المهجوم عليهم في خندقهم واقتحامه فصادفوا في سبيل ذلك حربا هائلة
كانوا يشبهونها بالحرب ليلة الحرير وانتهت بتغلب المسلمين على الخندق
وكان بطل الهجوم القعقاع بن عمرو ولما رأى الفرس أن لا طاقة لهم
بمغالبة ذلك العدو الشديد أخذوا يمنة ويسرة هاربن وتركوا المدينة
فاحتلها المسلمون ثم أمر هاشم القعقاع أن يتبع المهزمين فتبعهم حتى

وصل خانقين ولما بلغت الهزيمة يزدجرد بارح حلوان قاصداً الري فساد
القعقاع حتي أتى حلوان فاحتلها وأقام بها مرابطاً لأنها هي الثغر الذي يفصل
بين السواد والجليل وكان من رأى عمر في ذلك الوقت أن يقتصر المسلمون
على ما ملكوه من سواد العراق وقال في كتاب له لوددت أن بين السواد
وبين جبل سداً لا يخلصون إلينا ولا نخلص إليهم حسبنا من الريف السواد
وأتي آثرت سلامة المسلمين على الانتقال

كان سعد قد أرسل حساب المغنم والفيء مع زياد وكان هو الذي يكتب
للناس وبدونهم فلما قدموا على عمر كلم زياد عمر فيما جاء له ووصف له
فقال له عمر هل تستطيع أن تقوم في الناس بمثل الذي كلمتني به فقال والله
ما على وجه الأرض شخص أهيب في صدرى منك فكيف لأقوي على
هذا من غيرك فقام زياد في الناس بما أصابوا وبما صنعوا وبما يستأذنون فيه
من الانسياح في البلاد فقال عمر هذا الخطيب المصقع فقال زيادهذه بالجملة
المأثورة (ان جندنا أطلقوا بالفعال لساننا) ثم كتب عمر لسعد باقرار الفلاحين
على حالهم الا من حارب أو هرب منك الى عدوك فأدر كتبه وأجر لهم ما أجريت
للفلاحين قبلهم واذا كتبت اليك في قوم فأجروا أمثالهم مجراهم وأعطاهم الحرية في
غير الفلاحين !! وأرسل سعد من المدائن فصيلة يتودها عبد الله بن المعتم لفتح
تكريت حين بلغه تجمع الفرس بها وكان معهم فيها جمع كثير من العرب
من اياد وتغلب والنمر فوصلت الفصيلة وقذ خندق الفرس حول تكريت
فحصرهم أربعين يوماً تراحموا فيها أربعة وعشرين زحفاً في جميعها يظفر
المسلمون وفي أثناء ذلك راسل ابن المعتم العرب لينضموا اليه فأجابوه الى

ذلك وأسلموا فأعطاهم السلم وحينذاك قال لهم (إذا سمعتم تكبيرنا فكبروا)
فأجابوه ثم أمر جنده بالهجوم على الخندق فهجموا على المسلمين الزكبير فكبر
المرب من تغلب وأياد والنمر فغان الفرس أن المسلمين جاءوهم من خلفهم
فتبادروا إلى الأبواب التي عليها جنود ابن المعتصم فأصيب منهم كثير من بين
أيديهم ومن خلفهم وبعد الانتصار أنظروا الفلاحين من أقطاء منهم مثل ما
أعطى غيرهم من قبلهم

وأرسلت من المدائن فصيلة أخرى يقودها ضرار بن الخطاب لفتح
ماسبذان (١) فسار إليها وافتتحها عنوة وكان أهلها قد تطايروا إلى الجبال
فدعاهم ضرار إلى الرجوع بعد أن آمنهم فمادوا وأثناء بها وخرجت فصيلة
ثالثة لفتح قرقيساء (٢) يقودها عمر بن مالك فافتتح في مسيره هبت (٣)
وفتح قرقيساء عنوة وأقرأ أهلها علي الجزاء
وبذلك صار السواد كله في يد المسلمين فمهدوا طريقة إدارته وأقاموا
الجنود مرابطة في الثغور بينهم وبين الجبال
تصوير الكوفة

كانت الرسل ترد على عمر بعد هذه الفتوح فيرى في أوجههم تغيراً
فقال عمر (والله ما هيئتكم بالهيئة التي أبدأتم بها واقعد قدمت ونود القادسية
والمدائن وانهم لكم أبدءوا فما ذيركم) قالوا وخومة البلاد فكتب إلى سعد

(١) كورة بهاعدة مدنت منها اريوجان عن يمين حلوان للقاصد إلى همدان

(٢) بلد على نهر الخابور قرب رحبة مالك بن طوق على ستة فراسخ وعندها

مصعب الخابور في الفرات فهي مثلث بين الخابور والفرات (٣) بلد على
الفرات من نواحي بغداد فوق الأنبار مجاورة للبرية

أخبرني ما الذي غير ألوان العرب ولحومهم فكتب اليه سعدان العرب خددهم
وكفى ألوانهم وخومة المدائن ودجاة - فكتب اليه عمر أن العرب لا يوافقها
الاما وافق لابلها من البلدان فأبعث سلمان وحذيفة رائيدين فليرتادا منزلا بريا
بحر ياليس يبنى وينكم فيه بحر ولا جسر : فبعث سعد سلمان وحذيفة يسيران
غربى الفرات مرتادين حتى أتيا موضع الكوفة وهو حصباء ورمل فأتيا عليها
وفيه اديرات ثلاث فأعجبتهما البقعة فنزلا فيها وصليا ودعوا ثم كتبوا الى سعد بالخبر
فأبلغه سعد عمر فأمره أن يسير بالجنود اليها فأرسل سعد الى أمراء الثغور أن
يستخلفوا على الثغور ويسيروا اليه ففعلوا فارتحل سعد بالناس من المدائن حتى
عسكر بالكوفة في المحرم سنة ١٧ (يناير سنة ٦٣٨) وكان بين وقعة المدائن
ونزول الكوفة سنة وشهران وكان قد أبقى بالمدائن جندا آمن رضى الاقامة بها
وكان عمر يريد أن يقيموا معسكرين في خيامهم ثم أذن لهم أن يبنوا بيوتا آمن
القصب فأصاب الكوفة حريق شديد فأذن عمر أن تبنى باللبن وجعل على بناء
المدينة أبا الهياج بن مالك الأسدي وأوضح له مناهجها وما يليها وأزقتها فجعل
المناهج أربعين ذراعاً وما يليها ثلاثين وما بين ذلك شرين والازقة سبع أذرع
وليس دون ذلك شيء وفي القطائع ستين ذراعاً

فأول ما أسس بالمدينة مسجدها فاخطوه ثم قام في وسطه رام شديد
الترع فرمي من يمينه وشماله ومن بين يديه ومن خلفه ثم أمر بالبناء وراء
مواقع السهام وبنى في مقدمة المسجد ظلة ذرعها مئتان على أساطين رخام
كانت للاكسرة سماؤها كأسمية الكنائس الرومية وبنوا لسعد بحياه
داراً يذهبها طريق منقب مثني ذراع وجعل فيها بيوت الاموال والذي بناده

فأرسي كبنية الأ^{*} كاسرة في الحيرة وجعل المناهج تخرج من أمام المسجد والشكل الذي وضعت عليه الكوفة ينبي^{*} عن نظام جميل لم يحجب عن العرب هواء البادية لكثرة المناهج واتساعها

وفي هذا الام نفسه بنيت الابنية بالبصرة كما بنيت بالكوفة فهي وان ترلها المسلمون سنة ١٤ من الهجرة لم يتم تخطيطها وتأسيسها الا في السنة التي اختطت فيها الكوفة ومن هنا نشأ اختلاف الناس في الزمن التي حضرت فيه وكانت ثغور الكوفة في ذلك الزمن أربعة حلوان (١) وماسبذان وقرقيساء والموصل (٢) وأميرها سعد بن أبي وقاص وكانت البصرة ثغراً له أمير خاص يعينه أمير المؤمنين

صارت الكوفة والبصرة من هذا التاريخ مركزين حربيين متصلين منهما الجنود لحرب المعجم ولكل منهما جنود خاصة

فتح الجزيرة (٣)

فصلت من الكوفة ثلاث فصائل بأمر عمر أحداها يقودها سهيل ابن عدي لفتح الرقة والثانية يقودها عبد الله بن عتبة لفتح نصيبين والثالثة يقودها عتبة بن الوليد لاختضاع عرب الجزيرة من ربيعة وتنوخ

(١) في آخر حدود السواد ممابلى العبال من بغداد وكانت مدينة كبيرة عامرة (٢) مدينة على طرف دجلة ومقابلة من الجانب الشرقى بنوى وهي من المدائن الاسلامية الكبرى (٣) ما بين دجلة والفرات من جهة الشام يسمى جزيرة أقور تشتمل على ديار مضرو وديار بكر ومن امهات مدنها حران والرها والرقة ورأس عين ونصيبين وسنجار والخابور وماردين وآمدوميا فارقين والموصل وغير ذلك

وأمر عمر ان كانت حرب أن يكون القائد العام عياض بن غنم وكان مقصد عمر من ذلك أن يكسر من شوكة الروم الذين ثاروا من الجزيرة قاصدين أبا عبيدة بحمص فلما بلغهم توجه الجنود الى كورهم تفرقوا كل الي كورته فكان في ذلك تخفيفاً على جنود الشام

فسار عياض حتى أتى الرها فصالحه أهلها على الجزية ثم حران فصالحته ثم فتحت نصيبين ثم أرمينية أما عرب الجزيرة فانهم لما رأوا الطلب خفوا وتركوا أرضهم وأوغلوا في أرض الروم وعدم مراسلات بينهم وبين هؤلاء العرب قال المسلمون منهم لا تنفروا العرب بالخراج ولكن ضعفوا عليهم الصدقة التي تأخذونها من أموالهم فيكون جزاء فانهم يغضبون من ذكر الجزاء فرضي عمر بذلك وبهذا قبل العرب أن يعودوا الى بلادهم ويقيموا بها على ما قبل منهم

فتح الاهواز (١)

كانت الاهواز تتاخم حدود البصرة وكان فيها الهرمزان وهو من سادات فارس وعظماؤها وكان يغير على ما بيد المسلمين فأراد عتبة بن غزوان أمير البصرة أن يسير له جنداً فاستمد سعد بن أبي وقاص أمير الكوفة فأمدته فخرجت جنود البصرة وأمدادهم من أهل الكوفة فالتقت بالهرمزان بين ذلث ونهر تيرى فهزمته ودحرته حتى جاز شاطيء دجيل فصار شاطيء دجيل بين المسلمين والهرمزان

(١) مجموع كور عدها يا قوت عشرا وهي سوق الاهواز ورامهرمز وايندج وعسكر مكرم ونستر وجندی سا بوروسوس وشرق ونهر تيرى ومنادر

ثم كاتبهم الهرمزان في الصلح فصالحوه على الالهواز كلها ومهرجان قذق (١) ماءدا ما أخذوه عنوة وجعلوا مناخر ونهر تيرى مسلحتين للبصرة فيهما الجنود مرابطين : ثم حصل بين رؤساء القوة المرابطة خلاف في حدود الارضين وقد دعا ذلك الهرمزان الى نقض الصلح والاستمانة بالاكراذ فابلق عتبة أمير البصرة بذلك فأبلغ لأمر عمر فأمر بتسيير الجنود للحرب الهرمزان وأرسل لهم امداداً فسارت الجنود الى الهرمزان وحاربوه عند جسر سوق الالهواز وهزموه فتوجه إلى رامهرمز وبذلك اتفق المسلمين جميع الالهواز إلى تستر فراسلهم الهرمزان في الصلح مرة ثانية فاجابوه إلى الصلح على ما لم يفتحوه عنوة وكان عمر يتخوف أن يكون هذا النقض من الهرمزان لمظلمة لحقت أهل الذمة فطلب من عتبة أن يرسل اليه وفداً فيه عشرة من وجهاء الكوفة فأرسل عشرة فيهم الاحنف بن قيس فلما قدم على عمر قال له إنك عندى لمصدق وقد رأيتك رجلاً فاخبرنى أن ظلمت الذمة المظلمة تقروا أم لغير ذلك فقال الاحنف لا بل انغير مظلمة والناس على ما نحب قال فنعم اذا انصرفوا إلى رحالكم فانصرفوا وكتب إلى عتبة أعزب الناس عن الظلم واتقوا واحذروا أن يدال عليكم لغدر يكون منكم أو بني فانكم انما أدركتم بالله ما أدركتم على عهد عاهدكم عليه وقد تقدم انيكم فيما أخذ عليكم فاوفوا بعهده الله وقوموا على أمره يكن لكم عوناً وناصرًا

غزو فارس من البحرين

(١) كورة واسعة ذات مدن وقري قرب الصيمرة من نواحي الجبال عن يمين القاصد من حلوان العراق الى همدان في تلك الجبال

كان العلاء بن الحضرمي أميراً على البحرين لعمر وكان العلاء يباري سعد بن أبي وقاص فلما كانت حروب الردة طار ذكر العلاء وظفر بالفضل فلما ظفر سعد بالقادسية وأزاح الأكرسة وأخذ حدود ما يلي السوادسر العلاء أن يصنع شيئاً في الأعاجم يكون له به من الشهرة والسيادة ما لسعد فندب أهل البحرين إلى فارس فسرعو إلى ذلك وفرقهم أجناداً فحملهم في البحر بغير إذن عمر وكان عمر لا يأذن لأحد في ركوب البحر فإذ يأتون تلك الجنود فخرجوا في أصطخر (١) وبازأهم أهل فارس فلما رأوهم حالوا بينهم وبين سفنهم فلما رأى المسلمون ذلك اشتدت حميتهم وقاتلوا أهل فارس مقاتلة المستميت نظفروا ثم ساروا يريدون البصرة لأنه قد حيل بينهم وبين الرجوع إلى البحرين فوجدوا شهرک الفارسي قد أخذ عليهم الطرق فمسكروا في وطنهم وامتنعوا

بلغ خبر ذلك عمر فاشتد غضبه على العلاء وأرسل إليه يمزله وأمره بأثقل الأشياء عليه وأبغض الوجوه إليه بتأمر سعد وكتب عمر إلى عتبة بن رزوان أمير البصرة أن يسير جنداً لتخليص من أرسلهم العلاء فانتدب عتبة من يسير فأجابه جمع من ذوى النجدة فخرجوا في اثني عشر ألفاً وعليهم أبو سبرة بن أبي رهم فساحل بالناس لا يلقاه أحد في طريقه حتى وافوا شهرک وهو أخذ على جنود البحرين طريقهم فقاتلوه وهزموه وخلصوا أخوانهم وهذه هي الغزوة التي شرفت بها نابتة البصرة وكانوا أفضل نوابت الأئمة

(١) مدينة كبيرة بفارس وهي قاعدة كورة مسماة بهذا الاسم وكانت قصبة ملك فارس حتى تحول أردشير إلى جور

انكشفوا بما أصابوا وذهب أهل البحرين عائدين الى بلادهم من طريق
البصرة

ولما أحرز عتبة الأهواز وذلّل فارس استأذن عمر في الحج فأذله
فلما قضى حجة استغفاه فأبى أن يعفيه وعزم عليه ليرجعن الى عمله
فانصرف فمات في بطن نخله فدفن به وبلغ عمر خبره فمر به زائر آتياً به
وقال انا قتلتك لولا أنه أجل معلوم وكتاب مرقوم وأثنى عليه بفضلته وولى عمر بدله
المغيرة بن شعبة مفتتح سنة ١٨ هـ

فتح رامهرمز والسوس وتستر

لم يزل يزد جرد يثير أهل فارس (١) وهو يمر و فكتب اليهم بذكرهم
الأحقاد ويؤنبهم على رضاهم بغلبة العرب على سوادهم فتحرك من مكاتباته
أهل فارس والاهواز وتعاقدوا وتواثقوا على النصر فكتب امراء الثغور
الى عمر فكتب الى سعد امير الكوفة يأمره أن يبعث الى الاهواز جنداً
كثيفاً يقوده النعمان بن مقرن وأرسل الى أبي موسى الأشعري وكان
ولاه البصرة بعد عزل المغيرة أن يبعث جنداً الى الاهواز يقوده سهل بن
عدي وأمير الجندين معاً أبو سبرة بن أبي رهم فقصلت جنود الكوفة مع
النعمان حتى اذا وصلت رامهرمز وبها الهرمزان خرج يقاتلها فهزم دونهما

(١) فارس اسم لولاية واسعة واعليم منيع اول حدودها من جهة العراق ارجان

ومن جهة كرمان السرجان ومن جهة ساحل بحر الهند سيراف ومن جهة السند

مكران واعظم مدنها شيراز وكورها المشهورة خمس (١) اصطخر (٢) اردشير خرة

(٣) دارا مجرد (٤) سابور (٥) قباذ خرة

فترك رامهرمز ولحق بتستر فاحتل النعمان رامهرمز ثم توجهت الجنود الى
تستر وهناك توافقت جنود المصريين فحاصروا تستر أشهر أو قتل في الحصار
جماعة من ذوي النجدة وراحفهم المشركون مدة الحصار ثمانين زحفاً كانت
الحرب فيها سجلاً وفي آخر زحف هزمت الفرس حتى دخلوا خنادقهم ثم
احتال المسلمون لدخول المدينة فدلوا على ثغرة فيها منها تدخل المياه الى البلد
فهدوا الى ذلك المكان ومنه هجموا على المدينة فدخلوها بعد جهاد عنيف
فذهب الهرمزان الى القلعة ولمس رأى شدة الامر عليه نادى متبعيه وقال أضع
يدي في أيديكم علي حكم عمر يصنع بي كيف يشاء قالوا فلك ذلك واستأسر
لهم فملك المسلمون بذلك تستر ثم أرسلوا الطلائع لاخذ ما أحاط به من البلدان
وأرسل أبو سبرة وفداً الى عمر معهم الهرمزان فلما وصلوا الى المدينة دخلوا
على عمر وهو في المسجد نائم ودرته معلقة في يده فقال الهرمزان أين عمر
فقالوا هو ذا فقال أين حرسه وحجابه قالوا ليس له حارس ولا حاجب قال
فينبغي أن يكون نبياً قالوا بل يعمل عمل الانبياء فلما استيقظ عمر قالوا له هذا
ملك الالهواز فقال له عمر كيف رأيت وبال الغدر وعاقبة أمر الله فقال
يا عمر انا وإياكم في الجاهلية كان الله قد خلى بيننا وبينكم فغلبناكم إذ لم يكن
معنا ولا معكم فلما كان معكم غلبتمونا فقال عمر لما غلبتمونا في الجاهلية باجتماعكم
وتفرقنا ثم قال عمر ما عذرک وما حجتک في ان تقاضك مرة بعد أخرى فقال أخاف
أن تقتلني قبل أن أخبرك قال لا تخف ذلك واستسقى ماء فأتى به في قدح غليظ
فقال لو مت عطشاً لم أستطع أن أشرب في مثل هذا فأتى به في اناء يرضاه
فجعلت يده ترجف وقال اني أخاف أن أقتل وأنا أشرب الماء فقال عمر لا

بأس عليك حتى تشربه فأكفأه فقال عمر أعيذوا دليبه ولا تجمعوا عليه القتل
والعطش فقال لا حاجة لى في الماء إنما أردت أن أستأمن به فقال له عمر
انى قاتلك قال قد أمنتنى فقال عمر كذبت فقال أنس صدق يا أمير المؤمنين
آمنتته قلت له لا بأس عليك حتى تخبرنى وقلت لا بأس عليك حتى تشربه
وقال له من حوله مثل ذلك فأقبل دلى الهرمزان وقال خدنتنى والله لا
أخذع الا لمسلم فأسلم فقرض له في العطاء على الفين وأتراه المدينة

ثم قال عمر للوفد لعل المسلمين يفضون الى أهل الذمة بأذى وبأمور
لها ما ينتقضون بكم فقالوا ما نعلم الا وفاء وحسن ملكة قال فكيف هذا
فقال له الاحنف يا أمير المؤمنين أخبرك أنك نهيتنا عن الانسياح في البلاد
وأمرتنا بالاعتصام على ما فى أيدينا وأن ملك فارس حى بين أظهرهم وانهم
لا يزالون يساجلوننا ما دام ملكهم فيهم ولم يجتمع ملكان فاتفقا حتى يخرج
أحدهما صاحبه وقد رأيت أنالهم نأخذ شيئاً بمدشىء الا بنبعائهم وان ملكهم
هو الذى يبعثهم ولا يزال هذا دأبهم حتى تأذن لنا لنزح في بلادهم حتى
نزيله عن فارس ونخرجه من مملكته وعزأمة فهناك ينقطع رجاء أهل
فارس : فقال عمر صدقتنى والله وشرحت لى الامر من حقه ثم قدمت الكتب
على عمر باجتماع أهل نهاوند : فكان ذلك مما جعل عمر بأذن بالانسياح



فتح نهاوند (١)

اجتمع بنهاوند من جنود الفرس من كل انحاءها جمعهم يزدجرد يريد اعادة الكرة بهم لاستعادة ملكه ونهاوند من بلاد الجبل (٢) جنوبي همذان فكتب عمر الى النعمان بن مقرن يوليه محاربة المجتمعين بها وحشد اليه الجنود من البصرة والكوفة فلما وصلت اليها الجنود رأوا بها جمعا عظيما متحصنا في حصون قوية ولا يخرجون الا اذا شاءوا فلما طال عليهم المطال جمع النعمان رجال النجدة والرأي في الحروب ممن معه وقال لهم قد ترون المشركين واعتصامهم بالحصون من الخنادق والمدائن وانهم لا يخرجون الا ان يشاءوا وقد ترون الذي فيه المسلمون من التضايق بالذي هم فيه فما الرأي فتكلم عمرو بن ثبي وكان اكبر الناس يومئذ سنا وكانوا انما يتكلمون على الاسنان فقال التحصن عليهم أشد من المطاولة عليكم فدهمهم ولا تخرجهم وطاولهم وقاتل من اتاك منهم فرد رأيه وتكلم عمرو بن معد يكرب مشيرا بمناهدتهم فقالوا انما تناطح بنا الجدران والجدران لهم أعوان علينا وتكلم طليحة الاسدي فقال أرى ان تبعت خيلا نحدد بهم ثم يرمونهم لينشبوا القتال ويمشوهم فاذا استحمشوا واختلطوا بهم وأرادوا الخروج أرزوا الينا استطرادا فاننا لم نستطرد لهم في

(١) مدينة عظيمة في قبلة همذان بينهما ثلاثة ايام ١٤ فرسخا وهي اعتق مدينة في الجبل (٢) بلاد الجبل ع-لم على ما يسميه العجم ببلاد العراق وهي ما بين اصبهان الى زنج-ان وقزوين وهمذان والدينر وقرميسين والري وما بين ذلك من البلاد الجليلة والكور العظيمة قال ياقوت وتسمية هذا الجزء بالعراق غلط

طول ما قاتلناهم وانا اذا نعلنا ذلك ورأوا ذلك منا طعموا في هزيمتنا وام يشكروا فيها فخرجوا فجادونا وجادونا هم حتى يتضى الله فيهم ونينا ما أحب ققبل منه رأيه وأمر النعمان القمعاق أن ينشب القتال ففعل وتم ذلك الترتيب الحربى المتفق عليه فخرجت الفرس يتبعونه وحينذاك أمر النعمان بالهجوم فاقبلوا بالسيوف قتالا شديدا وفي أثناء الموقعة قتل النعمان رئيس الجند فأخفوا موته واستلم الراية خليفته من بعده حذيفة بن اليمان ولم يأت آخر النهار حتى تمت الهزيمة على الفرس واتبعت فصائل دليها القمعاق الفل الى همدان فدخلها المسلمون وملكوها وحينئذ جاؤهم رؤساء البلاد من الفرس وصاحوهم على همدان . أما نهاوند فان المسلمين دخلوها عتب الهزيمة واحتوا ما حولها وكانوا يسمون فتح نهاوند فتح الفتوح لانه لم يكن بعده كبير حرب ولما جاء البريد الى عمر بالفتح وباستشهاد النعمان بكى عليه بكاء شديدا وبعد انتهاء هذه الموقعة أذن عمر بالانسحاب في بلاد الفرس كما أشار عليه بذلك الاحنف بن قيس فعين رؤساء الجنود التي تذهب لافتتاح البلاد وأرسل بالالوية الى أصحابها وهم:

- (١) الاحنف بن قيس التميمي ووجه الى خراسان
- (٢) مجاشع بن مسعود السلمي ووجه الى أردشير خرة وسابور
- (٣) عثمان بن أبي العاص الثقفي ووجه الى اصطخر
- (٤) سارية بن زعيم السكناني ووجه الى فساود رابجرد
- (٥) سهيل بن عدي ووجه الى كرمان
- (٦) عاصم بن عمرو ووجه الى سجستان

(٧) الحكم بن عمير التغلبي ووجه الى مكران
فاستعدت الجنود للخروج الي أوجهها ففتح سنة ١٨ هـ

فتح أصبهان (١)

سار عبدالله بن عبدالله بن عتبة بمجندة نحو أصبهان وقاعدتها جي والمملك بها
الفاذوسفان فلما التقت الفئتان قال الفاذوسفان لعبدالله لا تقتل أصحابي ولا أقتل
أصحابك ولكن ابرز لي فان قتلتك رجع أصحابك وان قتلتني سالمك أصحابي
وان كان أصحابي لا يتبع لهم نشابة فبرز له عبدالله وقال اما أن تحمل على واما أن
أحمل عليك فقال أحمل عليك فوقف له عبدالله وحمل عليه الفاذوسفان فطعنه
فاصاب قوس سرجه فكسره وقطع اللبب والحزام وزال اللبد والسرج
وعبدالله على الفرس فوقع عبدالله قائما ثم استوي على الفرس عريا وقال له اثبت
فقال الفاذوسفان ما أحب أن أقاتلك فمدرأتك رجلا كاملا ولكن أرجع
معك الى مسكرك فأصالحك وأدفع المدينة اليك على أن من شاء أقام ودفع الجزية
وأقام على ماله وعلى أن تجري من أخذتم أرضه عنوة مجراهم ويتراجعون ومن أبي
أن يدخل فيما دخلنا فيه ذهب حيث شاء ولكم أرضه قال لكم ذلك فرضي أهل
جي بالصلح الا ثلاثين رجلا منهم خالفوا قومهم وتجمعوا فلحقوا بكرمان
في حاشيتهم لجمع كان بها ودخل المسلمون جي واعتبط من الفرس من أقام وندم
من شخص ثم استخلف عبدالله بمجي خليفة له وسار حسب أمر عمر الى كerman
لمساعدة سبيل بن عدي

(١) إقليم من نواحي الجبل كانت قاعدته جيا ثم صارت لليهودية

فتح أذربيجان (١)

بينانعيم بن مقرن في همدان اذ بلغه تجمع القرس واحتشادهم في واجر و ذيبين
همدان وقزو و بن فسار اليهم وقاتلهم في ملحمة كبرى كانت تعمدل وقمة نهاوند
وهزمهم هزيمة منكرة

فتح الري (٢)

بعد أن انتهى نعيم من واج الروذسار إلى الري فصالحه أهلها بعد أن هزمهم
وكان المصالح عنهم رأسهم الزينبي بن قوله وكتب لهم كتاب صالح ثم وجه أخاه
سويد بن مقرن إلى قومس فسار إليها وأخذها سلماً ومن هناك كاتبه ملاب جرجان
(٣) بالصلح فصالحه وكتب له كتاب صالح وتابعهم على ذلك أهل طبرستان

فتح الباب (٤)

كان قائد الجيش الذي وجهه إلى الباب سراقبة بن عمر و وعلى مقدمته
عبدالرحمن بن ربيعة فلما أطل عبدالرحمن على الباب كاتبه مملكتها شهر براز
مستأمناً ليأتيه فأمنه عبدالرحمن فجاءه الملاك وقال له أنى بأزاء عدوك

(١) صقع جليل ومملكة عظيمة الغالب عليها الجبال وحدها من برذعة مشرقاً إلى
ارزنجان مغرباً ويتصل حدها من جهة الشمال ببلاد الجبل والديلم وقصبتها تبريز وكانت
قبل مدينة الراءغة (٢) قصبة بلاد الجبال بينها وبين يسابور ١٦٠ فرسخاً
والى قزو بن ٢٧ فرسخاً وكانت مدينة عظيمة جداً ويقال في النسب اليها رازي (٣)
مدينة عظيمة بين طبرستان وخراسان (٤) مدينة عظيمة على بحر طبرستان (بحر
الخرز) وهي ثمر عظيم

وأمم مختلفة لا ينسبون الى أحساب ولا يذبني لدى الحسب والعقل أنت يعين
أمثال هؤلاء ولا يستعين بهم على ذوى الاحساب والاصول وذو الحسب قريب
ذى الحسب حيث كان ولست من القبيح في شئ ولا من الأثر من وانكم قد غلبتم
على بلادى وأمتى فأنا اليوم منكم ويدي مع أيديكم وصنوي معكم وبارك الله
لنا ولكم وجزيتنا اليكم والنصر لكم والقيام بما تحبون فلا تذلوننا بالجزية
فتوهنونا العدوكم فقال عبد الرحمن فوقى رجل قد أظلك فسر اليه فجوزته فصار
الى سراقه فلقية بمثل ما كلم عبد الرحمن فقال سراقه قد قبلت ذلك فيمن كان
معك على هذا مادام عليه ولا بد من الجزاء ممن يقيم ولا ينهض فقبل ذلك وصار
سنة فيمن كان يحارب العدو من المشركين وفيمن لم يكن عنده الجزاء الا أن يستنفر
فتوضع عنهم جزاء تلك السنة وكتب بذلك سراقه الى عمر فاجازه وحسنه وكان
في كتاب صلحهم الا أن لا تقسمهم وأموالهم وأن ينفروا لكل غارة وينفذوا
لكل أمر ناب أو لم ينب رآه الوالى صلاحاً على أن يوضع الجزاء عن أجاب
إلى ذلك الا الحشر والحشر عوض من جزائهم ومن استغني عنه منهم وقعد فعليه
مثل ما على أهل أذر بيجان من الجزاء والدلالة والنزل يوماً كاملاً فان حشر وا
وضع ذلك عنهم وان تركوا أخذوا به — وهذه سنة حسنة في عهد عمر بن
الخطاب وليست الاستعانة بالمخالفين في الدين من أهل الشرك ووضع جزية
الحماية عنهم بدعة جديدة

ثم وجه سراقه فصائل للجبال المحيطة بآرمينية موقان وتفليس وجبال اللان

فتح خراسان (١)

كان يزدجرد قد سار الى خراسان فأقام بمر و ونقل نار فارس اليها
واطمأن في نفسه وأمن أن يؤتى وكاتب من مر ومن بقي من الاعاجم فيالم
يفتتحه المسلمون فدانوا له فوجه اليه الاحنف بن قيس فدخل خراسان من
الطبيين فافتتح هرارة عنوة ثم سار نحو مر والشاهيجان فخرج منها يزدجرد الى
مر والروذ وكتب الى خاقان ملك الترك يستعده والى ملك الصفد وملك الصين
أما الاحنف فاتجه الى مر والروذ حتى اذا بلغ ذلك يزدجرد سار منها الى بلخ فزال
الاحنف على مر ووجه فصيلة من الجند نحو بلخ وتبعهم الاحنف حتى اذا
التقى الجند انهمزم يزدجرد وعبر النهر بمن معه في أهل فارس فعاد الاحنف الى
مر وقفلها وكتب اليه عمر ينهيه عن عبور النهر وأن يقصر تلى ما بيده : ولما
عبر يزدجرد النهر أتته جنود مدد آمن ملوك الترك والصفد فعاد بهم يريد أخذ
مر ومن الاحنف فخرج اليه الاحنف لما أحس به فلم يكن من الترك كبير حرب
بل عادوا إلى بلادهم تاركين يزدجرد ولما رأى ذلك ترك البلادانية و عبر النهر
أما أهل خراسان فانهم تعاقدوا مع الاحنف وتراجعوا الي بلادهم وأمرهم على
أفضل ما كانوا من الاكسرة فكانوا كأنما هم في ماكنهم الا أن المسلمين وفي
لهم وأعدل فاغبطوا

(١) بلاد واسمة في شرق البلاد الفارسية وقصبتها مرو وبها نيسابور وهرارة
وبلخ وطالقان ونسا وايورد وسرخس وغير ذلك من المدن التي دون نهر جيحون

فتوح أهل البصرة

كان مما فتحه أهل البصرة من البلاد توج فتحها سارية بن زعيم الدؤلى
ثم فتح فساودار ابجر دو فتح عثمان بن أبي العاص اصطخر . وفتح سهيل بن عدي
كرمان . وفتح عاصم بن عمرو سجستان . وفتح الحكم بن عمرو التغلبى
مكران

ومما يستظرف من الاخبار حديث قيس بن سلمة الاشجعى فان عمر
ولاه قيادة جيش لمقاتلة الاسكراد فسار اليهم وهزمهم ولما قسم عليهم النفل
راى شعباً من حلية فقال ان هذا لا يبلغ فيكم شيئاً فتطيب انفسكم ان نبعث
به الى أمير المؤمنين فان له برداً ومؤنة قالوا نعم قد طابت انفسنا فجعل تلك
الحلية فى سقطة ثم بعث برجل من قومه ليوصل ذلك الى عمر قال الرسول
فاتيت المدينة فاذا عمر يغدى الناس متكئاً على عصا كما يصنع الراعى وهو
يدور على القمصاع فلما دفعت اليه قال اجلس فجلست فى أدنى الناس فاذا
طعام فيه خشونة طعامى الذى معى أطيب منه فلما فرغ الناس قال يا يرفأرفع
قصاعك ثم أدبر فاتبعته فدخل داراً ثم دخل حجرة فاستأذنت وسلمت فأذن
لى فدخلت عليه فاذا هو جالس على مسح متكىء على وسادتين من آدم
مخشوتين ايها فنبذ الى باحداهما فجلست عليها واذا بهو فى صفة فيها بيت عليه
ستير فقال ياأم كلثوم خدائنا فأخرجت اليه خبزة بزيت فى عرضها ملح لم يدق
فقال ياأم كلثوم ألا تخرجين الينا تأكلين معننا من هذا فقالت انى أسمع عندك
حس رجل قال نعم ولا أراه من أهل البلد قالت لو أردت أن أخرج الى

الرجال لكسوتي كما كسا ابن جعفر امرأته وكما كسا الزبير امرأته وكما كسا طلحة امرأته قال أو ما يكفيك أن يقال أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب وامرأة أمير المؤمنين عمر ثم قال كل فلو كانت راضية لاطعمتك أطيب من هذا قال فأكلت قليلا وطعامي الذي معي أطيب منه وأكل فما رأيت أحدا أحسن أكلًا منه ما يتلبس طعامه بيده ولا فمه ثم قال اسقونا فجاؤا بعس من سلت فقال اعط الرجل قال فشربت قليلا ثم أخذه فشرب حتى قرع القدر فقلته فقلت حاجتي يا أمير المؤمنين أنا رسول سلمة بن قيس قال مرحبًا بسلمة بن قيس ورسوله حدثني عن المهاجرين كيف هم قلت هم كما تحب من السلامة والظفر على عدوهم قال كيف اللحم فيهم فانها شجرة العرب ولا تصلح العرب الا بشجرتها قلت البقرة بكذا والشاة بكذا ثم أدي اليه رسالته وأخبره خبر الحلية التي اختص بها سلمة فلما نظر الى فضوسها وثب ثم جعل يده في خاصرته ثم قال لا أشبع الله اذا بطن عمر ثم قال كيف ما جئت به أم والله لئن تفرق المسلمون في مشاتهم قبل أن يقسم هذا فيهم لافعلن بك وبصاحبك الفاقة قال فارمحت حتى أتيت سلمة فقلت مابارك الله فيما اختصصتني به أقسم هذا في الناس قبل أن يصيبني وإياك فأقره فقسمه فيهم

ولست في حاجة الى أن أنبهكم الى ما يؤخذ من هذه الحادثة فهي تبين لكم كيف كانت المرأة فيهم فقد كانت أم كلثوم صاحبة الرأي الأعلى بيت أمير المؤمنين وكانت المرأة تتكلم في شأن نفسها كما يتكلم أعظم في الرجال نفسًا ثم تبين كيف كان عمر يتنزه عن أهوال المسلمين فهذه

الحلية شيء قد طابت به أنفسهم ومع ذلك لم يرض الا أن يردّها عليهم فكيف
لا تكون قلوبهم بين يديه يصرفها كيف شاء وكيف أحب
والى هنا انتهى ما نريد قصه - ليكن من أمر الفرس وسقوط مملكتها شيئاً
بين أيدي المسلمين فقد صار اليهم قطعة من الارض يحدّها من الغرب نهر الفرات
ومن الشرق نهر اجيحون والسند ومن الجنوب البحر الهندي ومن الشمال بلاد
إرمينية كل ذلك في زمن لم يتجاوز سبع سنين كان النصر لهم في جميع المواقع التي
زاحفوا فيها أعداءهم وكان لهم اسم جميل عند أمة الفرس عرفوا بالوفاء فانهم لم
يكونوا يتهاونون في أمره كما كان يوصيهم خليفتهم دائماً عرفوا بالعدل في حكمهم
حتى شهد لهم بذلك أهل ذمتهم كبيرهم وصغيرهم الملك منهم والسوقة وسنفيض
القول فيما كان لهم من الاخلاق والمدينة في عهد عمر عند الفراغ مما كان في أرض
الروم

المحاضرة الرابعة والعشرون

الفتوح في بلاد الروم -- فتح حمص -- فتح بيت المقدس

الفتوح في بلاد الروم

كانت واقعة اليرموك في أول حياة عمر في أثنائها جاء الخبر بموت
أبي بكر واستخلاف عمر وتولية أبي عبيدة لأمرة الجيش كله والقواد كلهم تحت
مرته : بعد أن انتهت الواقعة سار الجنود نحو فعل (١) من أرض
الاردن وقد اجتمع فيها فل الروم وكان على مقدمة الناس خالد بن الوليد

(١) من بلاد الاردن بين حوران وفلسطين

وهناك التقت الفئتان فانهزم الروم ودخل المسلمون فحل وسار الروم الى دمشق فكانت فحل في ذي القعدة سنة ١٣ على ستة أشهر من خلافة عمر ثم ساروا الى دمشق (١) وخالد على المقدمة فحاصروها وتزلوا حوا اليها فكان أبو عبيدة على ناحية وعمر و علي ناحية ويزيد على ناحية واستمر الحصار نحو سبعين ليلة حصاراً شديداً بالزحوف والترامي والمجانيق وهم معتصمون بالمدينة يرجون الفياث ولما أيقنوا أن الامداد لا تصل اليهم فشلوا ووهنوا وأبلسوا وازداد المسلمون طمعاً فيهم وكان خالد لا ينام ولا ينيم ولا يخفي عليه شيء من أمر العدو عيونهم ذاكية وهو معنى بما يليه فاتخذ جبلاً كهيئة السلالم وأوهاقاً قبلته ذات ليلة ان الناس غافلون في فرح لعظيمهم فهدبهم من رؤساء الذين قدم بهم من العراق وفيهم القعقاع بن عمرو وامثاله وقال للجند اذا سمعتم تكبيرنا على السور فارقوا اليها وانهدوا للباب فلما انتهى الى الباب الذي يليه هو وأصحابه المنتقدون رموا بالحبال الشرف وعلي ظهورهم القرب التي قطعوا بها خندقهم فلما ثبت لهم وهقان تسلق فيها القعقاع ورجل آخر ثم لم يدعأ حبولة الا أثباتها والاهواق بالشرف وكان المكان الذي اقتحموا منه أحصن مكان يحيط بدمشق أكثره ماء وأشدّه مدخلاً وتوافوا لذلك فلم يبق ممن دخل معه أحد الا رقي أو دنا من الباب حتى اذا استووا على السور حدر عامة أصحابه وانحدر معهم وخلف من يعمى ذلك المكان لمن يرتقي وأمرهم بالتكبير فكبر الذين على السور فهدب المسلمون الى الباب ومال الى الحبال بشر كثير فوثبوا فيها وانتهى خالد إلى أول من يليه فأنامهم وانحدر الى الباب فقتل البوايين ونار أهل المدينة وفزع سائر

(١) بلد عظيم هو قسبة الشام صارت حاضرة البلاد الإسلامية في عهد الدولة الأموية

الناس فأخذوا موافقهم ولا يدرون ما الشأن وتشاغل أهل كل ناحية بمن يليه
 وقطع خالد ومن معه أغلاق الباب بالسيوف وفتحوا للمسلمين فأقبلوا عليهم
 من داخل حتى مابقي مما يلي باب خالد مقاتل الأنيم ولما شد خالد على من يليه وبلغ
 منهم الذي أراد عنوة أُرز من أفلت إلى أهل الأبواب التي تلي غيره وقد كان
 المسلمون دعوهم إلى المشاطرة فأبوا وأبعدوا فلم يفجأهم الا وهم ييوحون لهم
 بالصلح فاجابوهم وقبلوا منهم وفتحوا لهم الأبواب وقالوا ادخلوا وامنعونا من
 أهل ذلك الباب فدخل أهل كل باب بصلح مما يليهم ودخل خالد عنوة
 فالتقى خالد والقواد في وسطها هذا استعراضا وانتهابا وهذا صلحا وتسكينا
 فأجروا ناحية خالد مجري الصلح فصار صلحا وكان صلحها على المقاسمة وصارت
 دمشق وما أحاط به للمسلمين صلحا وبعد ان تم أمرها جاء كتاب عمر لا بني
 عبيدة بصرف أصحاب خالد إلى العراق فسيرهم ورئيسهم هاشم بن عتبة وأبقى
 خالداه معه ضنا به

الوقعة بمرج الروم

خرج أبو عبيدة وعلى مقدمته خالد يريد مرج الروم وقد اجتمع بها
 قائدان من قواد الروم توذر البطريق وشنس فوقف الجنندان متقابلين وفي
 الصباح رأوا الأرض خلوا من توذر ومن معه فتحسسوا الخبر فعلموا أن توذر
 أراد دمشق فأمر أبو عبيدة خالدا أن يتبعه وقد بلغ يزيد بن أبي سفيان وهو
 بدمشق قدوم توذر فخرج إليه محاربا وبيناهما يتحاربان قدم خالد فأصاب

الروم السيف من بين أيديهم ومن خلفهم فلم يفلت منهم أحد ثم عاد يزيد إلى دمشق وعاد خالد إلى أبي عبيدة فلهفته بعد أن انتهى من هزيمة جندشنس إلى حصص

فتح حصص (١)

زحف المسلمون بعد فوزهم بمرج الروم إلى حصص فنازلوها واحتجز الروم بالمدينة محصورين فأقام المسلمون على حصارها الشتاء كله وكان الروم ينتظرون أن يهلكهم البرد ولما رأوا أنه لم يصيبهم شيء تراجعوا إلى الصالح فصوخوا على مثل صالح أهل دمشق

ثم أرسل خالد إلى قنسرين فلما نزل بالحاضر (٢) زحف إليهم الروم وعليهم مينا وس هو أعظمهم بعد هرقل فلاقاهم خالد بالحاضر فهزمهم وقتل مينا ولم يفلت من الروم أحد أما أهل الحاضر فأرسلوا إلى خالد أنهم عرب وأنهم إنما حشروا ولم يكن من رأيهم حربهم فقبل منهم وتركهم ولما بلغ عمر ذلك قال أمر خالد نفسه يرحم الله أبابكر هو كان أعلم بالرجال مني وقال في حقه هو والمثنى بن حارثة أني لم أعزلهما عن ربيته ولكن الناس عظموهما فخشيت أن يوكلا إليهما : ثم سار خالد حتى نزل على قنسرين فتحصن أهلها منه فقال لهم لو كنتم في السحاب لحملنا الله إليكم أولا نزلكم اليانفظاروا في أمرهم وذكروا ما لقي أهل حصص

(١) بلد قديم في شمال دمشق بينها وبين حلب في نصف الطريق
(٢) مكان بالقرب من حلب يدعي حاضر حلب كان يجمع أصنافا من العرب

فصالحوه على صلح حمص ثم فتحت قيسارية (١) لي يدمعاوية بن أبي سفيان
 وفتحت أجنادين (٢) على يد عمرو بن العاص وكان بها أرطبون وهو أدهي الروم
 وأبعدها ذورا وأنكها فعلا ولما بلغ ذلك عمر بن الخطاب قال قد رمينا أرطبون
 الروم بأرطبون العرب فانظروا عم تنفرج أقام عمرو على أجنادين لا يقدر
 من الارطبون على سقطة ولا تشفيه الرسل فولى بنفسه ندخل عليه كأنه رسول
 ذابغه ما يريد وسمع كلامه وتأمل حصونه حتى عرف ما أراد وقال أرطبون
 في نفسه والله ان هذا لعمر و أو انه لاذي يأخذ عمرو برأيه وما كنت لاصيب
 القوم بأمر أعظم عليهم من قتله ثم دعا حرسيا فساره بقتله فقال اخرج فقم مكان
 كذا وكذا فاذا مر بك فاقتله ونظن له عمرو فقال قد سمعت مني وسمعت منك
 فأما ما قتله فقد وقع مني موقعا وأنا واحد من عشرة بعثنا عمر بن الخطاب مع هذا
 الوالى لنكاته ويشهدنا أموره نارجع فأتيتك بهم الآن فان رأوا في الذي
 عرضت مثل الذي أرى فقد رآه أهل المسكر والاثمير وان لم يروه رددتهم
 الى ما منهم وكنت علي رأس أمرك نقار نعم ودعارجلا فساره وقال اذهب
 الى فلان ورده الى نرجع اليه الرجل وقال لعمر و اذهب فجى بأصحابك
 فخرج عمرو ورأى أن لا يعود لمثلها وعلم الرومي بأنه قد خذله فقال
 خذني الرجل هذا أدهي الخلق (٣) ثم ناهده عمرو وقد عرف مأخذه

(١) بلد على ساحل بحر الشام تعد في أعمال فلسطين بينها وبين طبرية ثلاثة ايام
 وكانت قديما من أمهات المدن (٢) من نواحي فلسطين من كورة بيت جبرين
 (٣) مثل هذه الحكاية بعيدة التصديق والا كانت دليلا على بلاهة قاعله
 ولا يتصور أن قائد جند يخاطر بنفسه هذه المخاطرة تاركاً جنده من غير راع لهم
 خصوصا اذا كان ذلك القائد هو عمرو بن العاص

فالتقوا بأجنادين فاقتتلوا قتالا شديدا كقتال اليرموك حتى كثرت القتلى
بينهم ثم ان أوطبون انهزم من الناس فأوي الى ايليا ونزل عمرو أجنادين

فتح بيت المقدس

كانت ايلياء عاصمة الدين فقيها البيت المقدس وخدام الدين وكان
المتولي لامر حربهم عمرو بن العاص لانه ولى على فلسطين وايليا حاضرتها
الكبرى ولما طال على أهلها الحصار رغبوا في الصلح على شرط أن يكون
المتولى لعقده عمر بن الخطاب فكتب اليه عمرو بذلك فسار الى الشام وهي
أول خرجة خرجها وكتب الى أمراء الشام أن يستخلفوا على ما بأيديهم
ويقابلوه بالجاية فلقوه بها فكان أول من لقيه يزيد ثم أبو عبيدة ثم خالد على
الخيول عليهم الديباج والحرير فنزل وأخذ الحجارة فرماهم بها وقال سرع ما
لقم عن رأيكم آياي تستقبلون في هذا الزى ولما شبعتم منذ سنتين سرع
ماندت بكم البطنة وتالله لو فعلتموها على رأس المثنين لاستبدلت بكم غيركم
فقالوا يا أمير المؤمنين انهم يلامقة وان علينا السلاح قال فنعم اذا وركب
حتى دخل الجاية وعمرو وشرحييل لم يتحركا من مقامهما وهناك
جاءته رسل أهل ايليا يطلبون السلام فسألهم وكتب لهم كتابا بهذا نصه
(بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل ايلياء
من الامان أعطاهم أمانا لا تقسمهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيعها
وبريثها وسائر ملتها انه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها
ولا من حيزها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم ولا يكرهون على
دينهم ولا يضار أحد منهم ولا يسكن بابلياء معهم أحد من اليهود وعلى

أهل ايلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوت فمن خرج منهم فانه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم ومن أقام منهم فهو آمن وعليه مثل ما على أهل ايلياء من الجزية ومن أحب من أهل ايلياء ان يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلى بينهم وصلبهم فانهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم ومن كان بها من أهل الارض قبل مقتل فلان فمن شاء منهم قعد وعليه مثل ما على أهل ايلياء من الجزية ومن شاء سار مع الروم ومن شاء رجع الى أهله فانه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية) شهد على ذلك خالد بن الوليد وعمر بن العاص وعبد الرحمن ابن عوف ومعاوية أبي سفيان وكتب وحضر سنة ١٥ و بعد أن أعطاهم الامان شخص الى بيت المقدس وسار حتى دخل كنيسة انقمة وحان وقت الصلاة فقال للبتريك أريد الصلاة فقال له صل موضعك فامتنع وصلى على الدرجة التي على باب الكنيسة منفرداً فلما قضي صلاته قال للبتريك لو صليت داخل الكنيسة أخذها المسلمون من بعدي وقالوا هنا صلى عمر وكتب لهم أن لا يجمع على الدرجة للصلاة ولا يؤذن عليها ثم قال أرني موضعاً أبني فيه مسجداً فقال على الصخرة التي كلم الله عليها يعقوب فوجد عليها ردماً كثيراً فشرع في إزالته وتناوله بيده يرفعه في ثوبه واقتدى به المسلمون كافة فزال لحينه وأمر ببناء المسجد ثم ولى أمراء الشام بعد ان قسمها أقساماً وجعل فلسطين ولايتين أحدهما قصبتهما

الرملة والاخري قصبتها ايلياء — ومما يزيد المسلم شرفاً تلك المعاملة الباهرة التي عامل بها سلفه مغلو بيهم من الوفاء والعدل فاذا قارن ذلك بما أصيب به أهل ايلياء حينما فتحت على أيدي الصليبيين تبين له مقدار الفرق العظيم بين المعاملتين

وفي سنة ١٧ أراد عمر أن يزور الشام للمرة الثانية وخرج معه المهاجرون والانصار فسار حتي اذا نزل بسرغ (١) لقيه أمراء الاجناد فأخبروه أن الارض سقيمة وكان بالشام طاعون فقال عمر لابن عباس اجمع لي المهاجرين الاولين قال فجمعهم له فاستشارهم فاختلفوا عليه فمنهم القائل خرجت لوجهه تريد فيه الله وما عنده ولا نرى أن يصدق عنه بلاء عرض لك ومنهم القائل انه لبلاء وفناء ما نرى أن تقدم عليه فلما اختلفوا عليه قال قوموا عني ثم قال لابن عباس اجمع مهاجرة الانصار فجمعهم له فاستشارهم فسلوكوا طريق المهاجرين فكأنما سمعوا ما قالوا فقالوا مثله فلما اختلفوا عليه قال قوموا عني ثم قال اجمع لي مهاجرة الفتوح من قريش فجمعهم له فاستشارهم فلم يختلف عليه منهم اثنان وقالوا ارجع بالناس فانه بلاء وفناء فقال عمر يا ابن عباس أصرخ في الناس فقل ان أمير المؤمنين يقول لكم اني مصبح على ظهر فأصبحوا عليه فلما اجتمعوا قال أيها الناس اني راجع فارجموا فقال أبو عبيدة بن الجراح افراراً من قدر الله قال نعم فراراً من قدر الله الى قدر الله أرأيت لو أن رجلاً هبط واديا اعدوتان احدهما خصبة والاخرى جدبة أليس يرعى من رعى الجدبة بقدر الله ويرعى من رعى الخصبة بقدر الله لو غيرك يقول هذا يا أبا عبيدة ثم خلا

به بناحية دون الناس فيينا الناس على ذلك اذ أتى عبد الرحمن بن عوف
وكان متخلفاً عن الناس لم يشهدهم بالامس فلما أخرج الخبر قال عندي من
هذا علم قال عمر ذأنت عندنا الامين المصدق فماذا عندك قال سمعت رسول
الله صلى الله عليه وسلم يقول اذا سمعتم بهذا الوباء ببلد فلا تقدموا عليه
ولا اذا وقع وأنتم به فلا تخرجوا فراراً منه لا يخرجكم الا ذلك فقال عمر
فله الحمد انصرفوا أيها الناس فانصرف بهم

وأعقب انصرفه حصول الطاعون الشديد المسمي طاعون عمواس
وكانت شدته بالشام فملك به خلق كثير منهم أبو عبيدة بن الجراح وهو
أمير الناس ومعاذ بن جبل ويزيد بن أبي سفيان والحارث بن هشام وسهيل
ابن عمرو وعتبة بن سهيل وأشراف الناس ولم يرتفع عنهم الوباء الا بعد أن
وليهم عمرو بن العاص فخطب الناس وقال لهم أيها الناس أن هذا الوجع
اذا وقع فاعما يشتعل اشتعال النار نتجنبوا منه في الجبال فخرج وخرج
الناس فتنفروا حتي رفعه الله عنهم فبلغ عمر ما فعله عمرو فما كرهه

رأى عمر بعد ارتفاع الطاعون أن يسير الى الشام لينظر في أمر الناس
بعد هذا المصائب فسار حتي أتى الشام فنظر في أمور الناس وولى الولاية
وورث الاحياء من الاموات ثم خطبهم خطابة قال فيها (ألا واني قد وليت
عليكم وقضيت الذي علي في الذي ولاني الله من أمركم الى أن قال — فن
علم علم شيء ينبني العمل به فبلغنا نعمل به ان شاء الله ولا قوة الا بالله) وحضرت
الصلاة فقال الناس لو أمرت بلالا فأذن فأمره فأذن فما بقي أحد كان أدرك
رسول الله صلى الله عليه وسلم وبلال يؤذن له الابكى حتي بل لحيته وعمر

أشدهم بكاء و بكى من لم يدركه بيكأهم لذكره صلى الله عليه وسلم ثم رجع
عمر الى المدينة

وفي عهد عمر بن الخطاب فتحت مصر على يد القائد العظيم عمرو بن
العاص السهمي : ولما كان لتاريخ مصر نصيب خاص في محاضراتنا أحيينا
أن نرجي تفاصيل فتحها الى الوقت الذى نتكلم فيه عن تاريخها ليكون
الكلام نسقا

هذا ما كان من الفتوح فى عهد عمر بن الخطاب فى مدة لا تزيد عن
عشر سنوات فتحت بلاد فارس كلها ووقف المسلمون من جهة الشرق على
نهر السند ونهر جيحون فلم يتمدوها وفتح من بلاد الروم جزء عظيم وهو
بلاد الشام ومصر وأدبرت البلاد على مقتضى العدل الاسلامي فتقبل الناس حكمه
مسرورين لانه قد زال عنهم جبروت الملوك وعسف الجبابرة
ولما كانت حياة عمر ممتازة عما كان فيها مما جعل بعد أساسا عظيما
كثير من المدنية الاسلامية أحيينا أن نورد عليكم منها جملا لتعلموا مقدار
هذا الرجل العظيم الذى ساس العرب بسياسة لم تعرف لغيره من سائر الناس
متأسيا فى ذلك برسول الله صلى الله عليه وسلم وسلفه أبى بكر الصديق

المحاضرة الخامسة والعشرون

القضاء — سيرة عمر في عماله — معاملة عمر للرعية — عفته عن مال المسلمين — ميله للاستشارة وقبول النصيح — رأى عمر في الاجتماعات — وصفه وبيته

القضاء

عمر أول خليفة عين قضاة لفصل القضايا بين الناس مستقلين عن الامراء فعين للكوفة شريح بن الحرث الكندي وكان من كبار التابعين وقد أقام قاضيا بها ٧٥ سنة لم يعطل فيها الا ثلاث سنين في فتنة ابن الزبير ولما ولى الحجاج استعفاه فأذناه ومن طرفه في القضاء أن عدى بن أرطاة دخل عليه فقال أنى رجل من اهل الشام قال من مكان سحيق قال تزوجت عندكم قال بالرفاء والبنين قال وأردت أن أرحلها قال الرجل أحق بأهله قال وشرطت لها دارها قال الشرط أملك قال فاحكم بيننا قال قد حكمت وهو الذى قال حين تزوج امرأة من بنى تميم ثم نقم عليها شيئا فضربها رأيت رجالا يضربون نساءهم فشلت يميني يوم أضرب زينبا أأضربها من غير ذنب أتت به فما العدل منى ضرب من ليس مذنباً فزينب شمس والنساء كواكب اذا طلعت لم تبق منهن كوكبا توفي سنة ٨٧ هـ

وعين للقضاء بمصر قيس بن أبي العاص السهمي حسبا جاء بكتاب

القضاء الذين ولوا. صر فهو أول قاض قضي بها في الاسلام

وولي أبا الدرداء بالمدينة وهو من الصحابة : ومن أترف من ولاهم
أبو موسى الاشعري ولما كان العهد الذي ولاه به مما يبين لنا شيئا من
نظام القضاء وأصوله أحببنا إيراد وودنكموه

بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عبد الله بن
قيس سلام عليك أما بعد فإن القضاء فريضة (١) محكمة وسنة متبعة
فافهم (٢) إذا أدلى اليك فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نقاذ له : آس (٣) بين
الناس في وجهك وعدلك ومجلسك حتى لا يطمع شريف في حيفك
ولا يئأس ضعيف من عدلك البينة على من ادعى واليمين على من أنكر :
والصالح (٤) جاز بين المسلمين الأصلح أحل حراما وأحرم حلالا : لا
يمنعك (٥) قضاء قضيته اليوم فراجعت نفسك وهديت فيه لرشدك

(١) يريد عمر بذلك أن يبين له المادة التي يتقضى بها وهي لأنه مدبر محده
الله وهذا ما أشار إليه بالقربضة المحكمة وما بينه رسول الله وسار عليه وهو ما أشار
إليه بالسنة المتبعة (٢) يريد أن من يدلى بحجته مهما يكن مهيأ بليما فإن
كلامه لا ينفعه إذا لم يكن لكلامه نفوذ إلى قلب القاضي وذلك لا يكون إلا بالتدب
لما يقل من الخصوم (٣) هذا أساس المساواة التي بها جاء الدين ولا احترام
للقضاء بدونها فإن القاضي إذا كان له ضلع مع أحد الخصوم فشئت القالة فيه وإن
نجا من مغبتها اليوم فإنه ليس بنتاج غدا (٤) تكاد تتفق الفوازين على أن كل
صلح يخالف فيه القانون العام لا قيمة له لأن الخصم إذا ملك حق نفسه وساغ له
المصرف فيه بما شاء فإنه لا يملك حق الشارع الذي راعى بتدريعه العام مصلحة
الجمهور (٥) يريد بذلك أن القاضي لا يتقيد بما فهمه من المصالح فحكم به
في قضيته إذا ظهر له وجه الخطأ كان عليه أن يحكم بما تجرد من التفسير فيما
يشابهها من القضايا وإنما كان هذا مراده لأن عمر قد تغير فكره مرة بعد أن حكم
في حادثة فلم يغير السابق وغير اللاحق وقال ذلك على ما قضينا وهذا على ما نقضي

أن ترجع الى الحق فان الحق قديم ومراجعة الحق خير من التماهى في الباطل : الفهم الفهم (١) فيما تلجج في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة ثم اعرف الاشياء والامثال فقس الامور عند ذلك واعمد الى اقربها الى الله واشبهها بالحق . واجعل (٢) لمن ادعى حقاً ذائباً أمداً ينتهى اليه فان أحضر بينته والا استحلت عليه القضية فانه أنقى للشك وأجلى للعمي المسلمون (٣) عدول بعضهم على بعض الا مجلوداً في حداً ومجرباً عليه شهادة زوراً وظنيماً في ولاء أو نسب فان الله تولى منكم السرائر ودرأ بالبينات والايمان : واياك (٤) والعلق والضجر والتأذى بالخصوم والتنكر عند الخصومات فان الحق في مواطن الحق يعظم الله به الاجري ويحسن به

- (١) يريد بذلك بيان أصل ثالث للاحكام وهو القياس وهو ان يلحق ما لم يعلم حكمه بما علم حكمه لمشابهة بينهما في السبب الذي من اجله شرع الحكم ومن ذلك يكون من أوجب الواجبات على القاضي ان يكرن عارفاً بامرار التشريع حتى يمكنه هذا الالتحاق ومن ذلك ينتج اشتراط ان يكون مجتهداً لا مقلداً غره في تفسير او تأويل (٢) يشير بذلك الى جواز التاجيل اذا طلب الخصم وكان لطلبه سبب مقبول والذي ذكره من الاسباب هو غيبة الشهود الذين يظهر بهم حقه (٣) يشير بذلك الى اصل عام وهو ان الاصل في الناس العدالة فتقبل شهادة يضمنهم على بعض الا اذا عرض ما يفسد تلك العدالة وقد بين عمر من ذلك ثلاثة اشياء الاول الجلد في الحد ويظهر انه يريد بذلك حد القذف لان الله يقول ولا تقبلوا لهم شهادة ابداً الثاني المجرب عليه شهادة الزور الثالث الظنين في الولاة او النسب وهو الرجل يكول له موال فيتولى غيرهم او يكون لهم نسب في قبيلته فينسب الى غيرها وكان هذا جالباً للعار ولعله يكون في زمننا كذلك (٤) يشير بذلك الى ما يجب على القاضي من الامة والحلم فلا يضجر ولا يتأذى بالخصوم لثأرتهم وارتفاع أصواتهم بل يجعل لكل انسان حريته في الدفاع عن نفسه

الآخر فمن صحت نيته وأقبل على نفسه كفاء الله ما بينه وبين الناس ومن
يخلق للناس بما يعلم الله انه ليس من نفسه شأنه الله فما ظنك بثواب غير
الله في عاجل رزقه وخزائن رحمته والسلام

وهذا الكتاب اتخذه جمهور من قضاة المسلمين أساسا لنظاماتهم

القضائية وهو جدير بذلك

بالطبع لم يكن القضاء في زمنهم الاسهلا مجردا عن النظمات الوضعية
وكان للقاضي الكلمة العليا في قضاياها أعني انه مستقل تمام الاستقلال
في قضائه لا يمنعه شيء ان يحضر إلى مجلسه الامير فمن دونه

سيرة عمر في عماله

كان عمر ممن يشترى رضا العامة بمصلحة الامراء فكان الوالي في
نظره فردا من الافراد يجرى حكم العدل عليه كما يجرى على غيره من
سائر الناس فكان حب المساواة بين الناس لا يعد له شيء من أخلاقه
اذا اشتكى العامل أصغر الرعية جره إلى المحاكمة حيث يقف الشاكي
والمشكو منه يسوي بينهما في الموقف حتى يظهر الحق فان توجه قبل
العامل اقتص منه ان كان هناك داع إلى القصاص أو عامله بما تقضي
به الشريعة أو عزله

وسواس الامم على اختلاف في ذلك فمنهم من لم ير القصاص من
العمال يري ذلك أهيب لمقام العامل في نظر الرعية وربما استحسن ذلك
في عهد الاضطرابات التي يراد تسكينها بشيء من الرعب يقذف في قلوب
العامة وكان أبو بكر لا يقيّد من عماله ولعل ذلك لما كان في عهده من

الاضطراب في الجزيرة العربية أما عمر فكان على غير ذلك الرأي لا
مصلحة العامة عنده كانت فوق كل شيء والامر قد استقر فلم يكن هناك
ما يدعو الي مراعاة هذه السياسة

كان اذا بعث عاملا على عمل يقول اللهم اني لم أبشهم ليأخذوا أموالهم
ولا ليضربوا أبشارهم من ظلمه أميره فلا امرة عليه دوني : وخطب الناس
يوم جمعة فقال اللهم أشهدك على أمراء الامصار اني إنما بعثتهم ليعلموا الناس
دينهم وسنة نبيهم وأن يقسموا بينهم فيأثم وان يعدلوا فان أشكل عليهم
شيء رفعوه إلى : وكان اذا استعمل العمال خرج معهم يشيعهم فيقول اني
لم أستعملكم على أمة محمد صلى الله عليه وسلم على أشعارهم ولا على أبشارهم
إنما استعملتكم عليهم اتقيوا بهم الصلاة وتقضوا بينهم بالحق وتقسموا
بينهم بالعدل واني لم أسلطكم على أبشارهم ولا على أشعارهم ولا تجلدوا
العرب فتذلوهما ولا تجمروهما فتفتنوهما ولا تنفلوا عنها فتجرهوها جردوا
القرآن وأفلوا الرواية عن محمد صلى الله عليه وسلم وأنا شريككم : وخطب
مرة فقال أيها الناس اني والله ما أرسل عاملا ليضربوا أبشاركم ولا ليأخذوا
أموالكم ولكني أرسلهم ايديهم ودينكم وسنة نبيكم فمن فعل به شيء سوى
ذلك فليرفعه إلى فوا الذي نفس عمر بيده لا قصنه منه . فوثب عمرو بن
العاص فقال يا أمير المؤمنين أرايتك ان كان رجل من أمراء المسلمين على
رعية فآدب بعض رعيته انك لتقصه منه قال أي والذي نفس عمر بيده اذا
لاقصنه منه وكيف لا أقصه منه وقد رأيت رسول الله يقص من نفسه
ألا لا تضربوا المسلمين فتذلوهم ولا تجمروهم فتفتنوهم ولا تمنعوهم حقوقهم

فتكفروهم ولا تنزلوهم الغياض فتضييهم وهم وكان للوصول الى ما يريد من عماله يأمرهم أن يوافوه كل سنة في الموسم وموسم الحج ومن كانت له شكوى أو مظلمة هناك فليرفعها واذ ذاك يحتمق عمر بعد أن يجمع بين الاثنين حتى ترد الى المظلوم ظلامته ان كانت وكان العمال يخافون أن يفضحوا على رؤوس الاشهاد في موسم الحج فكانوا يتعدون عن ظلم أى انسان كن

وقد استحضر عمر اليه كثيراً من العمال الذين لهم أعظم فضل وأكبر عمل بشكاية قدمت اليه من بعض الافراد فقد استحضر سعد ابن أبى وقاص وهو فاتح القادسية والمدائن وممصر الكوفة وكان الذي شكاه ناس من أهل عمله بالكوفة فجمع بينه وبينهم فوجده بريثاً . واستحضر المغيرة بن شعبة وهو أمير على البصرة والمغيرة من الصحابة ومن ذوي الاثر الصالح في الفتوح الاسلامية وكان بعض من معه بالبصرة قد اتهمه بتهمة شنيعة فوجه اليه ذلك الكتاب الموجز الذي جمع في كلمة القاييله ان عزل وعاتب واستحث وأمر (أما بعد فقد بلغني نبأ عظيم فبعثت أبا موسى أميراً فسلم ما في يدك والعجل العجل) فقدم على عمر مع الشهود الذين شكوه ولم تثبت التهمة عليه عند عمر فعاقب شهوده بالحد الذي فرضه الله لمثلهم : وشكى اليه عمار بن ياسر وكان أميراً على الكوفة وهو من السابقين الاولين شكاه قوم من أهل الكوفة بأنه ليس بأمرير ولا يحتمل ما هو فيه فأمره أن يقدم عليه مع وفد من أهل الكوفة فسأل الوفد عما يشكون من عمار فقال قائلهم انه غير كاف ولا عالم بالسياسة . وقال قائل منهم انه لا يدري علام استعمل فاخبره عمر في ذلك اختصاراً يدل على سعة علم

عمر بتلك البلاد فلم يحسن الاجابة في بعضه فمزله عنهم ثم دعاه بعد ذلك فقال أساءك حين عزلتك فقال والله ما فرحت به حين بعثتني ولقد ساء في حين عزاتني فقال لقد علمت ما أنت بصاحب عمل ولكني تأولت قوله تعالى (و نريد أن نمن على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين)

ولم يمض عامل زمن عمر موثقاً به من عمر في كل أيامه الا القليلين وفي مقدمتهم أبو عبيدة عامر بن الجراح

وكان فوق ذلك كله له عامل مخصوص يقتص آثار العمال فيرسله الى كل شكوي ليحققها في البلد الذي حصلت فيه وكان ذلك العمل موجهاً الى محمد بن مسلمة الذي كان يثق به عمر ثقة تامة وكان محلاً لتلك الثقة ولم يكن من دأب محمد بن مسلمة أن يحقق تحقيقاً سريعاً وإنما كان يسأل من يريد سؤاله علناً وعلى ملاء من الاثبات ولم يكن هناك محل للتأثير في أنفس الشهود لان يد عمر كانت قوية جداً وكان لكل إنسان الحق أن يرفع اليه شكواه مباشرة فقد زاد الناس من الحرية كثيراً

وقد شاطر عمر بعض العمال ما في أيديهم حينما رأى عليهم سعة لم يعلم مصدرها ولم يفعل هذا الفعل الا قليلاً وربما وجد هذا العمل مجالاً للانتقاد من الوجهة النظرية الدينية ولكن عمر كان يعرف من من عماله يستحق أن تقع به تلك العقوبة اذا ما ذا يعمل برجل ولاء وهو يعرف مقدار عطائه وورقه ثم يراه بعد ذلك قد أثري ثروة لو جمعت أعطياته ما بلغتها : لم ير عمر أمام ذلك الا هذه المصادرة وقد اكتفى بأن يشاطر العامل ما يملك ولست

أريد أن أحسن هذه الطريقة ولي عتبة بن أبي سفيان على كناية فقدم معه بمال فقال عمر ما هذا يا عتبة قال مال خرجت به معي وأنجرت فيه قال ومالك تخرج هذا المال معك في هذا الوجه فصيره في بيت المال : وكانت التجارة هي التكاوة التي يتكوى عليها بعض العمال في ثروتهم وكان عمر يمنعهم عن التجارة منعاً باتاً وعلى الجملة فشدة عمر على عماله رفعت الرعية

معاملته للرعية

على قدر ما كان عليه عمر من الشدة على عماله كانت رأفته ورأفته على عامة الناس من رعيته والاهتمام بما يصلحهم ويحس من ذلك بمسؤولية عظمي فكان يقول لو أن جملاً هلك ضياعاً لبسط الفرات لخشيت أن يسأل الله عنه آل الخطاب وقال هشام الكعبى رأيت عمر يحمل ديوان خزاعة حتى ينزل قديداً فتأتيه بقيد فلا يغيب عنه امرأة ولا بكر ولا ثيب فيعطيهن في أيديهن ثم يروح فينزل عسفان فيفعل مثل ذلك أيضاً حتى توفي : قال الحسن البصري قال عمر اثن عشت لاسيرن في الرعية حولاً فاني أعلم أن للناس حوائج تقطع دوني أوعمالهم فلا ترفعونها الي وأمامهم فلا يصلون الى فأسير الى الشام فأقيم بهما شهرين ثم عدد الاءمصار الكبرى يقيم في كل منها شهرين (وقد حالت منيته دون هذه السياحة) وروى أسلم قال خرجت مع عمر بن الخطاب الى حرة واقم حتى اذا كنا بصرار اذا نار تؤثرت فقال يا أسلم اني أدري هؤلاء ركباً قصر بهم الليل والبرد انطلق بنا فخرجنا نهر ول حتى دنونا منهم فاذا امرأة معها صبيان لها وقد رمنصوبة على النار وصبيانها يتضاغون فقال عمر السلام عليكم يا أصحاب الضوء (وكره أن يقول يا أصحاب النار) قالت المرأة وعليك السلام فقال أأذنو قالت أذن بخير

أودع فقال ما بالك قالت قصر بنا الليل والبرد قال فما بال هؤلاء الصبية يتضاؤون قالت الجوع قال وأي شئ في هذه القدر قالت ماء أسكتهم به حتى يناموا الله يبتنا وبين عمر فقال أي رحمتك الله ما يدري عمر بكم قالت يتولى أمورنا وينفل عنا فأقبل على فقال انطلق بنا فخرجنا نهر ولحيتي أتينا دار الدقيق فأخرج عدلاً فيه كبة شحم فقال احمله علي قلت أنا أحمله عنك قال احمله على مرتين أو ثلاثاً كل ذلك أقول أنا أحمله عنك فقال في آخر ذلك أنت تحمل عني وزري يوم القيامة لا أم لك فحملته عليه فانطلق وانطلقت معه نهر ولحيتي انتهينا إليها فالتقي ذلك عندها وأخرج من الدقيق شيئاً وجعل يقول ذري علي وأنا أحرك لك وجعل ينفع تحت القدر وكان ذا الحية عظيمة فجعلت أنظر إلى الدخان من خلال لحيته حتى أنضج وأدم القدر وقال ابغني شيئاً فأنته بصحفة فأفرغها فيها ثم جعل يقول أطعمهم وأنا أسطح لك فلم يزل حتى شبموهم ثم خلى عندها فضل ذلك وقامت معه فجعلت تقول جزاك الله خيراً أنت أولي بهذا الأمر من أمير المؤمنين فيقول قولي بخيراً أنك إذا جئت أمير المؤمنين وجدتني هناك إن شاء الله ثم تنحي ناحية ثم استقبلها ور بض مر بض السبع فجعلت أقول إنك لشأننا خير هذا وهو لا يكلمني حتى رأيت الصبية يصطرون ويضجكون ثم ناموا وهدءوا فقام وهو يحمد الله ثم أقبل على فقال يا أسلم إن الجوع أسهرهم وأبكاهم فأحييت أن لا أنصرف حتى أري ما رأيت فيهم

ومثل هذه الحوادث على صغرها تدل على روح الرجل وشفقته وخوفه

أن يكون مقصراً بحق من ولى عليهم من الرعية

خطب مرة فقال أيها الناس اني قد وليت عليكم ولولا رجاء أن أكون
خيركم لكم وأتقواكم عليكم وأشدكم استضلاعاً بما ينوب من مهم أموركم ما
توليت ذلك منكم ولكني عمر مهمائكم عزناً وانتظاراً موافقة الحساب بأخذ
حقوقكم كيف أخذها ووضعها أين أضعها وبالسير فيكم كيف أسير فربي
المستعان فان عمر أصبح لا يثنى بقوة ولا حيلة ان لم يتداركه الله عز وجل
برحمته وعونه وتأنيده : لم يكن عمر يستعمل في تأديب الناس إلا درته وهي
عصا صغيرة كالخصرة كانت دائماً في يده أنى سار وكان الناس يهابونها أكثر
مما تخيفهم السيوف القاطعة

روي الطبري عن إياس بن سلمة عن أبيه قال مر عمر بن الخطاب في
السوق و معه الدرة فخففتي بها خفقة فأصاب طرف نوبي فقال أخط الطريق
فلما كان في العام المقبل لقيني فقال يا سلمة أتريد الحج فقلت نعم فأخذ بيدي
فانطلق الى منزله فأعطاني ستمئة درهم وقال استعن بها على حجك واعلم انها
بالخفقة التي خففتك قلت يا أمير المؤمنين ماذا كرتها قال وأنا ما نسيتهما .
فمر ~~كان~~ مؤدباً حكماً ولعل درته لم يسلم من خفقتها إلا القلائل من
كبار الصحابة

روي راشد بن سعد ان عمر بن الخطاب أتى بمال فجعل يقسمه
بين الناس فازدحموا عليه فأقبل سعد بن أبي وقاص يزاحم الناس حتى
خلص اليه فعلاه عمر بالدرة وقال انك أقبلت لآتياب سلطان الله في
الارض فأحييت أن أعلمك أن سلطان الله لا يهاب : والذي أغضب
عمر منه هو مزاحته الناس وعمر كما تعلمون يعشق المساواة لا يرى منها بدىلاً

كانت الرعية - مع هذا - تهابه . مها بة شديدة . روي أسلم ان تقرأ من المسلمين كلموا عبد الرحمن بن عوف فقالوا اكلم عمر بن الخطاب فانه قد أخشانا حتي والله ما نستطيع أن نديم اليه أبصارنا قال فذكر ذلك عبد الرحمن ابن عوف لعمر فقال أوقد قالوا ذلك والله لقد كنت لهم حتي تخوفت الله في ذلك ولقد اشتددت عليهم حتي خشيت الله وايم الله لا نأشد منهم فرقاً منهم مني

عفته عن مال المسلمين

كان يحب عمر إلى الناس دله وتسويته ويزيده اليهم حباً عفته وأمانته فقد كان يرى مال المسلمين مرتعاً وخملاً لمن رتع فيه حتي انه كان يقتري على نفسه تقتيراً ربما وجد مساناً لا اعتراض قصار النظر . كان عمر يرى انه لا ينبغي أن يأكل الا مما يأكل منه أقل رديته لا يتجاوز ذلك إلى ما فوقه . كان يأخذ عطاءه من بيت المال ثم يحتاج فيقترض من أمين بيت المال فاذا حل ميعاد الوفاء ولم يجد سدده ما يسد منه احتال له حتي اذا أخذ عطاءه سدده منه ولما رأى بعض الصحابة ما يعاينه عمر من الشدة اجتمع نفر منهم فيهم ثمان وعلى وطاحه والزبير وقالوا لو قلنا لعمر في زيادة نزيدها اياه في رزقه فقال ثمان هلم فلنعلم ما عنده من وراء وراء تأتوا أم المؤمنين حفصة بنت عمر فأعلموها الحال وأوصوها أن لا تخبر بهم عمر فلقيت حفصة عمر في ذلك فغضب وقال من هؤلاء لا سوءنهم قالت لا سبيل إلى دلهم قال أنت بيني وبينهم ما أفضل ما اقتني رسول الله صلى الله عليه وسلم في يمتك من الملبس قالت ثوين ممشقين كان يلبسهما للوفد والجمع

قال فأى الطعام ناله عندك أرفع قالت حرفاً من خبز شمير فصببنا عليه وهو حار أسفل عكة لنا فجعلتها دسمة حلوة فأكل منها قال نأى مبسط كان يبسط عندك كان أوطأ قالت كساء تخين نربعه في الصيف فاذا كان الشتاء بسطنا نصفه وتدثرنا بنصفه قال يا حنيفة فأبلغهم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قدر فوضع الفضول مواضعها وتبلغ بالترجية فوالله لا ضمن الفضول مواضعها ولا تبلغن بالترجية وإنما مثلى ومثل صاحبي كثلثة سلكوا طريقاً فمضى الاول لسبيله وقد تزود فبلغ المنزل ثم أتبعه الآخر فسلك سبيله فأقضي اليه ثم اتبعهما الثالث فان لزم طريقهما ورضي بزادهما لحق بهما وان سلك طريقاً غير طريقهما لم يلتقهما

وكان يتحاشى أن ينتفع احد من آل بيته بشيء ليس له فيه حق روى مالك في الموطأ أنه خرج عبيد الله وعبيد الله ابنا عمر بن الخطاب في جيش إلى العراق فلما قفلا مرآ على أبي موسى الاشعري وهو أمير البصرة فرحب بهما وسهل ثم قال لو أقدر لكما على امر أتعكما به ثم قال بلى ههنا مال من مال الله أريد أن أبعث به إلى أمير المؤمنين فأسلمكماء فتبتاعان به متاعاً من متاع العراق ثم تبيعانه بالمدينة فتؤديان رأس المال إلى أمير المؤمنين ويكون لكما الربح فقالا وددنا ذلك فنعمل وكتب إلى عمر بن الخطاب أن يأخذ منهما المال فلما قدما باعاً فأربحا فلما دفعا ذلك الي عمر قال أكل الجيش أسلفه قال لا فقال عمر بن الخطاب ابنا أمير المؤمنين فأسلمكماء أديا المال وربحه فأما عبد الله فسكت وأما عبيد الله فقال ما ينبغي لك يا أمير المؤمنين هذا لو نقص هذا المال أو هلك لضمناه فقال عمر أدياه فسكت عبد الله وراجع عبيد الله

فقال رجل من جلساء عمر يا أمير المؤمنين لو جعلته قراضاً فأخذ عمر رأس المال ونصف ربحه وأخذ عبد الله وعبيد الله نصف ربح المال قالوا وهو أول قراض في الاسلام. ولما ترك ملك الروم الغزو وكاتب عمر وقاربه وسير اليه عمر الرسل مع البريد بعثت أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب إلى ملكة الروم بطيب ومشارب وأحفاش من أحفاش النساء ودسته إلى البريد فأبلغه لها فأخذ منه وجاءت امرأة قيصر وجمعت نساءها وقالت هذه هدية امرأة ملك العرب وبنت نبيهم وكاتبها وأهدت لها وفيما أهدت لها عقد فاخر فلما انتهى به البريد إليه أمر بامساكه ودعا الصلاة جامعة فاجتمعوا فصلى بهم ركعتين وقال انه لا خير في أمر أبرم عن غير شوري من أموري قولوا في هدية أهدتها أم كلثوم لامرأة ملك الروم فأهدت لها امرأة ملك الروم فقال قائلون هو لها بالذني لها وليست امرأة الملك بذمة فتصانع به ولا تحت يدك فتتيك وقال آخرون قد كنا نهدي الثياب لنسثيب ونبعث بها لتباع ولنصيب شيء فقال ولكن الرسول رسول المسلمين والبريد بريدهم والمسلمون عظموها في صدرها فأمر بردها إلى بيت المال ورد عليها بقدر نفقتها. فانظروا كيف كان يشدد مع أهل بيته وذلك لكيلا يجد غيرهم مجالا للعدول عن الجادة. وكان اذا صعد المنبر فنهى الناس عن شيء جمع أهله فقال اني نهيت الناس عن كذا وكذا وان الناس ينظرون اليكم نظر الطير إلى اللحم وأقسم بالله لا أجد أحداً منكم فعله الا أضعفت عليه العقوبة.

ميله للاستشارة وقبوله للنصح

كان عمر اذا نزل به الامر لا يبرمه قبل أن يجمع المسلمين ويستشيرهم فيه ويقول لاخير في امرأ برم من غيرى شورى وكان لشواره درجات فيستشير العامة أول مرة ثم يجمع المشيخة من الصحابة من قريش وغيرهم فما استقر عليه رأيهم فعل به . ومن قوله في ذلك يحق على المسلمين أن يكون أمرهم شوري بينهم بين ذوى الرأي منهم فالناس تبع لمن قام بهذا الامر ما اجتمعوا عليه ورضوا به لزم الناس وكانوا فيه تبعاً لهم ومن قام بهذا الامر تبع الاولي رأيهم مارأوا لهم ورضوا به من مكيدة في حرب كانوا فيه تبعاً لهم فجعل أولى الامر منفذين لما رآه أولو الرأي والناس تبع لما أخذ به الامام من رأى أولى الرأي . وكثيراً ما كان يرى الشيء فيبين له أصغر الناس وجه الحق فيرجع إلى رأيه . رأي مرة مغالاة الرجال في مهور أزواجهن فعزم أن يجعل للمهر حداً لا يتجاوز به الناس فنادت امرأة من أخريات المسجد كيف وقد قال الله تعالى (وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً) فقال أصابت امرأة وأخطأ عمر وكان يطلب من الناس أن يلقوه نصائحهم ويدينون له وجه الحق اذا رأوا منه انحرافاً عن القصد قال مرة في خطبته أيها الناس ان احسنت فأعينوني وان صدفت فقوموني فقال له رجل من أخريات المسجد لورأينا فيك اعوجاجاً لقومناك بسيوفنا فسر به ذلك : وكان له خاصة من كبار أولى الرأي منهم العباس بن عبد المطلب وابنه عبد الله وكان لا يكاد يفارقه في سفر ولا حضر وعثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف وعلى بن أبي طالب ونظراؤهم

رأي عمر في الاجتماعات

كان عمر يميل الى ان تكون مجتمعات الناس دامة يهوى اليها جميع الناس على اختلاف طبقاتهم وكان يكره اختصاص الناس بمجالس لا أن ذلك يدعوهم الى أن تكون لهم آراء متفرقة متباينة . روى ابن عباس ان عمر قال لناس من قر يش بلغني أنكم تتخذون مجالس لا يجلس اثنان معاً حتى يقال من صحابة فلان من جلساء فلان حتى تحوميت لمجالس وايم الله ان هذا السر يبع في دينكم سريع في شرفكم سريع في ذات بينكم ولكأني بمن يأتي بعدكم بقول هذا رأى فلان قد قسموا الاسلام أقساماً أفيضوا مجالسكم بينكم ونجالسوا معاً فانه أدوم لأفتكم وأهيب لكم في الناس وفي الحق ان ابتعاد الخاصة عن دامة الناس واختصاصهم بأفراد يجلسون اليهم مضيع كثير لما ينتظر من تربية الخاصة للعامة ومفيدة فائدة كبرى وهي نقل أقوالهم خير محرفة ولا مشوبة بما يطمس حقيقتها ثم ان كثرة المجالس تدعو بدون ريب الى كثرة الاختلاف في المسائل التي تعرض لهم فتكثر الأقوال المتباينة في الدين والذي خافه عمر على الناس وعلى من يأتي قد وقع فكثرت الآراء المنقولة عن أفراد ذلك العصور واذلك الى اختلاف الناس في الدين اختلافاً عظيماً

الوصف على الجملة

كان عمر يحب رعيته حباً جماً ويجب ما يصلحها ويكره ما يفسدها ساسها سياسة تقرأ به الى القلوب فكان غنيماً عن أموالهم عادلاً بينهم مسوياً بين الناس لم يكن قوي يطمع أن يأخذ أكثر من ماله ولا ضعيف

يخاف أن يضيع منه ماله كان حكيما يضع الشئ في موضعه يشتد حيناً و يلين حيناً
 حسبما توحى اليه الظروف التي هو فيها عرف العرب معرفة تامة وعرف
 ما يصلح أنفسها فسيرها في الطريق الذي لا تالم السير فيه فصيرها أمة حرة
 لا تستطيع أن تنظر الى خسف يلحقهم من أي انسان ولذلك نقول ان عمر أتعب من
 بعده فان النفوس التي تحتل للعرب ما احتمله عمر قايمة في الدنيا بأمرها والا
 فأين ذلك الرجل الذي يفني في مصلحة رعيته ولا يري انفسه من الحقوق الا
 كما لا دناءة مع تحمله مشقات الحياة واتعابها . العربي يستدعي سياسته حكمة عالية
 فانك ان اشتدت معه ذلته فهلاك وان كنت معه ليكون رجلاً نافعاً لم يكن هناك
 حد لجفائه ولا لحرية فهو يحتاج الى عقل كبير يدبره حتى لا تهلكه الشدة
 ولا يطغيه اللين ولم يكن ذلك العقل الكبير الا في رأس عمر بن الخطاب
 بعد صاحبيه نعم قد قام بعده خلفاء راشدون وأئمة مهتدون ولكنهم لم
 يجمعوا صفات عمر التي كان مجموعها كدواء مركب اذا سقط منه أحد
 العقاقير فر بما أهلك صاحبه لذلك نصرح بان العرب بعد عمر لم تجتمع على أي
 خليفة في أي زمن من الازمان حتى وقتنا هذا والسبب معقول

بيت عمر

تزوج عمر في الجاهلية زينب ابنة مضمون من بني جمح من قریش فولدت له
 عبد الله وعبد الرحمن الاكبر وحفصة أم المؤمنين
 وتزوج في الجاهلية مايكة ابنة جرو ل من خزاعة فولد لها بييد الله وقد فارقتها
 في هدنة الحديبية

وتزوج قريبة ابنة أبي أمية من بني مخزوم وقد فارقتها في الهدنة
وتزوج أم حكيم بنت الحارث بن هشام من بني مخزوم فولدت له فاطمة
وتزوج جميلة بنت قيس من الانصار فولدت له عاصما وهذه طلقها
وتزوج أم كلثوم بنت علي فولدت له زيدا ورقية ومات عنها
وتزوج لحية وهي امرأة من اليمن فولدت له عبد الرحمن الاصغر
وتزوج عاتكة بنت زيد بن عمرو

وخطب أم كلثوم بنت أبي بكر وهي صغيرة وأرسل فيها إلى عائشة
فقات الامر اليك فقالت أم كلثوم لا حاجة لي فيه فقالت عائشة ترغيبين
عن أمير المؤمنين فقالت نعم انه خشن العيش شديد على النساء فأرسلت
عائشة إلى عمر وبن العاص فأخبرته فقال اكفيك فأتى عمر فقال يا أمير
المؤمنين بلغني خبر أعينك بالله منه قال ما هو قال خطبت أم كلثوم
بنت أبي بكر قال نعم أفرغيت بى عنها أم رغبت بها عنى قال لا واحدة
ولكنها حدثت نشات تحت كنف أم المؤمنين في لين ورفق وفيك غلظة ونحن
نهابك وما نقدر أن نردك عن خلق من أخلاقك فكيف بها ان خالفتك
في شيء فسطوت بها كنت قد خلفت أبا بكر في ولده بغير ما يحق عليك
قال فكيف بعائشة وقد كلمتها قال أنالك بها وأدلك على خير منها أم كلثوم
بنت علي بن أبي طالب تعلق منها بنسب من رسول الله صلى الله عليه وسلم
وخطب أم ابان بنت عتبة بن ربيعة فكرهته وقالت يعلق بابيه ويمنع خيره
ويدخل عابسا ويخرج دابسا

المحاضرة السادسة والعشرون

مقتل عمر — عثمان وكيف انتخب — ترجمته — أول قضية نظار فيها
كتبه الى الامصار — أول خطبة له — التتوح في عهده

مقتل عمر

ما كان يظن أن تنتهى حياة ذلك العادل المحب لرعيته الشفيق عليهم
بضربة خنجر ولكن ذلك كان حتى يعلم الناس أنه ليس في مكنة انسان
أن يرضى الخلق كافة فان عمر اذا كان قد أرضى العرب بما صنع لهم وأرضى
عامة المعجم بما أفاض عليهم من العدل فقد أغضب كبراءهم وذوى السلطان
عليهم لانه ثل عروش مجدهم ولزلزل قصور عظمتهم

كان المسلمون يسبون من أبناء فارس ويتخذونهم لانتقامهم عبيدا
وقد احضروا عدداً منهم الى المدينة وكانوا يخائفون الى الهرمزان ملك
فارس الذى أشاع عمر ملكه وأقامه بالمدينة كواحد من الناس لانه فضل
له على واحد

كان من هؤلاء السبايا رجل اسمه زيروز ويكنى بأبى ثؤاثة وهو
غلام للمغيرة بن شعبة فبينما عمر يطوف يوماً فى السوق لقيه ذلك الغلام
فقال يا أمير المؤمنين أعدنى على المغيرة بن شعبة فانى خراجا كبيراً
قال وكم خراجك قال درهمان فى كل يوم قال عمر وايش صناعتك قال نجار
تقاش حداد قال فما أرى خراجك بكثير على ما تصنع من الاعمال قد
بلغنى انك تقول لو أردت أن أعمل رجا تطحن بالريح فعلت قال نعم قال

فأعمل لي رحاً قال ان عشت لأعملن لك رحاً يتحدث بهامن في المشرق والمغرب ثم انصرف عنه فقال عمر لقد توعدني العبد أن تقام انصرف عمر الي منزله فلما كان من الغد جاءه كعب الاخبار فقال يا أمير المؤمنين اعهدي فانك ميت في ثلاثة أيام قال وما يدريك قال أجده في كتاب الله التوراة قال عمر الله انك لتجد عمر بن الخطاب في التوراة قال اللهم لا ولكن أجد صفتك وحيلتك وانه قد فني أجلك وعمر لا يحس وجماً ولا ألماً فلما كان من الغد جاءه كعب فقال يا أمير المؤمنين ذهب يوم و بقي يومان ثم جاءه من غد الغد فقال قد ذهب يومان و بقي يوم و ليلة وهي لك الى صبيحتها . ولو صحت هذه الحكاية وكنت ممن يحقق هذه القضية ما ترددت لحظة في أن لكعب يدا في مقتل عمر أو أنه كان عالمًا بما تم عليه الاتفاق بين المؤتمرين على عمر و ربما يقال لو كان كذلك فماذا يدعو كعباً الى انباء عمر بهذا النبأ والجواب عن ذلك سهل فانه ينال بذلك بين المسلمين مركزاً عظيماً فان كثيراً منهم يرون بعد ذلك ان توارته فيها علم كل شيء وأنه صادق في كل ما يخبر به فلا يتردد سامعه لحظة في تصديقه بما يوحى به اليه وكعب هذا ممن أفاض علينا ثروة من الاخبار الاسرائيلية التي لا ندري حقيقتها ولا ريب أن فيها شيئاً كثيراً هو كذب محض لان التوراة بأيدينا وليس فيها ما أنبأ ذلك الرجل عنه

لما كان صبح ثالثة من نبأ كعب خرج عمر الى صلاة الصبح وكان يوكل بالرجال صفوفاً يسوونها فاذا استوت جاء هو فكبر ودخل أبو لؤلؤة في الناس في يده خنجر له رأسان نصابه في وسطه فضرب عمر ست ضربات احداهن تحت سرتة وهي التي قتلته وقتل معه كليب بن ابي

البكر الليثي وكان خلفه فلما وجد عمر حر السلاح سقط وقال أفى الناس عبد الرحمن
ابن عوف قالوا نعم هو ذا قال تقدم فصل بالناس وعمر طربح ثم احتمل فأدخل داره
فنادى عبد الله بن عمر وقال أخرج فانظر من قتلتني قال يا أمير المؤمنين قتلتك أبو
لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة فحمد الله أن لم يقتله رجل سجد لله سجدة ثم جعل الناس
يدخلون عليه المهاجرون والانصار فيقول لهم أعن ملاء منكم كان هذا فيقولون
معاذ الله ودخل في الناس كعب فلما رآه عمر أنشأ يقول

فأوعدني كعب ثلاثاً أعدها ولا شك أن القول ما قال لي كعب
وما بي حذار الموت أني لميت ولكن حذار الذنب يتبعه الذنب

ثم دعى له الطبيب فلم يجد للقضاء حيلة وتوفي ليلة الاربعاء ثلاث
ليال بقين من ذى الحجة سنة ٢٣ ودفن بكرة يوم الاربعاء في حجرة
عائشة مع صاحبيه حسبما أوصى بعد أن استأذن صاحبة الحجرة وصلى
عليه صهيب حسب وصيته . وروي أن طعنه كان في يوم الاربعاء لاربعة
ليال بقين من ذى الحجة ودفن يوم الاحد صباح هلال الحرم سنة ٢٤
فتكون ولايته عشر سنين وخمسة أشهر واحدي وعشرين ليلة من متوفي
أبي بكر . والصحيح الاول ومدة خلافته بالتحقيق عشر سنوات وستة
أشهر وأربعة أيام من ابتداء ٢٢ جادي الثانية سنة ١٣ الى ٢٦ ذى الحجة سنة ٢٣
وكانت سنة حين قتل ٦٣ كصاحبيه

كيف انتخب

لما طعن عمر وأحس بالموت طلب إليه أن يعهد إلى خليفة من بعده
 فتردد وقال إن استخلف فقد استخلف من هو خير مني (يريد أبا بكر)
 وإن أترك فقد ترك من هو خير مني (يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم)
 وقال لو كان أبو عبيدة حياً استخلفته فإن سألتني ربي قلت سمعت نبيك
 يقول إنه أمين هذه الأمة ولو كان سالم مولى أبي حذيفة حياً استخلفته
 فإن سألتني ربي قلت سمعت نبيك يقول إن سالماً شديداً الحب لله فقال له
 رجل أدلك على عبد الله بن عمر فقال قاتلك الله والله ما أردت الله بهذا
 ويحك كيف استخلف رجلاً عجز عن طلاق امرأته لا أرب لنا في أموركم
 ما حمدتها فأرغب فيها لأحد من أهل بيتي إن كان خيراً فقد أصبنا منه
 وإن كان شراً فشرنا إلى عمر بحسب آل عمر أن يحاسب منهم رجلاً واحداً
 ويسأل عن أمر محمد صلى الله عليه وسلم أما لقد أجهدت نفسي وحرمت
 أهلي وإن نجوت كفافاً لا وزر ولا أجراني اسمع

ثم كرر عليه القوم بعد هنيئة طلب الاستخلاف فقال كنت أجهت
 بعد مقالتي لكم أن أنظر فأولى رجلاً أمركم هو أحراركم أن يحملكم على
 الحق وأشار إلى عمر ثم رأيت أن لا أتحمل أمركم حياً وميتاً عليكم هؤلاء
 الرهط الذين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم من أهل الجنة علي
 وعثمان ابنا عبد مناف وعبد الرحمن وسعد خالا رسول الله صلى الله عليه وسلم
 والزبير بن العوام حواريه وابن عمته وطاحه الخير بن عبيد الله فليختاروا

منهم رجلا فاذا ولوا والياً فأحسنوا ومازرتهم وأعينوه ان اتعن أحدكم فليؤد أمانته ثم دعا هؤلاء الرهط وقال لهم اني نظرت فوجدتكم رؤساء الناس وقادتهم ولا يكون هذا الامر الا فيكم وقد قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنكم راض اني لا أخاف الناس عليكم ان استقمتم ولكن أخاف عليكم اختلافكم فيما بينكم فيختلف الناس ثم عين لهم الاجل الذي يتم فيه الانتخاب وهو ثلاثة أيام من بعد موته وقال للمقداد بن الاسود اذا وضعتوني في حفرتي فاجمع هؤلاء الرهط في بيت حتى يختاروا رجلا منهم وقال لصهيب صل بالناس ثلاثة أيام وأدخل علياً وثمان والزبير وسعداً وعبد الرحمن بن عوف وطلحة ان قدم (وكان غائباً) وأحضر عبد الله بن عمر ولا شيء له من الامر وقم على رؤوسهم فان اجتمع خمسة ورضوا رجلا وأبى واحد فاشدخ رأسه بالسيف وان اتفق أربعة فرضوا رجلا منهم وأبى اثنان فاضرب رؤوسهما فان رضى ثلاثة رجلا وثلاثة رجلا فحكموا عبد الله ابن عمر فأى الفريقين حكم له فليختاروا رجلا منهم فان لم يرضوا بحكم عبد الله بن عمر فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف واقتلوا الباقيين ان رغبوا عما اجتمع عليه الناس

فلما دفن عمر جمع المقداد أهل الشورى في بيت المسور بن مخرمة وقيل في حجرة عائشة ولم يكن قد حضر طلحة فكانوا خمسة ومعهم عبد الله بن عمر وأمروا أبا طلحة أن يحجبهم فتنافس القوم في الامر وكثر بينهم الكلام فقال أبو طلحة أنا كنت لان تدفعوها أخوف مني لان تنافسوها لا والذي ذهب بنفس عمر لا أزيدكم على الايام الثلاثة التي أمرتم ثم اجلس

في بيتي فأنظر ما تصنعون فقال عبد الرحمن بن عوف ايكم يخرج نفسه منها ويتقلدها على أن يوليها أفضلكم فلم يجبه أحد قال فأنا أنخلع منها قال عثمان فأنا أول راض ثم تتابع القوم على الرضا وعلى ساكت فقال ما تقول يا أبا الحسن قال أعطني ميثاقاً لتؤثرن الحق ولا تتبعن الهوى ولا تخلصن ذا رحم ولا تألوا الأمة فقال عبد الرحمن أعطوني موثيقكم على أن تكونوا معي على من بدل وغير وأن ترضوا من اخترت لكم وعلى ميثاق الله أن لا أخص ذا رحم لرحمه ولا آلو المسلمين فأخذ منهم ميثاقاً وأعطاهم مثله وبذلك صار الامر في عنق عبد الرحمن بن عوف فدار لياليه يلقي أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن وافى المدينة من أمراء الاجناد واشراف الناس يشاورهم ولا يخلو برجل الا أمره بعمان حتي اذا كانت الليلة التي يستكمل في صبيحتها الاجل أي منزلا المسور بن مخرمة وأمره أن يدعوا اليه الزبير وسعداً فدعاهما فبدأ بالزبير في مؤخر المسجد في الصفة التي تلي دار مروان فقال له خل ابني عبد مناف وهذا الامر فقال الزبير نصيبي لعلی : وقال لسعد أنا وأنت كلاله فاجعل نصيبك لي فاختر قال ان اخترت نفسك فنعم وان اخترت عثمان فعلي أحب الي أيها الرجل بايع نفسك وأرحنا قال يا أبا اسحاق اني قد خلعت نفسي منها على أن اختار ولولم أفعل وجعل الخيار إلى لم أردهما ثم قال لا يقوم بعد أبي بكر وعمر أحد فيرضي الناس عنه ثم انصرف الزبير وسعد وأرسل المسور إلى علي فجاء ففاجاه طويلاً ثم أرسل إلى عثمان فجاء ففاجاه حتى فرق بينهما الصبح فلما صلبوا الصبح جمع رجال الشورى وبعث إلى من حضره من المهاجرين وأهل السابقة والفضل من الانصار والامراء حتى

التيح المسجد بأهله فقال: أيها الناس ان الناس قد أحبوا أن يلحق أهل الامصار
بأمصارهم وقد علموا بمن أميرهم فتكلم الناس من جوانب المسجد مبدين
آراء لهم فقال سعد بن عبد الرحمن افرغ قبل أن يفتتن الناس فقال تبد الرحمن
اني قد نظرت وشاررت فلا تجعل أيها الرهط تلى أنفككم سبيلا ودي تلياً
فقال بعليتك عهد الله وميثاقه لتعملن بكتاب الله وسنة رسوله وسنة
الخلفتين من بعده قال أرجو أن أفعل وأعمل بمبلغ علمي وطاقتي وددنا عثمان
فقال له مثل ما قال لعلي فقال نعم فبايعه عبد الرحمن بالخلافة ولما رأى ذلك
علي تأثر وخرج وهو يقول - يبلغ الكتاب أجله ثم أقبل الناس يبايعون
عثمان ورجع علي يشق الناس حتى بايع عثمان وكانت بيعة عثمان يوم الاثنين
لليلة بقيت من ذي الحجة سنة ٢٣ فاستقبل بخلافة المحرم سنة ٢٤

ترجمة عثمان

هو عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف
الاموي القرشي وأمه أروى بنت كرز بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد
مناف ولد في السنة الخامسة من ميلاد رسول الله صلى الله عليه وسلم وشب
على الاخلاق الكريمة والسيرة الحسنة حيا غنيفا ولما بعث رسول الله
صلي الله عليه وسلم كان من السابقين الاولين أسلم على يد أبي بكر وزوجه
عليه السلام بنته رقية فلما آذى مشركو قريش المسلمين هاجرها إلى الحبشة
ثم رجع إلى مكة قبل هجرة المدينة فلما أذن الله بالهجرة هاجر إليها هو
وزوجه وحضر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كل مشاهده واسكنه لم

محضر بدرًا خلفه عليه السلام لتمريض رقية التي توفيت عقب غزوة بدر وأسهم له الرسول في غنائم بدر ثم زوجه بنته الثانية أم كلثوم وكان في عمرة الحديبية سفيراً بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين قريش فلما شاع غدرهم بعثمان بايع النبي أصحابه بيعة الرضوان وقال بيده اليمنى هذه يد عثمان فضرب بها على يده اليسرى وكان له في جيش المسرة إلى تبوك اليد الطولى فقد أنفق من ماله كثيراً واشتري بئر رومة بماله ثم تصدق بها على المسلمين فكان رشاؤه فيها كرشاء واحد منهم وقد قال عليه السلام من حفر بئر رومة فله الجنة وكان كاتب الوحي بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ولما توفى عليه السلام كان لابي بكر ثم لعمر أمينا كاتباً يستشار في مهام الامور : ولما قتل عمر كانت اغلبيّة الشوري له فاستقبل بخلافته السنة الرابعة والعشرين من الهجرة (٧ نوفمبر سنة ٤٤ م)
أول قضية نظر فيها

شاع عقب ضرب عمر أن قتله لم يكن عمل أبي لؤلؤة وحده بل كان هناك أشخاص شركوا في دمه فقد قال عبدالرحمن بن أبي بكر غداة طمن عمر مررت على أبي لؤلؤة أمس ومعه جفينة والهرمزان وهم نجبي فلما رهقتهم ناروا وسقط منهم خنجر له رأسان نصابه في وسطه فانظروا بأي شيء قتل فجاءوا بالخنجر الذي ضرب به أبو لؤلؤة فاذا هو على الصفة التي وصفها عبد الرحمن وكان رجل من تميم قد اتبع أبا لؤلؤة فقتله وأخذ منه الخنجر فلما رأى ذلك عبيد الله بن عمر أمسك حتى مات عمر ثم اشتعل على سيفه فأتي الهرمزان فقتله ثم مضى حتى أتى جفينة

وكان نصرانياً من أهل الحيرة أقدمه سعد بن أبي وقاص إلى المدينة ليعلم بها الكتابة فعلاه عبيد الله بالسيف ولما سمع بذلك صهيب وهو القائم مقام الخليفة أرسل إليه من أتى به وأخذ منه السيف وسجنه حتى يتم أمر الاستخلاف وينظر في أمره فلما بويع عثمان جلس في المسجد ودعا بعبيد الله بن عمر ثم قال لجماعة المهاجرين والانصار أشيروا على هذا الذي فتق في الاسلام ما فتق فقال على أرى أن تقتله فقال بعض المهاجرين قتل عمر بالامس ويقتل ابنه اليوم فقال عمر وبن العاص يا أمير المؤمنين ان الله قد أعفاك أن يكون هذا الحدث كان ولك على المسلمين سلطان انما كان هذا الحدث ولا سلطان لك قال عثمان أنا وليهم وقد جعلتها دية واحتملتها في مالي وكان ذلك حلاً حسناً لتلك المشكلة

كتب عثمان إلى الأمراء والأئمة

كتب عثمان إلى أمراء الأمصار كتاباً عاماً هذه صورته (أما بعد فان الله أمر الأئمة أن يكونوا رعاة ولم يتقدم اليهم أن يكونوا جبابرة وإن صدر هذه الأمة خلقوا رعاة ولم يخلقوا جبابرة وإيوشكن أئمتكم أن يصيروا جبابرة ولا يصيروا رعاة فإذا عادوا كذلك انقطع الحياء والامانة والوفاء إلا وإن أعدل السيرة أن تنظروا في أمور المسلمين وفيما عليهم فتعطوهم مالهم وتأخذوهم بما عليهم ثم تعتنوا بالذمة فتعطوهم الذي ائهم وتأخذوهم بالذي عليهم ثم العدو الذي تنتابون فاستفتحوا عليهم بالوفاء)

وكتب إلى أمراء الأجناد بالشعور (أما بعد فانكم حماة الاسلام وذادتهم وقد وضع لكم عمر ما لم يغب عنا بل كان عن ملائنا ولا يبلغني

عن احد منكم تغيير ولا تبديل فيغير الله بكم ويستبدل بكم غيركم فانظروا كيف تكونون فاني أنظر فيما ألزمني الله النظر فيه والقيام عليه

وكتب إلى عمال الخراج (اما بعد فان الله خلق الخلق بالحق فلا يقبل الا الحق خذوا الحق وأعطوا الحق به والامانة الامانة قوموا عليها ولا تكونوا أول من يسلبها فتكونوا شركاء من بعدكم إلى ما اكتسبتم والوفاء الوفاء لا تظلموا اليتيم ولا المعاهد فان الله خصم لمن ظلمهم)

وكتب إلى العامة من المسلمين بالامصار (اما بعد فاعلموا بلغتم ما بلغتم بالاقتداء والاتباع فلا تلتفتكم الدنيا عن أمركم فان أمر هذه الامة صائر إلى الابتداع بعد اجتماع ثلاث فيكم تكامل النعم وبلوغ أولادكم من السبايا وقراءة الاعراب والاعاجم القرآن فان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الكفر في العجمة فاذا استعجم عليهم امر تكلفوا أو ابتدئوا
أول خطبة له

وكان أول خطاب له عقيب بيعته أن صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال (انكم في دار قلعة وفي بقية أعمار فبادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه فلقد أتيتكم صبحتم أو أمسيتم ألا وان الدنيا طويت على الغرور فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور واعتبروا بمن مضى ثم جسدوا ولا تغفلوا فانه لا ينفل عنكم أين أبناء الدنيا واخوانها الذين أثاروها وعمروها وامتوا بها طويلا ألم تلفظهم أرموا بالدنيا حيث رمى الله واطلبوا الآخرة فان الله قد ضرب لها مثلا والذي هو خير فقال عز وجل (واضرب لهم مثلا الحياة

الدنيا كجاء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض فأصبح هشيما تذروه
الرياح وكان الله على كل شيء مقتدرا: المال والبنوز زينة الحياة الدنيا والباقيات
الصالحات خير عندك ربك ثوابا وخير أملا)

الامصار والامراء لاول عهد عثمان

كانت الامصار الكبرى لا آخر عهد عمر واول عثمان هذه

- (١) مكة وأميرها نافع بن عبد الحارث الخزاعي
- (٢) الطائف وأميرها سفيان بن عبد الله الثقفي
- (٣) صنعاء وأميرها يعلى بن منية حليف بني نوفل بن عبد مناف
- (٤) الجند وأميرها عبد الله بن أبي ربيعة
- (٥) البحرين وما والاها وأميرها عثمان بن أبي العاص الثقفي وهذه
الخمس في الجزيرة العربية
- (٦) الكوفة وما يتبعها وأميرها المنيرة بن شعبه الثقفي
- (٧) البصرة وما يتبعها وأميرها أبو موسى عبد الله بن قيس الأشعري
وهاتان بالعراق

(٨) دمشق وأميرها معاوية بن أبي سفيان الأموي

(٩) حمص وأميرها عمير بن سعد وهاتان بالشام

(١٠) مصر وأميرها عمرو بن العاص السهمي

الفتوح في عهد عثمان

كانت مغازي أهل الكوفة الري وأذربيجان وكان بالشعرين عشرة
آلاف مقاتل من أهل الكوفة ستة آلاف بأذربيجان وأربعة آلاف

بالرى وكان بالكوفة اذذاك أربعون ألف مقاتل وكان يفزو هذين الثغرين منهم عشرة آلاف مقاتل فكان الرجل يصيبه في كل اربع سنين غزوة وكانت هذه الغزوات لتأييد الفتح الاسلامى في تلك البلاد والمحافظة على الثغور من أن ينتلبها عدو واعداء من شق العصا الى الطاعة فقيدها امارة الوليد بن عقبة على الكوفة انتقضت أذر بيجان ومنعت ما كانت صالحت عليه فغزاها الوليد حتى رضيت بأن تؤدى ما كانت صولحت عليه وسير سلمان بن ربيعة الباهلى الى أرمينية فشنت شمل المجتمعين بها ممن أراد نقض الطاعة

وفي عهد امارة سعيد بن العاص فتحت طبرستان (١) سار اليها بجند كثيف فيه الحسن والحسين ابنا على والعبادة ابنا عباس وعمر وعمر و ابن العاص والزبير وحذيفة بن اليمان وغيرهم فقاتل أهل طبرستان حتى طلبوا الصلح

وفي سنة ٣٢ أو ذل عبد الرحمن بن ربيعة الباهلى في بلاد الخزر (٢) حتى وصل بلنجر وهى أكبر مدنها خلف باب الابواب ولكن الترك تجمعوا عليهم هناك وصادموهم بجمعهم الكبير فاصيب عبد الرحمن بن ربيعة وانهمزم المسلمون ففرقوا فرقتين فرقة عادت فقاتلت سلمان بن ربيعة الذى كان قد أرسل مدداً لآخيه فنجبت وفرقة أخرى أخذت طريق جيلان وجرجان وجعل على ثغر الباب بعد عبد الرحمن اخوه سلمان .

(١) بلدان واسعة على شاطئ بحر الخزر قصبتها أمل وطبرستان بين الرى وقرمس والبحر وبلاد الديلم والجل (٢) هي بلاد الترك خلف باب الابواب المدروف بالدر بند

أما البصرة فكانت مغازيها بلاد فارس وخراسان وتمر السند ففي عهد أماره
عبد الله بن عامر انتقض أهل فارس وقتلوا أميرهم - بييد الله بن عامر - فسار إليهم ابن
عامر وأوقع بهم وقعة شديدة وفي عهد أماره ابن عامر على البصرة قتل يزيد جرد آخر
ملوك الفرس وبموته انقضت الدولة الساسانية

وفي سنة ٣١ انتقض أهل خراسان فخرج إليهم ابن عامر في جيش
كثيف فلما وصل الطبسين وهما بابا خراسان تلقاه أهلها بالصلح ثم سار
إلى تهمستان فقاتل أهلها حتى طلبوا الصلح فصالحهم ثم قصد نيسابور
فصالحه أهلها ثم وجه الأحنف بن قيس إلى طخارستان (١) ثم إلى مرو
الروذ فلقيته جموع هزمها وكانت للأحنف فتوح كثيرة بتلك الجهات ثم
سار إلى بلخ فصالحه أهلها ثم ذهب إلى خوارزم فاستعصت عليه فمادعها . ونام
لابن عامر هذه الفتوح عاد إلى البصرة

وأما الشام فقد كانت جمعت كلها لمعاوية بن أبي سفيان وكانت له
غزوات مع الروم فبلغ عمورية وأسكن الحصون التي في طريقه جماعه
كثيرة من أهل الشام والجزيرة وسير حبيب بن مسعدة بأمر عثمان إلى
أرمينية فسار حتى أتى قاليقلا فصالحه أهلها ثم استمر في فتوحه حتى وصل
تفليس (٢)

(١) ولاية واسعة من نواحي خراسان وهي طخارستان العليا والسفلى فالعليا شرقى
بلخ وغربى نهر جيحون وبينها وبين بلخ ٢٨ فرسخا والسفلى غربى جيحون أيضا إلا
أنها أبعد من بلخ وأضرب في الشرق من العليا وأكبر مدية بطخارستان طاقان (٢) مدينة
بأرمينية الأولى وكانت قصبة ناحية جرجان قرب باب الأبواب

وفي سنة ٢٨ فتح معاوية جزيرة قبرس وغزاه مع جمع كثير من الصحابة منهم
عبادة بن الصامت ومعه زوجته أم حرم بنت ملحان وكان معاوية كثيرًا ما يتننى
غزو الروم في البحر إلا أن عمر كان يمنعه من ذلك لأنه كان يرى الغزو فيه تغريراً
بالمسلمين

كتب عمر إلى عمرو بن العاص صف لي البحر وراكبه فإن نفسي تنازعني إليه
فكتب إليه عمرو (إنى رأيت خلقاً كبيراً يركب به خلق صغيراً ركن خرق القلوب
وان تحرك أزع العقول يزاد فيه اليقين قلة والشك كثرة هم فيه كدود على عودان
مال خرق وان نجابرق) فلما قرأ عمر كتب إلى معاوية (لا والذي بعث محمدًا بالحق لا
أجل فيه مسلماً أبداً)

فلما كان زمن عثمان أذن له في ذلك وقال لا تنتخب الناس ولا تفرع
بينهم فمن اختار الغزو طائفاً فاجمله وأذنه ففعل وسار إلى قبرس وأمدّه من
مصر عبد الله بن سعد بن أبي سرح أميرها بنفسه ففتحوها صاحبا على
سبعة آلاف دينار كل سنة يؤدون إلى الروم مثلها لا يمنعمهم المسلمون من
ذلك وليس على المسلمين منعهم ممن ارادهم من ورائهم وعليهم ان يعلموا
المسلمين بمسير عدوهم من الروم اليهم ويكون طريق المسلمين إلى
العدو عليهم

وقد رتب معاوية أمر الغزو في البحر وأعد لذلك اسطولا جعل
أميره عبد الله بن قيس الحارثي حليف بني فزارة فكان يغزو كثيراً ما
بين شاتية وصائفة في البحر ولم يفرق فيه احد ولم ينكب ولكنه خرج
في يوم طليعة في قارب فانتهى إلى المرقى من ارض الروم فنذربه

فتكاثروا عليه وقتلوه

وأما في مصر ففي عهد عمرو بن العاص انتقضت الاسكندرية بسبب مكاتب اب ملك الروم وتسيره اليهم أحد قواده في أسطول عظيم فصار اليها عمرو وافتتحها بعد أن هزم الروم هزيمة منكرة وهدم سور اسكندرية واستولى على كثير من مراكب الاسطول. وسير عمرو عبد الله بن سعد بن أبي سرح الى افريقية وهي السواحل الشمالية للقارة من طرابلس الى طنجة فصار ابن سعد واستولى على كثير من المدن التي كانت تابعة للروم وانتهى أمرهم معهم بالصلح على أن يدفعوا له ألفي ألف وخمسة ألف دينار

وفي عهد امارة عبد الله بن سعد بلذنه مجيء ملك الروم باسطول عظيم فيه ستمئة مركب فصار اليه ابن سعد باسطوله وخرج معاوية بنفسه من الشام باسطوله ولما اجتمعت مراكب المسلمين تقابلات في البحر باسطول قسطنطين فاتفق الفريقان على ربط المراكب بعضها ببعض ففعلوا ثم دارت بين الفريقين رحا الحرب الى سطح الماء فكانت وقعة هائلة سموها ذات الصواري وانهزمت فيها مراكب الروم هزيمة منكرة وجرح ملكهم فانهزم بمن نجا من قومه واستولى المسلمون على كثير من مراكبهم . ففي عهد عثمان صارت الخلافة الاسلامية دولة بحرية بما صار اليها من مراكب الروم بما استحدثته معاوية وعبد الله بن سعد من المراكب ولم يكن من ذلك بد لحماية الثغور الاسلامية التي كان يشن الروم عليها الاشارة من وقت لا آخر

المحاضرة السابعة والعشرون

الاحوال الداخلية والفتن

الاحوال في الداخلية

لا بد ان نبسط القول فيما كانت عليه أحوال المسلمين في الأُمصار
المختلفة خصوصاً البصرة والكوفة ومصر لأن الفتنة الكبرى قد استخدم
لها العامة من هذه الأُمصار الثلاث

روى الطبري عن الحسن البصري قال كان عمر بن الخطاب قد حَجَرَ
على أعلام قريش من المهاجرين الخروج في البلدان إلا باذن وأجل فشكوه
فبُله نَقال ألا إني سننت الاسلام سن البعير يبدأ فيكون جذعاً ثم ثنياً
ثم رباعياً ثم سديساً ثم بازلاً ألا فهل ينتظر بالبازل إلا نقصان ألا وان
الاسلام قد نزل ألا وان قريشاً يريدون أن يتخذوا مال الله معونات
دون عبادة ألا فأما وابن الخطاب حى فلا انى قائم دون شعب الحرة آخذ
بملاقيم قريش وحجزها ان يتهافتوا الى النار — فلما ولى عثمان لم يأخذهم
بالذى كان يأخذهم به عمر فانساحوا في البلاد فلما رأوها ورأوا الدنيا ورآهم
الناس انقطع من لم يكن له طول ولا مزية في الاسلام فكان مغموماً في
الناس وصاروا أوزاعاً اليهم وأملوهم وتقدموا في ذلك فقالوا يملكون فنكون
قد عرفناهم وتقدمنا في التقرب والانقطاع اليهم فكان ذلك أول وهن
دخل على الاسلام وأول فتنة كانت في العامة . وقال الشعبي لم يمت عمر
حتى ملته قريش وقد كان حصرهم بالمدينة فامتنع عليهم وقال ان أخوف

ما أخاف على هذه الأمة انتشاركم في البلاد فإن الرجل ليستأذنه في الغزو وهو ممن حبس بالمدينة من المهاجرين ولم يكن فعل ذلك بنيتهم من أهل مكة فيقول قد كان لك في نزولك مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يبلغك وخير لك من النزول واليوم ألا تري الدنيا ولا تراك فلما كان عثمان خلى عنهم فاضطربوا في البلاد وانقطع اليهم الناس فكان أحب اليهم من عمر وروى الطبري بسنده قال لم تمض سنة من اماره -ثمان حتى اتخذ رجال من قريش أموالا في الامصار وانقطع اليهم الناس

وكانت قريش بحسب القاعدة التي كانت متبعة كاعضاء الاسرة التي لها الامر كبارها موشحون لان يلوا الخلافة يوما ما وليس هناك نظام يعين سابقهم ولا حقتهم ومع هذا فهم متباعدا والعشائر مختلفوا الاسر فكان نظر عمر والحال ما ذكرنا دقيقا في الحرج على اعلامهم أن يبارحوا حاضرة الخلافة من الضروري أن نشرح حال المسلمين في عهد عثمان حتى يتضح كيف نتجت تلك الثورة المشؤومة التي جنى المسلمون مرها أحقاداً طوية وهم الى الآن في آلام شديدة من جرائمها

كانت عامة المسلمين حتى آخر حياة عمر لا يعرفون الاختلاف بينهم اذ أن دواعي الاختلاف كانت مفقودة وأكبر داعية انزع الشريين العرب أن يختلف رؤساؤهم ثم لا توجد قوة شديدة تقف بالمختلفين عند الحد الذي لا ينبغي أن يتجاوزه. كانت روح عمر تخيف الرؤساء وذوى الرؤوس النابغة فلا يجدون سبيلا الى نزاع أو شر الى ما وقر في أنفسهم من الالفة الإسلامية ومتى أمن اختلاف الكبراء فلا معنى للشقاق بين

الرعية وظل العدل وارف فوق رؤوسها

ولي عثمان سعد بن أبي وقاص الكوفة وكان معه عبد الله بن مسعود
على الخراج فاقترض سعد من ابن مسعود مالا لاجل ولما حل الاجل جاء
ابن مسعود يتقاضاه فلم يتيسر لسعد السداد فارتفع بينهما الكلام حتى استعان ابن
مسعود باناس من الرعية على استخراج المال واستعان سعد باناس على استنظاره
فاقترقوا وبعضهم يلوم بعضا يلوم هؤلاء سعدا ويلوم هؤلاء عبد الله بن مسعود
بلغ هذا الشقاق عثمان فغضب على الرجلين فعزل سعدا عن امانة
الكوفة وابقي ابن مسعود على الخراج وولى الكوفة الوليد بن عقبة وكان
على عرب الجزيرة عاملا لعمر بن الخطاب ولما قدم عتبة كان محببا الى
الناس رفيقا بهم : حدث في زمنه أن شبابا من شباب الكوفة نقبوا على
دجل منها داره وقتلوه وكان له جار قد أشرف على الحادث ورآه فاستصرخ
الشرط فجاؤا وقبضوا عليهم وفيهم زهير بن جندب الازدي ومورع بن
أبي مورع الاسدي وشبيل بن أبي الازدي فحواكموا وثبتت عليهم جريمة
القتل فقتلوا فاضطعن آباؤهم لذلك علي الوليد وصاروا يتحينون الفرص
للايقاع به وكان للوليد سمار يسرون عنده ومنهم أبو زيد الطائي وكان
أبو زيد نصرانيا ثم اسلم وكان معروفا بشرب الخمر فأتى أولئك النفر
الحاقدين على الوليد فقال لهم هل لكم في الوليد يماقرأ بازيدا الخمر فاذا عوا
ذلك بين الناس حتي شاع على ألسنتهم فتوجهوا الى ابن مسعود فاخبروه
بذلك فقال ابن مسعود من استتر عنا شيء لم تتبع دورته ولم نهتك ستره
فأرسل الوليد الى ابن مسعود فعاتبه في ذلك وقال أيرضي من مثلك بأن

يجيب قوما موتورين بما أجبت اى شىء أستتر به انما يقال هذا للمريب
فتلاحيا وافترقا على تفاضب : ولم يكف ذلك أولئك القوم بل صسموا على
الذهاب الى دار الخلافة وشكوى الوليد والشهادة عليه بشرب الخمر فقدم
من انتدبا للشهادة على عثمان ومعهما نفر يعرفهم عثمان ممن قد عزل الوليد
عن الاعمال فاخبروه الخبر فقال من يشهد فقالوا فلان وفلان فسألها
كيف رأيتما قالان كنا من غاشيته فدخلنا عليه وهو يقىء الخمر فقال
عثمان ما يقىء الخمر الا شاربها فارسل عثمان الى الوليد فأقدمه المدينة وافتى
على بوجوب حده فحدوه حد شارب الخمر وعزله عثمان وولي على الكوفة
بدله سعيد بن العاص فخرج حتى أتى الكوفة ومعه أولئك النفر الذين أوقعوا
بالوليد فلما وصلها صعد منبرها وقال لهم والله اني قد بعثت اليكم وانا كاره
ولكنى ام أجد بدا اذا أمرت أن أتمر الا ان الفتنة قد اطلعت خطمها
وعينيها والله لا ضربن وجهها أو تعيننى وانى لرائد نفسى اليوم . ثم نزل
وسال عن الكوفة وأهلها حتى خبرهم ثم كتب الى عثمان (ان اهل الكوفة
قد اضطرب امرهم وغلب أهل الشرف منهم والبيوتات والسابقة والقدمة
والغالب على تلك البلاد روادف ردت وأترب حقت حتى ما ينذر الى
ذئ شرف ولا بلاء من نازاتها ولا نابتها : فكذب اليه عثمان (أما بعد
ففضل اهل السابقة والقدمة ممن فتح الله عليه تلك البلاد وليكن من
نزاها يسببهم تبعاً لهم الا أن يكونوا تناقلوا من الحق وتركوا القيام به وقام
به هؤلاء واحفظ لكل منزلته واعظمهم جميعاً بمسطهم من الحق فان
المعرفة بالناس يصاب بها العدل) فارسل سعيد الى وجود الناس وأشرافهم

من أهل الأيام والقادسية فقال لهم انتم وجوه الناس من ورائكم والوجه
ينبيء عن الجسد فأبلغونا حاجة ذى الحاجة وخلة ذى الخلة وأدخل معهم
من يحتمل من الملاحق والروادف وخلص بالقراء والمتسمتين لسمره فكانما
كانت الكوفة يدساً شملته نار فانقطع إلى ذلك الضرب ضربهم وفشت
الزالة والاذاعة فكتب سعيد إلى عثمان بذلك فجمع أهل المدينة وأخبرهم
بما جاءه من عند سعيد وبقدر تشاؤمه من حال أهل الكوفة واضطراب أمرهم
كان لسعيد مجلس خاصة وهم من قدمنا صفتهم وكان في بعض الأحيان
يجلس للناس جلوساً عاماً ولا يحجب عن مجلسه أحد فينما هو ذات
يوم في مجلس العامة وهم يتحدثون اذ قال قائل ما أجود طلحة بن عبيد الله
فقال سعيد بن العاص ان من له مثل النشاستج لحقيق أن يكون جواداً والله
لو ان لي مثله لأعاشكم الله عيشاً رغداً فقال شاب حدث والله لوددت
أن هذا اللطاط لك (وهو ما كان لا كسرى على جانب الفرات الذي
يلي الكوفة) فقال الناس لذلك الشاب فض الله فاك تتني له سوادنا
ثم ثار اليه جماعة من سنفهائهم فيهم الاشرى النخعي وعمير بن ضابط
ونظراؤهما فأراد أبو الشاب أن يمنع منه فضربوهما كليهما في مجلس سعيد
وسعيد يناشدهم وكادت تكون فتنة عامة لولا أن هدأها سعيد ومنع أوائك
النفر من شتيان مجلسه فامتنعوا ولا هم لهم الا الوقعة في سعيد ومن ولاه
فكتب اشراف أهل الكوفة الى عثمان بذلك وطلبوا منه اخراج هؤلاء
النفر من الكوفة فامر بنفيهم الى الشام ليكونوا تحت نظر معاوية بن أبي
سفيان فلما قدموا على معاوية أراد استصلاحهم بالمعروف واكرمهم ثم قال

لهم ذات يوم انكم قوم من العرب لكم أسنان ولكم ألسنة وقد أدركتم
 بالاسلام شرفا وغلبتم الامم وحويتم مراتبهم وموارثهم وقد بلغني انكم
 تقسم قريشا وان قريشالو لم تكن ددتهم أذلة كما كنتم ان أئمتكم لكم الى
 اليوم جنة فلا تسدوا عن جنتكم وان أئمتكم اليوم يصبرون لكم على الجور
 ويحتملون منكم المؤونة والله لتنتهن اوليبتليكنكم الله بمن يسوءكم ثم لا يحمدكم
 على الصبر ثم تكونون شركاءهم فيما جررتهم على الرعية في حياتكم وبعد
 موتكم فردوا عليه رداً دل على تمكن الفتنة في رءوسهم فرد عليهم معاوية
 رداً شديداً وعلم أنهم لا يصلحون وقال لهم لما ظنوا أنفسهم في الكوفة
 مه ان هذه ليست يارض الكوفة والله ان رأي أهل الشام ما تصنعون وأنا
 أأمامهم ما ملكت أن انهاهم عنكم حتى يقتلوكم فاعمرى ان صنيعكم يشبه
 بعضه بعضا وكتب الى عثمان بانه لم يقدر على استصلاحهم وأنه لا يود
 بقاءهم في الشام فأمره عثمان أن يسيرهم الى حمص عند عبد الرحمن بن خالد
 ابن الوليد فادبهم عبد الرحمن تأديبا شديداً حتى اظهروا الرجوع والندم
 فأمر عثمان أن يعيدهم الى الكوفة فلما عادوا اشتد أمرهم في الوقعة بعثمان
 وعماله وهؤلاء هم رؤوس الفتنة من أهل الكوفة وهم مالك بن الحارث
 الاشتر وثابت بن قيس النخعي وكميل بن زياد النخعي وزيد بن صوحان
 العبدى وجندب بن زهير النامدي وجندب بن كعب الازدي وعروة بن
 الجعد وعمر بن الحمق الخزاعي وفي آخر عهد عثمان خرج سعيد اليه ليلفقه احوال
 الكوفة ولما أراد العودة خرج اليه أولئك الناس ومن استغفوه وقالوا والله لا
 يدخلها علينا والياً أبداً ولما علم بذلك عثمان عزله عنهم وولى عليهم أبا موسى الاشعري

حسب طلبهم هكذا كان الحال بالكوفة غلب فيها النوفاء اهل الحلم وضعف سلطان الامراء وقوة الطاعة لم يبق لها في قوس القوم من اثر وفي البصرة التي هي الحاضرة الثانية للعراق لم تكن الحال خيراً من ذلك ففي سنة ٢٩ هاج اهلها على أبي موسى الاشعري عاملهم واستغفوا عثمان منه فعزله عنهم وولى بدله عبد الله بن عامر وكان له في أعمال الفتوح بالكوفة اثر جيد وكانت امارته تشمل أعمال البصرة وأعمال البحرين لثلاث سنين من امارته بلغه أن في عبد القيس رجلاً نازلاً على حكيم ابن جبلة وكان حكيم رجلاً لصاً اذا قفلت الجيوش خنس عنهم فسعي في ارض فارس فيغير على أهل الذمة ويتنكر لهم ويفسد في الارض ويصيب ما شاء ثم يرجع فشكاه أهل الذمة وأهل القبلة الى عثمان فكتب الي ابن عامر يأمره بحبس حكيم ومن كان مثله بالبصرة فلا يخرج منها حتى تأنسا منه ورشداً فكان لا يستطيع ان يخرج عنها فلما قدم ذلك الرجل المسمى عبد الله بن سبأ ويكنى بابن السوداء نزل عليه وكان يلتقي الى الناس في السر تعاليم خبيثة وأصل هذا الرجل يهودي أظهر الاسلام ليضل الناس فصار يقول لهم عجبت ممن يقول برجة المسيح ولا يقول برجة محمد فيقبل منه الناس ذلك ويقول لهم عجايبكم ايها المسلمون يكون فيكم أهل بيت نبيكم ثم يقصون عن أمركم الى ما يماثل هذا الكلام الذي سهل قبوله لانه جاءهم من قبل تعظيم نبيهم ورفع مقامه على سائر الانبياء ثم ما هو قريب من ذلك من استهجان ترك آله واقصائهم عن امر خلافتهم فبلغ شيء من خبره عبد الله بن عامر فاحضره وسأله من انت فقال رجل من أهل الكتاب رغب في الاسلام ورغب في جوارك فقال ما

يبلغنى ذلك فاخرج عنى فخرج حتى اتى الكوفة فأخرج منها فصار الى مصر
وهناك وجد مهنده بعد أن تفت ماتت بالعراق

أما الامر فى مصر فقد كان أشد مما فى العراق فان ابن سبأ لما جاءها لى
الى الناس تعالىمه ومن ضمنها أنه كان لله ألف نبي ولكل نبي وصى وكان على
وصي محمد ثم قال محمد خاتم الانبياء وعلى خاتم الاوصياء ثم قال بعد ذلك
من أظلم ممن لم يحز وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم ووثب على وصيه وتناول
أمر الامة ثم قال بعد ذلك ان عثمان أخذها بنيرحق وهذا وصي رسول
الله صلى الله عليه وسلم فانهضوا فى هذا الامر نحر كوه وابدهوا بالطن
على امرائكم واظهروا الامر بالمعروف والنهى عن المنكر تستميلوا الناس
وادعوهم الى هذا الامر فبث دعائه وكاتب من كان استفسد فى الامصار
وكاتبوه ودعوا فى السر الى ما عليه رأيهم وأظهروا الامر بالمعروف والنهى
عن المنكر وجعلوا يكتبون الى الامصار يكتب يضمنونها فى عيب
ولا تهم ويكتبهم اخوانهم بمثل ذلك ويكتب أهل كل مصر منهم الى مصر
آخر بما يضمنون فيقرؤه أولئك فى أمصارهم وهؤلاء فى أمصارهم حتى تناولوا
بذلك المدينة واوسعوا الارض اذاعة وهم يريدون غير ما ينهرون ويسرون
غير ما يريدون فيقول أهل كل مصر انالقي عافية مما ابتلى به هؤلاء الناس الا أهل
المدينة فانهم جاءهم ذلك عن جميع الامصار فقالوا انالقي عافية مما ابتلى به الناس
فاتوا عثمان فقالوا يا أمير المؤمنين أيا تيك عن الناس الذى يأتينا فقال
لا والله ما جاءنى الا السلامة فأخبروه بما جاءهم فأشاروا عليه أن يبعث الى
الامصار من يستقصي أخبارها ويعلم علم ما فيها فتدب لذلك رجلا

سيرهم الى الامصار فسير محمد بن مسلمة الى الكوفة وأسامة بن زيد الى البصرة وعبد الله بن عمر الى الشام وعمار بن ياسر الى مصر وفرق رجالا سوام في البلاد الاخرى فاقبل جميعهم الاعمار فقالوا أيها الناس ما أنكرنا شيئا ولا أنكره أعلام المسلمين ولا عوامهم أما عمار فقد ورد الى عثمان كتاب من عبد الله بن سعد بن أبي سرح أمير مصر يخبره فيه انه قد استماله قوم بمصر وأنقطعوا اليه منهم عبد الله بن السوداء وخالد بن ملجم وسودان بن حمران وكنانة ابن بشر وكان من أشد المؤلّين على عثمان بمصر رجلا ن محمد بن ابي حذيفة وكان الذي دعاه الى ذلك انه كان يتيم في حجر عثمان فكان عثمان والى أهل بيته ومحتمل كلهم فسأل محمد عثمان العمل حين ولي فقال يا بني لو كنت رضى ثم سألتني العمل لاستعملتك ولكن لست هناك قال فأذن لي فلاخرج فلا طلب مايقوتني قال اذهب حيث شئت وجهره من عنده وحمله وأعطاه فلما وقع الى مصر كان فيمن تغير عليه أن منعه الولاية والثاني محمد بن أبي بكر وقد كان من الاسلام بالخل الذي هو به وغره أقوام فطمع وكانت له دالة فلزمه حق فاخذ عثمان من ظهره ولم يدهن فاجتمع هذا الي هذا فصار كما يقول سالم بن عبد الله بن عمر مذمما بعد ان كان محمدا وانما مال اليهم عمار بن ياسر لانه كان كذلك حاقدا على عثمان فقد قال سعيد بن المسيب انه كان بينه

وبين عباس بن عتبة بن أبي لهب كلام فضر بهما عثمان وكان قذفا

أما الحال في الشام فقد كانت أحسن الاحوال لما عرف به معاوية من الحزم والضبط الا انه كان فيها حادثة استعملها أولئك الضالون في التشنيع على عثمان وعماله وذلك ان ابن السوداء لما اتى الشام جاء ابا ذر فقال

يا أباذر ألا تعجب من معاوية يقول المال مال الله إلا أن كل شيء لله كأنه
 يريد أن يحتجبه دون المسلمين ويمحو اسم المسلمين فاتاه أبوذر فقال ما يدعوك إلى
 أن تسمى مال المسلمين مال الله قال يرحمك الله يا أباذر السنا عباد الله والمال ماله
 والخلق خلقه والامر امره قال فلا تقله قال فاني لا أقول أنه ليس لله وأكن سأقول
 مال المسلمين ثم أتى ابن السوداء أبا الدرداء فقال له أبو الدرداء من أنت
 أظنك يهوديا ثم أتى عبادة بن الصامت فتعلق به وأتى به معاوية فقال
 هذا والله الذي بعث إليك أبا ذر ثم قام أبوذر بالشام وجعل يقول يا معشر
 الأغنياء واسوا الفقراء بشر الذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها
 في سبيل الله بمكاو من نار تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم فما
 زال حتى ولع الفقراء بمثل ذلك وأوجبوه على الأغنياء وحتى شكا الأغنياء ما
 يلقون من الناس فكتب معاوية إلى عثمان بذلك فأمره عثمان أن يجهز
 إليه أبا ذر فأرسله إليه فلما قدم عليه ورأى المجالس في أصل سلم قال بشر أهل
 المدينة بغارة شعواء وحرب مذكر ولما دخل على عثمان قال يا أبا ذر ما لاهل
 الشام يشكون ذرب لسانك فأخبره أنه لا ينبغي أن يقال مال الله ولا ينبغي
 للأغنياء أن يقتنوا مالا فقال يا أبا ذر على أن اقضي ماعلى وأخذ ماعلى
 الرعية ولا أجبرهم على الزهد وأن أدعوهم إلى الاجتهاد والاقتصاد وكان
 هذا الرأي الاشتراكي متمكنا من أبي ذر وقد وجد الخليفة أنه رأي فائق
 فأمر أبا ذر أن يخرج إلى الربذة فيقيم بها ويقال إن أباذر هو الذي طلب
 منه ذلك فسيره وأجري عليه رزقا وعلى رافع بن خديج مثله وقد توفي
 أبو ذر بالربذة سنة ٣٢ وكان من السابقين إلى الاسلام أما الحال في المدينة

فقد كانت تلك الكتب التي يرسلها السبثيون سببا لكثرة الحديث في
عمال ثمان وفشوا القالة حتى تأثرت بذلك نفوس الكثير منهم وفيهم من
هو حاقد على ثمان لأسباب تخصه وقد بلغ الحال أن بعضهم واجه ثمان
بما يسوءه من الكلام فكان يتحمل ذلك بصبر

لما رأى ثمان كثرة الكلام أرسل الى عماله بالامصار أن يوافقوه جميعا
بالوسم فقدوا عليه عبد الله بن عامر ومعاوية وعبد الله بن سعد وأدخل
مهمهم في المشورة سعيد بن العاص وعمرو بن العاص فقال لهم ويحكم ما هذه
الشكاية وما هذه الاذاعة انى والله لخائف أن تكونوا مصدوقا عليكم وما
يعصب هذا الابى فقالوا له ألم تبعث ألم يرجع اليك الخبر عن القوم ألم يرجعوا
ولم يشافهم أحد بشىء لا والله ما صدقوا ولا يروا ولا نعلم لهذا الامر أصلا وما
كنت لتأخذ به أحد أفيق بك على شىء وماهى الا اذاعة لا يحل الاخذ بها ولا الانتهاء
اليها قال فأشيروا على فقال سعيد بن العاص هذا أمر مصنوع يصنع فى السر
فيلقى به ذيرذى المعرفة فيخبر به فتحدث به فى مجالسهم قال فما دواء ذلك قال طلب
هؤلاء القوم ثم قتل هؤلاء الذين يخرج هذا من عندهم وقال عبد الله بن سعد
خذ من الناس الذى عليهم اذا أعطيتهم الذى لهم فانه خير من ان تدعهم
وقال معاوية قد وليتى فوليت قوما لا يأتيك عنهم الا الخير والرجلان
أعلم بناحيتهما قال فما رأى قال حسن الادب قال فما ترى يا عمرو قال
أرى انك قد لنت لهم وتراخيت عنهم وزدتهم على ما كانت يصنع عمر
فأرى ان تلزم طريقة صاحبك فتشتد فى موضع الشدة وتلين فى موضع
تلين ان الشدة تنبغى لمن لا يألوا الناس شرا واللين لمن يخلف الناس

بالنصح وقد فرشتهما جميعا اللين : فترون أن جميعهم أشاروا إليه باستعمال
 الشدة مع هؤلاء الذين لا هم لهم الا اذاعة الاكاذيب لتنفيذ اراض في أنفسهم
 فقال لهم عثمان كل ما اشرتم به على قد سمعت ولكل امر باب يؤتى منه ان هذا
 الامر الذي يخاف على هذه الامة كائن وان باب الذي يتعلق عليه فيكفكف
 به اللين والمؤاتاة والمتابعة الا في حدود الله التي لا يستطيع أحد أن يبادى
 بسبب احدها فان سده شيء فرفق فذاك والله ليفتحن وليست لاحد على حجة
 حق وقد علم الله أني لم آل الناس ولا ننسي ووالله ان رحا الفتنة لدائرة فطوبى
 لثمان ان مات ولم يحركها كفكفوا الناس وهبوا لهم حقوقهم واغفروا
 لهم واذا تعوطيت حقوق الله فلا تدهنوا فيها . ثم رد الامراء الى أعمالهم
 ولم يامر بشيء مما اشاروا به وقد عرض معاوية على عثمان أن يسير معه الى
 الشام فأبى وقال لا أبيع جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم بشيء وان
 كان فيه قطع خيط عنقي فعرض عليه أن يرسل له جنداً يقيمون معه
 بالمدينة للمحافظة عليه فأبى وقال لا أقتر على جيران رسول الله الارزاق
 نجند يساكنهم وأضيق على أهل دار الهجرة والنصرة

كان التصميم الذي دبره السبئية ان يشوروا بعد مبارحة أمرائهم
 للامصار فلم يتبأ لهم ذلك ولم ينهض الا أهل الكوفة خرجوا بحجة انهم
 يستغفون عثمان من سعيد بن العاص فخرجوا حتي اذا قابلوا سعيداً بالجرعة
 ردوه واجتمع الناس على أبي موسى الاشعري وأقره عثمان ولما رجع
 الامراء لم يكن للسبئية سبيل الى الخروج فكاتبوا أشياعهم من أهل
 الامصار أن يتوافقوا بالمدينة لينظروا فيما يريدون واطهروا أنفسهم يامرون

بالمعروف وينهون عن المنكر ويسألون عثمان عن أشياء لتطير في الناس
ولتحقق عليه فخرجت وفود من الأمصار الثلاث حتى قاربت المدينة فلما علم عثمان
بمجيئهم أرسل اليهم رجلين ليعلماهم القوم وماذا يريدون وكان الرجلان ممن ناله
أدب من عثمان فاصطبروا ولم يضطغنا فلما رآهما أولئك القادمون أخبرهما بما يريدون
فقالوا اننا نريد أن نذكر له أشياء قد زرناها في قلوب الناس ثم نرجع اليهم فنزعم
لهم أننا قررنا ههنا فلم يخرج منها ولم يتب ثم نخرج كأننا حجاج حتى نقدم فتحيط به
فنخلعه فان أبي قتلناه فرجع الرجلان الي عثمان وأخبراه الخبر فضحك ثم أحضر
هؤلاء القوم وجمع الناس وأخبرهم خبر القوم فأشار عليهم بعض المشيرين منهم
أن يقتلهم فقال عثمان بل نغفو ونقبل ونبصرهم بمجدنا ولا نحد أحدًا حتى
يركب حدًا أو ييدي كفرًا أن هؤلاء ذكروا أمورًا قد علموا منها مثل
الذي علمتم إلا هم زعموا أنهم يذكرونها ليوجبوها على عند من لا يعلم
قالوا أتم الصلاة في السفر وكانت لا تتم إلا وأناي قدمت بلدًا فيه أهلي
فأتممت لهذين الأمرين أو كذلك هو قالوا نعم

وقالوا حميت حمي واني والله ما حميت حمي قبلي والله ما حموا شيئًا
لاحد ما حموا إلا ما غلب عليه أهل المدينة ثم لم يمنعوا من رعية أحدًا
واقصروا لصدقات المسلمين يحمونها لئلا يكون بين من يليها وبين أحد
تنازع ثم ما منعوا ولا منحوا منها أحدًا إلا من ساق درهما ومالي من بعير
غير را حلتين ومالي من ثاغية ولا راغية واني قد وليت واني أكثر العرب
بعيرًا وشاة فما لي اليوم شاة ولا بعير غير بعيرين لحجي ا كذلك هو قالوا
اللهم نعم

وقالوا كان القرآن كتباً فتركها الا واحداً ألا وان القرآن واحد جاء
 من عند واحد وانما أنا في ذلك تابع لهؤلاء أ كذلك هو قالوا نعم
 وقالوا اني قد رددت الحكم وقد سيره رسول الله صلى الله عليه وسلم والحكم
 مكى سيره رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة الى الطائف ثم رده رسول الله صلى
 الله عليه وسلم فرسول الى سيره ورسول ردهاً كذلك هو قالوا نعم
 وقالوا استعملت الاحداث ولم أستعمل الا مجتمعاً شتملاً مرضياً
 وهؤلاء أهل عملهم فسلوهم عنه وهؤلاء أهل بلده ولقد ولي من قبلى
 حدث منهم وقيل في ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم أشد مما قيل لى في استعماله
 سامة أ كذلك هو قالوا نعم

وقالوا ااني أعطيت ابن أبي سرح ما أفاء الله عليه واني انما نقلته خمس
 ما أفاء الله عليه من الخمس وكان مئة ألف وقد نقل مثل ذلك أبو بكر
 وعمر فزعم الجند أنهم يكرهون ذلك فرددته عليهم وليس ذلك لهم أ كذلك هو
 قالوا نعم وقالوا اني أحب أهل بيتي وأعطيتهم فاما ما حبي فانه لم يمل معهم على
 أجور بل أحمل الحقوق عليهم وأما اعطاؤهم فاني انما أعطيتهم من مالى ولا
 أستحل أموال المسلمين لنفسي ولا لاحد من الناس ولقد كنت أعطى
 العطية الكبيرة الرغبة من صلب مالى أزمان رسول الله صلى الله عليه
 وسلم وأبي بكر وعمر وأنا يومئذ حريص شحيح أخين أتيت على أسنان
 هل بيتي وفنى عمرى وودعت الذي لى في أهلي قال الملحدون ما قالوا
 واني والله ما حملت على مصر من الامصار فضلاً فيجوز ذلك لمن قاله
 ولقد رددته عليهم وما قدم علي الا الاخماس ولا يحل لى منها شيء فولى

المسلمون وضعها في أهلها دوني ولا يتقلت من مال الله بفلس فمافرقه وما أتبلغ منه ما
آكل الامن مالى

وقالوا أعطيت الارض رجالاً وان هذه الارضين شاركهم فيها المهاجرون
والانصار أيام انتتحت فمن أقام بمكان من هذه الفتوح فهو أسوة أهله ومن رجع
الى أهله لم يذهب ذلك ما حوى الله فنظرت في الذي يصيبهم مما أفاء الله عليهم فبعته
لهم بامرهم من رجال أهل عقارب بلاد العرب فنقلت اليهم نصيبهم فهو في أيديهم دوني
وكان عثمان قد قسم ماله وأرضه في بني أمية وجعل ولده كبعض من يعطي فيه فبدأ بيني
أبى العاص فاعطي آء الحكم رجالهم عشرة آلاف عشرة آلاف فاخذوا
مئة ألف وأعطى نى عثمان مثل ذلك وقسم في بني العاص وفي بني العيص وفي بني
حرب ولان حاشية عثمان لا ولئك الطوائف

فاكتفى عثمان بهذا الدفاع عن نفسه ولم يفعل شيئاً مع ذلك الوعد
بل أعادهم الى أمصارهم فتكاتبوا بينهم واتفقوا على أن يخرجوا من أمصارهم
كأنهم تمارثم يتوافوا بمدينة لتنفيذ ما تزموا عليه فخرج أهل مصر
في أربع رفاق عليهم أربعة أمراء وعددهم بين الستمئة والالف وأميرهم
جميعاً الفافقي بن حريب العكي ولم يجترؤا أن يعلوا الناس بخروجهم الى
الحرب وانما خرجوا كاللجاج ومعهم ابن السوداء . وخرج أهل الكوفة
في أربع رفاق عليهم أربعة أمراء وعددهم كعدد أهل مصر وأميرهم جميعاً
عمرو بن الاصم وخرج أهل البصرة في أربع رفاق وعددهم كعدد أهل
مصر وأميرهم جميعاً حرتوص بن زهير السعدى وكانت أهواء أهل الامصار
الثلاثة مختلفة فأهل البصرة كانوا يريدون طلحة لان ضياعه كانت يبلدهم

وأهل الكوفة كلوا ويريدون الزبير وأهل مصر كانوا يريدون علياً لتعاليم ابن
السوداء ووجود ابن أبي بكر وهو ربيب علي وابن أبي حذيفة يدينهم؛ ولما كانوا من
المدينة على ثلاثة تقدم ناس من أهل البصرة فنزلوا إذا خشب وناس من أهل
الكوفة فنزلوا الأعوص وجاءهم هناك ناس من أهل مصر وتركوا علماتهم
بذي المروة واتفقوا جميعاً أن يقدموا رواداً يَدْخُلُوا المدينة وينظروا أهل وصل
المدينة خبرهم لا أنهم كانوا يخافون أن يستعملهم أهل المدينة بحرب فأرسلوا ذلك
رجلين فلما دخلا المدينة كلما علياً وطلحة والزبير وقالوا إنما نأتهم هذا البيت ونستعفي
هذا الوالي من بعض عمالنا ما جئنا إلا لذلك واستأذناهم للناس بالدخول فكلهم أبي
ذلك عليهم ما فرجم الرائدان إلى قومهما وأخبراهم الخبر فاجتمع من أهل مصر
نهر أتوا علياً ومن أهل البصرة نفر أتوا طلحة ومن أهل الكوفة نفر أتوا
الزبير فسلم المصريون على علي وعرضوا له بالامر فرد عليهم رداً شديداً
وكذلك فعل طلحة والزبير بمن جاءهم فخرج القوم وأروهم انهم راجعون
حتى انتهوا إلى عساكرهم وهي ثلاث مراحل كي يفترق أهل المدينة ثم
يكروا راجعين فافترق أهل المدينة لخروجهم فلما بلغ القوم عساكرهم
كروا بهم فبنتوهم فلم ينجأ أهل المدينة إلا والتكبير في نواحيها فنزلوا
مواضع عساكرهم واحاطوا بعثمان وقالوا من كف يده فهو آمن فلزم الناس
بيوتهم فأتاهم علي فكلهم وقال ما ردكم بعد ذهابكم ورجوعكم عن رأيكم
فقال المصريون اخذنا مع البر يد كتاباً بقتلنا وقال الكوفيون والبصريون
جئنا ننصر اخواننا كأنما كانوا على يعماد فقال لهم علي كيف علمتم يا أهل
الكوفة ويا أهل البصرة بما لقي أهل مصر وقد سرتهم مراحل ثم طويتم

نحونا هذا والله أمر أبرم بالمدينة قالوا فضموه كيف شئتم لاجابة لنا في
 هذا الرجل ليعزلنا ثم قالوا لعلى ان الله قد أحل لنا دم هذا الرجل قم معنا
 اليه قال والله لا أقوم معكم إلى ان قالوا فلم كتبت اليها فقال على والله
 ما كتبت لكم كتاباً فنظر بعضهم إلى بعض (تأملوا كيف استعمل
 المفسدون اسمه ليهيجوا الناس) : ثم تركهم على وخرج من المدينة : ثم
 دخلوا بالكتاب على عثمان فقالوا كتبت فينا بكذا وكذا فقال لعنهما
 اثنتان أن تقيموا على رجلين من المسلمين أو يمينا بالله الذي لا اله الا هو
 ما كتبت ولا أملت ولا علمت وقد تعلمون أن الكتاب يكتب على لسان
 الرجل وقد ينقش الخاتم على الخاتم فقالوا قد والله أحل الله دمك ونقضت
 العهد والميثاق فتركهم عثمان وكان القوم يحاولون منه أن يخلع نفسه من
 الخلافة وهو يأبى وكان لا يزال يصلي بهم ثم منعوه من الصلاة في المسجد
 وحصلوه في داره : وكان عثمان بدون رب يفكر وهو محصور أن علي
 ابن أبي طالب لم يفعل ما يمكنه لرد هؤلاء الناس فكانت بينهما مراسلات
 يطلب اليه فيها أن يجتهد في تخفيف هذا الحصار عنه ومن ذلك ما رواه
 أبو العباس محمد بن يزيد المبرد في كتابه الكامل أن عثمان كتب إلى
 علي وهو محصور (أما بعد فقد بلغ السيل الزبي وجاوز الحزام الطيين وبلغ
 الا مر بي أشده ثم تمثل بهذا البيت
 فان كنت مأكولاً فكُن خيراً كل والا فأدركني ولما أمزق)
 وكانت حاشية عثمان من بني أمية ترى أن لعلى ضلعاً في هذا
 الامر فكانت الوجوه تتقابل عابسة تبدى عما في القلوب العيون فلم يكن

هناك سبيل لعمل صالح في مصلحة المسلمين وقد ادت الحال إلى أن ترك على المدينة رأساً في هذه الفتنة التي نطن أنه لم يكن في إمكانه قمعها إلا أنه كان هناك شيء واحد في هذا الوقت الحرج وهو تناسي كل مافي النفوس لأن الامر كان أعظم من أن يذكر كل فريق حبيب صاحبه ولا يغيب عن الفكر أن رءوس المسلمين لو كانت متفقه تماماً لا يمكنهم أن يقاوموا هذا السيل الذي أقبل عليهم ولكن القلوب كانت قد انصدعت أنفسهم فغلب السفهاء على الامر وفعلوا ما فعلوا : لو كان هناك نظر بعيد لرءوس المسلمين الذين كانوا بالمدينة وفيهم القواد المعظام والائمة الاعلام لما كان السفهاء الامصار مهما كثر عددهم أن ينفذوا رغبتهم التي فرغت كاهة المسلمين

استمر الحصار على عثمان واشتد عليه حتى منعه الماء فكان لا يصل منه شيء الا خفية وكان عثمان يطل عليهم من آلا آخر ويعظمهم فلا تؤثر فيهم الموعظة ثم شدوا عليه الحصار لما بلغهم أن جنداً من الامصار أقبلت انصر عثمان : وفي أثناء الحصار ولي عبد الله بن عباس موسم الحج وكتب معه كتاباً مطولاً يقرؤه على المسلمين في الموسم ويعلمهم بما هو فيه نزار ابن عباس أميراً على هذا الموسم فقرأ الكتاب على المسلمين ولكن ذلك جاء بعد أن فات الوقت أراد المحاصرون التعجيل بالامر خوفاً من خطر يفاجئهم فأحرقوا أبواب الدار ومنهم من تسور من دار ابن حزم وكان جاراً له ولما رأى ذلك - نمان استسلم للقضاء وأمر من يريد الدفاع عنه أن ينصرف وهم قليلون لا يغنون شيئاً : دخل عليه جماعة فيهم محمد بن أبي بكر مریداً قتله فلم يصنع شيئاً فتقدم غيره فضربه الغافقي بحديدة كانت معه وجاء سودان بن حمران ليضربه فأكبت على عثمان

زوجه البارة نائلة بنت الفرافصة واتقت السيف بيدها فتعمدها وتفتح اصابعها
فاطعن اصابع يدها ثم اهوى له بعضهم فضرب عنقه واتهبوا ما في البيت واخرجوا
من فيه ثم اتوا بيت المال فانتهبوه واذاعوا بالمدينة خبر قتله وكانت مدة
حصاره اثنين وعشرين يوماً وكان قتله لثمانى عشرة ليلة خلت من ذي
الحجة سنة ٣٥ (٢٠ مايو سنة ٦٥٦) وذلك افتتاح التاريخ المشؤوم

المحاضرة الثامنة والعشرون

اسباب مقتل عثمان — بيت عثمان — على وكيف انتخب —

ترجمته — أول خطبة له — أول عماله

اجمال الاسباب التي أدت إلى قتل عثمان

بعد أن اتينا على تفصيل الحوادث التي أدت إلى هذه الفاجعة نتبعها
ببيان مجمل لما يستنتج من تلك الحوادث
السبب الاول

مهما كان رؤساء الامة مخلصين بعضهم لبعض يتعاونون فيما بينهم
على قضاء المصالح العامة فقلما يجد مريد السوء سبباً للفتن والثورات فاذا
انصدع شمل القلوب وحلت الكراهة محل المحبة والتحاسد محل التناصر
انفسح المجال لرواد الفتن ومحبي الاضطراب وعلى هذا كان الحال في
المدينة حاضرة الخلافة ومجمع رؤساء المسلمين والمرشحين منهم لولاية
الامر فان من يتصفح احوالهم وما كان يبدو على ألسنتهم من الكلمات

الشديدة المؤلمة في حق عثمان سواء في وجهه وفي غيبته يحكم أن النفوس قد انطوت على مكروهه حتى كانوا يلقبونه في بعض الاحيان نعثلا ونعثل رجل مصرى كان طويل الاحية شبهوه به للغض منه ويقول في لسان العرب انهم لم يجدوا فيه عيباً سوى هذا وحتى قام من بينهم رجل أخذ العصا التي كان عثمان يخطب عليها فكسرها وهي عصا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أثرت كلمات في حق عثمان عن كثير من كبراء المدينة كل ذلك يقال ويفعل من غير بيان الاسباب التي أدت بهم إلى مثل هذا ومن غير نظر إلى ما أحدثه هذه الكلمات بين العامة خصوصاً اذا صادفت مهيجين مثيرين

السبب الثاني

كان عثمان معروفاً بمخلق الحياء واللبن أما الحياء فقد كان مشهوراً به في جاهليته وفي إسلامه حتى قال في حقه عليه السلام (الا استحيى من رجل تستحيى منه الملائكة) وخلق الحياء يحمل صاحبه على الانضاء عن كثير مما يكره أما اللين فان الرجل كان كثير التشاؤم يخاف الفتن على المسلمين ويود أن لا يكون فتح بابها على يده يعرف ذلك من استقرأ خطبه وكتبه حتى أن خطبته التي قالمها على المنبر لأول مرة لم تخل من هدا دعاه الخلق الاول إلى التسامح مع من يناله منهم أذى في حق نفسه فلا يوجد إلى واحد منهم كلمة تسوء وهذا وان حسن عند الحكماء فانه لا يحسن ابداً في سياسة الرعية بل لا بد لمقام الخلافة من هيبة في القلوب تقف بالناس

عند الحد اللائق بهم : انظروا الى ما فعله عمر مع سعد بن أبي وقاص حينما زاحم الجموع المحيطة بعمر ووصل اليه مدلا بمر كزه فانه خفقه بالدرة وقال جئت لانتهاج سلطان الله في أرضه فأحببت أن أعلمك أن سلطان الله لا يهابك فلا بد لسلطان الله من قوة تمنع عنه ضعفا أو ذلة : والخلق الثاني جعله يمتنع عن عمل أى تدبير لمعاينة المفسدين الذين رفعوا اليه وثبت أنهم يديرون حركة الفتنة من غير مبالاة أشار عليه ولاته حينما جمعهم لديه بالموسم أن يستعمل الشدة مع أولئك الذين يشيرون العامة بما يضعونه من الاحاديث الملفقة وكانت كلمة العمال في ذلك واحد فلم يعبأ بقولهم بل اختار اللين على الشدة لئلا يكون فاتحا باب الفتنة الذى يخيفه : ثم جاءه بالمدينة نفر من أولئك الناس ودلم مقصدهم وأشار عليه بشيروه من أهل المدينة بمقوبتهم فلم يفعل بل اكتفى بأن دافع عن نفسه أمامهم بتلك الخطبة التي تلونها عليكم ثم تركهم يعودون إلى بلادهم فما زاده ذلك الا فسادا لانهم ليسوا بطلاب بحق تنفعهم الذكرى وتقيمهم الحجة وانما هم طلاب شر يتطلبون الطريق اليه كلما اعجزهم باب عدلوا اليه ذيره

السبب الثالث

ما خالف به عثمان صاحبه عمر في اعلام قريش فان عمر كان يحجر عليهم في المدينة فلا يسمح لهم أن يبارحوها الا باذن وأجل فلما جاء عثمان سمح لهم بذلك وكان هذا مما حبه اليهم ولكن ترتب عليه ما حذره عمر فانه قد اجتمع اليهم أناس ممن لا سابقة لهم في الاسلام والتصقوا بهم وتقربوا اليهم حتى اذا كان الامر لهم في يوم من الايام كانوا اقرب الناس

اليهم فنبه بذلك ذكرهم والا فلماذا كان أهل البصرة يريدون طلحة وأهل الكوفة يريدون الزبير وأهل مصر يريدون علياً : صحيح أن علياً لم يجيء مصر ولكن جاءها من هو أمس الناس به رحماً وهو محمد بن أبي بكر ربيبه لأن أمه أسماء بنت عميس تزوجها على بعد موت أبي بكر وكان محمد في حجرها فرباه على فلم تكن طلبات أهل الأمصار إلا نتيجة لما فعله عثمان وانقطاع العامة إلى أولئك الأعلام أولئك هو منهم بسبيل حتى يكون لهم شأن إذا انتقلت الخلافة إلى صاحبهم ولذلك لما تم الأمر لصاحب المصريين ولم يتم للآخرين اجتماع عليه : لا يمكن من قرأ تفصيل الحوادث التي سبقت قتل عثمان أن ينفي عن أعلام قريش تطلعهم إلى ولاية الأمر ولكن من الصعب أن يثبت على أحدهم اشتراك حقيقي مع المناكرين والذي يؤخذ عليهم هو هوادتهم في القيام بنصرة عثمان خليفة المسلمين واستر سال بعضهم في الأقوال التي تحط من قدره حتى وقت اشتداد الازمة وعلى مسمع من رؤساء النافرين الذين يشتد هياجهم بمثل هذه الكلمات

السبب الرابع

سهولة التأثير في الجماعات متى أتوا من قبل ما يهون وما يحبون وهم في هذه الحال لا يصبرون حتى يتثبتوا مما يلقي عليهم بل سرعان ما يصدقونه ويألمون له إن كان مؤلماً ويسرون إن كان ساراً : كان الناس مسلمين يحبون نبيهم أكثر مما يحبون أنفسهم - يحبون العدل والمساواة كما عودهم عمر فجاءهم ذلك الشيطان عبد الله بن سبأ من الجهة التي يألونها

وهي نقطة ضعفهم صار يضع لهم الكلام في تعظيم الرسول وأهل بيته
ويعسوبهم على بن أبي طالب وصي رسول الله كما كان لكل نبي وصي
وانه من اللازم أن يعطى الامر لصاحب الحق لان من اجتراً عليه
فأخذه منه ظالم فاشم ثم صار يزيد على ذلك ما يدسه مدحاً لعلي بن أبي
طالب حتي علا به إلى درجة لم يطلبها على لنفسه ومثل هذا الكلام يسهل
ادخاله في القلوب خصوصاً اذا كان قد سبقه شيء من الضغينة على من بيده
أمر الخلافة ولذلك نرى الرجل كان يتبع من أصحابهم من ولاية عثمان أذى
في نفسه أو ماله ثم جاءهم من قبل العدل والمساواة فصار يطعن في أمراء عثمان مرة
بأنهم شبان ومرة بأنهم من ذوى قرياه ومرة بأنهم ظلمة يسومون الناس خسفاً
والذين كانوا يؤيدونه لا غراض في أنفسهم اشتغلوا في الامر بمهارة فصارت
شيعتهم في كل مصر تكتب إلى المصر الآخر بما عندهم من المحزونات فيقرأ
كتابهم على العامة علناً فيستغيثون بالله مما حل بأهل ذلك المصر ومن ذلك
المصر نفسه تكتب تكتب ترسل إلى المصر الاول فتقرأ على العامة
فيستغيثون بالله مما حل باخوانهم ويقولون نحن في عافية مما ابتلى به هؤلاء الناس
حتي أمكنهم أن يوغروا صدر العامة التي تجتمع عليهم وليس لما يكتبون صحة فقد
كانوا يعيرون معاوية وهذا لم يوجد عثمان بل ولا رسول الله صلى الله عليه
وسلم وولاه أبو بكر وولاه عمر ولم نر من العمال من استمر موثقاً به من عمر
حياته كلها الا افراداً قلائل منهم معاوية بن أبي سفيان فقد كان والياً من
أول حياة عمر إلى آخرها وكانت الشام أعدل ولايات المسلمين واهدأها
وكانوا يعيرون عبد الله بن سعد بن أبي سرح لالانه ظالم أوجائر وانما لامر آخر

وهو أن النبي صلى الله عليه وسلم حكم بقتله يوم الفتح ثم استوهبه منه عثمان فعفا عنه ولم يعلموا أن الرسول كان اذا عفا فاعفاهما جرحا على الذنب ستر لا يزول وكانوا يعييون مثل الوليد بن عقبة وهذا كان واليا لعمر بن الخطاب ومات عمر وهو وال له وكانوا يعييون سعيد بن العاص وكان باعتراف أدل البصرة من أجود العمال وأحكمهم بالقسط فلم تكن هذه المذام موجهة بحق لرفع جور وإنما كانت للتأثير في قلوب الناس وهم يتأثرون بسرعة من مثل هذا القول وساعدهم على ذلك أن أولياء الامر لم يبادروا بأخذ الحيلة لان العمال لم يكن لهم مثل ذلك السلطان والخليفة حذر من أن يأمر بذلك فضاعت مصلحة الامة: واذا أردنا أن نحمل الناس في ذلك الوقت تبعه أعمالهم وجدنا عمان أقلهم تبعه في ذلك لان الحلم واللين لم يكونا في زمن من الازمان مما بتجنى به علي أولى الامر والتبعة يحملها من مهدوا السبيل لذلك

من الغريب بعد ذلك أن تبقي هذه الحادثة سببا دائما لتفريق كلمة المسلمين قتي بعض الاحيان فرقة عمالية تتوسط فيها السيوف والاسنة وفي بعض الاحيان فرقة كلامية تنتهي بعداء ونفور وليس ذلك الا لان المسألة ألبست ثوب الدين وكل حاول الوصول بما يشبهه وما يخلقه إلى غرض من الاغراض: ولو نظرنا إلى المسألة بنظر صحيح اقلنا خليفة من خلفاء المسلمين غضب عليه بعض رعيته بعضهم سيء القصد والبعض الآخر تابع لهم ثم قاموا عليه وحصره وقتلوه بشكل وحشي لا يتفق مع أصول الاسلام ثم نحكم بأنهم اخطأوا خطأ عظيما ثم ذهبوا إلى من له الحق أن يدينهم ولم يبق منهم من يمكننا الاتتمام منه لسوء قصده أو تبين الصواب له لخطئه وغاية الامر أن

الباقى لنا من كل ذلك هو الاستفادة مما كان فالعقل همه أن يتعلم ويفهم لأن
يحمّد على قوم لم تبق منهم باقية

لا يمكن حماية الأمة من أصحاب المقاصد السيئة الذين يريدون فتنها
وتهيجها لغير مصلحتها إلا أن كان فيها من العقلاء من يحترم رأيهم وتسمع
كلمتهم فانهم يصرون قومهم بما يعود عليهم بالخير والفلاح : وكل أمة فقدت
هؤلاء السراة العقلاء سهل على مثل ابن سبأ ومن ولف لفسه أن يفتوها
ويلفتوها عما يصلحها ويجعلوا بأسها بينها شديداً : وهم في كل زمن كثيرون
فما ظنك أن كان سراتها ممن يساعده على فتح باب الشر باغضائه وتهاونه
أن الشر حينئذ يكون مستطيراً والبلاء عظيماً وسيرد عليكم من ذلك شيء
كثير

دفن عثمان

من غريب ما فعله أولئك الثائرون أنهم لم يصرحوا بدفن عثمان ولم
يدفن الا بصعوبة واستتار . خرجوا به بعد المغرب فدقنوه ولم يشيع
جنازته الا نفر قليل وصلى عليه جبير بن مطعم

بيت عثمان

- ١ — ٢ تزوج عثمان بمكة رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم
وولدت له ولداً اسمه عبد الله فمات ثم تزوج بعدها أم كلثوم اختها
- ٣ — ٢ تزوج فاخنة بنت غزوان من قيس عيلان وولدت له عبد الله
الاصفر فمات

٤ وتزوج أم عمرو بنت جندب الدوسي فولدت له عمراً وخالداً وأبانا

وعمر ومريم

٥ وتزوج فاطمة بنت الوليد المخزومية فولدت له الوليد وسعيداً

وأم سعيد

٦ وتزوج أم البنين بنت عيينة بن حصن الفزارية فولدت له عبد

الملك ومات

٧ وتزوج رملة بنت شيبه من بنى عبد مناف فولدت له عائشة وأم

أبان وأم عمرو

٨ وتزوج نائلة بنت الفرافصة الكلبية فولدت له مريم : وقد توفي

وعنده فاخنة وأم البنين ورملة ونائلة

عمال عثمان

العلاء بن الحضرمي على مكة — القائم بن ربيعة الثقفي على الطائف

— يعلى بن منية على صنعاء — عبد الله بن ربيعة على الجند — عبد الله بن

عامر على البصرة — سعيد بن العاص على الكوفة — عبد الله بن سعد على مصر

— معاوية بن أبي سفيان على الشام

٤ ﴿ علي بن أبي طالب ﴾

كيف انتخب

لم تكن الظروف التي حصل فيها انتخاب علي بن أبي طالب مشابهة

لما كان عليه الحال في انتخاب من قبله فانه عقب وفاة رسول الله صلى الله

عليه وسلم كان أعلام الصحابة بالمدينة فاختلفوا قليلاً ثم تباينوا إلى الجماعة وأجمع

رأيهم علي انتخاب أبي بكر . وعقب وفاة أبي بكر لم يكن ثم مجال للخلاف
 لانه كان قد عهد إلى عمر فرأى المسلمون وجوب طاعته : وعقب وفاة عمر
 كان قانون الشورى قد سن لهم فأصاب الانتخاب عثمان فكان عمر قد
 عهد إلى واحد من ستة يعينونه هم وبين الحدود في المخالف : أما عند موت
 عثمان فلم يكن الامر كذلك فالمدينة فيها جماعة الشوار على عثمان وهم قاتلوه
 وهم أوزاع متفرتون من أمصار مختلفة لم يكن لهم ذكر الابهذه الثورة
 وليس عددهم شيء أمام جنود الامصار التي لم يكن لها اشتراك في
 الجريمة : وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كثير منهم كان خارج
 المدينة منهم المرابطون في الثغور ومنهم العمال ومنهم من كان مقيما بالمدينة
 كانت الكلمة العليا في المدينة اذ ذاك بطبيعة الحال لهؤلاء الغالبين
 الذين قتلوا الخليفة ولم يكن في نظر جمهورهم أليف من علي للخلافة فكاهوه
 في البيعة له فامتنع قليلا ثم أجاب إلى ذلك : ويقول الكوفيون أول من
 بايعه الاشر وكان من المهم عنده أن يبايعه طلحة والزبير لانهما زميلاه في
 الشورى وان تطلع إلى الخلافة أحددونه فهما : فروي الطبري عن الزهري
 أنه دعاهما إلى البيعة فتلكا طلحة فقال مالك الاشر وسئل سيئه والله
 لتباين أو لا ضربن به ما بين دينك نبايه وبايعه الزبير : وروى أن عليا
 قال لهما ان أحببنا أن تبايعاني وان أحببنا بايعتكما فقالا بل نبايعك وقالوا
 بعد ذلك إنما صنعنا ذلك خشية علي أنفسنا وقد عرفنا أنه لم يكن ليبايعنا
 وجيء بسعد بن أبي وقاص ليبايع فقال له لا أبايع حتى يبايع الناس والله ما
 عليك مني بأس قال خلوا سبيله : وجيء بعبد الله بن عمر ليبايع فقال

لأبائع حتى يبايع الناس قال اتني بحميل قال لأرى حميلا قال الاشتتر
 خل عني أضرب عنقه : قال دلي دعوه أنا حميله انك ما علمت لسيء الخلق
 صغيراً وكبيراً : وتخلف من الانصار جمع منهم حسان بن ثابت وكعب بن
 مالك ومسلمة بن مخلد وأبوسعيد الخدري ومحمد بن مسلمة والنعمان بن بشير
 وزيد بن ثابت ورافع بن خديج وفضالة بن عبيد وكعب بن عجرة وكان
 هؤلاء عثمانيه يميلون إلى عثمان : وهرب قوم من أهل المدينة إلى الشام ولم
 يبايعوا علياً ولم يبايعه قدامة بن مظعون وعبد الله بن سلام والمغيرة بن شعبة
 وبايعه من عدا هؤلاء من أهل المدينة الا من فرو لحق بالشام

ترجمة علي

هو علي بن أبي طالب بن عبدالمطلب بن عبدمناف وهو ابن عم رسول الله صلى الله
 عليه وسلم وشقيق والده وأمه فاطمة بنت أسد : ولد قبل الهجرة باحدي
 وعشرين سنة ولما أرسل الرسول عليه السلام كان علي مراهقاً وكان مقيماً مع
 الرسول في بيته تخفيفاً علي أبيه فكان من أول من أجاب إلى الاسلام وكان له
 الشرف العظيم بدياته . ووضع الرسول ليلة ان ترك مكة مهاجراً حتى لا يرتاب
 المترصدون في وجوده ببيته ثم هاجر بعد أن أدى الودائع التي أمر ان يسلمها لاهلها
 وبعد الهجرة زوجه عليه السلام ببنته فاطمة وحضر كل مشاهدته عليه السلام ما عدا
 غزوة تبوك فان الرسول خلفه فيها على أهله وكان له الاثر المحمود والمقام الذي
 لا يجمل في جميع الغزوات وكان شجاعاً يخوض الفمرات ولا يبالي بشدة
 وكان يكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولما لحق الرسول بربه كان
 على يرى في نفسه أنه أحق بالخلافة ممن عداه وكان يظن أن الناس لا

يعدلون به غيره لما له من شرف القربي والصهر ولكن المسلمين رضوا أبا بكر للخلافة فلم يبايع إلا بعد أن ماتت فاطمة كما قيل ولما عهد أبو بكر لعمر ورضي به المسلمون بايع معهم إلا أنه كان بدون ريب يرى أنه أحق بالامر من عمر كما كان أحق من أبي بكر وكان في عهد عمر كالمستشار يستشير عمر كثيراً في الأحكام الشرعية ولما عهد عمر إلى الشورى دخل معهم وكان يغلب على ظنه أن تكون الأغلبية له إلا أنها لم تصادفه وصرفت عنه إلى عثمان فرضي وبايع ولم تكن علاقته بعثمان في آخر حياته حسنة الظاهر حتى أن اسمه استعمل للتغريض للناس حتى يهيجوا على خليفتهم وحتى خاطبه بعض أهل مصر قائلاً إن لم تقم معنا فلم كتبت إلينا ولكن تبرأ من أن يكون كتب وحلف على ذلك . ولما انتهى أمر عثمان بويع بالخلافة على نحو ما فصلنا قبل ذلك بعد قتل عثمان بخمس ليال

اول خطبة له

صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال ان الله عز وجل أنزل كتاباً هادياً بين فيه الخير والشر فخذوا بالخير ودعوا الشر . الفرائض أدوها إلى الله سبحانه يؤدكم إلى الجنة ان الله حرم حرماً غير مجهولة وفضل حرمة المسلم على الحرم كلها وشدد بالاخلاص والتوحيد المسلمين والمسلم من سلم الناس من لسانه ويده إلا بالحق ولا يحمل أذى المسلم إلا بما يجب . بادروا أمر العامة وخاصة أحدكم الموت فإن الناس أمامكم وان ما من خلفكم الساعة تحذوكم تحففوا تلحقوا فانما ينتظر الناس اخراهم اتقوا الله عبادته في عبادته وبلاده انكم مسؤولون حتى عن البقاع والبهائم . أطيعوا

الله عز وجل ولا تمصوه واذارأيتم الخير فخذوا به واذارأيتم الشر فدعوه واذكروا

اذأنتم قليل مستضعفون في الارض

ولما أراد علي الذهاب الي بيته قال له السبئية فيما قيل

خذها اليك وأحذرنا بأحسن انا نمر الامر اصرار الرسن

صولة أقوام كأسداد السفن بمشريات كغدران اللين

ونطمع الملك بلين كالشطن حتي يمرن على غير نمن

فقال علي وذكر ما كان

اني عجزت عجزه لا أعتذر سوف أ كيس بعدها وأستمر

أرفع من ذيلي ما كنت أجر وأجمع الامر الشتيت المنتشر

ان لم يشاغبي العجول المنتصر أو يتركوني والسلاح يبتدر

ولما تمت البيعة جاءه جماعة من الصحابة وقالوا له إننا قد اشتراطنا إقامة الحدود

وان هؤلاء القوم قد اشتركو افي دم هذا الرجل وأحلوا بانفسهم فقال لهم اني است

اجهل ما تعلمون ولكني كيف أصنع بقوم يملكوننا ولا يملكهم هاهم هؤلاء قد

ثارت معهم عبدانكم وثابت اليهم أعرابكم وهم خلا لكم يسومونكم ماشاءوا

فهل ترون موضعاً لقدرة علي شيء مما تر يدون قالوا الا قال فلا والله فلا أري الا رأياً

ترونه ان شاء الله ان هذا الامر أمر جاهلية وان لهؤلاء التوم مائة وذلك أن

الشیطان لم يشرع شريرة قط فيبرح الارض من أخذ بها أبداً ان الناس من هذا

الامر ان حرك علي أمور: فرقة ترى ماترون وفرقة مالا ترون وفرقة لا ترى هذا

ولا هذا حتي يهدأ الناس وتقع القلوب مواقعها وتؤخذ الحقوق فاهدأوا عني

وانظروا ماذا يأتيكم ثم عودوا — واشتد علي قریش وحال بينهم وبين

الخروج وانما هيجه على ذلك هرب بني أمية وتفرق القوم و بعضهم يقول والله لئن
ازداد الامر لا قدرنا على انتصار من هؤلاء الا شرار ترك هذا الى ما قال دلي أمثل
و بعضهم يقول نقضى الذى دلىنا ولا تؤخره والله ان علينا المستغن برأيه وأمره عناد
لا نراه الا سيكون على قر يش أشد من غيره

اول أعمال دلى

رأى دلى أن يكون أول أعماله عزل جميع ولاية عمان قبل أن تصل اليه بيعة
أهل الامصار وقد حذره عاقبة ذلك المغيرة بن شعبة أولا وابن عباس ثانيا فأبى ذلك
اباء تاما كما به قد وقر فى نفسه ان هؤلاء العمال لا يصلحون لأن يلوأ شيئا من أسر
المسلمين وان الابقاء دلى واحد منهم يوما كاملا نقص فى دينه. ولو كان الامر قد
استتب وبايعه أهل الامصار لما كان فى عزل الولاية شي لان الخليفة هو الذى يعطى
الولاية سلطانهم فهو حر فى اختيار عماله ولكن هذه السرعة الغريبة لم تفهم مع انه
قبل أن يؤخر الحد دلى قتلة عمان حتى يهدأ الناس مع أن هذا حد من
حدود الله

فرق العمال على الامصار فأرسل عثمان بن حنيف الى البصرة . وعمار بن
شهاب الى الكوفة . وعبيد الله بن عباس الى اليمن . وقيس بن سعد بن عبادة الى مصر
وسهل بن حنيف الى الشام

فاما سهل فانه خرج حتى أتى تبوك فلقيته خيل فسألوه من أنت
فقال أمير على الشام قالوا ان كان عثمان بعثك فيهم لا بك وان كان غيره
بعثك فارجع . قال أو ما سمعتم بالذى كان . قالوا بلى فرجع الى على

وأما قيس بن سعد فانه سارحتيأتي مصر فافترق عليه أهلها فرقة دخلت
في الجماعة وكانوا معه وفرقة وقفت واعتزلت إلى خربتني وقالوا ان قتل عثمان
فنحن معكم والافنحن علي جديلتناحتي نحرك أو نصيب حاجتنا وفرقة قالوا نحن
مع علي مالم يقداخواننا وهم في ذلك مع الجماعة

وأما عثمان بن حنيف فانه سارحتيأتي البصرة وكان أهلها فرقا
كأهل مصر . وأما عماره فانه سارحتي إذا كان بزبالة لتمييه طليحة بن
خويلد الأسدي وقد كان حين بلغهم خبر عثمان خرج يدعو إلى الطلب بدمه
فطلع عليه عماره فقال له ارجع فان القوم لا يريدون بأمرهم بدلا وان
أبيت ضربت عنقك فرجع عماره وانطاق عبيد الله بن عباس إلى اليمن
فجمع علي كل شيء من الجباية وتركه وخرج بذلك وهو سائر علي حاميته
إلى مكة فقدمها بالمال

اضطراب الحبل

اضطرب الحبل في جميع الامصار الكبرى الاسلامية

ففي الشام كان الامير معاوية بن أبي سفيان بن حرب بن أمية . كان
أميراً على الشام في عهد عمر وعثمان وكان محبوباً من أهله فلما وقع اليهم
مقتل عثمان واستخلاف علي لم يرض ان يدخل في بيعته لاسباب
(١) أنه يتهم علياً بشيء من أمر عثمان (٢) أنه آوى قتلته في جيشه
(٣) أنه كان بين الرجلين تقور أدى إلى أن علياً يرى من أول واجباته
عزل معاوية عن إمارة الشام وليس ذلك من السهل على رجل اعتاد

الامارة والعزة نعم ليس من السهل أن يدخل مختارافي بيعة نتیجتها اذلاله والاستهانة به وكيف يختار ذلك وهو محاط بجند يفضلونه دلى أنفسهم ويرونه أليق للامارة عليهم ولم ير لعلی بیعة توجب علیه طاعة يضطر اليها اضطراراً

أرسل على الى معاوية سبرة الجهني يطلب اليه ان يبايع فلما قدم عليه لم يكتب معاوية بشيء ولم يجبه حتى اذا كان الشهر الثالث من مقتل عثمان أراد معاوية أن يعان خلافته فدعا برجل من بني عباس فدفع اليه طوماراً مختوماً عنوانه

من معاوية الى على

وقال له اذا دخلت المدينة فاقبض على أسفل الطومار وارفعه حتى يراه الناس فلما قدم العباسي المدينة في ذرة ربيع الاول رفع الطومار كما أمره معاوية وخرج الناس ينظرون فتفرقوا الى منازلهم وقد علموا أن معاوية معترض ثم مضى الرسول حتى دخل الى على فسلمه الطومار ففضه فلم يجد فيه شيئاً ثم سأل الرسول ما وراءك قال اني تركت قومالا يرضون الا بالقود قال ممن قال من خيط نفسك وتركك ستين ألف شيخ يبكي تحت قميص عثمان وهو منصوب اللهم قد البسوه منبر دمشق فقال علي مني يطلبون دم عثمان أأست موتوراً كثرة عثمان اللهم اني أبرأ اليك من دم عثمان نجما والله اقتله عثمان الا أن يشاء الله ومن الغريب أن علياً لما أمر الرجل بالرجوع آمنه فأراد السبئية أن يقتلوه فصاح الرجل يا لمضر يا لقيس الخيل والنبل اني أحلف بالله ليردنها عليكم أربعة آلاف خصي فانظروا كم الفحولة والركاب ولم يخلص الرجل الا بشق الأنفس

(١٢٤)

أحب الناس أن يعلموا رأي علي في معاوية وانتقاضه ليعرفوا رأيهم
في قتال أهل القبلة أن يجسر عليه أم ينكل عنه وقد بلغهم أن الحسن بن علي
دخل عليه ودعاه إلى القعود وترك الناس فدسوا إليه زياد بن حنظلة التميمي
فجلس إليه ساعة ثم قال له علي يا زياد تيسر فقال لا شيء قال تغزو الشام
فقال زياد الا ناقة والرفق أمثل

ومن لا يصانع في أمور كثيرة يضرس بانياب ويوطأ بمنهم
فتمثل علي

مضى تجمع القلب الذكي وصار ما وأنا حميماً تجتنبك المظالم
فخرج زياد إلى الناس فسألوه عما وراءه فقال السيف ثم دعا علي ابنه محمداً
فأعطاه لواءه وعياً جنده واستخلف علي المدينة قثم بن عباس وأقبل علي
التبويؤ والتعجز . وبينما هو علي ذلك اذ فجأه ما هو أشد عليه من أمر الشام وهو
خلاف طلحة والزبير وعائشة ومن لف لفهم وأنهم توجهوا إلى البصرة : وذلك
أن عائشة كانت خرجت من المدينة وثمان محصور قاصدة الحج وان تبتعد عن
المدينة في هذه الاوقات وقد علمت وهي بمكة ان عثمان قتل وانه قد بويع لعلي
بعده فخطبت الناس بالمسجد الحرام خطبة هذا نصها (ان الغوغاء من اهل
الامصار وأهل المياه وعبيد أهل المدينة اجتمعوا ان عاب الغوغاء علي هذا المقتول
بالامس الارب واستعمال من حدثت سنة وقد استعمل أسنانهم قبله وواضع من
مواضع الحمى حماها لهم وهي أمور قد سبق بها لا يصلح غيرها فتابعهم ونزع
لهم عنها استصلاحهم فلما لم يجدوا حجة ولا عذراً خليجوا وبادوا بالعدوان
ونبأ قولهم عن فعلهم فسفكوا الدم الحرام واستحلوا البلد الحرام وأخذوا

المال الحرام واستحلوا الشهر الحرام والله لا صبيح عثمان خير من طباق الارض
أمثالهم فنجاة من اجتماعكم عليهم حتى ينكل بهم خير هم ويشرد من بعدهم والله لو
أن الذي اعتدوا به عليه كان ذنباً لخلص منه كما يخلص الذهب من خبثه أو الثوب
من درنه اذ ماصوه كما يماص الثوب بالماء

كان بمكة في ذلك الوقت عبد الله بن الحضرمي عاملها لعثمان وعبد الله
ابن عامر قدم من البصرة ويعلى بن أمية قدم من اليمن ثم قدم عليهم من
المدينة طلحة والزبير فاجتمعت كلمتهم على أن يأتوا البصرة ويعلنوا المطالبة
بدم عثمان والقصاص ممن اشترك في دمه ثم ساروا في وجهتهم هذه وكان
يصلى بالناس عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد وخرج معهم مروان وسائر بني
أمية الا من خشع منهم ولم يزالوا حتى قاربوا البصرة ولما دلم بقدمهم عثمان بن
حنيف أمير البصرة من قبل علي انتدب رجلين هما عمران بن حصين وأبو الاسود
الدؤلي ليسيرا فيعلما ماذا يريد القوم ولما وصلوا استأذنا على عائشة فأذنت لهما
واستخبراهما عن قدومهما فقالت لهما ان النوغاء من أهل الامصار وتزاع القبائل
تزو احرم رسول الله وأحد ووافيه الاحداث ووافيه المحدثين واستوجبوا
فيه لعنة الله ولعنة رسوله مع ما نالوا من قتل امام المسلمين بلا ترة ولا نذر
فاستحلوا الدم الحرام فسفكوه وانتهبوا المال الحرام واحلوا البلد الحرام
والشهر الحرام ومزقوا الاعراض والجلود وأقاموا في دار قوم كانوا كارهين
لمقامهم ضارين مضرين غير نافعين ولا متقين لا يقدرّون على امتناع ولا يأمنون
فخرجت في المسلمين أعلمهم ما أتى هؤلاء القوم وما فيه الناس وراءنا وما ينبغي
لهم ان يأتوا في اصلاح هذا وقرأت لخير في كثير من نجاها من الامر

بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس) نهض في الإصلاح ممن أمر الله عز وجل وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الصغير والكبير والذكر والأنثى فهذا شأننا إلى معروف نأمركم به ونحضكم عليه ومنكر منها كم عنه ونحكم على تغييره : ثم سألا طلحة ما أقدمك فقال المطالبة بدم عثمان قالا ألم تباع علياً قال بلى والهج علي عنقي وما أستقيل علياً ان هو لم يحل بيننا وبين قتلة عثمان وقال لهما مثل ذلك الزبير فماد الرجلان إلى ابن حنيف فأخبراه فعزم على التهيؤ لمنعه من البصرة ولم يكن أهلها لي رأى واحد فلما قدم جيش عائشة إلى البصرة خرج اليهم من أهلها من هو على رأيهم وخرج ابن حنيف فكان هو ومن معه في ميسرة المربد ووقف الآخرون في ميمنتهم فتكلم طلحة والزبير محرضين على المطالبة بدم عثمان الخليفة المظلوم فكاد يكون بين الفريقين شر فتكلمت عائشة وكانت جهورية يعلو صوتها كثرة كأنه صوت امرأة جليلة وخطبت الناس في معنى ما جاءت له فافترق أصحاب ابن حنيف فرقتين فرقة قالت صدقت والله وبرت وجاءت بالمعروف وفرقه لم ترضه ولكن لم يحصل بين الفريقين قتال ثم خرج حكيم بن جبلة فأناشب القتال مع جيش عائشة فأشرع هؤلاء رماحهم وأمسكوا اليمسك حكيم ومن معه فلم ينته فاضطروا أن يدافعوا عن أنفسهم حتى حجز بينهم الليل وفي غد ذلك اليوم خرج عثمان وخرج حكيم فقاتلوا إلى أن زال النهار ومنادى عائشة يناشدهم ويدعوهم إلى الكف فيأبون حتى إذا مسهم الشر وعضهم نادوا بالصالح فاصطلحوا على أن يبعثوا رسولا إلى المدينة ويسألوا عن بيعة طلحة والزبير فإن كانا قد باعيا كرهاً فالأمر أمرهما والا فالأمر أمر عثمان ثم أرسلوا رسولا هو

كعب بن سور قاضي البصرة فسار حتى أتى المدينة يوم الجمعة فدخل المسجد ونادى يا أهل المدينة انى رسول أهل البصرة اليكم أأكره هؤلاء القوم هذين الرجلين على بيعة على أم أتياها طائعين فلم يجبه أحد من القوم الا ما كان من أسامة بن زيد فانه قام فقال اللهم انهما لم يبايعا الا وهما كارهان فوثب عليه سهل بن حنيف والناس وكادوا يأتون عليه لولا أن قام فخلصه من أيديهم صهيب بن سنان وأبو أيوب الانصارى فى عدة من الصحابة فيهم محمد بن مسلمة واخذ بيده صهيب الى داره وقال أما وسعك ما وسعنا من السكوت وعند ذلك رجع كعب الى البصرة . وكان دلى لما علم بخبر كعب كتب الى عثمان يعجزه ويقول والله ما أكرها على فرقة ولقد اكرها على جماعة وفضل وان كانا يريدان الخلع فلا عذر لهما وان كانا يريدان غير ذلك نظرنا ونظر اقلنا عاد كعب الى البصرة وورد الكتاب طلب طلحة والزبير من عثمان أن يخلى لهم الامر فلم يفعل فهاجموه وأخذوه وقد أدبرت عائشة بان يترك ليسير حيث شاء فترك البصرة وعاد الى على . وكان لحكيم بن جبله معهم مناوشات قتل فى نهايتها وقتل معه عدد عظيم ممن كانت له شركة فى دم عثمان ثم نادى منادى الزبير وطلحة بالبصرة الا من كان فيهم من قبائلكم أحد ممن غزا المدينة فليأتنا بهم فجاء بهم اذلاء فقتلوا ثم أقام ذلك الجيش بالبصرة وكتبوا باخبارهم الى أهل الشام والى أهل الكوفة يطلبون اليهم أن يقوموا بمثل ما قاموا هم به : واستمروا منتظرين ماتاتهم به الاقدار

روى الطبرى عن علقمة بن وقاص الليثي قال لما خرج طلحة والزبير وعائشة رأيت طلحة وأحب المجالس اليه أخلاها وهو ضارب

بلحيته على زوره فقلت يا أبا محمد أرى أحب المجالس إليك أخلاها وأنت ضارب بلحيته إلى زورك أن كرهت شيئاً فاجلس فقال يا علقمة بينا نحن يد واحدة على من سوانا إذ صرنا جليلين من حديد يطلب بعضنا بعضاً أنه كان مني في عمان شيء ليس توبقى إلا أن يسفك دمي في طلب دمه قلت فرد محمد بن طلحة فان لك ضيعة وعيالا فان يك شيء يخلفك فقال ما أحب أن أرى أحداً يخف في هذا الأمر فامنع . فأتيت محمد بن طلحة فقلت له لو أقمت فان حدث به حدث كنت تخلفه في عياله وضيعة قال ما أحب أن أسال الرجال عن أمره

المحاضرة التاسعة والعشرون

الجل - صفيين

أمر على

لما بلغ علياً مسير من سار إلى البصرة وهو يتهاً للشام رأى أن يبدأ بهذا الفتى وكان يحاول أن يدركهم قبل أن يصلوا البصرة فلما وصل الرتبة بلغه أنهم فاتوه فبعث إلى أهل الكوفة يطلب اليهم أن ينفروا إلى معاوثة على المخالفين عليه . ولما وصلت الرسل الكوفة جاء الناس إلى أميرهم أبي موسى يستشيرونه في الأمر فقام فيهم خطيباً وكان آخر خطبته أما إذا كان ما كان فانها فتنة صماء النائم فيها خير من اليقظان واليقظان فيها خير من القاعد والقاعد خير من القائم والقائم خير من الراكب فكونوا

جرثومة من جرائم العرب فأغمدوا السيوف وأنصلوا الاسنة واقطعوا الاوتار
وآووا المظلوم والمضطهد حتى يلتئم هذا الامر وتنجلي هذه الفتنة: فتكلمت رسل
على وأذلغت لابي موسى القول ولما كان الحسن بن علي ممن أرسل في هذه الوفادة
قال لاهل الكوفة يا أيها الناس أجيئوا دعوة أميركم وسيروا الى اخوانكم فانه
سيوجد لهذا الامر من ينفر اليه والله لان يليه أولو النهى أمثل في العاجلة وخير في
العاقبة فأجيئوا دعوتنا وأعينونا على ما ابتلينا وابتليتم به فسامح الناس وأجابوا
ورضوا به وقال لهم الحسن اني غادف من شاء منكم أن يخرج معي علي الظاهر ومن شاء
فليخرج في الماء فنفر من اهل الكوفة تسعة آلاف أخذ بعضهم البر وأخذ بعضهم
الماء وقد قابلته الجنود البرية بذى قار فقال لهم قد دعوتكم لتشهدوا معنا
اخواننا من اهل البصرة فان يرجعوا فذاك ما نريد وان يلجوا داوينا هم
بالرفق وبايناهم حتى يبدؤا بظلم ولن ندع أمرا فيه صلاح الا آثرناه دلي ما
فيه الفساد ان شاء الله : ثم ان عليا اختار القعقاع بن عمرو للسفارة بينه
وبين اهل البصرة فسار حتى أتى عائشة فقال أي أمه ما أشخصك وما
أقدمك هذه البلدة قالت أي بنى اصلاح بين الناس : فطلب أن يحضر
طلحة والزبير حتى يعرف رأيهما فلما جاء أخبر أن مقصدهما كـمقصد
دائشة فقال لهما القعقاع ما هذا الاصلاح قالوا قتلة عثمان فان هذا ان ترك
كان تركا للقرآن وان عمل كان احياء للقرآن فقال قد قتلما قتلة عثمان من
اهل البصرة وأنتم قبل قتلهم أقرب الى الاستقامة منكم اليوم قتلتم ستمئة
رجل الا رجلا فغضب لهم ستة آلاف واءتزلوكم وخرجوا من بين أظهركم
وطلبتم ذلك الذي أفلت (حرقوص بن زهير) فعمه ستة آلاف واهم على

رجل فان تركتموه كنتم تاركين لما تقولون فان قاتلتموهم والذين اعتزلوكم فاديلوا
عليكم فالذي حذرتم وقربتم به هذا الامر أعظم مما أراكم تكرهون وأنتم أحميتهم
مضروور بيعة من هذه البلاد فاجتمعوا على حربكم وخذلوا نكم نصرة لهؤلاء كما
اجتمع هؤلاء لاهل هذا الحدث العظيم والذنب الكبير ولا أرى دواء لهذا الامر
الا التسكين واذا سكن اختلجوا فان أنتم بايعتمو فاعلامه خير وتباشير رحمة ودرك
بئس هذا الرجل وعافية وسلامة لهذه الامة وان أنتم أبيتم الامة كابرته هذا الامر
واعتسافه كانت علامة شر وذهاب هذا النأروبعثه الله في هذه الامة هزافاً تروا
العافية ترزقوها وكونوا مفاتيح الخير كما كنتم تكونون ولا تعرضونا للبلاء
ولا تعرضوا له فيصرعنا واياكم وايم الله اني لا قول هذا وأدعوكم اليه واني
خائف أن لا يتم حتي يأخذ الله من هذه الامة التي قل متاعها ونزل بها
ما نزل فان هذا الامر الذي حدث أمر ليس يقدر وايس كالأور ولا
كقتل الرجل الرجل ولا النفر الرجل ولا القبيلة الرجل . فقال له القوم
أحسن وأصبت فان جاء على بمثل ما قلت صلح الامر فرجع القمعاق الى
على فاخبره فاعجبه ذلك وأشرف القوم على الصلح : ثم أمر بالرحيل وقال
من ضمن خطابه ولا يرتحلن غداً أحداً عان على عثمان بشيء في شيء من
أمر الناس وليغن السفهاء عن أنفسهم : فاجتمع نفر من رؤساء المجلبين
على عثمان ومعهم ابن السوداء وقال بعضهم لبعض ان اجتمع الناس غداً
واصطلحوا فليس الصلح الا علينا فقال لهم ابن السوداء ان عزكم في خلطة
الناس فصانعوهم واذا التقى الناس غداً فانشبوا القتال ولا تفرغوهم للنظر
فاذا من أنتم معه لا يجد بداً من أن يتمتع ويشغل الله علياً وطلحة والزبير

عما تكرر هون فاتفقوا على ذلك والناس لا يشعرون. لما وصل إلى البصرة بعث إلى القوم أن كنتم على ما فارقتم القمع فكموا وأقرونا ننزل وننظر في هذا الأمر فنزلوا والقوم لا يشكون في الصلح ومشت السفراء بين الفريقين وبات القوم ينتظرون العافية من هذا الحادث الجلل. قام السبثيون في الفلج ووضعوا السلاح في عسكر أهل البصرة فسأل طلحة والزبير ما هذا قالوا طرقتنا أهل الكوفة ليلاً فقالوا قد علمنا أن علينا غير منته حتى يسفك الدماء ويستحل الحرمات وأنه لن يطاوعنا وسأل على عن الخبر وكان السبثيون قد وضعوا أرجلهم قريباً منه يخبره بما يريدون فقال له ما جئنا إلا وقوم منهم يتنوننا فردناهم من حيث جاءوا فوجدنا القوم على رجل فركبونا وثار الناس فقال على قد علمت أن طلحة والزبير غير منتهين حتى يسفك الدماء ويستحل الحرمات وأنهم لن يطاوعنا ولم يجد الفريقان في ذلك الوقت بداً من القتال وكانت عائشة في هودجها بين أهل البصرة وكان ذلك اليوم من أهول ما رآه المسلمون فأنهم وقفوا بعضهم أمام بعض وكل يدافع دفاعاً دينياً وكان أهل البصرة وشجعانهم يلوذون بحمل عائشة حتى لا تصاب بشر فقتل حوله عدد عديد منهم ولا يدور بخلد أحد من الناس أن ينهزم وراجز أهل البصرة يقول

نحن بني ضبة أصحاب الجمل نعى ابن عفان باطراف الأسفل
الموت أحلى عندنا من العسل ردوا علينا شيخنا ثم بجمل
ولما رأى علي كثرة القتلى حول الجمل وأن الناس لا تسلمه أبداً وفيهم
عين تطرف نادى اعقروا الجمل فجاء الجمل انسان من خلفه وعقره فسقط
وسقط الهودج وكأنه قنفذ مما رمى فيه من النبل فجاء محمد بن أبي بكر

وعمار بن ياسر فقطعاً عرضة الرجل واحتملوا الهودج فنحياه عن القتلى وخرج بها محمد حتى أدخلها البصرة: وقد ترك الناس والضعف ظاهر فيهم الزبير بن العوام وأراد اللحاق بالمدينة فعلم بمسيره عمرو بن جرموز فاتبعه حتى إذا كان بوادي السباع غافله فقتله

قتل في هذه الواقعة المنكرة عشرة آلاف من شجعان المسلمين بينهم كثير من أعلامهم منهم طلحة وابنه محمد والزبير (وكاد يقتل ابنه عبدالله) وعبد الرحمن بن عتاب بن أسيد وغيرهم من رجالات قریش وسائر العرب

وبعد أن انتهت الواقعة مر على بين القتلى فكلم رأي صرعي أهل البصرة وعرفهم قال زعموا أنه إنما خرج معهم السفهاء والغوغاء وهذا فلان وهذا فلان ثم صلى على القتلى وأمر بدفنهم جميعاً. وبعد ذلك زار عائشة في البيت التي نزلت فيه فسلم عليها وقعد عندها ثم أمر بأن تجهز إلى المدينة فجهزت خير جهاز ولما جاء يوم رحيلها ودعها بنفسه وقد قالت وسط مشيعها انه والله ما كان بيني وبين علي في القديم الا ما يكون بين المرأة وأحمائها وانه عندي على معتبتي من الأخيار وقال علي أيها الناس صدقت والله وبرت ما كان بيني وبينها الا ذلك وانها لزوجة نبيكم صلى الله عليه وسلم في الدنيا والآخرة وخرجت من البصرة يوم السبت لثلاثة رجب سنة ٣٦ وشيعها علي أميالا وسرح بنيه معاً يوماً

بعد انتهاء الواقعة أخذ علي بيعة أهل البصرة وأمر عاليا عبدالله بن عباس وجعل على الخراج وبيت المال زياد بن أبي سفيان

هكذا انتهت هذه الواقعة التي سهلت على المسلمين فيما بعد أن يقف

بعضهم بازاء بعض محاربين يستحل كل دم الآخر بعد ان كان ذلك
الموقف في نظرهم عظيماً مهيباً

لا يمكننا ان نبرر عمل الفريقين المتحاربين من كل الوجوه فان
طلحة والزبير ودائشة خرجوا كما يقولون للمطالبة بدم عثمان الذي سفك
حراماً من غير ترة ولا ذنب يوجب ذلك ولا نري كيف فهموا ان ذلك
ممکن من غير أن يكون للمسلمين امام يرجع اليه الامر في تحقيق هذه
القضية واقامة الحد على من يستحقه . ان اعطاء الحق للافراد في أن
يتجمعوا لاقامة حد قصر الامام في اقامته او اتهم بالهوادة فيه مفسدة
للنظام الذي أسس عليه الاسلام واذا كانوا لا يرون لامامة على صحة فقد
كان المفهوم دعوة أهل الحل والعقد من كبار المسلمين اولا للنظر في
أمر الخلافة واعطائها لمن يرضاه الناس ثم ينظرون بعد ذلك في اقامة الحد
ولكنهم قاموا بصفتهم افراداً من كبار الامة ودعوا الناس الى أمرهم من
غير أن يكون لهم امام يرجعون اليه ولا ندرى كيف غاب كل ذلك عنهم مع
سابقتهم وفضلهم ولكنهم يقولون ان الفتن اذا أقبلت تشابهت واذا أدبرت
تدينّت ولم يكن عند علي بن ابي طالب من الالانة ما يمكنه من المصابرة حتى يلتئم
هذا الصدع بأحسن مما كان: حقيقة ان أولئك الشياطين الذين لا يريدون بالامة
خيراً أعجلوه وأنشؤا الحرب حتى اشتبه الامر على الفريقين كليهما ولكن هذا
عيب كبير في قيادة الجيوش أن يكون الرئيس بحيث يمكن فرقة من جيشه ان تعجله
عن النظر فيما هو قادم عليه وان من الخطأ العظيم ان يستعين علي بمثل هذه الفرقة
السبئية ويجمعها تأوى الى جنده في الوقت الذي يطالب الناس فيه من

كل جهة بالقصاص من قتلة عثمان فانهم بالضرورة لا يحسن في نظارهم أن يتفق على ذلك الناس لان الاتفاق انما يقع على رؤوسهم فهم يبذلون كل جهدهم في تضيق المسالك على كل من يريد الاصلاح حفظا لانفسهم على أن مجرد وجودهم في جيشه كاف لان يحوم الظنون حول اشترائه في الدم المسفوك وان كان هو ينكر ذلك انكارا تاما وهو عندنا الصادق في قوله والنتيجة أن تبعة هذه الحرب يتحملها كل من الفريقين وتبين للناس انه لا يكفي لبراءة الانسان من الفعل أن لا يكون قد فعله بل يجب أن يعتمد عما يحدث الريبة من قراءته وليس يكفي الرئيس لتقوية مركزه ان يكون عنده من القوة ما يغلب به من خرج عليه من قومه بل يجب مع هذا أن يكون عنده من حسن الحيلة والاناة ما يعيد الخارج عليه الى حظيرته والى لا يكون الا آخر الدواء

امر صفيين

لم يكن واقعة الجمل على شدة هولها وفضاعة امرها الا مقدمة لما هو أشد منها هولا وافظع امرا وهو الحرب في صفيين

انصرف على من البصرة الى الكوفة فاختر جرير بن عبد الله البجلي ليكون رسولا الى معاوية بن أبي سفيان يطلب اليه البيعة فشخص جرير الى دمشق وأنهاى الى معاوية ما جاء له فما طأه واستنظره : وكان أهل الشام قد آلى رجالهم أن لا يمسوا النساء ولا يناموا على الفرش حتى يقتلوا قتلة عثمان ومن عرض دونهم بشيء أو تفني أرواحهم : والشام مجمع اجناد المسلمين لانها نهر عظيم يجاور الامة الرومية التي لم تزل حافظة لشيء من

قوتها فكانت الجنود الاسلامية هناك على غاية الاستعداد .عاشرهم معاوية
 طويلا وهو الرجل السياسى المحنك فامتلك قلوبهم وصاروا طوع أمره ما
 أمرهم أئتمروا به وما نهام انتهوا عنه ومثل تلك القوة العظيمة سهلت له أن
 يرفض بيعة على وينهمه بالاشتراك فى دم عثمان أو على الاقل بحماية قاتليه
 حتى آوأم الى جيشه ولم يعمل أى عمل فى القصاص منهم فجاء جرير طلياً
 وأخبره بما عليه أهل الشام فلم ير على الا المسير والقتال . خرج فمسكر
 بالنخيلة وبلغ معاوية خروجه اليه بنفسه فخرج اليه بأهل الشام

أخذ على بخنوده طريقى الجزيرة وعبر الفرات من الرقة . هناك قدم
 طلائعهم امامه حتى اذا كانوا بسور الروم التقوا بطلائع معاوية فكانت بين
 الفريقين مناوشات قليلة ثم تجاوزوا ثم تلاحقت جنود على ومعاوية فمسكرت
 الطائفتان فى سهل صفيين وتواقفت الجنود الاسلامية بمضها امام بعض

اختار على ثلاثة من رجاله ليذهبوا الى معاوية يطلبون اليه الطاعة
 وهم بشير بن عمرو الانصارى وسعيد بن قيس الحمدانى وشبث بن ربعى
 التميمى فساروا حتى دخلوا على معاوية فتكلم بشير بن عمرو وقال يا معاوية
 ان الدنيا عنك زائلة وانك راجع الى الآخرة وان الله محاسبك بعملك
 وجازيك بما قدمت يدك واني أنشدك الله أن تفرق جماعة هذه الامة
 وأن تسفك دماءها فقال له معاوية هلا أوصيت صاحبك بذلك فقال ان
 صاحبى ليس مثلك ان صاحبى أحق البرية كلها بهذا الامر فى الفضل
 والدين والسابقة فى الاسلام والقراية من الرسول صلى الله عليه وسلم . قال
 فيقول ماذا قال يأمر بك بطاعة الله واجابة ابن عمك الى ما يدعوك اليه من

الحق فانه أسلم لك في دنياك وخير لك في عاقبة امرك قال معاوية ونطل
دم عثمان لا والله لأفعل ذلك أبداً فقام شبت فقال يا معاوية اني قد فهمت
ما رددت : انه والله لا يخفي علينا ما نغزو وما نطلب انك لم تجد شيئاً تستغوى
به الناس وتستميل به أهواءهم وتستخلص به طاعتهم ألا قولك قتل امامكم
مظلوماً فنحن نطلب بدمه فاستجاب لك سفهاء طغام وقد علمنا أن قدأبطأت
عنه بالنصر واحيت له القتل لهذه المنزلة التي أصبحت تطلب ورب متمنى
أمر وطالبه يحول الله عز وجل دونه بقدرته وربما أوتي المتمنى أمنيته وفوق
أمنيته والله مالك في واحدة منهما خير لئن أخطأت ما ترجو انك لشر
العرب حالا في ذلك ولئن أصبت ما تمنى لا تصيبه حتى تستحل من ربك
صلى النار فاتق الله يا معاوية ودع ما انت عليه ولا تنازع الأُمراء هله : ولم يكن
من معاوية جواب على هذه المقالة الشديدة الازد شديد وأمره اياهم بالانصراف
فأتوا عالياً وأخبروه بالخبر

كان القوم جميعاً يهابون أن تلتقي جموع الشام بجموع العراق خوفاً
من الاستئصال والهلاك فكانت تخرج الفرقة من جيش أهل العراق
فتخرج لها مثلها من جيش أهل الشام فيقتلون وعلى هذه الحال كان شأنهم في ذي
الحجة سنة ٣٦ فلما أهل المحرم توادع الفريقان الى انقضائه طمعا في الصلح واختلفت
بينهما الرسل في ذلك فبعث على عدي بن حاتم ويزيد بن قيس الازحبي وزياد بن
خصفة وشبت بن ربيع وهو أحد الرسل في المرة الاولى وربما كان حقه سبباً في عدم
النجاح : فلما دخلوا على معاوية بدأ عدي فقال انا أتيناك ندعوك الى امر يجمع الله عز
وجل به كلمتنا وأمتنا ويحقن به الدماء ويؤمن به السبل ويصلح به ذات البين ان ابن

عملك سيد المرسلين أفضلها سابقه وأحسنها في الاسلام أترا وقد استجمع له
الناس وقد أرشدهم الله بالذي رأوا فلم يبق أحد غيرك وغير من معك فأنته
يا معاوية لا يصبك الله وأصحابك بيوم مثل يوم الجمل : فقال معاوية كانك إنما
جئت متهددا ولم تأت مصلحا هيهات يا عدي كلا والله أني لابن حرب ما يقع
لي بالشنان وانك لمن المجابين على ابن عفان وانك لمن قتلته واني لارجو أن
تكون ممن يقتل الله عز وجل هيهات يا عدي قد حلبت بالسائد الأشد
فقال شبت وزباد اتيناك فيما يصلحنا وإياك فأقبلت تضرب لنا الامثال دع
ما ينتفع به من القول والفعل وأجبننا فيما يعمننا وإياك تفعه — وقال يزيد
ابن قيس انا لم تأت الا لنبلغك ما بعثنا به اليك ولنؤدي عنك ماسمنا منك
ونحن على ذلك لن ندع أن ننصح لك وان نذكر ما ظننا اننا عليك به
حجة وانك راجع به الى الالفه والجماعة ان صاحبنا من قد عرفت وعرف
المسلمون فضله ولا أظنه يخفي عليك ان أهل الدين والفضل لن يعدلوا
بعلی ولن يميل بينك وبينه فاتق الله يا معاوية ولا تخالف مليا فانا والله ما رأينا
رجلا قط أعمل بالتقوى ولا أزهد في الدنيا ولا أجمع لخصال الخير كلها منه
فقال معاوية أما بعد فانكم دعوتكم الى الطاعة والجماعة فاما الجماعة التي دعوتكم اليها
فمعنا هي وأما الطاعة له احبكم فانا لا نراها ان صاحبكم قتل خليفتنا وفرق
جماعتنا وأوى ثأرنا وقتلتنا وصاحبكم يزعم انه لم يقتله ف نحن لا نرد ذلك عليه
أرايتم قتلة صاحبنا أستمعدون انهم أصحاب صاحبكم فليدفعهم الينا فلنقتلهم
به ثم نحن نجيبكم الى الطاعة والجماعة فقال له شبت أيسرك يا معاوية أنك امكنت من
عمار نقتله فقال وما يمنعني من ذلك والله لو أمكنت من ابن سمية ما قتلته بعثمان

ولكن كنت قتله بنائل مولى عثمان فقال شبت لا تصل الى عمار حتى تندر
 الهام عن كواهل الاقوام وتضييق الارض الفضاء عليك برحبها فقال معاوية
 انه لو قد كان ذلك كانت الارض عليك أضيق : وبذلك انتهت هذه السفارة
 التي لم يكن يظن أن تنتهى الا بمثل ما انتهت اليه لانه كان من الضروري
 أن تكون قاعدة الصلح والدعوة شيئاً في مصلحة كل من الطرفين يتنازل هذا
 عن شيء وهذا عن شيء حتى يكون صلحاً أما هذه السفارة فقد كانت دعوة
 كسوا بقها مع ما في بعض الداعين من هذه الشدة التي تفسد القلوب وتباعد
 ما بينها وأرسل معاوية إلى علي حبيب بن مسلمة الفهري وشرحبيل بن السمط
 ومعن بن يزيد والاخلنس بن شريق فدخلوا عليه فتكلم حبيب فقال أما
 بعد فان عثمان بن عفان كان خليفة مهدياً يعمل بكتاب الله عز وجل وينيب
 إلى أمر الله فاستنقلم حياته واستطبطاً ثم وفاته فعدوتم عليه فقتلتموه نادفغ اليينا
 قتلة عثمان ان زعمت أنك لم تقتله تقتلهم به ثم اعتزل أسر الناس فيكون أمرهم
 شورى بينهم يولى الناس أمرهم من أجمع عليه رأيهم فقال له . أنت لأم لك
 والمزل وهذا الأمر اسكت فانك لست هناك ولا بأهل له فقام وقال والله
 لترينى بحيث تكره فقال على وما أنت ولو أجابت بخيلك ورجلاك لا أبقي
 الله عليك ان أبقيت على أحقرة و . واء اذهب فصوب وصعد . ما بدالك
 وقال شرحبيل بن السمط ان كلمتك فلمري ما كلامي الا مثل كلام
 صاحبي قبل فهل عندك جواب غير الذى اجبت به قبل فقال على نعم فحمد
 الله وأثنى عليه ثم ذكر بمئة الرسول صلى الله عليه وسلم وهدايته للناس
 ثم قبضه الله اليه واستخلف الناس أبا بكر واستخلف أبو بكر عمر

فأحسننا السيرة وعدلا في الامة وقد وجدنا عليهم أن توليا علينا ونحن آل رسول الله فقفرنا ذلك لهما وولى عثمان فعمل أشياء عابها الناس عليه فساروا اليه فقتلوه ثم اتانى الناس وانا معتزل أمورهم فقالوا لى بايع فأبيت عليهم فقالوا لى بايع فان الامة لا ترضى الا بك ولما نخاف أن لم تفعل أن يفترق الناس فبايعتهم فلم ير دنى الاشقاق رجلين قد بايعانى وخلاف معاوية الذى لم يجعل الله له سابقة في الدين ولا سلف صدق في الاسلام طليق ابن طليق حزب من هذه الاحزاب لم يزل لله ولرسوله وللمسلمين عدوا هو وأبوه حتى دخلا في الاسلام كارهين دلا غرو الا خلافتكم معه واتقيادكم له وتدعون آل نبيكم الذين لا ينبغي لكم شقاقهم ولا خلافهم ولأن تعدلوا بهم من الناس أحداً الا أنى أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه وأماناته الباطل واحياء معالم الدين : فقال له شرحبيل أشهد أن عثمان قتل مظلوماً فقال لهما لا أقول انه قتل مظلوماً ولا أنه قتل ظالماً قالافمن لم يزعم أن عثمان قتل مظلوماً فنحن منه براء ثم أنصرفوا من غير نتيجة وذلك معقول

لما انسلك المحرم أمر على من ينادى ألا ان أمير المؤمنين يقول لكم انى قد استدمتكم لتراجعوا الحق وتنبؤوا اليه واحتججت عليكم بكتاب الله فدعوتكم اليه فلم تنأهوا عن طغيان ولم تجيبوا الى حق وانى قد نبذت اليكم على سواء ان الله لا يحب الخائنين ففرع أهل الشام الى امرائهم ورؤسائهم وكتبوا كتابهم وبات الفريقان يشتغلان بتعبئة الجيوش : وفي غد ذلك اليوم وهو يوم الاربعاء أول صفر سنة ٣٧ ابتدأت الحرب من غير أن يقف كل الجمعين وجهاً لوجه بل كل يوم يخرج قائد من هنا وقائد من هنا حتى

إذا مضت سبعة أيام قال على لجنده ليلة الاربعاء ثامن صفر حتى متى لا نأهض
هؤلاء القوم بجمعنا واتفق معهم على ذلك فباتوا يصلحون أمرهم وفي ذلك
يقول كعب بن جعيل التغلبي

أصبحت الامة في أمر عجب والملك مجموع غدا لمن غلب
فقلت قولا صادقا غير كذب ان غدا تهلك أعلام العرب

وفي الصباح زحف على بجنوده أهل العراق وزحف له معاوية بجنود
أهل الشام وذلك في يوم مشثوم لا يزال المسلمون يعدونه شؤماً من لدن ذلك
الحادث إلى الآن . تنأهض الناس ذلك اليوم واقتتلوا قتالا شديداً نهارهم
كله ثم انصرفوا عند المساء وكل غير غالب ثم أعادوا الكرة في غد ذلك اليوم
وكانت حملتهم أشد من اليوم الاول وقد انكشفت ميمنة أهل العراق
وانتهت هزيمتهم إلى على فمشى نحو اليسرة فانكشفت عندهم في اليسرة
وثبتت ربيعة ومصر به في ذلك الوقت الا شتر النخعي فقال له علي انت هؤلاء
القوم فقل لهم أين فراركم من الموت فذهب اليهم الا شتر وهيج الناس
لخوض الغمرات فتابعوه وكرامعه فأوخذ لا يعمد لكتيبة الا كشفها ولا لجمع
الا حازه ورده ولم يزل حتى كشف هذه الجموع المهاجمة وألحقهم بصفوف معاوية
بين مصر والمغرب ولم يزل الا شتر في هجمته حتى وصل إلى حرس معاوية
وكان معاوية يقول أردت في هذا الوقت أن أنهزم فذكرت قول ابن الاطنابة

أبت لي عفتي وأبي بلائي واقدامي علي البطل المشيح
واعطائي على المكروه مالى وأخذني الحمد بالثمن الربيع
وقولي كلما جشأت وجاشت مكانك محمدى أو تستريحى

فمنعني هذا القول من الفرار : وفي هذا اليوم قتل عمار بن ياسر
ولما أُمسي المساء على الفريقين لم ينفصلا بل استمر القتال شديداً
طول الليل ويسمون هذه الليلة ليلة الهرير يشبهونها بليلة القادسية حتى
إذا أصبح عليهم صبح يوم الجمعة أخذوا الاشتري زحف باليمينه ويقاثل بها
ويهيح الناس بقوله وعلى يده بالرجال لما رأى من ظفـره : وبيناهم في هذه
الشدة الشديدة إذا بالمصاحف قد رفعت علي رؤوس الرماح من قبل أهل
الشام وقائل يقول هذا كتاب الله عز وجل بيننا وبينكم من لشغور الشام
بعد أهل الشام من لشغور العراق بعد أهل العراق فلما رأى أهل العراق
المصاحف مرفوعة قالوا نجيـب إلى كتاب الله فقال لهم على يا عباد الله امضوا
على حقكم وصدقكم فإن معاوية وعمر بن العاص وابن أبي معيط وحبيب
ابن مسلمة وابن أبي سرح والضحاك بن قيس ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن
أنا أعرف بهم منكم قد صحبتهم أطفالاً وصحبتهـم رجالاً فكانوا شراً أطفالاً
وشراً رجالاً ويحكم انهم مارفـعوها ثم لا يرفعونها ولا يعلمون بما فيها ومارفـعوها
لكم الا خديعة ودهاء ومكيدة فقالوا ما يسعنا أن ندعي إلى كتاب الله عز
وجل فنأبي أن نقبله وقال مسعر بن فدكي التميمي وأشباه له من القراء أجب
إلى كتاب الله اذا دعيت اليه والا ندفعك برمتك إلى القوم أو تفعل كما فعلنا بابن
عمران انه علينا أن نعمل بما في كتاب الله عز وجل والله لتفعلنها ولنفعلنها بك : ثم
طلبوا منه أن يبعث إلى الاشتري ليرك القتال فارسل اليه رسولا فقال
الاشتر للرسول ليس هذه الساعة التي ينبغي لك أن تزيلني فيها عن موقعي اني
قد رجوت أن يفتح لي فلا تعجلني فرجع الرسول بالخبر فما انتهى اليه حتى ارتفع

الرهج وعلت الاصوات من قبل الاشتر فقال له القوم والله ما نراك الا أمرته أن يقاتل ثم قالوا ابعت اليه فليأتك والا والله اعتزلناك فقال للرسول ويحك قل للاشتر أقبل فان الفتنة قد وقعت فلم يسمعه الا المجيء وترك ساحة الحرب ثم أرسل الاشعث بن قيس ليسان معاوية عما يريد فلهذا ذهب اليه قال له معاوية نرجع نحن وأنتم إلى ما أمر الله في كتابه تبتثون منكم رجلا ترضونه ونبعث منا رجلا ثم نأخذ عليهما أن يعملوا بما في كتاب الله لا يعدوانه ثم تتبع ما اتفقا عليه فقال له الاشعث هذا الحق ثم رجع إلى علي فأخبره فقال الناس رضينا وقبلنا فقال أهل الشام قد اخترنا عمرو بن العاص فقال الاشعث ومن تابعه وانا قدرضينا أبا موسى الاشعري فقال علي قد عصيتموني في أول الامر فلا تعصوني الآن وبين لهم تخوفه من أبي موسى لانه كان يخذل الناس عنه فأبوا الا اياه فاضطر علي للسير على مارأوا

المحاضرة الثلاثون

عقد التحكيم — نتائج — الخوارج

عقد التحكيم

وكتب الفريقان بينهم عقد التحكيم وهذه صورته
(بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما تقاضى عليه علي بن أبي طالب ومعاوية
ابن ابي سفيان قاضي علي على أهل الكوفة ومن معهم من شيعتهم من المؤمنين
والمسلمين وقاضي معاوية على أهل الشام ومن كان معهم من المؤمنين والمسلمين

انا نزل عند حكم الله عز وجل وكتابه ولا يجمع بيننا غيره وان كان الله عز وجل
بيننا من فاتحته الى خاتمته نحبي ما أحيانا ونميت ما أمات فما وجد الحكماء في
كتاب الله عز وجل وهما أبو موسى الأشعري وعبد الله بن قيس وعمر بن
العاص القرشي عملا به ومالهم يجدا في كتاب الله عز وجل فالسنة العادلة الجامعة
غير المفرقة وأخذ الحكماء من علي ومعاوية ومن الجندين اليهود والمواثيق
والثقة من الناس أنهما آمنان علي أنفهما وأهلهم والامة لهما أنصار على الذي
يتقاضيان عليه وعلي المؤمنين والمسلمين من الطائفتين كليهما عهد الله وميثاقه
انا علي مافي هذه الصحيفة وانى قد وجبت قضيتهما على المؤمنين فان الا من
والاستقامة ووضع السلاح بينهم أينما ساروا وعلي انفسهم وأهلهم وأموالهم
وشاهدهم وغائبهم وعلي عبد الله بن قيس وعمر بن العاص عهد الله وميثاقه
أن يحكما بين هذه الامة ولا يرادها في حرب ولا فرقة حتى يعصيا وأجلا القضاء
إلى رمضان وان أحبا أن يؤخر اذلك أخره علي تراض منهما وان توفي أحد
الحكمين فان أمير الشيعة يختار مكانه ولا يألوا من أهل المعدلة والقسط وان
كانت قضيتهما الذي يقضيان فيه مكان عدل بين أهل الكوفة وأهل الشام
وان رضيا وأحب فلا يحضرهما فيه الا من أرادا ويأخذ الحكماء من أرادا من
الشهود ثم يكتبان شهادتهما على مافي هذه الصحيفة وهم أنصار علي من ترك هذه
الصحيفة وأراد فيه إلحادا وظلما اللهم انا نستصرك على من ترك مافي هذه
الصحيفة) : ويلى ذلك اسماء الشهود من الطرفين — ١٥ صفر سنة ٣٧
وبهذا العقد انتهت واقعة صفين التي قتل فيها من شجعان المسلمين

وأنجادهم تسمون ألفاً وهو عدد لم يذهب مثله ولا قريب منه في جميع
الوقائع الإسلامية من لدن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تاريخها
ولولا أن عضتهم الحرب ولفحتهم نيران السلاح لاستؤصلت البقية الباقية
وضاعت الثغور : ومما يزيد الأسف أن هذه الحرب لم يكن المراد منها
لوصول إلى تقرير مبدأ ديني أو رفع حيف حل بالامة وإنما كانت لنصرة
شخص على شخص فشيعة على تنصره لانه ابن عم رسول الله صلى الله
عليه وسلم وأحق الناس بولاية الامر وشيعة معاوية تنصره لانه ولي
عثمان وأحق الناس بطلب دمه المسفوك ظلماً ولا يرون انه ينبغي لهم مبايعة
من آوي إليه قتلته

يظهر للمتبع أخبار ما بين علي ومعاوية أن الرجلين كانا على تباين تام
فعلي يرى لنفسه من الفضل والسابقة والقراية ما ليس لغيره من سائر الناس
حتى أشياخ قريش وأصحاب السابقة منهم وزاد به ذلك الفكر حتى كان
يري أن الأشياخ يعلمون ذلك ويغضون عنه وكان يرى في معاوية انحطاطاً
هائلاً عنه ولما ذا ؟ لانه من الطلقاء وأولاد الطلقاء الذين نادوا رسول الله
صلى الله عليه وسلم وحاربوه وربما ظن فيهم أنهم لم يدخلوا في الاسلام
الا كرهاً حينما لم يجدوا مناصاً من ذلك وإذا كان الرجل يرى أشياخ قريش دون
قدر أولم يكن يسلم لهم الامر غمماً لانه لم يجد له انصاراً فكيف يرى نفسه أمام رجل
يظن به ذلك الظن في وقت بايعه فيه الناس بالخلافة وردوا إليه حقه المملوك
منه وقد وجدوا نصراً يؤيدونه كان اذا تكلم من معاوية أو كاتبه يظهر من كلامه
الاحتقار له والترفع عنه والازدراء برسله وخاطبتهم بأشدهم بالمخاطب به انسان ولا

ينظر ان الرجل قد استحوذ على قلوب نصف الامة الاسلامية ومشله لا ينال الا بالاناقة وشيء من المصانعة والسهولة وهذه اشياء لم ير علي أن يتنزل اليها أماماوية فانه بدون ريب كان يري نفسه عظيما من عظماء قريش لانه ابن شيخها أبي سفيان بن حرب واكبر ولد أمية بن عبد شمس بن عبد مناف كما أن عليا أكبر ولد هاشم بن عبد مناف فهما سيان في الرفة النسبية ثم كان يري النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الثلاثة من بعده قد وثقوا به ثقة كبرى حتى جعت له الشام كلها وهي أعظم بلدان المسلمين بعد العراق فصارت له تلك الرياسة العظيمة والاثر الصالح في حماية الثغور الرومية وهو يعلم أن عليا لا ينظر اليه بتلك العين التي كان ينظر له بها من قبله بدليل أن أول عمل له كان عزله فرأى أن انضمامه الى علي يحطه عن تلك المنزلة السامية التي نالها ومن يدري ماذا يكون حاله بعد ذلك من المهانة . وجد أمامه شبيهاً تفسح له المجال في تلك المناوأة (١) انه لم يستشر في تلك البيعة وهو من أعظم قريش ووال من أكبر الولاة تمت أمرته جنس من جنود المسلمين لا يقل عن مئتي ألف (٢) أن كثيراً من الصحابة رفضوا البيعة على (٣) ان أول من نديه للخلافة هم الثائرون علي عثمان الذين قتلوه (٤) أنه آواهم في جيشه ولم يقتص منهم فأخذ من ذلك أنه ممالىء لهم علي فعلتهم - كل تلك الشبه جعلته يمتنع عن البيعة ويأخذ لنفسه الحيطه حتى لا يقع في المذلة والمهانة

شخصات ينظر كل منهما الى الآخر بهذا النظر لا يمكن اتفاهما ولا وصولهما الي طريق رشاد يخفف عن المسلمين ما نزل علي رؤوسهم

من تلك الفتنة الهائلة ولم يكن مدار مراسلاتهم بالشئ الذي يصح أن يكون قاعدة صلح بين فريقين لكل منهما قوة تؤيده فعلي كان يطلب مبايعته ولا يزيد وبغير ذلك لا يكون صلح حتى ان رسله التي كان يرسلها من أهل العراق كانوا يكلمون معاوية بلهجة المحتقر المستخف ومعاوية يطالب أولان تسلم قتلة عثمان اليه ليقتص منهم ثم يكون الامر شورى وكلا الامرين لا يرضى به على : اما قتلة عثمان فلانه اذا اراد انتزاعهم من جيشه لا يأمن ان يتعصب لهم قومهم فينقسم جيشه وأما الثانية فلانه لا يترك حقا قد ثبت له بالبيعة التي رآها تمت وليس لاحد مهما عظم قدره أن يعترض عليها فكيف يمثل معاوية في نفسه أضف الى ذلك أن فرقة السبئية التي كانت تتخلل جند على لم يكن من مصلحتها أن يكون صلح بين الطرفين فهم لا يسكتون عن حمل الخطب لاشعال نار الفتنة كلما قاربت الخمود ولذلك كان لهذا التحكيم الذي اتفق عليه الطرفان نتيجة من أسوأ النتائج في جند على

نتائج التحكيم

بعد ان كتبت شروط الصلح عاد معاوية بجنده الى دمشق أما جند على فان الاشعث بن قيس خرج بكتاب الصلح يقرأه على الناس ويعرضه عليهم يقرءونه حتي مر به على طائفة من بني تميم فيهم عروة بن أدية وهو أخو ابى بلال فقرأه عليهم فقال عروة أتحكمون في أمر الله الرجال لإحكم الا لله ثم شد بسيفه فضرب به عجز دابته ضربة خفيفة فغضب للاشعث قومه من اليمن فمشي رؤساء بني تميم ففتصلوا اليه

واعتذروا فقبل وصفح ثم عاد الجيش يريد الكوفة

روي الطبري عن عمارة بن ربيعة قال خرجوا مع علي إلى صفين وهم متوادون
أحباء فرجعوا متباغضين أعداء ما برحوا من عسكرهم بصفين حتى فشا فيهم
التحكيم ولقد أقبلوا يتدافعون الطريق كله ويتشائمون ويضطربون
بالسياط يقول الخوارج يا أعداء الله أدهنتم في أمر الله وحكمتكم وقال
الآخرون فارقتم أماننا وفرقتم جماعتنا فلما دخل على الكوفة لم يدخلوا
معه حتى أتوا حروراء فنزل بها منهم اثنا عشر ألفاً ونادي مناديتهم أن أمير
القتال شعث بن ربیع التميمي (وهذا الذي كان رسول علي إلى معاوية وكان
يتوقع في خطابه ويعجب من معاوية كيف لم يبايع علياً وهو هو سيد المسلمين
وابن عم سيد المرسلين إلى آخر ما قال) وأمير الصلاة عبد الله بن الكواء
الشكري والأمر شورى بعد الفتح والبيعة الله عز وجل والأمر بالمعروف
والنهي إلى المنكر : فبعث إليهم علي عبد الله بن عباس وقال له لا تعجل في
جوابهم وخصومتهم حتى آتيك فخرج إليهم ابن عباس فأقبلوا عليه يكلمونه
فلم يصبر عليهم بل قال ما نقتم من الحكيم وقد قال الله عز وجل إن يريد
إصلاحاً يوفق الله بينهما فكيف بأمة محمد صلى الله عليه وسلم فقالوا له أماناً
جعل حكمه إلى الناس وأمر بالنظر فيه والإصلاح له فهو إليهم كما أمر به - وما
حكم فأمره فليس للعباد أن ينظروا فيه حكم في الزاني مئة جلدة وفي السارق
بقطع يده فليس للعباد أن ينظروا في هذا قال ابن عباس فان الله عز وجل يقول
تحكم به ذوا عدل منكم فقالوا له أو تجعل الحكم في الصيد والحدث يكون
بين المرأة وزوجها كالحكم في دماء المسلمين : وقالوا إن هذه الآية ينشأ

أعدل عندك ابن العاص وهو بالامس يقاتلنا ويسفك دماءنا فان كان عدلا
فلسنا بعدول ونحن أهل حربه وقد حكمتهم في أمر الله الرجال وقد أمضي
الله حكمه في معاوية وحربه أن يقتلوا أو يرجعوا وقبل ذلك مادعونا
إلى كتاب الله فابوهم كتبتم بينكم وبينه كتابا وجعلتم بينكم وبينه المواقعة
والاستفاضة وقد قطع عز وجل الاستفاضة والمواقعة بين المسلمين وأهل
الحرب منذ نزلت براءة الا من أقر بالجزية ثم جاء على فوجد ابن عباس
يخاصمهم فقال له انت عن كلامهم ألم أنك ؟ ثم سأهم ما أخرجكم علينا قالوا
حكومتكم يوم صفين فقال أنشدكم الله أأست قد نهيتكم عن قبول التحكيم
فرددتم على رأيي ولما أيتتم الا ذلك اشترطتم على الحكمين أن يحيا ما أحيا
القرآن وان يميتا ما أمات القرآن فان حكما بحكم القرآن فليس لنا أن نخالف
حكما يحكم بما في القرآن وان أيا فنحن من حكمهما براء قالوا له فخذ برنا
أتراه عدلا تحكيم الرجال في الدماء فقال انا لسنا حكمنا الرجال انما حكمنا
القرآن وهذا القرآن انما هو خط مسطور بين دفتين لا ينطق انما يتكلم به
الرجال قالوا فخذ برنا عن الاجل لم جعلته فيما بينك وبينهم قال ايعلم الجاهل
ويتثبت العالم ولعل الله عز وجل يصلح في هذه الهدنة هذه الامة ادخلوه صركم
رحمكم الله : والخوارج يدعون انهم قالوا ان التحكيم كان منا كفر أو قد تبنا
الى الله فتب كما تبنا نبأ يعك والا فنحن مخالفون فبايعهم علي وقال ادخلوا فلنمكث
سنة أشهر حتى يجي المال ويسمن الكراع ثم نخرج الى عدونا فدخلوا على ذلك
وتوضيح نظرية هؤلاء القوم ان عليا كان اماما ببيع بيعة صحيحة
فمن امتنع عن بيعته فهو مرتكب جريمة العصيان والبنى وهم يرون أن

مرتكب الكبيرة كافر فاذا يكون معاوية بنى على الامام العدل وحارب الله
ورسوله وحينئذ يكون له ولقومه حدمقرر في القرآن والحدود المقررة لا معنى
للتحكيم فيها لأنه تغيير للمشروع ان تضي بخلافه . ولما كان معاوية ومن معه
يستحقون في نظرهم هذه العقوبة نصافا للذين معهم ومهادتهم ادهان في دين الله وتحكيم
للرجال فيما لا حكم فيه الا الله وهذا في نظرهم جريمة وفادلها ضال والضال لا يصلح
لخلافة المسلمين فلا خلافة له ولا حرمة لمن اتبعه فلمهم أن يقاتلوه وهم في نظرهم
كجند معاوية سواء بسواء : فانظروا كيف جاءت هؤلاء الناس نتيجة بعض
مقدماتها باطل فلا عجب أن تكون هي أيضا باطلة : أما كون جريمة العصيان
ومحاربة الله والرسول لها حدمقرر في كتاب الله فذلك صحيح وأما كون معاوية
ومن معه بناة فذلك شيء يحتاج الى النظر فان ادعى ان له شبيها في نفس
امامة الامام أهى منعقدة أم لم تنمقد فهذا يصح فيه التحكيم وليس تحكما
للرجال في دين الله وإنما هو تحكيم في صحة وصف يذنب عليه حكم فان
القاضي الذي ترفع اليه قضية سرقة لا يطلب منه الاجتهاد في أن السارق
تقطع يده او لا تقطع وإنما يطلب منه الاجتهاد في معرفة أهذا سارق أم
غير سارق فاذا ثبتت له الصفة وجب عليه حتما أن يحكم بقطع اليد فان
قالوا ان التحكيم من على شك في أمامته والشاك لا يجوز له أن يسفك
الدماء للمطالبة بامر مشكوك في صحته كان هذا باطلا أيضا لان صاحب
الحق كثيرا ما يتأكد أن الحق له فاذا رأى من خصمه انكارا أو تمسكا
بشبه فانه لا طريق أمامه الا ان يرفع الامر لقاض أو لمحكمين يكون
حكمهما قاطعا لنزاع خصمه : وعلي الجملة فان هذه الفئة الجديدة قد بنت

أمرها على مقدمات لم تنضج فزادوا الطين بلة وبعد أن كانوا فرقتين صرنا الآن
 أمام ثلاث فرق يستحل بعضها ماء بعض وصار لعلى يدوان : والمتبع لحوال
 الخوارج ومقاماتهم في حروبهم يتأكد أنهم مخدوعون بما ظهر لهم حتى صار عندهم
 حقيقة من الحقائق التي لا ينكرها الاثاوفي نظارهم والاف كيف يؤول فعلمهم كانوا
 بالامس يرون في علي أنه أفضل المسلمين وأعلمهم وأفقههم في الدين واليوم يباينونه
 هذه المباينة ويرون انه ضل في التحكيم ولم يعد يستحق أن يكون خليفة وأن كل
 من تابعه بعيد عن طريق الرشاد

اجتماع الحكمين

لما حان أجل اجتماع الحكمين بعث على أربعة رجل عليهم شريح
 ابن هانيء الحارثي ومعه ابن عباس يصلي بهم ويولي امورهم وأبو موسى
 الاشعري معهم وبعث معاوية عمرو بن العاص في أربعة من أهل
 الشام فتوافقوا بدومة الجندل باذرح وكان معاوية اذا كتب الى عمرو جاء
 الرسول وذهب لا يدري بما جاء به ولا بما رجع به ولا يسأله أهل الشام
 عن شيء واذا جاء رسول علي جاء أهل العراق الى ابن عباس فسالوه ما
 كتب اليك أمير المؤمنين فان كتبهم ظنوا به الظنون فقالوا ما نراه
 الا كتب بكذا وكذا فقال لهم ابن عباس أما تعقلون أما ترز رسول
 معاوية بجيء لا يعلم بما جاء به ويرجع لا يعلم بما رجع به ولا يسمع لهم
 صياح ولا لفظ وأنتم عندي كل يوم تظنون الظنون : وشهد هذه الجماعة
 عبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام

المخزومي والمنيرة بن شعبة وغيرهم

اجتمع الحكماء وبخثافيا جاء الأجله وهو اصلح ما بين الناس فتكلم عمرو فقال ألسنت تعلم أن عثمان قتل مظلوما قال أبو موسى أشهد — قال عمرو ألسنت تعلم أن معاوية وآل معاوية أولياؤه — قال بلى — قال عمرو فإن الله يقول (ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف في القتل إنه كان منصورا) فما يمنعك من معاوية ولي عثمان يا أبا موسى وبيته في قریش كما قد علمت فإن تخوفت أن يقول الناس ولي معاوية وليست له سابقة فإنك بذلك حجة تقول أني وجدتته ولي عثمان الخليفة المظلوم والطالب بدء الحسنة السياسة الحسن التدبير وهو أخو أم حبيبة زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد صحبه فهو أحد الصحابة . ثم عرض له بالسلطان بقوله ان ولي اكرمك كرامة لم يكرمها خليفة فقال أبو موسى يا عمرو اتق الله فاما ما ذكرت من شرف معاوية فإن هذا ليس على الشرف يولاه أهله ولو كان على الشرف لكان هذا الامر لآل أبرهة بن الصباح انما هو لاهل الدين والفضل مع اني لو كنت معطيه أفضل قریش أعطيته على بن أبي طالب واما قولك ان معاوية ولي دم عثمان فوله هذا الامر فاني لم أكن لاوليه معاوية وأدع المهاجرين الاولين واما تعريضك لي بالسلطان فوالله لو خرج لي من سلطانة كله ما وليته وما كنت لارتشى في حكم الله عز وجل ولكنك ان شئت أحيينا اسم عمر بن الخطاب فقال عمرو ان كنت تحب بيعة ابن عمر فما يمنعك من ابني وأنت تعرف فضله وصلاحه فقال ان ابنك رجل صدق ولكنك قد غمسته في هذه الفتنة . وهذه المناقشة تدل علي انهما قد اتفقا على خلع المتنازعين

واختلفا فيمن يخلفهما وحيثما اتفقا أن يكون الأمر شورى بين الناس يولون من رضوا ولم يبق إلا اعلام الناس بما اتفقا عليه فخرجوا وكان عمرو يقدم أبا موسى في كل كلام فتقدم أبو موسى فحمد الله وأثنى عليه ثم قال أيها الناس إنا قد نظرنا في أمر هذه الأمة فلم نرأ صلح لا مرها ولا ألم لشعثها من أمر قد أجمع عليه رأي ورأي عمرو وهو أن نخلم عليا ومعاوية وتستقبل هذه الأمة هذا الأمر فيولوا منهم من أحبوا عليهم واني قد خلعت عليا ومعاوية فاستقبلوا أمركم وولوا عليكم من رأيتموه لهذا الأمر أهلا ثم تنحي وأقبل عمرو فقام مقامه فحمد الله وأثنى عليه وقال إن هذا قال ما قد سمعتم وخلع صاحبه وانا أخلع صاحبه كما خلعه وأثبت صاحبي معاوية فانه ولي عثمان والطالب بدمه وأحق الناس بمقامه فتنازرا — و يروى المسمودي أنهما لم يحصل منهما خطبة وانما كتبنا صحيفة فيها خلع علي ومعاوية وان المسلمين يولون عليهم من أحبوا وهذا القول أقرب في نظرنا الى المعقول وان لهج كثير من المؤرخين بذكر الاول لان هذه الخطبة علي فرض حصولها وأن الخديعة تمت علي أبي موسى لم تكن لتفيد معاوية شيئا لان الذي ثبتته انما هو حكمه والذي يلزم الأمة بمقتضى الصحيفة انما هو ما اجتمع عليه لا ما رضي به أحد الحكمين ولم ينقل أحدان أبا موسى رضي في خطابه ببيعة معاوية

ومن الوقت الذي جرى فيه عقد التحكيم وعين الحكمان يشعر الانسان بانه لا يؤدي الى نتيجة لان أبا موسى كما يظهر من ماضيه رجل يكره الفتن ويجب للمسلمين السلامة ويتمنى لو وصل الى ما يريد من أى طريق يسلكه وقرينه يميل الى معاوية ويجب تأييده وتبذير خلافته وهو

مع ذلك رجل عرف الدنيا وجالس الملوك فلا يهيمه الا أن يصل الي مقصوده . مهما استعمل في سبيل ذلك من الخدع ومثل هذين لا يتفقان : قال المغيرة بن شعبه لبعض من معه . من قرش سأعلم لكم علم هذين الرجلين أيتفقان أم يختلفان فدخل على عمرو فقال له يا أبا عبد الله أخبرني عما أسالك عنه كيف ترانا معشر المعتزلة فانا قد شككنا في الامر الذي قد تبين لكم من هذا القتال ورأينا أن نتأني ونتثبت حتي تجتمع الامة فقال عمرو أراكم يا معشر المعتزلة خلف الابرار وأمام القجار ثم جاء أبا موسى فسأله كما سأل عمر أ فقال له اراكم أثبت الناس رأيا فيكم بقية المسلمين فانصرف المغيرة الى أصحابه وقال لهم لا يجتمع هذان على أمر واحد

لم يكن على ليرضي بهذا الحكم الذي تأكد أنه مخالف للكتاب والسنة اللذين عهد الى الحكمين أن يحكما بهما ورضي به معاوية طبعاً لأن أقل ما في الحكم أن ليس اعلى امامة وصار الامر للناس يولون من شاءوا وعنده جند عظيم يختارونه ولا يضلون عليه أحداً فزادت آله في أن يكون خليفة المسلمين رأي على أنه لا بد له من معاودة الكرة الي معاوية وأصحابه ولكن عرض له معاودة الخوارج لخروجهم فانه لما أراد أن يبعث أبا موسى كره الخوارج ذلك لانهم كانوا يظنون ان دليلاً وافقهم على كراهة التحكيم ورؤيته ضلالة وجاءه انسان فقال له ان اناس قد تحدثوا عنك أنك رجعت لهم عن كفرك فخطب الناس في صلاة الظهر فذكر أمر الخوارج فعا به فوثبوا من نواحي المسجد يقولون لا حكم الا لله وعلى يقول كلمة حق أريد بها باطل وندد ذلك اجتمعت الخوارج في منزل عبد الله بن وهب

الراسبي فخطبهم خطبة حثهم فيها على الخروج وقال في آخر خطابه فاخرجوا بنا من هذه القرية الظالم أهلها إلى بعض كور هذه الجبال أو إلى بعض هذه المدائن منكرين لهذه البدع المضلة : ثم أرادوا أن يولوا أمرهم رجلا فعرضوا الولاية على المتميزين منهم فكلهم يأبأها ثم عرضوها على عبد الله بن وهب فقال هاتوها أما والله لا آخذها رغبة في الدنيا ولا أدعها فرقا من الموت فبايعوه لعشر خلون من شوال ثم اتفقوا أن يخرجوا وحدا نأ مستغنيين حتى يجتمعوا في جسر النهروان وكتب ابن وهب للخوارج من أهل البصرة يخبرهم بما تم عليه الأمر ولما خرجت الخوارج جاءت شيعة علي إليه فبايعوه وقالوا نحن أولياء من واليت وأعداء من عاديت : وبعد هذا الخروج وعلمه بما فعل أبو موسى خطب أهل الكوفة فقال الحمد لله وإن أتى الدهر بالخطب القادح والحدثان الجليل وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله أما بعد فإن المعصية تورث الحسرة وتعقب الندم وقد كنت أمرتكم في هذين الرجلين وفي هذه الحكومة أمرى ونحلتكم رأيي لو كان أقصير أمر ولكن أيتيم إلا ما أردتم فكنت أنا وانتم كما قال أخوه وازن

أمرتهم أمرى بمنعرج اللوى	فلم يستبينوا الرشدا لا ضحى الغد
فلما عصوني كنت منهم وقد أرى	كان الهدى أو اننى غير مهتد
وهل أنا إلا من غزيرة غوت	غويت وإن ترشد غزيرة أرشد

إلا أن هذين الرجلين الذين اخترتموهما حكيمين قد نبذ القرآن وراء ظهورهما وأحيا ما أمات القرآن واتبع كل منهما هواه لغير هدى من الله مكما بغير حجة بينة ولا سنة ماضية واختلفا في حكمهما وكلاهما لم

يرشد فبرىء الله منهما ورسوله وصالح المؤمنين استعدوا وتأهبوا للسير
الى الشام وأصبحوا في معسكركم ان شاء الله يوم الاثنين : وكتب الى
الخوارج يدعهم الى المجيء لحرب أهل الشام فكتبوا اليه (أما بعد فانك
لم تغضب لربك وإنما غضبت لنفسك فان شهدت على نفسك بالكفر
واستقبلت التوبة نظرنا فيما بيننا وبينك والافقدنا بذلك على سواء إن
الله لا يحب الخائنين) فلما قرأ كتابهم أيس منهم وأراد أن يدعهم ويسير
الى الشام فخرج حتى عسكر بالنخيلة ومن هناك كتب الى ابن عباس يأمره
أن يرسل اليه جند البصرة والى أمير المدائن يأمره أن يرسل اليه جندها
فاجتمع عنده نحو سبعين ألف جندي . هناك بلغه أن الناس يقولون لو سار
بنا الى هذه الحرورية فبدأنا بهم فاذا فرغنا منهم توجهنا الى الشام فقام
فيهم خطيباً وبين لهم أن قتال أهل الشام أهم فتنادى الناس يا أمير المؤمنين
سربنا الى ما أحببت . بلغ علياً وهو في مقامه بالنخيلة أن الخوارج اتروا
الناس وقتلوا منهم فأرسل رسولا ليعلم جلية الخبر فقتلوه ولما جاءه ذلك
الخبر قال الناس يا أمير المؤمنين علام تدع هؤلاء وراءنا يخلقوننا في أموالنا
وعيالنا سربنا الى القوم فاذا فرغنا مما بيننا وبينهم سرنا الى عدونا من أهل
الشام فلم يجد بداً من موافقتهم ونادى بالرحيل فلما وصلهم أرسل اليهم أن
ادفعوا إلينا قتلة اخواننا منكم نقلتهم بهم ثم أنا تارككم وكاف عنكم حتى
ألقى أهل الشام فلعل الله يقلب قلوبكم ويردكم الى خير مما اتم عليه من
أمركم فبعثوا اليه كلنا قتلهم وكلنا نستحل دماءهم ودماءكم . ولم تنجع فيهم
تلك الخطب الرائعة والوصايا العظيمة التي نطق بها علي وهم يسمعون فرفع راية

مع أبي أيوب الانصارى ونادى من جاء هذه الراية منكم ممن لم يقتل ولم يستعرض
فهو آمن ومن انصرف الى الكوفة أو الى المدائن وخرج من هذه الجماعة
فهو آمن انه لا حاجة لنا بعد أن نصيب قتلة اخواننا منكم في سفك دمائكم
فانصرف منهم جمع وخرج الي على جمع وبقى مع ابن وهب ٢٨٠٠ من أربعة
آلاف فقامت رحا الحرب بين الفريقين وانتهت في ذلك اليوم بقتل ابن
وهب ومعه من معه ووجدوا من جرحاهم نحو ٤٠٠ فأمرهم على
فدفعوا الى عشائهم وقال احموهم . معكم فداوهم فاذا برءوا فنخذوهم . معكم الى
الكوفة ولما تم لملى الظفر قال للناس توجهوا من فوركم هذا الى عدوكم فقالوا
يا أمير المؤمنين تفدت نبالنا وكلت سيوفنا ونصلت أسننه رماحنا وعاداً كثرها
قصداً فارجع الى مصرنا فلنستعد بأحسن عدتنا ولعل أمير المؤمنين يزيد
في عدتنا عدة من هلك منا فانه أوفى لنا على عدونا : فلما نزل النخيلة أمر
الناس أن يلزموا عسكرهم ويوطنوا على الجهاد انفسهم وأن يفلوا زيارة نسائهم
وأبنائهم حتى يسيروا الى عدوهم فأقاموا هناك أياماً ثم تسلاوا من معسكرهم
فدخلوا الارجالا من وجوه الناس قليلا وترك العسكر خاليا فلما رأى ذلك
دخل الكوفة وانكسر عليه رأيه في المسير وبعد أيام دعارؤساءهم ووجوههم
فسألهم عن رأيهم وما الذى ينظرونهم فمنهم المعتل ومنهم المكروه وأقلهم من
نشط : وهو في كل يوم يلتقى عليهم من خطبه الشديدة يحثهم ويستنهضهم
فلا يفيد ذلك شيئا وصار في جند لا يتر ولا يحلى ضعف سلطان اماءهم في
أنفسهم وفضلوا الدعة على تلك الحروب المستطيرة التى كادت تستأصلهم
هذه كانت حال أهل العراق مع امامهم : أما حال أهل الشام مع

امامهم فكانت على العكس من ذلك جند مطيع وقلوب متحدة وفي هذا كفاية لمن يريد العظام ولذا كان شأنه دائماً في علو إلى ما كان يستعين به من الحيل كان مما يهم معاوية أن يستولى على مصر لأنها متاخمة له وهي مورد رزق عظيم للجنود فأعمل لذلك الرأي ونجح : كان محمد بن أبي حذيفة بمصر حين مقتل عثمان فضبطها واستولى عليها واقترب عليه أهل مصر فلما تم الأمر لعلو عليها قيس بن سعد بن عباد وهو من عظماء شيعته وكانت ولايته في بدء سنة ٣٦ وكان رجلاً سياسياً خبيراً بالأمور فاستقامت له الأمور بمصر إلا أن فرقة من المصريين اعتزلت بقرية خربت قد أعظموا قتل عثمان وكان عليهم مسلمة بن مخلد الانصاري فبعث اليهم قيس اني لا أكرهكم على البيعة وأنا أدعكم وأكف عنكم : كان أثقل شيء علي معاوية وجود قيس بمصر مخافة أن يقبل اليه على أهل العراق ويقبل اليه سعد بأهل مصر فيقع بينهما فكتابه معاوية ومناه فلما جاءه كتابه أحب أن يدافعه ولا يبدى له أمره ولا يتعجل له حربه فكتب اليه كتاباً لا يستبين مراده منه إلا أنه قال له أنا كاف عنك ولن يأتيك من قبلي شيء تكرهه فلما قرأ معاوية كتابه لم يأمن أن يكون ذلك مكيدة فكتب له كتاباً آخر يطلب منه التصريح برأيه ولما رأى قيس أن معاوية لا يقبل منه المدافعة والمماطلة أظهر له ذات نفسه وكتب له كتاباً جعله يئأس منه واستنبط وجه الحيلة في اخراجه عن مصر فقال لأهل الشام لا تسبوا قيس بن سعد ولا تدعوا إلى غزوه فإنه لنا شيعه يا تينا كيس نصيحته سرراً ألا ترون ما يفعل باخوانكم الذين عنده بخبرتي يجري عليهم أعطياتهم

وأرزاقتهم ويؤمن سربهم ويحسن الى كل راكب قدم عليه منكم لا يستنكرونه
في شيء وكانت لعللي جواسيس بالشام فبعثوا اليه بالخبر فاتهم قيساً وكتب
اليه يأمره بقتال أهل خربتي وهم يومئذ عشرة آلاف فأبي قيس أن يقاتلهم
وكتب الى علي انهم وجوه أهل مصر وأشرافهم وأهل الحفاظ منهم وقد رضوا
منى أن يؤمن سربهم وأجرى عليهم أرزاقتهم واعطياتهم وقد علمت ان هوام
مع معاوية فليست مكابدهم بأمر اهون علي وعليك من الذي أفعل بهم ولو اني
غزوتهم كانولي قرناؤهم اسود العرب فذرنى فأنا اعلم بما أداري منهم — فأبي
علي الاقتالهم وأبي قيس أن يقاتلهم وكتب اليه ان كنت تهمنى فاعزلى عن
عملك وأبئت اليه غيري فعزله وولى علي مصر محمد بن أبي بكر فلم يلبث
شهرآ حتى كتب إلى أولئك الممزين يخبرهم بين أمرين الدخول فى طاعته
والخروج من مصر فبعثوا اليه إننا لا تفعل دعنا حتى ننظر إلى ما تصير اليه
امورنا ولا تعجل بحربنا فأبى عليهم فامتنعوا منه وأخذوا حذرهم فكانت
وقعة صفين وهم له هائبون فلما أتاهم صبر معاوية ومن معه من أهل الشام لعللي
وان عليا ومن معه رجعوا عن أهل الشام اجترءوا على محمد بن أبي بكر وأظهروا
له المبارزة فأرسل اليهم سريتين الواحدة تلوا الاخرى ونصيب كاتيهما الهزيمة
وحينئذ اضطرب أمر مصر فلما بلغ ذلك عليا قال المصرا لا احد رجلين صاحبنا
الذى عزلناه عنها أو مالكا بن الحارث الاشتر وكان قد استعمله على الجزيرة
فكتب اليه بعد التحكيم فاستقدمه وولاه مصر وكتب اليه ذلك العهد
المعدود من أحسن ما كتب فى العالم : والظاهر أن هذا العهد قد كتب بعد
ذلك بأزمان

لم يصل الا شتر الى مصر بل مات بالقلزم ويقال انه سم في شربة عسل
 بحيلة من معاوية فكتب على الى محمد بن أبي بكر (أما بعد فقد بلغني موجدتك
 من تسريحي الا شتر الى عمالك وانى لم أفعل ذلك استبطاء لك في الجهاد ولا
 ازدياداً منى لك في الجدد ولو ترعت ماتحت يدك من سلطانك لو ليتك ما هو أيسر
 عليك في المؤنة وأعجب اليك ولاية منه : ان الرجل الذي كنت وليته مصر
 كان لنا نصيحاً وعلى عدونا شديداً وقد استكمل أيامه ولا في حمامه ونحن عنه
 راضون فرضي الله عنه وضائف له اثواب وأحسن له المآب اصبر لعدوك وشعر
 للحرب وادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة واكثر ذكر الله
 والاستعانة به والخوف منه يكفك ما أهماك ويعنك على ما ولاك أعاننا الله وإياك
 على ما لا ينال الا برحمته)

كان معاوية في ذلك الوقت قد قوى بنتيجة التحكيم وبايعه أهل الشام
 بالخلافة فلم يكن لهم الا مصر فرأى أن يستعين بمن بهما من ساءهم قتل عثمان
 فكتب الى مسلمة بن مخلد ومعاوية بن خديج يقويهما ويمينهما فكتب اليه بنخبر
 من معهما وأنهم ممتنعون وأن ابن أبي بكر هائب لهم وطلبوا المدد فجهز الى مصر
 عمر بن العاص في ستة آلاف رجل فأقبل حتى نزل أداني أرض مصر فاجتمعت
 عليه العثمانية وكتب الى ابن أبي بكر (أما بعد فتشعني بدمك يا ابن أبي بكر
 فاني لأحب أن يصيبك منى ظفر : ان الناس بهذه البلاد قد اجتمعوا على خلافك
 ورفض أمرك ونداء على اتباعك فهم مسلوكون وقد التقت حلقتا البطان فاخرج
 منها فاني لك من الناصحين) فكتب محمد الى على يعلمه بذلك ويطلب منه مدداً

أقبل ابن العاص مریداً مصر فخرج اليه محمد في ألفي رجل يقدمهم
 كنانة بن بشير فلم يَحْتَمِلُوا هجمة الجنود الشامية ومن مالا هم من جنود
 مصر قتل من قتل وفر الباقيون واختفى محمد بن أبي بكر فأقبل عمرو حتي
 نزل الفسطاط وخرج معاوية بن خديج يطلب محمداً حتي ظفر به فقتله ويقال
 انه أحرقه بالنار بعد ذلك : أما على فلم ينجح في اخراج الجنود لاذاته مصر
 الاً بعد شدة حيث انتدب له ألفان ولكنهم لم يسروا الا قليلاً حتي بلغ علياً
 ما كان فأرسل اليهم من ردهم من الطريق وحزن كثيراً علي ابن أبي بكر

وكانت مصر لمعاوية قوة كبيرة ولم يكفه الاستيلاء عليها بل رأى أن
 يجهز البعوث لاطراف علي ينتقصها فأرسل النعمان بن بشير إلى بن التمر
 وبها مالك بن كعب مسلحة لعل يكتسب إلى علي يستعده فأمر الناس أن
 ينهضوا اليه فشقوا فخطب فهم هذه الخطبة : يا أهل الكوفة كلما سمعتم
 بمنسر من مناسر أهل الشام أظلمكم انجحر كل امرئ منكم في بيته وأغلق بابه
 انجحر الضب في جحره والضبع في وجارها المنفر ور من زرتموه ولمن فاز منكم
 فاز بالسهم الاً خيب لا أحرار عند النداء ولا اخوان نقة عند النجاء بالله وإنا اليه
 راجعون ماذا منيت بكم عمي لا تبصرون وبكم لا تنطقون وصم لا تسمعون
 إنا لله وإنا اليه راجعون

ووجه معاوية سفيان بن عوف في ستة آلاف للاغارة على هيت
 والانباء والمدائن فسار حتي أتى هيت فلم يجد بها أحداً ثم أتى الانبار وبها
 مسلحة لعل فقلبهم على امرهم واحتملوا ما بها من الاموال وعادوا الى معاوية
 فخرج علي في طلبهم فلم يلحقهم

ووجه عبد الله بن مسعدة الي تيماء وأمره أن يصدق من مر به من أهل البوادي وأن يقتل من امتنع ثم يأتي مكة والمدينة فوجه اليه على جيشاً يقدمه المسيب بن نجبة الفزاري فلحق ابن مسعدة بتيماء فاقتلوا قتالا شديداً وانتهى الامر بان سهل لهم المسيب طريق الفرار ولم يلحقهم فاتهم بالغش

ووجه الضحاک بن قيس للاغارة على بوادي البصرة فأغار عليها ووجه بسر بن أرطاة في ثلاثة آلاف الى الحجاز واليمن فسار حتى أتى المدينة وامتلكها وباع أهلها لمعاوية ثم أتى مكة فبايع أهلها كذلك ثم ذهب الى اليمن وكان واليها عبيد الله بن عباس لعلي فلما علم بمسير بسر اليه فر الى الكوفة حتى أتى عليا واستخلف علي صنعاء فجاء بسر واستولى على اليمن وقتل ابنين صغيرين لعبيد الله : وكان بسر عسوفاً أسرف في قتل من رآه من شيعة علي

هكذا كانت الحال في تلك الازمنة الثقيلة التي كانت الى القوضي اقرب ومن أغرب ما يروي أن ابن عباس وهو الساعد الاشد لعلي فارقه وترك البصرة التي كان قد ولاه عليها وجاء مكة لان علياً اتهمه بمال أخذه من مال المسلمين



المحاضرة الحادية والثلاثون

مقتل علي - بيت علي - صفته وأخلاقه - الحسن بن علي - مدنية
 الاسلام في عهد الخلفاء الراشدين - الخلافة - القضاء -
 الجند - الخراج والصدقات والمشور - النقود
 الحج - الصلاة - العلم والتعليم

مقتل علي

اجتمع ثلاثة نفر من الخوارج وهم عبد الرحمن بن ملجم والبرك بن
 عبد الله وعمر بن بكر التميمي فتذاكروا أمر الناس وعابوا ولاتهم ثم
 ذكروا أهل النهر فترحوا عليهم وقالوا مانصنع بالبقاء بعدهم شيئاً اخواننا
 الذين كانوا دعاة الناس لعبادة ربهم والذين كانوا لا يخافون في الله لومة لائم
 قلو شربنا أنفسنا فأتينا أئمة الضلالة فالتمسنا قتلهم فأرحنا منهم البلاد
 وثأرنا بهم اخواننا فقال ابن ملجم أنا أكفيكم علي بن أبي طالب وقال
 البرك أنا أكفيكم معاوية وقال عمرو بن بكر وأنا أكفيكم عمرو بن العاص
 فتعاهدوا وتواثقوا بالله لا ينكص رجل منا عن صاحبه الذي توجه إليه حتى
 يقتله أو يموت دونه فأخذوا أسيافهم فسموها واتعدوا لسبع عشرة تخلو
 من رمضان سنة ٤٠ هـ أن يشب كل دلي صاحبه الذي توجه إليه وأقبل كل
 رجل منهم علي المصر الذي فيه صاحبه . فأما ابن ملجم المرادي وكان عدده
 في كعدة فخرج حتى أتى الكوفة ولم يخبر من بها من اخوانه شيئاً
 كراهة أن يظهر وكان بالكوفة جماعة من تيم الرباب قتل منهم علي يوم
 النهر عشرة وفيهم امرأة يقال لها قطام ابنة الشجنة قتل علي أباه وأخاه

يوم النهر وكانت فائقة الجمال فلما رآها أذهلته عما جاء له فخطبها فقالت لا أتزوجك حتى تشفي لي قال وما يشفيك قالت ثلاثة آلاف وعبد وقينة وقتل على بن أبي طالب قال هو لك مهرأما علي فلم أرك ذكرته لي وأنت تريدني قالت بل التمس غرته فإن أصبت شفيت نفسك ونفسي ويهنتك العيش معي وإن قتلت فما عند الله خير وأبقى من الدنيا وزينتها وزينة أهلها فقال لها والله ماجئت هذا المصر الا لذلك ثم اختارت له مساعداً من قومها واختار هو مساعداً آخر . ولما كانت ليلة الجمعة ١٥ رمضان سنة ٤٠ ترصدوا له حتي خرج يريد صلاة الصبح فضر به ابن ملجم في قرنه بالسيف وهو ينادي الحكم لله يا علي لالك ولا لأصحابك قفزع الذين كانوا بالمسجد للصلاة وعلى يقول لا يفوتكم الرجل فشد عليه الناس من كل جانب وأخذوه ودخل الناس على علي فقالوا له ان قد دناك ولا تفقدك فنبايح الحسن فقال ما أمركم ولا أنهاكم أنتم أبصرتم أوصى أولاده : وفي يوم الاحد ١٧ رمضان توفي بعد أن مضى على خلافته أربع سنين وتسعة أشهر الا أياماً قضاها في هذا العناء وشدة الجهد ودفن بالكوفة التي كانت حاضرة خلافته أما البرك بن عبد الله فإنه قعد لمعاوية في ذلك اليوم الذي ضرب فيه علي فلما خرج معاوية شد عليه بالسيف فوقع السيف في أليته ودووي من الضربة وأمر عند ذلك بعمل المقصورة وحرس الليل وقيام الشرط على رأسه اذا سجد . وأما عمرو بن بكر فجلس لعمر وبن العاص في تلك الليلة فلم يخرج لانه كان شاكياً وصلى بدله خارجة بن حذافة وكان صاحب شرطته

فشد عليه الخارجي فقتله وهو يظن أنه عمرو فقالوا أراد عمرو وأراد الله خارجه
بيت على

تزوج على بن أبي طالب

(١) فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي أول زوجاته
ولم يتزوج عليها حتى توفيت عنده وكان له منها الحسن والحسين وزينب
الكبرى وأم كلثوم الكبرى

(٢) أم البنين بنت حزام من بني عامر بن كلاب فولدت له العباس
وجعفر وأعيد الله وعثمان

(٣) ليلى بنت مسعود التميمية فولدت له عبيد الله وأبا بكر

(٤) أسماء بنت عميس الخثعمية فولدت له يحيى ومحمد الأصغر

(٥) الصهباء بنت ربيعة من بني جشم بن بكر وهي أم ولد من سبي

تغلب فولدت له عمرو ورقية

(٦) امامة بنت أبي العاص بن الربيع وامها زينب بنت رسول الله

صلى الله عليه وسلم فولدت له محمداً الاوسط

(٧) خولة بنت جعفر الحنفية فولدت له محمداً الشهير بابن الحنفية

(٨) أم سعيد بنت عروة بن مسعود فولدت له أم الحسين ورملة

الكبرى

(٩) محياة بنت امرئ القيس الكلبية ولدت له جارية ماتت صغيرة

وكان له بنات من امهات شتي منهن أم هاني وميمونة وزينب الصغرى

ورملة الصغرى وأم كلثوم الصغرى وفاطمة وامامة وخديجة

وأم الكرام وأم سلمة وأم جعفر وجمانة ونفيسة أمهاتهن أمهات أولاد شتي
وكان النسل من ولده خمسة الحسن والحسين ومحمد بن الحنفية والعباس
وعمر

صفة على وأخلاقه

يخطر ببال من فحص تاريخ الخلفاء الراشدين وعلم تفاصيل احوالهم
هذا السؤال : كيف دانت قريش لشيخين أولهما من بني تيم بن كعب
والثاني من بني عدى وخضعت لهما الخضوع التام فسار القوم بقلب واحد
في سبيل نصرته الاسلام وذلوا شأنه حتى اذا آلت لبني عبد مناف ووليها
اثنان منهم نفصت على أولهما حياته في آخر عمره ولم يصف الامر لثانيهما
في جميع حياته بل كانت مدة اختلاف وفرقة مع ما هو معلوم من قرب بني
عبد مناف للرسول صلى الله عليه وسلم فهم بشيرته الادنون وسادة قريش
في جاهليتهم كما سادوا دليهم في الاسلام ذلك الى ما يمتاز به ثانيهما من المميزات
الكبرى التي لم تجتمع في غيره . لا بد لذلك من أسباب : اماما كان من أمر
شمان فقد بينا أسبابه فيما مضى وأما أمر على فانا سنجيب عنه الآن ببيان
ما كان من خلق على وما كان من الظروف التي أحاطت به

كان على ممتازاً بخصال قلما اجتمعت لغيره وهي

الشجاعة - الفقه - الفصاحة

فأما الشجاعة فقد كان محله منها لا يجهل : وقف المواقف الممهودة وخاض
غمرات الموت لا يبالي أوقع على الموت أم وقع الموت عليه وأول ما عرف من
شجاعته بيانه موضع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الهجرة وهو يعلم

أن قوماً يترصدونه حتى اذا خرج يقتلونه فلم يكن ذلك مما يضعف قلبه
 او يؤثر في نفسه ثم في بدر وما بعدها من المشاهد كان عالماً لا يخفي مكانه يبارز
 الاقران فلا يفتقون له ويفرق الجماعات بشدة هجماته وقد آتاه الله من
 قوة العضل وثبات الجنان القسط الاوفر أعمد سيفه مدة أربع وعشرين سنة
 حتى اذا جاءت خلافته جرده على مخالفيه فعمل به الافايل وكان الناس
 يهابون موافقته ويخشون مبارزته لما يعلمون من شدة صولته وقوة ضربته
 وأما الفقه فلم يكن مقامه فيه بالجهول صحب رسول الله صلي الله عليه
 وسلم منذ صبوته وأخذ عنه القرآن وكان يكتب له مع ما أوتيته من ذكاء
 بنى عبد مناف ثم بني هاشم ولم يزل معه الى أن توفي عليه السلام كل هذا
 كسبه قوة في استنباط الاحكام الدينية فكان الخلفاء أبو بكر وعمر وثمان
 يستشيرونه في الاحكام ويرجعون الي رأيه اذا خالفهم في بعض الاحيان
 واكثر من عرف ذلك عنه عمر بن الخطاب

وأما الفصاحة فيعرف مقداره فيها من خطبه ومكاتباته التي جمع
 منها السيد المرتضى جملة عظيمة في الكتاب الموسوم بنهج البلاغة وقد وصفه
 شارحه الاستاذ الشيخ محمد عبده بقوله :

كنت كلما انتقلت من موضع منه الى موضع أحس بتغير المشاهد
 وتحول المعاهد فتارة كنت أجدني في عالم يعمره من المعاني أرواح عالية
 في حلل من العبارات الزاهية تطوف علي النفوس الزاكية وتدنو من القلوب
 الصافية توحى اليها رشادها وتقوم منها مرادها وتنفر بها عن مداحض المزال
 الى جواد الفضل والكمال

وطورا كانت تنكشف لى الجمل عن وجوه باسرة وأنياب كاشرة وأرواح في
 أشباح النمرور ومخالب النور قد تحفزت للوثاب تم انقضت للاختلاب فخلبت
 القلوب عن هواها وأخذت الخواطر دون مراماها واغتالت فاسد الالهواء
 وباطل الآراء : وأحيانا كنت أشهد أن عقلا نورا نيا لا يشبه خلقا جسدا نيا فصل
 عن الموكب الالهى واتصل بالروح الانسانى فخلعه عن غاشيات الطبيعة وسما به الى
 الملكوت الاعلى ونما به الى مشهد النور الاجلى وسكن به الى عمار جانب التقديس
 بعد استخلاصه من شوائب التليدس

وآتات كآنى أسمع خطيب الحكمة ينادى باعلياء الكلمة وأولياء
 أمر الامة يعرفهم مواقع الصواب ويصرهم مواضع الارتياب ويحذرهم
 مزلق الاضطراب ويرشدهم الى دقائق السياسة ويهديهم طرق الكياسة
 ويرتفع بهم الى منصات الرياسة ويصعدهم شرف التدبير ويشرف بهم على
 حسن المصير

وقد جمع الكتاب من الحكمة شيئا كثيرا

هذه الصفات العالية مع مامنحه من شرف القرابة لارسل صلى
 الله عليه وسلم وصاهرت له جعلته يرى لنفسه فضلا على سائر قریش
 صغيرها وكبيرها شيخها وفتاها ويرى بذلك له الحق في ولاية الامر
 دونهم فقد قال لقد تقمصها فلان وهو يعلم أن محلى منها محل القطب من
 الرحي ينحدر عني السيل ولا يرقى الى الطير : وقال فوالله ما زلت مدفوعا
 عن حقي مستأثرا على منذ قبض الله نبيه صلى الله عليه وسلم حتى يوم
 الناس هذا : وهناك طبيعة نابذة فى الناس أنهم لا يميلون الى شخص يرى

لنفسه التفوق ومز يد الفضل وإنما يقرب الى قلوبهم من يقول وليت عليكم ولست بخيركم : جملة ما يراه لنفسه يقتنع أن الحق فيما يراه وفاقه عليه غيره أم خالفه ومن هذا شأنه لا يلجأ الى الاستشارة فيما هو صانع وهذا شيء شديد لا تقبله أنف الكبراء والاشياخ : روى أنه لما بويع عتب عليه طلحة والزبير من ترك مشورتها والاستعانة في الامور بهما فقال لهما لقد نعمة بما يسيرا وأرجأ كما كثيرا لا تخبراني أي شيء لكما فيه حق دفعتكما عنه وأي قسم استأثرت : ليكما به أم أي حق رفعه الى أحد من المسلمين ضعفت عنه أم جهلته أم أخطأت بابه والله ما كانت لي في الخلافة رغبة ولا في الولاية اربة ولكنكم دعوتوني اليها وحملتوني عليها فلما أفضت الى نظرت الى كتاب الله وما وضع لنا وأمرنا بالحكم به فاتبعته وما استسن النبي صلى الله عليه وسلم فاعتديته فلم أحتج في ذلك الى رأيكما ولا رأي غيركما ولا وقع حكم جهلته فأستشيركما واخواني المسلمين ولو كان ذلك لم أرغب منكما ولا عن غيركما واما ما ذكرتما من أمر الاسوة فان ذلك أمر لم أحكم أنا فيه برأيي ولا وائته هوي مني بل وجدت الاوانتما ماجاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم قد فرغ منه فلم أحتج اليكما قد فرغ الله من قسمه وأمضي حكمه فليس لكما والله عندي ولا لغيركما في هذا عتبي أخذ الله بقلوبنا وقلوبكم الى الحق وألهمنا وإياكم الصبر : وأي نفس تصبر على مثل هذا

لما رفعت قضية عبيد الله بن عمر في قتله الهرمزان الى عثمان كان من رأي علي قتله ولكن عثمان قضى بخلاف رأيه وحكم بالدية والتزمتها في ماله وهو خليفة قضاؤه محترم صوابا كان أم خطأ فلما آل الامر الى علي كان

تريد قتل عبيد الله بعد أن مضى على القضية تلك المدة الطويلة فلم يكن من عبيد الله
 إلا أن لحق بماوية وكان من قواده العظام بصفين . كانت اعمان قطائع أقطمها الناس
 ولم يكن ذلك من رأي على فقال بعد خلافته والله لو وجدته قد تزوج به النساء وملك
 به الماء لرددته فإن في العدل سعة ومن ضاق به العدل فالجور عليه أضيق : بويج
 وولاية الامصار من عليه قریش وذوى الرأي والدهاء فيها فاشار اليه مشيروا أن لا
 يعجل بنزعهم من أمصارهم حتى يتم أمره فلم يسرع لاحد قول بل عجل بنزعهم
 وأظهر سوء الرأي فيهم حتى خيل اليهم أنه لو ملك عليهم كانت مصيبة
 كبرى فآووه وكانوا عليه يداً واحدة . أراد في هذه الظروف أن
 يحمل الناس على مثل حشد السيف مع ما سبق لهم من مضادة الخليفة
 وثقتهم في أنفسهم انه لولا هم ما بويج فلم يحتملوا ذلك له حتى قالوا ارض
 التحكيم والا فعلنا بك ما فعلنا بعمان : ولما ولي ابن عباس على البصرة نظر
 بعضهم اليه بامض وقالوا قثم بن العباس على الحجاز وعبيد الله بن العباس
 على اليمن وعبد الله بن عباس على البصرة فقيم قتلنا ابن عفان وكانت
 سآمتهم منهم وسآمتهم منه تزدد كل يوم حتى لم يكن له علي أنفسهم
 سلطان يدعوهم فلا يجيبون ويستصرخهم فلا يفرعون وجيش خصمه قاده
 كبراء قریش وعظماؤها فارهفهم بالطاعة وملكوا قلوبهم بالرفق فلم يكن
 لهاتين الطائفتين توازن عند الخصومة . كان معاوية يتساهل ببعض الشيء
 لرؤوس أجناده وينيض عليهم من الطاء ما يجعل رقابهم خاضعة له وعلى
 محابهم على النثير والقطمير في وقت هو محتاج اليهم حتى كان شيء من
 ذلك سبباً في تغير قلب ابن عباس عليه وفرقة له فترك البصرة وذهب

الى مكة ليس شأن علي في ذلك شأن عمر فان عمر كان يشتد على عماله والامة كلها معه وأما علي فكان معظم الامة عليه فضلا عن ان كثيرا من التهم كانت تلتصق بعماله من قوم يشنون بهم كالحال في قيس بن سعد وعبد الله بن عباس. وعلي الجملة فان أكبر الاسباب في عدم استقامة الامر له في يرجع الى عقيدته في نفسه وثقته المتناهية بما يراه واستغنائاه عن رأى الاشياخ من قريش وشدة دليهم شدة لم يعد لها ما يهون أمرها وعدم اعطائه الظروف التي كان فيها حقها من السياسة

الحسن بن علي

كان من رأى جند علي أن يبايعوا الحسن بن علي بالخلافة بعد قتل أبيه فبايعوه ولكن الرجل نظر الى الظروف التي هو فيها نظرة صائبة وجند جندا لا يركن اليه وخصما قوى الشكيمة وفوق ذلك كان يكره الفتن ويحب للمسلمين الالفة فلم ير خيرا لنفسه ولا لامته من أن ية ازل لمعاوية وصالحه علي شروط رضىها الطرفان وكتب الى معاوية ببيعته وسلم اليه الكوفة في أواخر ربيع الاول سنة ٤١ وبذلك تم ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم ان ابني هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين طائفتين عظيمتين من المؤمنين. وهذه أحوال وسمي المسلمون ذلك العام وهو السنة الحادية والاربعون من الهجرة عام الجماعة

مدنية الاسلام في عهد الخلفاء الرشدين

اصطلاح المؤرخون علي تسمية الدولة الاولى من دول الاسلام بدولة الخلفاء الراشدين ومدتها تقرب من ثلاثين سنة ونحن الآن ذاكرون

شيئا من المدنية الاسلامية أو العربية لعهدهم ونريد بالمدنية مجموع النظام الذي اتبعوه في احوالهم الاجتماعية سواء في ادارة امورهم الداخلية أو في حروبهم

الخلافة

أول ما كان لهم من مظاهر المدنية تأسيس الخلافة الاسلامية وكان الرئيس يسمي خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما جاء ثاني الخلفاء اختار لقب أمير المؤمنين ثم مازال مستعملا لقباً لجميع من أتى بعده من الخلفاء وهذه الخلافة رياسة دنيوية أساسها الدين وغايتها حمل الناس على ما فيه صلاحهم متبعاً في ذلك نصوص الكتاب وما عرف من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فالخليفة واجب الطاعة فيما يأمر ما لم يخالف النصوص أو الشريعة الاسلامية وكان أساس التشريع في زمنهم هو القرآن والسنة المعروفة فان عرض لهم ما ليس فيهما عرفوا الاشياء والامثال وقاسوا ما لا نص فيه على ما فيه نص لما بينهما من التشابه . وكان الخليفة في الاجتهاد والاستنباط كاحد المجتهدين يستفتيهم فيما نزل به من الحوادث فيجيبونه بما عندهم فان اتفقوا في الفتوى كان من المحتم عليه ان يتبع رأيهم وهذا ما يسمي في عرف المسلمين بالاجماع وان اختلفوا في الفتيا عمل الخليفة بما يرى من أرائهم فلم يكن له سلطان ديني أكثر من أنه منفذ لاحكام الدين فليست الخلافة فيما نرى سلطاناً دينياً كما يزعمون وانما هي سلطان أساسه الدين

لم يكن في تلك الدولة للخلافة أسرة معينة بل كانت يختار الخليفة من أي أسرة من أسر قريش والخلفاء الاربعة من ثلاث أسر فابو بكر

من بني تميم وعمر من بني عدي وثمان وعلي من بني عبد مناف : وكان أساس الانتخاب الشورى فالخلافة من جهة كونها لاتتمين لها أسرة وصاحبها يتعين بالانتخاب ومقيد فيما يعمل بالقانون الشرعى تشبه رئاسة الجمهورية وتمتاز الخلافة بأنها مختصة بالبيت القرشى

وكانت الناس تباع الخليفة علي العمل بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وزادوا في بيعة عثمان وسنة الشيخين أبي بكر وعمر وحذفت هذه الزيادة في بيعة علي لانه أباهما لما عرض عليه الامر عبد الرحمن بن عوف وكان الخلفاء يستشيرون فيما يعرض لهم من الامور الا أنهم لم يكونوا علي درجة واحدة في ذلك وكان أكثرهم اهتماما بالشورى عمر بن الخطاب فانه كان قلما يقدم على أمر الا بعد ان يستشير ويمحس الآراء وكانت له شورى خاصة من أعلام الصحابة ومشيختهم من المهاجرين والانصار ومشيخة قريش مثل عثمان بن عفان والعباس بن عبد المطلب وعبد الرحمن بن عوف وعلي بن ابي طالب ومن الملهم ، وكان يلحق بهم عبد الله بن عباس لما يراه من فقهه وجودة رأيه : وشورى عامة من كل من له رأى من المسلمين يعرض عليهم الامر في المسجد بعد أن يدنو (الصلاة جامعة) فيقول كل ما بداله وربما استشار به ذلك خاصته : وكان كثيرا ما يرجع عن رأيه متى تبين له الحق وناهيك برجل كان يقول من رأى منكم في اعوجاجا فليقومه : ورجال الشورى كانوا مختارين من قبله الا أنه لم يكن أحد يمنع من ابداء رأيه مهما كان صاحب الرأى صغير القدر لان حياتهم كانت مبنية علي المساواة

ولم يكن ينقص هذا النظام البديع الا شيء واحد وهو تعيين من لهم الصوت في انتخاب الخلفاء بوصف يبينهم لان عدم هذا التعيين كان سببا من أسباب الفرقة بين علي ومعاوية لان عليا كان يرى أن هذا الحق لاهل المدينة وحدهم لا يشركهم في ذلك أهل الامصار الاخري فمتي بايع أهل المدينة لواحد تمت بيعته وليس لاحد بعد ذلك اعتراض ومعاوية ومن معه من أهل الشام كانوا يرون غير ذلك وأن البيعة لا تتم الا برضا أهل الامصار فكانت تلك الفرقة الهائلة وتلتها الحروب العظيمة بين المسلمين . لم يكن للخلافة في هذه الدولة شيء من شارات الملك ولا أبهته بل كان الخليفة يسير في طريقه وفي بيته كسائر الناس لا حاجب ولا حارس يقف للصغير والكبير وكان عمر يكره ان يكون لعماله حجاب حتى انه أرسل لسعد بن أبي وقاص من حرق باب دار الامارة الذي حال بين العامة وبين رفع شكواهم اليه

القضاء

كان القضاء معتبرا من عمل الخليفة لان معناه فصل الخصومات والمنازعات على حسب القانون الشرعي المأخوذ من الكتاب والسنة فكان الخلفاء يباشرون هذا العمل بأنفسهم ويستفتون في الحكم ان كانت هناك حاجة الى الاستفتاء : ولما كثرت المشاغل واتسعت الفتوح واضطر الخلفاء للاشتغال بالجيوش وتديرها فوضوا هذا العمل الى من في مكنتهم الاستنباط ولكنهم لم يسموا باسم القضاء الا من عهد عمر بن الخطاب فانه بحث قضاة الى الامصار ووضع لهم انموذجا يسرون عليه واستمر الحال

على ذلك الى آخر عهد الخلفاء الراشدين: ومن أعظم ما كان لا ولتلك القضاة من الفخر شرفهم واستقلالهم في الحكم فلم يعرف عن أحد منهم في ذلك العصر ميل الى الدنيا واغترار بزخرفها يعدل بهم عن قول الحق والحكم به وكان سواء في نظرهم الشريف والوضيع والخليفة والرعية ولم يكن لامراء الامصار سلطان عليهم في قضائهم وكان تعيينهم من قبل الخليفة رأساً وأحياناً يكتب الخليفة الى الامير أن يولى فلاناً قضاء ببلده وعلى الحالين التعيين صادر من الخليفة: وكان للقضاة رزق من بيت المال لما يلزمهم من الانقطاع لهذا العمل وترك ما يرتزقون منه ومن أحسن ما رأينا في أمر القضاة ما كتبه على ابن أبي طالب الى أحد عماله (ثم اختر للحكم بين الناس أفضل رعيته في نفسك ممن لا تضيق به الامور ولا تمحكه الخصوم ولا يتمادى في الزلة ولا يحصر من النىء الى الحق اذا عرفه ولا تشرف نفسه على طمع ولا يكتفى بادني فهم الى أقصاه أو قفهم في الشبهات وأخذهم بالحجج وأقلهم تبر ما بمراجعة الخصم وأصبرهم على تكشف الامور وأصرمهم عند اتضاح الحكم ممن لا يزدهيه اطراء ولا يستميله اغراء وأولئك قليل ثم أكثر تعاهد قضائه وافسح له في البزل ما ينزل عليه وتقل معه حاجته الى الناس وأعطه من المنزلة لك ما لا يطعم فيه غيره من خاصتك ليأمن بذلك اختيال الرجال له اعندك)

وكان في كل مصر جماعة اشتهروا بالفقه واستنباط الاحكام كان يستعين بهم القاضى ويستفتيهم اذا أشكل عليه أمر وأهم ما كان يدعوهم الى ذلك أن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لم تكن مجموعة في كتاب بل كانت في صدور الناس يحفظ منها أحدهم جزءاً والثاني جزءاً وقد

لا يحفظ أحدهم ما يحفظه الآخر فيما عرضت للقاضي مسألة فلا يرى فيها نصاً ويكون النص وهو الحديث عند غيره بذلك كانوا يسألون هل عندكم شيء في هذا من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يجمعوا هذه الفتاوى ولا الاقضية في كتاب خاص يرجع اليه من بعدهم وكان ما ذكرناه من أمر السنة سبباً كبيراً من أسباب اختلافهم في الفتاوى والاقضية

لم يكن القاضي في أحكامه موكولاً الى الاجتهاد الصرف كما يظن بعض الباحثين ويجعل ذلك من عيوب القضاء وإنما كان موكولاً الى الاجتهاد في فهم القانون الشرعي وتطبيقه على الحوادث والواقعات حقيقة ان ذلك القانون لم يعتن بالتفصيل التام بل اهتم بالقواعد الكلية وليس هذا عيباً في القوانين التي يراد منها البقاء بل هو مما يحسنها ويجعلها صالحة لكل زمان ومكان

الاجتهاد للقاضي والحال ما ذكرنا أمر لا بد منه ولذلك عده المتقدمون من الشروط المتحتمة

لم يكن تعيين القضاة مانعاً للخلفاء من نظر أي خصومة تعرض عليهم وقد حصل ذلك من الخلفاء في آئات كثيرة فكان القضاة كانوا نواباً للخلفاء وليس عندنا دليل على وجود سجلات يضبط فيها ما يصدر من الاحكام ولا أن صور الاحكام كانت تعطي للمحكوم له لان ذلك لم يكن ما يدعو اليه مادام التنفيذ في يد القاضي فهو الذي يقضى وهو الذي ينفذ الحكم ويظهر لنا مما قرأناه من أخبارهم أنهم قلما كانوا يحتاجون

للتنفيذ لان من حكم عليه كان يبادر بتنفيذ ما قضى عليه به من الحقوق فكان المتنازعون أقرب الى كونهم مستفتين

ويظهر لنا أن قضاة القضاة في عهد الخلفاء الراشدين كان قاصرا على فصل الخصومات المدنية أما القصاص والحدود فكانت ترجع الى الخلفاء وولاية الامصار لانا رأينا قضايا حكم فيها الخلفاء والامراء بقتل قصاصاً أو جلد لسكر ولم يبلغنا أن قاضيا ليس أميراً قضى بعقوبة منها أو نفذها : وكانت العقوبات التأديبية كالجلس لا يامر بها الا الخليفة أو عامله فكانت الدائرة القضائية ضيقة : ولم يبلغنا أيضاً ان قضاة الامصار كانوا ينيون عنهم قضاة في غير الحواضر الكبرى وذلك كله دليل على قلة القضايا والخصومات

قيادة الجيوش

كانت قيادة الجنود من أعمال الخلافة كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقود الجنود بنفسه ولكن الخلفاء لما لم يمكنهم أن يقودوا جميع الجنود المرسله الى البلدان المختلفة كانوا يختارون قائداً للجيوش ممن يرون فيه النجدة والشجاعة وتكون طاعتهم واجبة كطاعة الخليفة سواء بسواء وبعد انتهاء الفتح واستقرار الامن يكون سلطانهم قاصراً على تدبير أمر الجنود والنظر في معداتهم ولم تكن هذه الجنود محصورة في ديوان الا من عهد عمر بن الخطاب فهو الذي دون لهم الدواوين وأحصاهم حتى صار يعرف جنود كل وجه ومن تأخر منهم عن وجهه وكان يماقب المتأخر بان يقام في مسجد حيه ويقال ان هذا تخلف : وهذا التوبيخ كان في نظرهم

أَمْضٍ مِنْ ضَرْبَةِ السِّيفِ لَمَّا هُوَ مَعْرُوفٌ عَنْهُمْ مِنَ الشَّجَاعَةِ وَالْإِقْدَامِ وَيُرُونَ فِي الْأَحْجَامِ عَارًا لَا يَمْحَى وَكَمَا حَصَرَهُمْ عَمْرُوتُ لَمْ يَلْزَمُوا مِنَ الْإِرْزَاقِ مِنْ يَدِ الْمَالِ وَلَمْ يَكُنْ قَبْلَ ذَلِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مُعَيَّنٌ إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَسُوْا بَيْنَ الْجُنُودِ فِي الْعَطَاءِ وَقَدْ سَوَى بَيْنَهُمْ عَلَى بَنِ أَبِي طَالِبٍ وَكَانَ لِكُلِّ جُنْدٍ عَرَفَاءٌ يَلُونُ أُمُورَ الْجُنْدِ وَيَقْبِضُونَ أَرْزَاقَهُمْ وَيُوزَعُونَهَا عَلَيْهِمْ

أَمَّا تَعْبِثَةُ الْجِيُوشِ فَقَدْ نَالُوا مِنْهَا حِظًّا عَظِيمًا فَبَعْدَ أَنْ كَانَتْ الْعَرَبُ تَحَارِبُ فِي جَاهِلِيَّتِهَا بِطَرِيقَةِ الْكُرِّ وَالْفِرْوَةِ هِيَ أَنْ يَكُرَّ الْمُحَارِبُ عَلَى خَصْمِهِ ثُمَّ يَفِرُّ ثُمَّ يَكُرُّ وَهَكَذَا لَا يَتَّبِعُونَ فِي ذَلِكَ نِظَامًا رَأَى قَوَادِمُ الْجُنُودِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَنَّ هَذَا النِّظَامَ لَا يَصْلُحُ مَعَهُ حُرُوبُ الْأُمَمِ الْمُنَظَّمَةِ فَرَبَطُوا مَسِيرَ الْجُنُودِ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ حَتَّى يَكُونَ الصَّفُّ مُتَضَامِنًا وَلَيْسَ لِأَحَدِهِمْ أَنْ يَتَأَخَّرَ عَنْ صَفِّهِ أَوْ يَتَقَدَّمَ عَنْهُ . وَكَانَ لِلْجَيْشِ مُقَدِّمَةٌ تَكُونُ فِي الْأَمَامِ وَهِيَ الَّتِي تَبْدَأُ الْمَنَاوِشَاتِ وَتَعْرِفُ الطَّرِيقَ وَتُرْتَادُ الْمَوَاضِعَ وَقَلْبُ وَهُوَ وَسْطُ الْجَيْشِ وَفِيهِ أَمِيرُ الْجُنْدِ وَمُجَنَّبَتَانِ يَمْنِي وَيَسْرِي أَوْ جَنَاحَانِ وَسَاقَةٌ وَلِكُلِّ فِرْقَةٍ أَمِيرٌ يَأْمُرُ بِأَمْرِ الْقَائِدِ وَكَانَ يَجْمَعُونَ عَلَى الْفَرَسَانِ خَاصَّةً أَمِيرًا وَكَانَ لَهُمُ الشَّأْنُ الْعَظِيمُ فِي الْإِحْتِفَازِ بِخُطُوطِ رَجْعَتِهِمْ حَتَّى لَا يَؤْثَرُوا مِنْ خَلْفِهِمْ وَكَانُوا يَحْذَرُونَ مِنَ الْبَيَاتِ جَهْدَهُمْ

وَمِنْ أَحْسَنِ مَا أَطْلَعْتُ عَلَيْهِ مِنَ الْأَوَامِرِ الْخَاصَةِ بِتَسْيِيرِ الْجُنُودِ مَا كَتَبَهُ عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ إِلَى سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَاصٍ مِنْ كِتَابٍ لَهُ فِي ذَلِكَ حَيْثُ يَقُولُ (وَتَرْفُقُ بِالْمُسْلِمِينَ فِي سَيْرِهِمْ وَلَا تَجْشِمُهُمْ مَسِيرًا يَتَّبِعُهُمْ وَلَا تَقْصُرُ بِهِمْ عَنْ مَنْزِلٍ يَرْفُقُ بِهِمْ حَتَّى يَلْمُغُوا عَدُوَّهُمْ وَالسَّفَرُ لَمْ يَنْتَقِصْ مِنْ قُوَّتِهِمْ فَانْهَرُوا سَائِرُونَ إِلَى

عدو مقيم حامى النفس والكراع وأقم بمن معك فى كل جمعة يوماً وليلة
حتى تكون لهم راحة يحيون بها أنفسهم ويرمون أسلحتهم وأمتعتهم ونح
منازلهم عن قرى أهل الصلح والذمة فلا يدخلها من أصحابك إلا من تثق
به ولا يرزأ أحد من أهلها شيئاً فان لهم حرمة وذمة ابتليت بالفناء كما ابتلوا
بالصبر عليها فما صبروا لكم فتولوا خيراً ولا تنتصروا على أهل الحرب
بظلم أهل الصلح وإذا وطئت أرض عدوك فاذك العيون بينك وبينهم
ولا يخف عليك من أمرهم شيء وليكن عندك من العرب أو من أهل الأرض
من تطمئن إلى نصحه وصدقه فان الكذب لا ينفعك خبره وان صدقك
فى بعضه والناش عين عليك وليس عيناً لك وليكن منك عند دنوك من
أرض العدو أن تكثر الطلائع وتبث السرايا بينك وبينهم فتقطع السرايا
امدادهم ومرافقهم وتتبع الطلائع عورائهم واختر للطلائع أهل البأس
والرأي من أصحابك وتخبر لهم سوابق الخيل فان لقوا عدواً كان أول
ماتلقاتهم القوة واجعل أهل السرايا من أهل الجهاد والصبر على الجلاء
ولا تخص أحداً بهوى فتضيع من رأيك وأمرك أكثر مما حايث
به أهل خاصتك ولا تبث طليعة ولا سرية فى وجه تتخوف فيه غلبة أو ضيعة
ونكاية فاذا عاينت العدو فاضمم اليك أقاضيك واجمع اليك مكيدتك
وقوتك ثم لا تعاجلهم بالمناجزة ما لم يستكرهك قتال حتى تبصر عورة عدوك
ومقاتلة وتعرف الأرض كلها كمعرفة أهلها بها فتصنع بعدوك كصنعه بك
ثم أذك حراسك على عسكريك وتيقظ من البيات جهداً الخ)

الخراج وجبايته

كان الخلفاء من عهد عمر بن الخطاب يعينون للجباية عمالا مستقلين عن العمال والقوادق قليلا ما كانوا يكلون أمر الجباية الى العمال وكانوا يدفعون مما يجبون أرزاق الجند ومصاريف ما يأمر به الخليفة مما تقتضيه المصالح العامة والباقي يرسل الى دار الخلافة ليصرف في مصارفه وكانت هناك إيرادات ثابتة أو عادية وإيرادات غير ثابتة : أما الاولى

فهي الخراج والعشر والصدقات والجزية

والخراج هو ما كان يوضع على الاراضي التي امتلكها المسلمون عنوة وتركوها في أيدي أهلها يؤخذ منهم كأنه أجرة للارض التي أقيت في أيديهم وكانوا يعملونه أحيانا شيئا مقدرا كما جعل عمر في السواد وأحيانا يعملونه حصّة شائعة مما يخرج من الارض : أما الاراضي التي أسلم أهلها عليها وهي من أرض العرب أو العجم كالمدينة واليمن أو ملكها المسلمون عنوة وأهلها لا تقبل منهم الجزية كعبدة الاوثان من العرب فهذه ارض عشر ومثلها الاراضي التي امتلكها المسلمون عنوة وقسمت بين الغامعين : والعشر هو عشر ما يخرج من الارض

وكان عمر لما فتح السواد والشام شاور الناس في قسمة الارضين التي فتحها المسلمون فتكلم فيها قوم وأرادوا أن يقسم لهم حقوقهم وما فتحوا فقال عمر فكيف بمن يأتي من المسلمين فيجدون الارض قد اقتسمت وورثت عن الآباء وحيزت ما هذا برأى فقال عبد الرحمن بن عوف فما الرأي ما الارض والعلاج الا مما أفاء الله عليهم فقال عمر ما هو الا ما تقول ولست أري ذلك

والله لا يفتح بمدى بلد فيكون فيه كبير نيل بل عسى أن يكون كلا على المسلمين فاذا قسمت أرض العراق بعلاجها وأرض الشام بعلاجها فما يسد به الثغور وما يكون للذرية والارامل بهذا البلد وبغيره من أهل الشام والعراق فأكثرُوا على عمر وقالوا تقف ما أفاء الله علينا بأسياقنا على قوم لم يحضروا ولم يشهدوا ولا بناء القوم ولا بناء أبنائهم ولم يحضروا فكان عمر لا يزيد على أن يقول هذا رأي قالوا فاستشر فاستشار المهاجرين الأولين فاختلقوا فأما عبد الرحمن بن عوف فكان رأيهُ أن تقسم لهم حقوقهم ورأي عثمان وعلى وطاحنة وابن عمر رأي عمر فأرسل إلى عشرة من الانصار خمسة من الاوس وخمسة من الخزرج من كبرائهم وأشرفهم فلما اجتمعوا حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال اني لم أزعجكم الا لان تشركوا معي فيما حملت من أموركم فاني واحد كأحدكم وأتم اليوم تفرقون بالحق خالفني من خالفني ووافقني من وافقني ولست أريد أن تتبعوا هذا الذي هو ابي معكم من الله كتاب ينطق بالحق فوالله لئن كنت نطقت بأمر أريده ما أريد به الا الحق قالوا قل نسمع يا أمير المؤمنين قال قد سمعتم كلام هؤلاء القوم الذين زعموا أني أظلمهم حقوقهم واني أعوذ بالله أن أركب ظمًا لئن كنت ظلمتهم شيئًا هو لهم وأعطيتهم نبيهم لقد شقيت ولكن رأيت انه لم يبق شيء يفتح بعبد أرض كسري وقد غنمنا الله أموالهم وأرضهم وعلاجهم فقسمت ما غنموا من أموال بين أهله وأخرجت الخمس فوجهته على وجهه وأباني توجييه وقد رأيت أن احبس الارضين بعلاجها وأضع عليهم فيها الخراج فتكون فينا للمسلمين المقاطاة والذرية ولمن يأتي من بعدهم: رأيتم هذه الثغور لا بد لها من رجال يلزمونها رأيتم هذه

المدن العظام كالشام والجزيرة والكوفة والبصرة ومصر لا بد لها من أن
تشحن بالجيوش وادرار العطاء عليهم فمن أين يعطى هؤلاء اذا قسمت الارضون
والعلوج فقالوا جميعا رأى رأيك فنعما قلت وما رأيت ان لم تشحن هذه الثغور
وهذه المدن بالرجال وتجر عليهم ما ينفقون به رجع أهل الكفر الى مدنها :
فقال قديان الى الامر فمن رجل له جزالة ودقيل يضع الارض مواضعها ويضع
على العلوج ما يحتملونه فاجتمعوا له على عثمان بن حنيف وقالوا تبعثه الى أهم
ذلك فان له بصراً وعقلاً وتجربة فارسل اليه عمر فولاه مساحة أرض السواد
فادت جباية سواد الكوفة قبل أن يموت عمر بعام مئة ألف ألف درهم
وكان وزن الدرهم يومئذ وزن المثقال

وأرادوا منه أن يقسم الشام كما قسم الرسول خير وكان أشد الناس
عليه في ذلك الزبير بن العوام وبلال بن أبي رباح فقال عمر اذا أترك من
بعدكم من المسلمين لاشئ لهم : وفعل بالشام كما فعل بالعراق فترك أهله
ذمة يؤدون الخراج للمسلمين

قال أبو يوسف القاضى والذى رأى عمر من الامتناع من قسمة
الارضين بين من افتتحها توفيقاً من الله كان له فيما صنع وفيه كانت الخيرة
لجميع المسلمين وفيما رآه من جمع خراج ذلك وقسمته بين المسلمين محموم
النفع لجماعتهم لان هذا لو لم يكن موقوفاً على الناس فى الاعطيات
والارزاق لم تشحن الثغور ولم تقو الجيوش على السير فى الجهاد ولما أمن
رجوع أهل الكفر الى مدنها اذا خلت من المقاتلة والمرزقة
ولم يكن مقدار الخراج معروفاً تماماً فى عهد الخلفاء الراشدين

والجزية ما كان يوضع على رءوس أهل الذمة على الرجال دون النساء والصبيان وكانت تؤخذ منهم جزاء عن حمايتهم ودفع العدو عنهم ولم يكونوا يأخذونها من المسكين الذي يتصدق عليه ولا ممن لا قدرة له على العمل .
 روى أبو يوسف القاضي في كتابه المرسوم بالخراج ص ٧٢ قال : روى عن عمر بن الخطاب بباب قوم وعليه سائل يسأل شيخ كبير ضرير البصر فضرب عضده من خلفه وقال من أي أهل الكتاب أنت فقال يهودي قال فما الجأك إلى ما أرى قال أسأل الجزية والحاجة والسن قال فأخذ عمر بيده وذهب به إلى منزله فوضع له بشيء من المنزل ثم أرسل إلى خازن بيت المال فقال انظر هذا وضرباه فوالله ما أنصفناه إن أكلنا شبيبته ثم نخذه عند الهرم إنما الصدقات للفقراء والمساكين والفقراء هم المسلمون وهذا من المساكين من أهل الكتاب ووضع عنه الجزية وعن ضربائه

وكانوا يقدرون الجزية على حسب أحوال الناس ويسارهم لا تزيد عن ٤٨ درهما في السنة ولا تنقص عن إثني عشر : روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من ظلم معاهداً أو كانه فوق طاقته فانا حجيجه .
 وكان فيما تكلم به عمر بن الخطاب عند وفاته أوصي الخليفة من بعدى بذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يوفى لهم بعدهم وأن يقاتل من ورائهم ولا يكلفوا فوق طاقتهم

الصدقات

كانت الصدقات تؤخذ من المسلمين من جميع أموالهم نعمهم السائمة الإبل والبقر والغنم ونقودهم الدرهم والدينار وما يخرج من أرضهم وقدينت

الشرعية لكل ذلك نصاً بأمعينا لا تجب الزكاة فيما دونه وقد رأينا لا يؤخذ فوقه بين ذلك في كتاب كتبه رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل وفاته وعمل به المسلمون بعده : وكانوا يعينون لأهل البادية مصدقين وهم الذين يأخذون الصدقات ليصرفها الإمام في مصارفها الشرعية

العشور (الجمارك)

كان تجار من المسلمين يذهبون بتجارهم إلى ديار الحرب فيتقاضى منهم أهل البلاد عشر أموالهم فكتب أبو موسى الأشعري إلى عمر أن تجاراً من قبلنا من المسلمين أتون أرض الحرب فيأخذون منهم العشر فكتب إليه عمر خذ أنت منهم كما يأخذون من تجار المسلمين وخذ من أهل الذمة ربع العشر ومن المسلمين من كل أربعين درهماً درهماً وليس فيما دون المئتين شيء فإذا كانت مئتين ففيها خمسة دراهم وما زاد ففيه حساب

وروى أبو يوسف القاضي أن جماعة من أهل الحرب من وراء البحر كتبوا إلى عمر بن الخطاب دعنا ندخل أرضك تجاراً وعشراً فشاورة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأشاروا عليه به فكان أول من عثر أهل الحرب

وبعث زيد بن حدير إلى عشور العراق والشام ومما يستطرف من خبره أن رجلاً من نصارى تغلب مر عليه بفارس قومته بعشرين ألفاً فأخذ منه ألفاً ثم مر عليه راجعاً في سنته فقال أعطني ألفاً أخرى فقال له التغلبي كلما مررت بك تأخذ مني ألفاً قال نعم فرجع التغلبي إلى عمر فوافاه بمكة وهو في بيت

فأستأذن عليه فقال من أنت قال رجل من نصارى العرب وقص عليه قصته فقال
عمر (كفيت) ولم يزد على ذلك فرجع التغلبي إلى زياد بن حدير وقد وطن
نفسه على أن يعطيه ألفاً أخرى فوجد كتاب عمر قد سبقه إليه من مر عليك
فأخذت منه صدقة فلا تأخذ منه شيئاً إلى مثل ذلك اليوم من قابل إلا أن تجد
فضلاً فقال الرجل قد والله كانت نفسي طيبة أن أعطيك ألفاً وأني أشهد الله أني
على دين الرجل الذي بعث إليك الكتاب

وقد اتبع المسلمون سنة عمر في تعشير أموال التجارة التي ترد من خارج
البلاد الإسلامية إلى بلاد المسلمين : قال أنس بن سيرين أرادوا أن يستعملوني
على عشور الأبله فأبيت فلقيني أنس بن مالك فقال ما يمنعك فقلت العشور أخبت
ما عمل عليه الناس قال فقال لي لا تفعل - عمر صنعه فجعل على أهل الإسلام ربع
العشر وعلى أهل الذمة نصف العشر وعلى المشركين ممن ليس له ذمة العشر
ولم يريدوا أن يأخذوا من أموال المسلمين التجارية أكثر مما يجب عليهم
من الزكاة وضاعفوا ذلك على أهل الذمة كما فعلوا مع نصاري تنلب من العرب
وعاملوا أهل الحرب بما يعاملون به تجار المسلمين في بلدانهم

وليس عندنا علم بمجموع ما كان يرد في السنة إلى بيت المال ولا بتقدير
ما كان يصرف إلا أنهم لم يكونوا يتركون في بيت المال وفراً وكان بيت المال
خازن يخرج منه بمقدار ما يأمر الخليفة

أما الغنائم فكانت تقسم أربعة أخماسها على الغانمين والخنس الباقي يرد إلى
بيت المال ليصرف في مصارفه

النقود

كان العرب قبل الاسلام يتعاملون بنقود كسرى وفارس من الذهب والفضة ولم يكن لهم سكة خاصة بهم لأنها تتبع المدينة والحضارة وكانت الامة العربية تغلب عليها اذ ذاك البداوة ولما جاء الاسلام لم يتغير هذا التعامل بل سار على تلك الحال مدة رسول الله صلى الله عليه وسلم واني بكر وعمر فلما افتتحت الفتوح على عهد عمر واستولى المسلمون على بلاد فارس وكثير من بلاد الروم رأى عمر بن الخطاب أن يعين وزن الدرهم لانه نظر فرأى الدراهم الكسروية المسكوكة مختلفة الوزن فمنها درهم على وزن المئتان عشرون قيراطاً ومنها درهم وزنه اثناعشر قيراطاً ودرهم وزنه عشرة قراريط فأخذ عمر جميع هذه الاوزان الثلاثة وهي ٤٢ قيراطاً وأخذ ثلثها وهو أربعة عشر قيراطاً من قراريط المئتان وضرب الدراهم على ذلك فكان كل عشرة دراهم وزن سبعة مثاقيل لان كلا منها — ١٤٠ فصارت النسبة بين الدراهم والمئتان كنسبة ١٠ . ٧ . نقل المرحوم علي مبارك باعاً في خططه عن المقرئ الميرزا قال وفي سنة ١٨ من الهجرة ضرب الدرهم على نقش الكسروية وشكلها بأعيانها غير انه زاد في بعضها الحمد لله وفي بعضها محمد رسول الله وفي بعضها لا اله الا الله وحده وعلى اخرى عمرو جمل وزن كل عشرة دراهم ستة مثاقيل فلما بويع عثمان ضرب في خلافته دراهم ونقشها الله اكبر

الحج

كان من الاعمال الكبرى لامام المسلمين اقامة حجهم وكان الحج معتبراً في نظر الخلفاء الراشدين موسماً عاماً يجتمع فيه امراء الجهات ليدلوا الى الخليفة بما عندهم من الاحوال في بلادهم ولتسمع شكوى من يشكروهم من رعييتهم وكان الخلفاء يلونه بأنفسهم ولما يتخلفون وكان اكثرهم تولياً لامر الحج بنفسه عمر بن الخطاب فانه حج سنه كذا لم يتخلف أبداً الا انه حصل خلاف في السنة الاولى من حكمه فقل اناب عنه عبد الرحمن بن عوف . وابو بكر حج بنفسه مرة واناب عنه مرة وعثمان حج مئتين سنه وعلى اناب عنه كل سنة خلافة لما شغل به من الاضطراب الذي كان بينه وبين معاوية

كان هذا الاهتمام بأمر الحج قد جعل له مظهراً عظيماً وقائدة كبرى في تمارف
 المسلمين بعضهم ببعض وان الخلفاء يجيئونهم من الاخبار مالا يمكن ان يكون
 بواسطة الولاة
 الصلاة

كانت اقامة الصلاة من اعمال الخليفة فهو الذي يقيمها بنفسه او بواسطة نائبه
 وكان في كل مصر مسجد جامع واحد تؤدى به الجمعة ولا ينصب منبر في غيره
 فلم تكن تقام الا جمعة واحدة في مصر يقيمها الخليفة ان كان او اولى ولم
 يبلغنا انه تعددت المنابر في البلد الواحد في عهد الخلفاء الراشدين

العلم والتعليم

كانت الكتابة قبل مجيء الاسلام نادرة في الامة العربية خصوصاً الحجاز ونجد
 فلما جاء الاسلام ساعد على انتشار الكتابة بين العرب . ففي زمن رسول الله صلى
 الله عليه وسلم استخدم جماعة من فقراء اسرى بدر في ان يسلم كل منهم عشرة
 من صبيان المدينة الكتابة وكان ذلك فداءه . ولما افتتحت البلاد الفارسية وكانت
 بالحيرة كثير ممن يكتبون جلبوا جماعة منهم يعلمون الكتابة بالمدينة وكان اكثر النشأ
 الذي نشأ في عهد الخلفاء الراشدين يعرف الكتابة . اما الخلفاء انفسهم فكانوا
 كلهم من الكتاب قبل الهجرة وقد كتبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم
 ولم يكتب شيء من الكتب في ذلك العهد الا القرآن فانه جمع في صحف
 في عهد ابي بكر وفي عهد عثمان كتبت منه مصاحف عدة ارسل بها الى الامصار
 ليكون كل مصحف اماما لاهل المصر الذي ارسل اليه . اما سنة رسول الله صلى
 الله عليه وسلم فلم تجمع في كتاب . وكذلك لم يكتب شيء في العلوم . اما الدينية منها
 فكانوا مكتفين بما فطروا عليه من معرفة اللغة العربية وفهم اساليبها والشرعية انما
 جاءتهم بهذه اللغة فكانوا يستقلون بفهمها واما العلوم الصناعية فان الامة كانت
 لا تزال فيها على بداوتها وان كان قد نبغ منها من امكنهم انشاء المدن ومسح
 الاراضي بالمران على ذلك لا يتعلم سابق

المحاضرة الثانية والثلاثون

الدولة الاموية — معاوية وترجمته — انتخابه —

حال الامة حين انتخابه — زياد

الدولة الاموية

كان أمية بن عبد شمس بن عبد مناف سيداً من سادات قريش في الجاهلية يعادل في الشرف والرفعة عمه هاشم بن عبد مناف وكانا يتنافسان في اياسة قريش وكان أمية رجلاً ناجراً كثير المال أعقب كثيراً من الأولاد: والمال وكثرة العصبية كانا في الجاهلية من أكبر أسباب السيادة بعد شرف النسب وكان لاموية عشرة من الأولاد كلهم سادوشرف فمنهم العنابس وهم حرب وأبو حرب وسفيان وأبو سفيان وعمر وأبو عمرو ومنهم الاعياص وهم العاص وأبو العاص والعيص وأبو العيص وقد كان حرب بن أمية قائد قريش كلها يوم الفجار وهو الذي تحمل الديات في ماله حينما دعا الناس الى الصلح في ذلك اليوم ورهن لسدادها ولده أباسفيان: وكان حرب يسم مع عبد المطلب بن هاشم وقد دامت اللفة بينهما طويلاً وأبو سفيان كان صديقاً للعباس بن عبد المطلب فلم يكن هذان البطان متماديين في الجاهلية كما يظنه بعض من لا يدقق في المسائل التاريخية وانما كان يظهر في بعض الأحيان شيء من التنافس الضرورى وجوده في الأحياء المتقاربة وقد أشرنا الى ذلك فيما مضى ولم يكن هذان البطان مختلفين فيما به الشرف في الجاهلية الاولى بل كان كل منهما قد أخذ منه قسطاً وافراً

لما جاءت النبوة وذاع رسول الله الناس الى الله أجابه من بني عبد شمس جمع

كما أجابه من بني هاشم وعاداه كثير من هؤلاء كما صدعنه كثير من أولئك إلا أن بني هاشم و بنى المطلب حذبوا على رسول الله للعصبية القومية العربية حيث حذاه أبو طالب كبير بيته : وكان يزاحم بنى عبد مناف فى الشرف بيوت قرشية أخرى كآل مخزوم وآل أسد بن عبد العزى بن قصي

و لما اتتم المشركون على اغتيال رسول الله صلى الله عليه وسلم كان المؤمنون من جميع قبائل قريش إلا أنه لم يكن فيهم من بنى هاشم إلا أبو لهب : جاءت الحروب الإسلامية والمشاهد الكبرى النبوية من بدر فمابعد ها ولم ينل حظ الوقوف بجانب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا عدد قليل من بنى عبد شمس وكان القائد الأكبر لقريش في بدر من بنى عبد شمس بن عبد مناف وهو عتبة بن ربيعة ورئيسهم فى أحد والاحزاب أبو سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس ولم يزل الأمر على ذلك حتى تأذن الله بفتح مكة فى السنة الثامنة من الهجرة . وكان أبو سفيان رجلا عظيما فى نفسه ذا شرف يخشى على قومه أن تصيبهم مهانة أو مذلة ويتبع تلك الصفة غالباً بحبة الفخر والذكر فأنهى العباس ذلك الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعطاه الرسول فى ذلك اليوم تأييداً له وتحبباً اليه ما لم يعطه أحداً وهو أن أمر منادياً ينادي بمكة من أعمد سيفه فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن فسوى بين بيته وبين بيت الله وهذا شرف عظيم لم ينل أحد مثله للآن وفى ذلك اليوم أسلم معظم المتأخرين عن الإسلام من رجالات قريش وذوى النجدة فيها وكانوا يسمون مشيخة الفتح : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أسر الناس بإسلامهم وكان يقابلهم قائماً فاتحاً ذراعيه معانقاً لهم كما فعل بصفوان

ابن أمية والحارث بن هشام وغيرهم ولم ير رسول الله أن دفوه عنهم سيكون عيباً لاحقابهم يعيرون به في مستقبل أيامهم

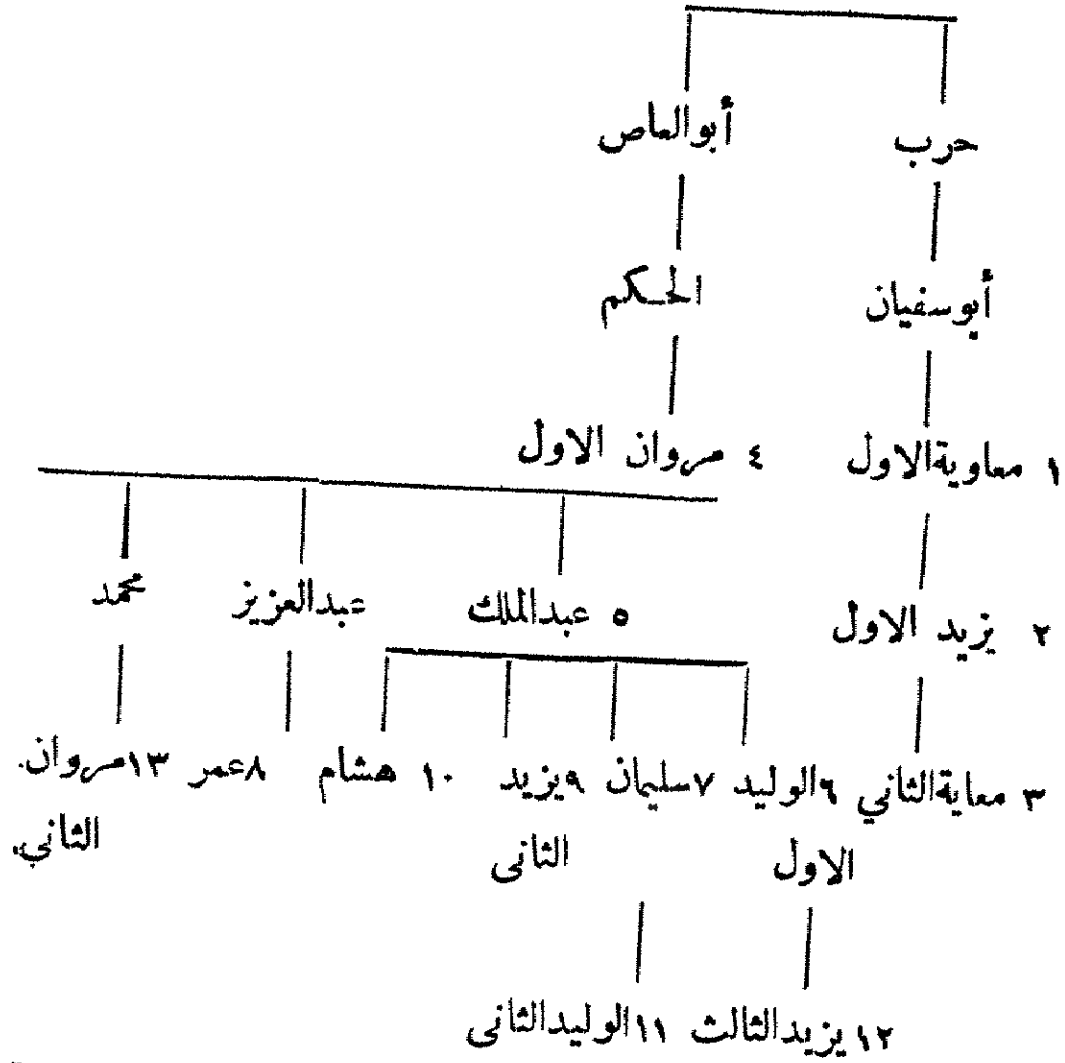
وبعد انتهاء فتح مكة ولى عليها شاباً من بني عبد شمس . استعمل أبو بكر مشيخة الفتح ومن لم تلحقهم أعمالهم بالسابقين في حروب الردة فأبوا فيها بلاء عظيماً وأغنوا غناء حسناً ثم سير بهم الى ثغور الشام وكانوا كلهم في شوق الى وقائع يقضون فيها الواجب الذي دليهم للاسلام حتى يكتب لهم في نصرته ما يحسوا ما كتب عليهم في مغاضبته

وممن اشتهر غناؤهم وعظم ذكركم يزيد بن أبي سفيان فقد كان ولده أبو بكر قيادة أحد الجنود الاربعة التي توجهت لفتح الشام وكان الوالى على دمشق لعمر بن الخطاب وكان أخوه معاوية عاملاً على إحدى الجهات الشامية فلما مات يزيد استعمل عمر على عمله أخاه معاوية مضافاً الى ما كان له قبل من العمل وكان عمر يحسن منه بحسن السياسة وقوة التدبير والامانة وهذا كل ما كان يطلب عمر من عماله : وفي عهد عثمان جمعت الشام كلها لمعاوية فصار واليها العام ويولى على الكور عمالاً من قبله . ونزل هناك العدد الطيب من قريش ومن بني عبد شمس فساسوا الجنود وأرهموها بالطاعة وعلى الجملة فان بيت عبد شمس انتقل من سيادة في الجاهلية الى سيادة في الاسلام وقد قال عليه السلام (الناس معادن فخيرهم في الجاهلية خيارهم في الاسلام اذا فقهوا) فاتصلت له السيادةتان

وفروعه التي كانت فيها الشهرة والخلافة اثنان فرع حرب بن أمية وفرع أبي العاص بن أمية وكان من الفرع الاول ثلاثة خلفاء ومن الثاني

(١٩٠)

عشرة على الشكل الآتي
أمية



فقد تولى من الفرع الاول ثلاثة خلفاء ومن الثاني عشرة ومدة خلافة
هذه الدولة تبدىء من اليوم الذي ببيع فيه معاوية بيعة عامه في ٢٥ ربيع سنة ٤١
وتنتهى بمقتل مروان الثاني ابن محمد سنة ١٣٢ لثلاث بقين من ذى الحجة
وهي ٩١ سنة وتسعة أشهر

١ ﴿ معاوية بن أبي سفيان ﴾

ترجمته

هو معاوية بن أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس ابن عبد مناف ولد بمكة قبل الهجرة بخمس عشرة سنة وفي يوم الفتح كان سنه ٢٣ سنة وفي ذلك اليوم دخل في الاسلام مع من أسلم من مسلمة الفتح وكان بعد اسلامه يكتب بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم : وفي خلافة أبي بكر ولاء قيادة جيش مدداً لآخيه يزيد بن أبي سفيان وأمره أن يلحق به فكان غازياً تحت إمرة أخيه وكان على مقدمته في فتح مدن صيدا وعرقه وجبيل وبيروت وهي سواحل دمشق ثم ولاء عمر ولاية الاردن : ولما توفي يزيد في طاعون عمواس ولاء عمر بن الخطاب عمل يزيد دمشق وما معها : وفي عهد عثمان جمع لمعاوية الشام كلها فكانه ولاية أمصارها تحت أمره وما زال والياً حتى استشهد عثمان بن عفان وبويع على بالمدينة فرأى أن لا يبايعه لانه أتهمه بالهوادة في أمر عثمان وايقوا قتلته في جيشه وبايعه أهل الشام على المطالبة بدم عثمان وكان من وراء ذلك أن حاربه على بن ابي طالب في صفين وانتهت الموقعة بينهما بالتحكيم كما مر ذكره فلما اجتمع الحكماء واتفقا على خلع علي ومعاوية من الخلافة وأن يكون أمر المسلمين شورى ينتخبون لهم من يصلح لامامتهم بايع أهل الشام معاوية بالخلافة فصار معاوية امام أهل الشام وعلى امام أهل العراق وما زال الخلاف محتدماً بينهما حتى قتل علي بن أبي طالب وسلم ابنه الحسن بن علي الخلافة الى معاوية وحينئذ اجتمع على

بيعة معاوية أهل العراق والشام وسمي ذلك العام الحادى والأربعون من
الهجرة عام الجماعة لاتفاق كلمة المسلمين بعد الفرقة وبذلك يكون ابتداء
خلافة معاوية الخلافة العامة في ربيع الاول سنة ٤١

طريقة انتخاب معاوية

لم ينتخب معاوية للخلافة انتخاباً عاماً يعني من جميع أهل الحل والعقد من المسلمين
وإنما انتخبه أهل الشام للخلافة بعد صدور حكم الحكيمين ولا يعتبره التاريخ
بذلك خليفة : فلما قتل على وبايع جند العراق ابنه الحسن رأى من مصلحة المسلمين
أن يبايع معاوية ويسلم الأمر إليه فبايعه في ربيع الاول سنة ٤١ فبيعتة اختيار
من أهل الشام وبطريق الغلبة والقهر من أهل العراق لأنها انتهت فى الآخر
بالرضاعن معاوية والتسليم له من جميع الامة ما عدا الخوارج
حال الامة عند استلام معاوية الامر

تولى معاوية أمر الامة وهى أقسام ثلاثة القسم الاول شيعة بنى امية من
أهل الشام ومن غيرهم فى سائر الامصار الاسلامية . القسم الثانى شيعة على بن
أبي طالب وهم الذين كانوا يحبونه ويرون أنه أحق بالامر من معاوية وغيره وأن
أعقابه أحق بولاية أمر المسلمين من غيرهم ومعظم هؤلاء كان ببلاد العراق وقليل
منهم بمصر : القسم الثالث الخوارج وهم أعداء الفرقتين يستحلون دماء مخالفينهم
ويرونهم مارقين عن الدين وهم أشداء الشكيمة متفانون فيما يعتقدون
يرون أن أول واجب عليهم قتال معاوية ومن تبعه وقتال شيعة على لان كلاً قد ألد
على زعمهم فى الدين ومع ما بينهما من هذا التباين كانت أمة متمتعة بصفة الشجاعة
والاقدام ومثل هذه الامة تحتاج لسياسة حكيمة فى إدارة شؤونها وافاضة توب

الامن عليها : أما معاوية نفسه فلم يكن أحد أوفر منه يدآ في السياسة صانع
رءوس العرب وقروم مضر بالاغضاء والاحتمال والصبر على الاذى والمكروه
وكانت غايته في الحلم لا تدرك وعصابته فيه لا تنزع ومراقاته فيه تزل
عنها الاقدام

كان الذي يهيم معاوية ويقلقه أمر الخوارج لانهم قوم قلما ينفع
معهم حسن السياسة لانهم قوم غلوا في الدين غلوا عظيما وفهموا كثيرا
منه على غير وجهه ففرقوا كلمة الامة ورأوا من واجبه استعراض النفس
وأخذ الاموال ولنبداً بذكر أخبارهم لبيان تفاصيل أحوالهم

لما بويع معاوية بالكوفة كان فروة بن نوفل الاشجعي معتزلاً في
٥٠٠ من الخوارج فرأوا أن الوقت قد حان لتجريد السيف فأقبلوا حتى
نزلوا النخيلة فأرسل اليهم معاوية جمعاً من أهل الشام فانهزم أهل الشام
أمامهم فقال معاوية لأهل الكوفة والله لا أمان لكم عندي حتى تكفونيهم
فخرج اليهم أهل الكوفة فقال لهم الخوارج أليس معاوية عدونا وعدوكم
دعونا حتى نقاتله فان اصبناه كنا قد كفيناكم عدوكم وان أصابنا كنتم
قد كفيتمونا فقالوا لا بد لنا من قتالكم فأخذت أشجع صاحبهم فروة
قهرآ وأدخلوه الكوفة فولى الخوارج عليهم عبد الله بن أبي الحوساء الطائي
فقاتلهم أهل الكوفة فقتلوه وكان ابن أبي الحوساء قد خوف بالصلب فقال

ما انت أبالي اذا أروا حنا قبضت	ماذا فعلتم بأوصال وأبشار
تجرى الهجرة والنيران عن قدر	والشمس والقمر الساري بمقدار
وقد علمت وخير القول أقمعه	أن السعيد الذي ينجوا من النار

فلما قتل ابن أبي الحوساء ولي الخوارج أمرهم حوثة الاسدي فصار
حتى قدم النخيلة في ١٥٠ وانضم اليه فل ابن أبي الحوساء وهم قليل فقال
معاوية لابي حوثة ا كفى أمر ابنك فصار اليه أبوه فدعاه الى الرجوع
فأبى فأداره فصمم فقال له يا بني أجيئك بابنك فلملك تراه فتحن اليه فقال
يا أبت انا والله الى طعنة نافذة أتقلب فيها على كعوب الرمح أشوق مني
الى ابني فرجع الى معاوية فأخبره فقال يا أبا حوثة عتا هذا جداً ولما نظر
حوثة الى أهل الكوفة قال يا أعداء الله انتم بالامس تقاتلون معاوية
لتهدوا سلطانها واليوم تقاتلون مع معاوية لتشدوا سلطانها فخرج اليه أبوه
فدعاه إلى البراز فقال يا أبت لك في غيري مندوحة ولي في ذيرك عنك مذهب
ثم حمل على القوم وهو يقول

اكرر على هذى الجموع حوثة فغن قليل ماتنا المغيرة

فحمل عليه رجل من طيء فقتله فرأى اثر السجود وقد لوح جبهته
فندم على قتله : ثم توالى الخوارج حتى اخافوا بلاد العراق فرأى معاوية
أنه لا بد من تولية العراق رجلاً ذوي قدرة وحكمة يأخذون على أيدي
السفهاء ويشتدون في طلب المريب فاختر رجلين كلاهما قد عرف بالسياسة
وحسن الرأي وهما زياد بن سمية والمغيرة بن شعبة

فأما زياد فقد كان من شيعة على وكان والياً له على فارس وقتل على وهو
بها فذكر معاوية اعتصامه بفارس وأهمه ذلك فجعل المغيرة وسيطاً في استقدامه
فأتى المغيرة زياداً وقال له ان معاوية استخفه الوجل حتى بعثني اليك ولم يكن
احد يعيده الى هذا الامر غير الحسن وقد بايع فخذ لنفسك قبل التوطين فيستغنى

عنك معاوية فقال زياد أشر على وادم الغرض الاقصى فان المستشار مؤتمن فقال له المغيرة أري أن تصل حبلك بحبله وتشخص اليه ويقضي الله : وكتب اليه معاوية بأمانه بعد عود المغيرة فخرج زياد من فارس حتى أتى معاوية فسأله عن أموال فارس فأخبره بما أنفق منها وبما حمل الى على وبما بقي عنده فصدقه معاوية وقبض منه ما بقي عنده

وفي سنة ٤٤ استلحق معاوية زياداً ألحقه بأبي سفيان لاعتراف كان من أبي سفيان بذلك شهد به جمع وكان معاوية قد كتب الى زياد في حياة علي يعرض له بولادة أبي سفيان اياه فلما علم بذلك علي كتب الى زياد يقول له (اني وليتك ما وليتك وأنا أراك له أهلاً وقد كانت من أبي سفيان فلتة من أمانني الباطل وكذب النفس لا توجب له . يرائوا ولا تحمل له نسباً وان معاوية يأتي الانسان من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله فاحذر ثم احذر والسلام) فلما قتل على رأى معاوية أن يستميل زياداً واستصفي مودته باستلحاقه فكان يقال له بعد ذلك زياد بن أبي سفيان وان كان كثير من الناس لا يعترف له بهذا النسب فقد كتب زياد الى عائشة أم المؤمنين يقول لها : من زياد بن أبي سفيان وهو يريد أن تكتب له بهذا العنوان فكتبت اليه من عائشة أم المؤمنين الى ابنها زياد واراد زياد أن يحج بعده هذا الاستلحاق فسمع بذلك أخوه أبو بكر وكان له مهاجرة فجهز الى بيت زياد وكلم أحداً بنائه فقال له يا بني قل لا يبك اني سمعت انك تريد الحج ولا بد من قدومك الى المدينة ولا شك انك تطلب الاجتماع بأمة حبيبة بنت أبي سفيان زوج النبي صلى الله عليه وسلم فان اذنت لك فأعظم به خزياً مع رسول الله وان منعتك فأعظم به فضيحة

في الدنيا فترك زياد الحج

وفي السنة الخامسة والاربعين ولاء معاوية البصرة وخراسان وسجستان
فقدم البصرة آخر شهر ربيع الاول سنة ٤٥ هـ والفسق ظاهر فاش فيها فخطبهم
خطبته الشهيرة بالبراء وإعما قيل لها ذلك لانه لم يحمد الله فيها ولما في هذه
الخطبة من روائع الكلم وبديع الحكم وبيان سياسته في حكم البلاد أحيينا
أيرادها قال :

أما بعد فان الجهالة الجاهلاء والضلالة العمياء والغي الموفى بأهله على النار
ما فيه سفهاؤكم ويشتمل عليه حماؤكم من الامور العظام ينبت فيها الصغير
ولا يتحاشي عنها الكبير كأنكم لم تقرأوا كتاب الله ولم تسمعوا ما أَعَدَّه من
الثواب الكريم لاهل طاعته والعذاب الأليم لاهل معصيته في الزمن
السرمدى الذى لا يزول . أتكونون كمن طرفت عينيه الدنيا وسدت مسامعه
الشهوات واختار الفانية على الباقية ولا تظنون انكم أحدثتم في الاسلام
الحدث الذى لم تسبقوا اليه من ترككم الضعيف يقهر ويؤخذ . ما هذه
المواخير المنصوبة والضعيفة المسلوبة في النهار المبصر والعدد غير قليل : ألم
يكن منكم نهاة تمنع الغواة : عن دلح الليل وغارة النهار قربتم القرابة وبعدتم
الدين تعتذرون بغير العذر وتعضون على المختلس كل امرئ منكم يذب
عن سفيهه صنييع من لا يخاف عاقبة ولا يرجو معاداً : ما أنتم بالحماء ولقد
اتبعتم السفهاء فلم يزل بكم ماترون من قيامكم دونهم حتى انتهكوا حرم
الاسلام ثم اطرقوا وراءكم كنوساً في مكائس الريب . حرام على الطعام
والشراب حتى أسويها بالارض هدماً وحرأقاً . اني رأيت آخر هذا الامر

لا يصلح الا بما صلح أوله لين في خير ضعف وشدة في خير عنف واني أقسم بالله لا آخذن الولي بالمولى والمقيم بالظالم والمقبل بالمدر والمطيع بالعاصي والصحيح منكم في نفسه بالسقيم حتي يلقي الرجل منكم أخاه فيقول أنج سعد فقد هلك سعيد أو تستقيم لي قناتكم . ان كذبة المنبر بقاء مشهورة فاذا تعلقتم على بكذبة فقد حلت لكم عصيتي فاذا سمعتموها مني فاذتمزوها في واعلموا أن عندي أمثالها من نقب منكم عليه فأنا ضامن لما ذهب من ماله فاي اي ودلح الليل فاني لا أوتى بمديح الا سفكت دمه وقد اجلتكم في ذلك بمقدار ما يأتي الخبر الكوفة ويرجع اليكم . واي اي ودعوي الجاهلية فاني لا أجد أحدا دأبها الا قطعت لسانه . وقد أحدثتم أحداثا لم تكن وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة فمن غرق قوما غرقناه ومن حرق علي قوم حرقناه ومن نقب بيتا نقبت عن قلبه ومن نبش قبرا دفنته فيه حيا فكفوا عن أيديكم وألسنتكم اكفف عنكم لساني ويدي ولا يظهر من أحد منكم خلاف ما عليه عامتكم الا ضربت عنقه . وقد كان بيني وبين أقوام إحسن فجعلت ذلك دبر اذني وتحت قدمي فمن كان منكم محسنا فليزددا حسانا ومن كان مسيئا فلينزعه عن اساءته اني لو علمت أن احدا منكم قتله السل من بغضى لم اكشف له قناعا ولم أهتك له ستر ا حتي يبيد لي صفحته فاذا فعل لم أناظره فاستأنفوا أموركم وأعينوا علي أنفسكم فرب مبتثس بقدم مناسيسر و سرور بقدمنا سيبتثس أيها الناس إنا أصبحنا لكم ساسة وعنكم ذادة نسوسكم بساطان الله الذي أعطانا ونزود عنكم بفيء الله الذي خولنا فلنا عليكم السمع والطاعة فيما احببنا ولكم علينا العدل فيما ولينا فاستوجبوا عدلنا وفيثنا بمناصحتكم لنا

واعلموا أني مهما قصرت عنه فلن أقصر عن ثلاث لست محتجبا عن طالب حاجة منكم ولو أناني طار قابليل ولا حابسارزقا ولا عطاء عن إبانة ولا مجبرا لكم بشا فادعوا الله بالصالح لا تمتكم فانهم ساستكم المؤدبون وكهفكم الذي اليه تأوون ومتى تصلحوا يصلحوا ولا تشربوا قلوبكم بغضهم فيشتد لذلك غيظكم ويطول له حزنكم ولا تدركوا حاجتكم مع أنه لو استجيب لكم فيهم لكان شرا لكم . أسأل الله أن يعين كلا على كل فاذا رأيتموني أتقذ فيكم الامر فانفذوه على اذلاله وايم الله ان لي فيكم لصرعي كثيرة فليحذر كل منكم أن يكون من صرعاى

فقام اليه عبد الله بن الاهتم فقال أشهد أيها الامير لقد أوتيت الحكمة وفصل الخطاب فقال كذبت ذاك نبي الله داود . فقال الاحنف قد قلت فأحسنيت أيها الامير والثناء بعد البلاء والحمد بعد العطاء وانا لن نشنى حتى نباتلى فقال صدقت : فقام اليه أبو بلال مرداس بن أدية وهو من الخوارج وقال أنبا الله بغير ما قلت قال الله تعالى (وابراهيم الذي وفى أن لا تزر وازرة وزرا أخرى وأن ليس للانسان إلا ما سعى) فأوعدنا الله خيرا مما أوعدتنا يا زياد . فقال زياد انا لن نصل الى الحق فيك وفي اصحابك حتى نخوض في الباطل خوضا واستعمل على شرطته عبد الله بن حصن وأجل الناس حتي بلغ الخبر الكوفة وعاد اليه وصول الخبر فكان يؤخر العشاء الاخرة ثم يصلي فيأمر رجلا أن يقرأ سورة البقرة أو مثلها يرتل القرآن فاذا فرغ أمهل بقدر ما يري أن انسانا يطلع أقصى البصرة ثم يأمر صاحب شرطته بالخروج فيخرج فلا يري انسانا الا قتله فأخذ ذات ليلة اعرايا فأتى به

زياداً فقال له هل سمعت النداء فقال لا والله قدمت بحلوبة لي وغشياني الليل فاضطرتها الى موضع واقمت لاصبح ولا علم لي بما كان من الامير فقال أظنك والله صادقاً ولكن في قتلك صلاح الامة ثم أمر به فضربت عنقه : وكان زياد اول من شدد أمر السلطان واكد الملك للمعاوية وجرد سيفه وأخذ بالظنة وعاقب على الشبهة وخافه الناس خوفاً شديداً حتى أمن بعضهم بعضاً وحتى كان الشيء يسقط من يد الرجل أو المرأة فلا يعرض له أحد حتى يأتيه صاحبه فيأخذه ولا يغلق أحداً به وأدر العطاء وبني مدينة الرزق وجعل الشرط اربعة آلاف . وقيل له ان السبيل مخوفة فقال لا أعاني شيئاً وراء المصر حتى أصلح المصر فان ظلمني فغيره أشد ظلمة منه فلما ضبط المصر وأصلحه تكلف ما وراء ذلك فأحكمه : قال أبو العباس المبرد في صفة زياد ومعاملته للخوارج كان يقتل المعلن ويستصلح السر ولا يجرد السيف حتى تزول النهمة : ووجه يوماً بمحنة بن كيش الاعرجي الى رجل من بني سعد يري رأى الخوارج فجاء بمحنة فأخذه فقال اني أريد أن احدث وضوء للصلاة فدعني أدخل الى منزلي قال ومن لي بخروجك قال الله عز وجل فتركه فدخل فأحدث وضوءاً ثم خرج فأثني به بمحنة زياداً فلما مثل بين يديه ذكر الله زياد ثم صلى على نبيه ثم ذكر أبا بكر وعمر وعثمان بخير ثم قال قعدت عنى فانكرت ذلك فذكر الرجل ربه فحمده ووحدته ثم ذكر النبي عليه السلام ثم ذكر أبا بكر وعمر بخير ولم يذكر عثمان ثم أقبل على زياد فقال انك قد قلت قولاً فصده بفعلك وكان من قولك ومن قعد عنا لم نهجه فقعدت فأمر له بصلة وكسوة وحملاًن فخرج الرجل من عند زياد وتلقاه الناس

يسألونه فقال ما كلكم استطيع أن أخبره ولكن دخلت علي رجل لا يملك ضراً ولا تفعل لنفسه ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً فرزق الله منه ماترون : وكان زياد يبعث الى الجماعة منهم فيقول ما أحسب الذي يمنعكم عن اتباعي الا الرحلة فيقولون أجل فيحملهم ويقول اغشوني الآن واسمروا عندي

وبلغ زياداً عن رجل يكنى أبا الخير من أهل البأس والنجدة أنه يري رأى الخوارج فدعاه فولاه جنديسابور وما يليها ورزقه أربعة آلاف درهم كل شهر وجعل عمالته في كل سنة مئة ألف فكان أبو الخير يقول ما رأيت شيئاً خيراً من لزوم الطاعة والتقلب بين أظهر الجماعة فلم يزل واليا حتى أنكر منه زياد شيئاً فتمترل زياد فحبسه فلم يخرج من حبسه حتى مات وفي سنة ٥٠ هـ أضاف معاوية الى زياد ولاية الكوفة بعد موت المتيرة ابن شعبة فصار والى المصريين وهو أول من جمع له فصار الى الكوفة فلما وصلها خطب أهلها فحصب وهو على المنبر فجلس حتى أمسكوا ثم دعا قوماً من خاصته فأخذوا أبواب المسجد ثم قال ليأخذ كل رجل منكم جليسه ولا يقولن لا أدري من جليسي ثم أمر بكرسي فوضع له على باب المسجد فدعاهم أربعة أربعة يحلفون مامناً من حصبك فمن حلف خلاله ومن لم يحلف حبسه حتى صار الى ثلاثين فقطع أيديهم . واتخذ زياد المقصورة حين حصب : وكان يقيم بالبصرة ستة أشهر وبالكوفة مثلها

كان بالكوفة جماعة من شيعة علي رأسهم حجر بن عدي السكندی وعمرو بن الحمق وأشباههما فبلغ زياداً أنهم يجتمعون ويقعون في معاوية وعمله فجاء الكوفة وصعد المنبر وقال أما بعد فإن غب البغي والغبي وخيم

أن هؤلاء جموا فأشروا وأمنوني فاجترءوا على الله لئن لم تستقيموا
 لا داوينكم بدوائكم ولست بشيء أن لم أمنع الكوفة من حجر وأدعه نكالا
 لمن بعده ويل أمك يا حجر سقط العشاء بك على سرحان : وأرسل الي
 حجر يدعوه وهو بالمسجد فابى حجر أن يجيء فأمر زياد صاحب شرطته
 أن يبعث اليه جماعة تفعل فسيبهم أصحاب حجر فجمع زياد أهل الكوفة وقال
 تشجون بيد وتأسون بأخرى أبدانكم معي وقلوبكم مع حجر الا حق هذا
 والله من رجسكم والله لتظهرن لي براءتكم أولا تينكم يقوم أقيم بهم أودكم وصعركم
 فقالوا ما ذا الله أن يكون اننا رأى الا طاعتك وما فيه رضاك قال فليقم كل منكم فايدع
 من عند حجر من عشيرته وأهله ففعلوا وأقاموا أكثر أصحابه عنه وقال زياد
 لصاحب شرطته انطلق الى حجر فاتني به فان ابى نشدوا عليهم بالسيوف حتى
 تأتونى به وبمن معه فبعد خطوب طوييلة جىء به فلما رآه زياد قال له مرحبا
 أبا عبد الرحمن حرب أيام الحرب وحرب وقد سالم الناس على أهلها تبخى
 براقش فقال حجر ما خلعت طاعة ولا نارئت جماعة واني علي بيعتي فأمر به
 الى السجن ثم طلب أصحابه فهرب بعضهم وأخذ بعضهم وعدتهم اثنا عشر رجلا
 فأودعهم السجن واحضر شهودا شهدوا على حجر أنه جمع الجموع وأظهر شتم
 الخليفة ودعا الى حرب أمير المؤمنين وأظهر ان هذا الامر لا يصلح الا في آل
 أبي طالب ووثب بالمصر وأخرج دامل أمير المؤمنين وأظهر عذرا أبى تراب
 والترحم عليه والبراءة من عدوه وأهل حربه وان هؤلاء النفر الذين معا
 هم رءوس أصحابه علي مثل رأيه وكان الشهود على ذلك كثيرين من أهل
 الكوفة فكتب شهادتهم وأرسل بها وبم حجر وأصحابه الى معاوية فسير بهم حتى

(٢٠٢)

انتهوا الى مرجع عذرا عند دمشق فأمر معاوية بقتل ثمانية منهم وترك ستة وهم الذين تبرءوا من علي بن أبي طالب ولما بلغ عائشة خبر حجر أرسلت عبد الرحمن بن الحارث الى معاوية فيه وفي أصحابه فقدم عليه وقد قتلهم فقال له عبد الرحمن أين غاب عنك حلم أبي سفيان قال حين غاب عنى مثلك من حلاء قومي وحملى ابن سمية فاحتملت وقالت عائشة لولا أنا لم تغير شيئا الا صارت بنا الامور الى ما هو أشد منه لغيرنا قتل حجر : وقالت هند بنت زيد الانصارية ترثي حجرا وكانت تتشيع

ترفع أيها القمر المنير	تبصر هل ترى حجراً يسير
يسير الى معاوية بن حرب	ليقتله كما زعم الامير
تجبرت الجبابر بعد حجر	وطاب لها الخورنق والسدير
وأصبحت البلاد له محولا	كان لم يحبها مزن مطير
ألا يا حجر حجر بنى عدي	تلقتك السلامة والسرور
أخاف عليك ما أوردى عديا	وشيخا في دمشق له زئير
فان تهلك فكل زعيم قوم	من الدنيا الى هلاك يصير
وتوفى زياد في سنة ٥٣ بالطاعون	

والمطلع على الطريقة التي حكم بها زياد بلاد العراق يرادها بمثابة اعلان حكم عرفى فان أخذ الولي بالمولى والمقيم بالطاعن والمقبل بالمدير والمطيع بالعامى والصحيح في جسمه بالسقيم أمر ليس جاريا على القانون الشرعى الذى يقصر على المسئولية على المجرم وانما ذلك شيء يلجأ اليه الاداريون

لتخفيف آلام الجرائم وارهاب الناس حتى يأمن الناس شرهم وفائدة ذلك في الغالب وقتية ، ومن ذلك وضعه العقوبات التي شرعها للجرائم المحدثه كما قال من نقب عن بيت نقبت عن قلبه ومن نبش قبر ادفنته فيه حيا ، ومن ذلك : عقوبته للمدليج بالقتل . كل هذه قوانين عرفية شديدة رآها لاثقة لاهل العراق وقد أفادت في اصلاح حالهم لان الامان ساد وقل خروج الخوارج في زمنه ولكنه ضحي في سبيل الوصول الى ذلك شيئا كثيرا والتاريخ انما يعطى الانسان صفة السياسة والحكمة اذا تمكن من اصلاح الفاسد بقليل من العسف لانقول ذلك هضما لحق زياد لانه يعتبر أقل ولاية العراق اسرافا في الدماء ولقد بذل من وعده ما يقوم بوعيده فقال انه لا يحتجب عن طالب حاجة وان أتاه طارقا بليل ولا يحبس عطاء ولا رزقا عن ابائه ولا يجمر لهم بعثا وهذه الاشياء الثلاثة متي وفرها الوالى على الامة وصدقها فيها لا تجدد سببا للثورات ولا الفتن ولذلك يقول بعض المؤرخين ان زياداً لم يحتج لتنفيذ ما أوعده به من العقوبات الا قليلا لان علمهم بصدقه في الايمان أخافهم وأرهبهم وصبرهم يقفون عند الحد المشروع لهم

وعلى الجملة فان عهد زياد بالعراق على ما فيه من قسوة كان عهد رفاهة وأمن وهذا مما يسطره التاريخ لعرب العراق أسفاً وذلك انهم قوم لا يصلحهم الا الشدة راذا وليهم وال فيه لين ورحمة فسدوا وارتكبوا المصاعب واجرموا الى الامراء أو الخلفاء من غير اسباب مبينة واضحة

المحاضرة الثالثة والثلاثون

المغيرة بن شعبة — عبيد الله بن زياد — الفتوح في عهد

معاوية — بيعة يزيد — وفاة معاوية

المغيرة بن شعبة

أما المغيرة بن شعبة فكانت سياسته أرفق وألين . أحب العافية وأحسن في الناس السيرة ولم يفتش أهل الأهواء عن أهوائهم وكان يؤتي فيقال إن فلاناً يرى رأى الشيعة وإن فلاناً يرى رأى الخوارج فكان يقول قضي الله أن لا يزالوا مختلفين وسيحكم الله بين عباده فيما كانوا فيه يختلفون فأمنه الناس وكانت الخوارج يلقى بعضهم بعضاً ويتذاكرون مكان أخوانهم بالنهر وان يرون أن في الإقامة الغبن والوكف وأن في جهاد أهل القبلة الفضل والأجر : وقد فرغ الخوارج في عهده إلى ثلاثة نفر منهم المستورد بن علفة التميمي من تيم الرباب وحيان بن ظبيان السلمي ومعاذ بن جوين بن حصين الطائي فولوا أمرهم بعد الشورى المستورد بن علفة لأنه كان أسن القوم واتعدوا أن يتجهزوا ويتيسروا ثم يخرجوا في غرة الهلال هلال شعبان سنة ٤٣ هـ فكانوا في جهازهم وعدتهم فجاء رئيس شرطة المغيرة اليه وأخبره أن القوم مجتمعون في منزل حيان بن ظبيان وأنهم اتعدوا الخروج في هلال شعبان فأمره المغيرة أن يسير بالشرطة ويحيط بدار حيان ويأتيهم بهم فسار رئيس الشرطة وأحاط بدار حيان وقبض على المجتمعين هناك فقال لهم المغيرة ما حملكم على ما أردتم من شق عصا المسلمين فقالوا ما أردنا من

ذلك شيئاً — ومن الغريب أنهم يكذبون مع أن الخوارج تبرأ من الكاذب — قال المغيرة بلى قد بلغني ذلك عنكم ثم قد صدق ذلك عندي جماعتكم : قالوا له أما اجتماعنا في هذا المنزل فان حيان بن ظبيان أقرؤنا للقرآن فنحن نجتمع عنده في منزله فنقرأ القرآن عليه فأمر بهم إلى السجن فلم يزلوا فيه نحواً من سنة وسمع اخوانهم بأخذهم فخذروا وخرج المستورد بأصحابه فبلغ الخبر المغيرة أن الخوارج خارجة عليه في أيامه تلك وأنهم قد اجتمعوا على رجل منهم فقام في اهل الكوفة خطيباً فقال (أما بعد فقد علمتم أيها الناس أنني لم أزل أحب لجماعتكم العافية وأكف عنكم إلا ذى وإنى والله لقد خشيت أن يكون أدب سوء لسفهاؤكم فأما الخلاء إلا قتياء فلا وایم الله لقد خشيت أن لا أجد بداً من أن يعصب الحليم التقى بذنب السفیه الجاهل فكفوا أيها الناس سفهاءكم قبل أن يشمل البلاء عوامكم وقد ذكر لى ان رجالاً منكم يريدون أن يظهرُوا في المصر بالشقاق والخلاف وإیم الله لا يخرجون فى حیة من أحياء العرب فى هذا المصر إلا أبدتهم وجعلتهم نكالا لمن بعدهم فنظر قوم لا أنفسهم قبل الندم فقد قمت هذا المقام ارادة الحجة والاعتذار) فقام اليه معقل بن قيس الراحى فقال أيها الائمةير هل سمى لك أحد من هؤلاء القوم فان كانوا سموا لك فأعلمنا من هم فان كانوا منا كفيناكمهم وان كانوا من غيرنا أمرت أهل الطاعة من أهل مصر نأفأتلك كل قبيلة بسفهاؤها فقال ما سمى لى أحد منهم ولكن قد قيل لى ان جماعة يريدون أن يخرجوا بالمصر فقال معقل أصلحك الله فأنى أسير فى قومی وأكفیک ما هم فيه فلیکفک کل امرئ من الرؤساء قومہ : فنزل المغيرة وأرسل إلى الرؤساء وقال لهم ليكنفى

كل امرئ من الرؤساء قومه والافو الذي لا إله غيره لا تحولن عما كنتم تعرفون
إلى ما تنكرون وعما يحبون الي ما تكرهون فلا يلزم الا أنفسه وقد أذمر من
أنذر فخرجت الرؤساء إلى عشائرهم فناشدوهم الله والاسلام الا دلوهم على من
يرون انه يريد أن يهيج فتنة أو يفارق جماعة

ولما كان الخوارج قد نزلوا في احدي دور عبدالقيس قام صمصمة ابن
صوحان العبدى وقد بلغه خبر نزول المستورد ومن معه في دار العبدى فكره
أن يؤخذوا في عشيرته وكره مساءة أهل بيته من قومه فخطبهم خطبا أحسنا
قال في آخره (ولا قوم أعدي لله ولكم ولاهل بيت نبيكم وجماعة المسلمين من هذه
المارقة الخاطئة الذين فارقوا امامنا واستحلوا دماءنا وشهدوا علينا بالكفر فاياكم
أن تؤوهم في داركم أو تكتموا عليهم فانه ليس ينبغي لحي من أحياء العرب أن
يكون أعدي لهذه المارقة منكم وقد والله ذكر لي أن بعضهم في جانب من الحي
وأنا باحث عن ذلك وسائل فان كان حكلي لي ذلك حقاً تقربت إلى الله بدمائهم فان
دمائهم حلال) ولما بلغ ذلك المستورد كره المقام بمنزل العبدى ولما بلغ من في
محاسن المغيرة اجماع اهل المصر على انفي من كان بينهم من الخوارج وأخذهم قال
معاذ بن جوين في ذلك

ألا أيها الشارون قد حان لامرئ	شرى نفسه لله أن يترحلا
أقمتم بدار الخاطئين جهالة	وكل امرئ منكم يصاد ليقتلا
فشدوا على القوم العداة فانها	أقامتكم للذبيح رأيا مضللا
ألا فاقصدوا يا قوم للغاية التي	إذا ذكرت كانت أبر وأعدلا

شديد القصيري دارعاً غيراً عزلاً	فياليتني فيكم على ظهر ساج
فيسقيني كأس المنية أولاً	ويا ليتني فيكم أعادى عدوكم
ولما أجرد في المحلين منصلاً	يعز علي أن تخافوا وتطردوا
إذا قلت قد ولي وأدبر أقبلأ	ولما يفرق جمعهم كل ماجد
يرى الصبر في بعض المواطن أمثلاً	مشيحاً بنصل السيف في حمس الوثي
وأصبح ذا بث أسيراً مكبلاً	ويز علي أن تضاموا وتنقصوا
أثرت إذا بين الفريقين قسطلاً	ولوا أني فيكم وقد قصدوا لكم
شهدت وقرن قد تركت مجدلاً	فيارب جمع قد فلت وغارة

ثم خرج المستورد وأصحابه إلى سورا فقتلوا بها ٣٠٠ رجل ثم ساروا إلى الصراة فباتوا بهاليلة فلما علم بذلك المغيرة دعارؤساء الناس فقال ان هؤلاء الأتقياء قد أخرجهم الحين وسوء الرأي فمن ترون أبعث اليهم فقام إليه عدى بن حاتم فقال كلنا لهم عدو ولراأيهم مسفه و بطاعتك مستمسك دأينا شئت سار اليهم فقام معقل بن قيس فقال انك لا تبعث اليهم أحداً ممن تري حولك من أشرف المصر إلا وجدته ساء ماء طيعا ولهم فمارقا ولها كههم محبا ولا أري أصلحك الله أن تبعث اليهم أحداً من الناس أعدى لهم ولا أشد عليهم مني فابعثني اليهم فاني أكفيكم يا ذن الله فقال أخرج على اسم الله فجهز معه ثلاثة آلاف رجل وتخبروهم من نقاوة شيعة على وفرسانهم فخرج يتبع آثارهم ولما وصل المدائن قدم بين يديه أبا الرواغ اليشكري في ٣٠٠ فلحقهم بالمدائن مقيمين فبات ليلته حتى اذا أصبح خرج عليه الخوارج فشدوا عليه وعلى من عمه فماتت لهم انسان ثم ان أبا الرواغ صاح وقال يا فرسان السوء قبحكم الله سائر اليوم الكرة الكرة .

فعادوا الى الحملة مرة ثانية ولكنهم لم يصبروا فيها أيضا وانكشفوا
فقال لهم أبو الرواغ انصرفوا بنا فلنكن قريبا منهم لا نزايلهم
حتى يقدم علينا أميرنا فما أقبح بنا أن نرجع الى الجيش وقد انهزمنا من
عدونا ولم نصبر لهم حتى يشتد القتال وتكثر القتل فقال له رجل ان
الله لا يستحي من الحق قد والله هزمونا قال أبو الرواغ لا أكثر الله فينا
مثلك انا ما لم ندع المعركة فلم نهزم وانا متي عطفنا عليهم وكنا قريبا منهم
فخن على حال حسنة حتى يقدم علينا الجيش فوقفوا قريبا منهم حتى قدم
معقل ف شكر أبا الرواغ على ثباته فقال له أبو الرواغ أصلحك الله ان لهم
شدات منكرات فلا تكن أنت تليها بنفسك ولكن قدم بين يديك من
يقاتلهم وكن انت من وراء الناس درءاً لهم فقال نعم رأيت فما كان ريثما
قالها حتى شدوا عليه وعلى أصحابه فلما نشوه انجفل عنه أصحابه وثبت
ونزل وقال الارض الارض يا أهل الاسلام ونزل معه أبو الرواغ وناس
كثير من الفرسان وأهل الحفاظ نحو من ٢٠٠ رجل ولما رآه الناس قد ثبت
كروا راجعين ثم حجز بينهم الليل وفي اثنائه بلغ الخوارج أن جيشا من
البصرة قد أرسل لقاتلهم فلم يروا أن يققوا حذار ان يقوموا بين جيشين
فرحلوا من وراء جيش معقل ولم يعلم معقل برحيلهم الا عند الصبح فعاد
متبعا آثارهم وأبو الرواغ على مقدمته في ٦٠٠ فلاحقهم بجررايا فلما رآه الخوارج
شدوا عليه شدة واحدة صدقوا فيها الحملة فانكشف جند أبي الرواغ وبقي
معه نحو مئة رجل فمطف عليهم وهو يقول

ان الفتى كل الفتى من لم يهل اذا الجبان حاد تن وقع الاسل

قد علمت اني اذا البأس نزل أروع يوم الهيج مقدام بطل
ثم عطف وعطف معه أصحابه الذين ثبتوا فصدقوا القتال حتي ردوهم الى
مكانهم الذي كانوا فيه ولما رأى الخوارج ذلك خافوا من مجي معقل فتركوا
الموقعة وسارا وأبو الرواغ في آثارهم : قال المستورد لأصحابه ان الذين مع
أبي الرواغ هم حر أصحاب معقل فهلم فلنقابل معقلا قبل أن يلتقي بأصحابه
فعاد المستورد بجنده وترك أبا الرواغ بعد ان خدعه ولم يكن الا قليل حتي التقى
بمعقل وأصحابه ومقدمته ليست عنده فلما رآهم معقل نصب رايته ونزل ونادى
يا عباد الله الارض الارض فنزل معه نحو من ٢٠٠ رجل فحمل عليهم الخوارج
فاستقبلوهم باطراف الرماح جشاة على الركب وصبروا على حملات الخوارج
الشديدة : وبيناهم على تلك الحال اذا طلعت عليهم مقدمة أصحاب أبي الرواغ
واشتد القتال وكانت نتيجة أن قتل المستورد وسائر أصحابه ١٠٠ اعدا خمسة
منهم وقتل معقل بن قيس رئيس الجيش وكان معقل قد بارز المستورد بيد
معقل السيف وبيد المستورد الرمح فاشرع المستورد الرمح في صدر
معقل حتى خرج السنان من ظهره وضربه معقل بالسيف على رأسه حتى
خالط أم الدماغ فخرا ميتين وبذلك انتهى امر هؤلاء القوم الذين لم يكن
يمكن يماثلهم أحد في شداتهم المنكرة : قال الشعبي ما ولينا وال بعد المغيرة مثله
وان كان لاحقا بصالح من كان قبله من العمال : واقام المغيرة عاملا لمعاوية
سبع سنين وأشهر آو هو من أحسن شي سيرة وأشد حبا للعافية ذيرا أنه لا يدع
ذم على وال وقوع فيه والعيب لقتله عثمان واللعن لهم والدعاء لعثمان بالرحمة والاستغفار
له والتركية لأصحابه وكان يقول لا أحب أن أبتدي بأهل هذا المصر بقتل خيارهم

وسفك دمائهم فيسعدوا بذلك وأشتي ويعز في الدنيا معاوية وينك يوم
القيامة المفيرة ولكنى قابل من محسنهم وعاف عن سيئهم وحاء مدحايهم وواعظ
سفهم حتى يفرق بيني وبينهم الموت وسيدكروني لو قد جربوا العمل بعدى. قال
شيخ من أهل الكوفة قد والله جربناهم فوجدناه خيرهم أحمدهم للبرىء
وأغفرهم للمسىء وأقبلهم للمعذر: وتوفي المفيرة سنة ٥١ ولو وازناه بزياد
لرجح عليه لانه أصلح المصر بقليل من الشدة والعنف

ومن ولاية العراق الأشداء عبيد الله بن زياد ولاه معاوية البصرة سنة ٥٥ وقد
اشتد على الخوارج شدة لم يفعلها أبوهم زياد فقتل منهم سنة ٥٨ جماعة كثيرة صبراً
وفي الحرب جماعة أخرى ومن قتل صبراً عروة بن أدية أخو أبي بلال مرداس بن
أدية وكان سبب ذلك ان ابن زياد خرج في رهان له فله اجلس ينتظر الخيل اجتمع
الناس وفيهم عروة بن أدية فأقبل على ابن زياد فقال خمس كن في الامم قبلنا فقد
صرن فينا (أتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون واذا
بطشتم بطشتم جبارين) وذكر خصلتين أخريين: فلما سمع ذلك ابن زياد ظن أنه لم
يجترأ عليه الا ومعه جماعة من اصحابه فقام وركب وترك رهانه: فقبل لعروة ما
صنعت تعلمن والله ليقتلك فتوارى فطلبه ابن زياد في الكوفة فاخذ بها فقدم به على
ابن زياد فأمر به فقطعت يده ورجلاه ثم دعا به فقال كيف تري قال أرى انك
أفسدت دنياي وأفسدت آخرتك فقتله وأرسل الى ابنته فقتلها وخرج أخوه
مرداس في أربعين رجلاً بالاهواز فبعث اليهم ابن زياد جيشاً عدته ألفان
وعليهم ابن حصن التميمي فهزمه الخوارج فقال شاعرهم:

ألقا مؤمن فيماز عثم ويقتلكم بأسك أربعونا

كذبتهم ليس ذاك كما زعمتم ولكن الخوارج مؤمنونا
هي الفئة القليلة قد علمتم على الفئة الكثيرة ينصروننا
ولم يزل عبيد الله واليًّا على البصرة حتي توفي معاوية
وفي مصر كان الوالي عمرو بن العاص فاتحها وأعرف الناس بها ولم
يزل واليًّا عليها حتي مات سنة ٤٣ فولى بدله ابنه ثم عزله بعد ذلك وولى
خبره ولأه سياًتي ذكرهم متي بدأنا في تاريخ مصر
أما الحجاز فكان ولاته دائماً من بني أمية وكانت ولاية المدينة بين
مروان بن الحكم وسعيد بن العاص يتداولانها وكان معاوية اذا أراد أن
يولي رجلاً من بني حرب ولأه الطائف فان رأي منه خيراً وما يعجبه
ولأه مكة معها فان أحسن الولاية وقام بما ولى قياماً حسناً جمع له معهما
المدينة فكان اذا ولى الطائف رجلاً قيل هو في أبي جاد فاذا ولأه مكة
قيل هو في القرآن فاذا ولأه المدينة قيل هو قد حذق : وكان ولاية المدينة
في الغالب هم الذين يقيمون للناس الحج فان معاوية لم يحج بنفسه الا
مرتين سنة ٤٤ وسنة ٥٠ وفيما عداهما كان يقيمه هؤلاء الولاية وكلهم
من بني أمية

الفتوح في عهد معاوية

لم يكن في الشرق على حدود بلاد الفرس الا فتوح قليلة والذي
كان انما هو ارجاع الناكثين من أهل تلك البلاد الى الطاعة وغزا عبد الله
ابن سوار العبدي الذي كان أميراً على ثغر السند القيقان (١) مرتين وفي

(١) من بلاد السند مما يلي خراسان

المرّة الثانية استعان القيقان بالترك فقتلوه . وغزا المهلب بن أبي صفرة الازدى ثغر السند فاتي بنة ولاهور (١) وهما بين الملتان وكابل فلقية العدو وقاتله ولقي المهلب ببلاد القيقان ثمانية عشر فارساً من الترك فقاتلوه فقتلوا جميعاً فقال المهلب ما جعل هؤلاء الاعاجم أولى بالتشهير منا خذف الخيل وكان اول من حذفها من المسلمين . وكانت همة المسلمين موجهة نحو الشمال والغرب حيث مملكة الروم كان على عهد معاوية من ملوك الروم . لمكان أحدهما قسطنطين الثاني ابن هرقل الثاني الذي ولى الملك من سنة ٦٤١ الى سنة ٦٦٨ وقسطنطين الرابع بوغونانس الذي ولى من سنة ٦٦٨ الى سنة ٦٨٥ ودولة الروم لم تزل فيها الحياة تغير على البلاد الاسلامية لما بينهما من الجوار فرتب معاوية النزول اليها برا وبحرا أما البحر فكانت الاساطيل في زمنه كثيرة لاهتمامه بامرها وساعده على ذلك كثرة الغابات بجبال لبنان حتى بلغت أساطيله ١٧٠٠ ألفاً وسبعمئة سفينة كاملة العدد والعدد وصار يسيرها في البحر فترجع غائمة وافتتح بها عدة جهات منها جزيرة قبرص وبعض جزائر اليونان وجزيرة رودس فتحها جنادة بن أبي أمية الازدى وتزلها المسلمون وهم على حذر من الروم وكانوا أشد شيء على الروم يعترضونهم في البحر وياخذون سفنهم وكان معاوية يكثر ابراهم العطاء وكان العدو قد خافهم

وأما في البر فرتب الشواتي والصوائف والشواتي جمع شاتية وهي الجيش الذي يغزو في الشتاء والصوائف جمع صائفة وهي الجيش الذي يغزو في الصيف فكانت الغزوات متتابعة والشغور محفوظة من العدو

وفي سنة ٤٨ هـ جهز معاوية جيشاً عظيماً لفتح القسطنطينية براً وبحراً وكان على الجيش سفيان بن عوف وأمر ابنه يزيد أن يغزوا معهم وكان في هذا الجيش ابن عباس وابن عمر وابن الزبير وأبو أيوب الانصاري وغيرهم وعبد العزيز بن زرارَةَ الكلابي فساروا حتى بلغوا القسطنطينية فاقتتل المسلمون والروم في بعض الايام واشتدت الحرب بينهم فلم يزل عبد العزيز يتعرض للشهادة فلم يقتل فانشأ يقول

قد عشت في الدهر أطواراً على طرق شتى فصادت منها الين واليشما
كلا بلوت فلا النماء تبطنني ولا تخشمت من لاوائها جزءاً
لا يملأ الامر صدرى قبل موقعه ولا أضيق به ذرعاً اذا وقما
ثم حمل على من يليه فقتل فيهم وانغمس بينهم فشجرة الروم برماحهم
حتى قتلوه فبلغ خبر قتله معاوية فقال لا ييه والله هلك فتى العرب فقال ابني
أوابنك قال ابنك فاجرك الله فقال

فان يكن الموت أودي به وأصبح مخ الكلابي زيرا
فكل فتى شارب كأسه فاما صغيراً واما كبيراً

ولم يتمكن هذا الجيش من فتح القسطنطينية لثلاثة أسوارها ومنعة
موقعها وفتك النار الاخرقية بسفنههم . وفي اثناء الحصار توفي أبو أيوب
الانصاري خالد بن زيد وهو الذي نزل عليه رسول الله صلى الله عليه
وسلم بالمدينة حينما هاجر وقد دفن خارج المدينة قريباً من سور القسطنطينية
ولا يزال قبره بها يزار الآن وعليه مسجد مشيد يتوج فيه خلفاء آل عثمان
ثم اضطر المسلمون للعودة الى الشام بعد أن فقدوا كثيراً من جنودهم ومراكبهم

ومن الفتوح العظيمة ما كان في افريقية فقي سنة ٥٠ هـ ولي معاوية عقبة بن نافع وكان مقيما ببرقة وزويلة مذ فتحها أيام عمرو بن العاص وله في تلك البلاد جهاد وفتوح فلما استعمله معاوية سير اليه عشرة آلاف فدخل افريقية وانضاف اليه من أسلم من البربر فكثر جمعه ووضع السيف في اهل البلاد لانهم كانوا اذا دخل عليهم أمير أطاعوا وأظهر بعضهم الاسلام فاذا عاد الامير منهم نكثوا وارتد من أسلم ثم رأى أن يتخذ مدينة يكون بها عسكر المسلمين وأهلهم وأموالهم ليأمنوا من ثورة تكون من اهل البلاد فقصد موضع القيروان وكان دحلة مشتبكة فقطع الاشجار وأمر ببناء المدينة فبنيت وبنى المسجد الجامع وبنى الناس مساجدهم ومسالكهم وكان دورها ٣٦٠٠ باع وتم أمرها سنة ٥٥ هـ وسكنها الناس وكان في اثناء عمارة المدينة يغزو ويرسل السرايا فتغير ودخل كثير من البربر في الاسلام واتسعت خطة المسلمين وقوي جنان من هناك من الجنود بمدينة القيروان وأمنوا واطمأنوا على المقام فثبت الاسلام فيها

وحصل بعد ذلك أن معاوية ولي على مصر وأفريقية مسلمة بن مخلد فاستعمل على افريقية مولى له يقال له أبو المهاجر فقدم افريقية وأساء عزل عقبة واستخف به. وهذا من الخلل القديم الذي يثن منه المسلمون الى الان فان الخلف كان من الولاة عوضا عن أن يستعين بأراء سلفه وتجاربه يجتهد في تصغيره وتحقيره حتى ينطفيء اسمه ويكون لهذا الخلف الذكر المحمود وحده ولا يدري أنه بهذا يقطع من نفسه قوة كان يمكن الانتفاع بها وترويض مثل هذا بين أظهركم للان فانه ما ولي انسان عملا بعد رجل آخر الا اجتهد ان يسيء سمعته ويبين للناس انه لم يكن يحسن

أن يسير فيما ولي سيرة رجل عارف بالأمور وكذلك السلف يجتهد أن
يحقي عن خلته كل ما يمكن أن ينفعه ليرتبك في إدارته حتى يكون للاول
الاسم العظيم وحده والامة التي عندها مثل هذا الفكر العقيم لا يمكن
أن تنجح أو تسود

عاد عقبه إلى الشام وعاتب معاوية على ما فعله أبو المهاجر فاعتذر اليه
ووعده بإعادته إلى عمله وتمادي الأمر حتى توفي معاوية وسندين لكم في
خلافة يزيد ما كان منه حين أعيد إلى عمله
البيعة ليزيد بولاية العهد

فكر معاوية أن يأخذ على الناس البيعة ليزيد ابنه بولاية العهد وكان
الواضع لهذه الفكرة المنيرة بن شعبة قبل وفاته فانه دخل على يزيد وقال
له قد ذهب أعيان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكبراء قريش
وذوو أسنانهم وأنما بقى أبنائهم وانت من أفضلهم وأحسنهم رأياً وأعلمهم
بالسنة والسياسة ولا أدري ما يمنع أمير المؤمنين أن يعقد لك البيعة . قال
أو ترى ذلك يتم قال نعم . فأخبر يزيد أباه بما قال المنيرة فاحضر معاوية
المنيرة وسأله عما قال ليزيد فقال قد رأيت ما كان من سفك الدماء والاختلاف
بعد عثمان وفي يزيد منك خلف فاعتدله فان حدث بك حادث كان كهفاً للناس
وخلفاً منك ولا تسفك دماء ولا تكون فتنة قال ومن لي بذلك قال أكفيك
أهل الكوفة ويكفيك زياد أهل البصرة وليس بعد هذين المصرين أحد
يخالقك قال فارجم إلى عمالك وتحدث مع من تثق به في ذلك وترى ونرى

فسار المغيرة الى الكوفة. وذاكر من يشق به. ومن يعلم أنه شيعة لبني
امية امر يزيد فاجابوا الى بيعته فأوفد منهم وقد اعلمهم ابنه موسى فقدموا
علي معاوية فزينوا له بيعة يزيد فقال معاوية لا تمجلوا باظهار هذا وكونوا
على رأيكم فرجعوا وقوي عزم معاوية على البيعة ليزيد . فأرسل الى زياد
يستشير فاحضر زياد عبيد بن كعب النميري وقال ان لكل مستشير
ثقة ولكل سر مستودع وان الناس قد ابدع بهم خصلتان اذاعة السر واخراج
النصيحة الى غير أهلها وليس موضوع السر الا أحد رجلين رجل آخرة
يرجوا ثوابها ورجل دنيا له شرف في نفسه وعقل يصون حسبه وقد خبرتهما
عذك وقد دعوتك لامر اهتمت عليه بطون الصحف ان أمير المؤمنين
كتب الى يستشيرني في البيعة ليزيد وانه يتخوف نفرة الناس ويرجو طاعتهم
وعلاقة امر الاسلام وضمانه عظيم ويزيد صاحب رسالة وتهاون مع ما قد أولم
به من الصيد فالتقى أمير المؤمنين وأداليه فملات يزيد وقل له رويدك بالامر
فأحري لك ان يتم لك ولا تمجل فان دركا في تأخير خير من فوت في عجلة
فقال له عبيد أفلا غير هذا قال وما هو قال لا تفسد على معاوية رأيي
ولا تبغض اليه ابنه وألقي انا يزيد فأخبره أن أمير المؤمنين كتب اليك
يستشيرك في البيعة له وانك تتخوف خلاف الناس عليه لهنات ينقمونها عليه
وانك ترى له ترك ما ينقم عليه لتستحكم له الحجة على الناس ويتم ما تريد فتكون
قد نصحت أمير المؤمنين وسلمت مما تخاف من امر الامة فقال زياد لقد رميت
الامر بحجره اشخص على بركة الله فان اصبحت فيما لا ينكر وان يكن خطأ فغير
مستغش وتقول بما تري ويقضي الله بغييب ما يعلم فقدم على يزيد فذكر ذلك له فكف

عن كثير مما كان يصنع وكتب زياد .مه الى معاوية يشير بالتؤدة وان لا يعجل
 فقبل منه فلما مات زياد عزم معاوية على البيعة لابنه يزيد فكتب الى
 مروان بن الحكم أمير المدينة يقول له اني قد كبرت سني ودق عظمي وخشيت
 الاختلاف على الامة من بعدي وقد رأيت أن اتخير لهم من يقوم بعدي
 وكرهت أن اقطع أمراء دون مشورة من عندك فاعرض ذلك عليهم وأعلمني
 بالذي يردون عليك فقام مروان في الناس فأخبرهم فقال الناس أصاب ووفق
 وقد أحببنا أن يتخير لنا فلا يوافقك مروان الى معاوية بذلك فاعاد
 اليه الجواب يذكر يزيد فقام مروان فيهم فقال ان أمير المؤمنين قد اختار
 لكم فلم يأل وقد استخلف ابنه يزيد : فقام عبد الرحمن بن أبي بكر وقال ما الخیار
 اردتم لامة محمد ولكنكم تريدون أن تجعلوها هرقلية كلما مات هرقل قام
 هرقل وأنكر ذلك الحسين بن علي وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير
 فكتب مروان الى معاوية بذلك

وكان معاوية قد كتب الى عماله بتقريظ يزيد ووصفه وان يوفدوا
 اليه الوفود من الامصار فكان فيمن اتاه محمد بن عمر بن حزم من المدينة
 والاحنف بن قيس في وفد اهل البصرة فقال محمد بن عمرو لمعاوية ان
 كل راع مسئول عن رعيته فانظر من تولى امر امة محمد ثم ان معاوية قال
 للضحاك بن قيس القهرى لما اجتمعت الوفود عنده اني متكلم فاذا
 سكت فكن انت الذي تدعو الى بيعة يزيد وتحثني عليها فلما جلس
 معاوية للناس تكلم فغظم امر الاسلام وحرمة الخلافة وحققها وما امر الله
 به من طاعة ولاة الامر ثم ذكر يزيد وفضله وعلمه بالسياسة وعرض بيعته

فقام الضحاك فحمد الله وأثنى عليه ثم قال يا أمير المؤمنين انه لا بد للناس من وال بعدك وقد بلونا الجماعة والالفة فوجدناهما أحقن للدماء وأصلح للدهماء وآمن للسبل وخيرا في العاقبة والايام دوج رواجع والله كل يوم هو في شأن ويزيد ابن أمير المؤمنين في حسن هديه وقصد سيرته على ما علمت وهو من افضلنا علما وحلما وأبعدنا رأيا فوله عهدك واجعله لنا علما بعدك ومفزعاً نلجأ اليه ونسكن في ظله : ثم تكلم فيه بمثل كلامه فقال معاوية للاحنف بن قيس ما تقول يا أبا بحر فقال نخافكم ان صدقنا ونخاف الله ان كذبنا وأنت يا أمير المؤمنين أعلم بيزيد في ليله ونهاره وسره وعلا نيته ومدخله ومخرجه فان كنت تعلمه لله وللامة رضا فلا تشاور فيه وان كنت تعلم فيه غير ذلك فلا تزوده الدنيا وأنت صائر الى الآخرة وانما علينا أن نقول سمعنا وأطعنا . كان معاوية يعطي المقارب ويداري المباعدين ويلطف به حتى استوسق له أكثر الناس وبايوه فلما باي به أهل العراق وأهل الشام سار الى الحجاز في ألف فارس فلما دخل المدينة خطب الناس فذكر يزيد فمدحه وقال من احق منه بالخلافة في فضله وعقله وموضعه وما ظن قوماً بمنتهين حتى تصيبهم بوائق تجتث أصولهم وقد أنذرت ان أغنت النذر ثم انشد متمثلاً

قد كنت حذرتك آل المصطلق وقلت يا عمرو أطمعني وانطلق
انك ان كلفتني مالم أطق ساءك ما سرك مني من خلق
دونك ما استسقيته فاحس وذق

وكان أولئك نفر الثلاثة قد تركوا المدينة الى مكة فخرج معاوية الى مكة وقضي بها نسكه ثم جمعهم ثلاثتهم وكانوا قد اتفقوا على ان يكون

الذي يخاطبه ابن الزبير فقال لهم معاوية قد علمتم سيرتي فيكم وصلاتي لارحامكم وحملي ما كان منكم ويزيد أخوكم وابن عمكم وأردت أن تقدموه باسم الخلافة وتكونوا أنتم تعزلون وتأمرون وتنجبون المال وتقسمونه لا يعارضكم في شيء من ذلك فقال له ابن الزبير نخيرك بين ثلاث خصال قال اعرضهن : قال تصنع كما صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم قبض ولم يستخلف أحداً فارتضى الناس أبا بكر : قال معاوية ليس فيكم مثل أبي بكر وأخاف الاختلاف قال فاصنع كما صنع أبو بكر فإنه عهد إلى رجل من قاصية قریش ليس من بني أبيه فاستخلفه وإن شئت فاصنع كما صنع عمر جعل الأمر شورى في ستة نفر ليس فيهم أحد من ولده ولا بني أبيه قال معاوية هل عندكم غير هذا فقالوا لا قال فاني أحببت أن أتقدم اليكم أنه قد أعذر من أنذر اني كنت اخطب فيكم فيقوم إلى القائم منكم فيكذبني على رؤوس الناس فاحمل ذلك واصفح واني قائم بمقالة فأقسم بالله لئن رد على أحد منكم كلمة في مقامي هذا لارجع إليه كلمة غيرها حتى يسبقها السيف إلى رأسه فلا يبقين رجل إلا على نفسه ثم دعا صاحب حرسه بحضرتهم فقال أقم على رأس كل رجل من هؤلاء رجلين ومع كل واحد سيف فإن ذهب رجل منهم يرد على كلمة بتصديق أو تكذيب فليضرباه بسيفهما ثم خرج وخرجوا معه حتى رقى المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال إن هؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم لا يبتزأ مردونهم ولا يقضى إلا عن مشورتهم وإنهم قد رضوا وبايعوا ليزيد فبايعوا علي اسم الله فبايع الناس وكانوا يتربصون ببيعة هؤلاء نفر ثم ركبوا حله وانصرف إلى المدينة ثم إلى الشام وروي أن ابن عمر قال لمعاوية أباي ملك على أني ادخل

فما تجتمع عليه الامة فوالله لو اجتمعت على حبشي لدخلت معها
ونقول ان فكر معاوية في اختيار الخليفة بعده حسن جميل وانه ما
دام لم توضع قاعدة لانتخاب الخلفاء ولم يعين أهل الحل والعقد الذين يرجع
اليهم الاختيار فأحسن ما يفعله هو ان يختار الخليفة ولى يهدده قبل ان يموت
لان ذلك يبعد الاختلاف الذي هو شر على الامة من جور امامها وقذف
معاوية ما يظهر معه أنه لم يستبد بالامر دون الامة فطلب وفود الانصار فحضروا
عنده واجابوه الى طلبته من بيعة يزيد ابنه والذي ينقده التاريخ من أمره هو
(١) أنه استهان بأولئك النفر الذين لم يرضوا ببيعة يزيد وهم من
سادة الامة الذين يتطلعون لولاية أمر المسلمين فلم يهتم بخلافهم بل ادعى
أنهم بايعوا لينال بيعة أهل مكة وهذا غير لائق بمقام خليفة المسلمين لا جرم
ان كان من نتائج ذلك تلك الحوادث المحزنة التي سنوضحها في خلافة
يزيد

(٢) مما انتقده الناس انه اختار ابنه للخلافة وبذلك سن في
الاسلام سنة الملك المنحصر في أسرة معينة بعد ان كان أساسه الشورى.
ويختار من عامة قريش وقالوا ان هذه الطريقة التي سنها معاوية تدعو في
الغالب الى انتخاب غير الافضل الالقي من الامة وتعمل في أسرة الخلافة
الترف والانغماس في الشهوات والملاذ والرفعة على سائر الناس : أما رأينا في
ذلك فان هذا الانحصر كان أمرا حتما لا بد منه لصالح أمر المسلمين وألفتهم
ولم شعئهم فانه كلما اتسعت الدائرة التي منها يختار الخليفة كثر الذين
يرشحون أنفسهم لنيل الخلافة واذا انضم الى ذلك اتساع المملكة

الاسلامية وصعوبة المواصلات بين أطرافها وعدم وجود قوم معينين يرجع اليهم الانتخاب فان الاختلاف لا بد واقع ونحن نشاهد أنه مع تفوق بني عبد مناف على سائر قريش واعتراف الناس لهم بذلك وهم جزء صغير من قريش فانهم تنافسوا الامر واهلكوا الامة بينهم فلو رضي الناس عن أسرة ودانوا لها بالطاعة واعترفوا لها باستحقاق الولاية لكان هذا خير ما يفعل لضم شعث المسلمين ان أعظم من ينتقد معاوية في تولية ابنه هم الشيعة مع أنهم يرون انحصار ولاية الامر في آل على ويسوقون الخلافة في بنيه يتركها الاب منهم للابن وبني العباس أنفسم ساروا على هذه الخطة فجعلوا الخلافة حقاً من حقوق بيتهم لا يعدوهم الى غيرهم والنتيجة ان ما فعله معاوية كان أمراً لا بد منه مع الحال التي كانت عليها البلاد الاسلامية

مقارنة الحكم في عهد معاوية بالحكم مدة الخلفاء الراشدين

ان الناظر لحال سياسة الناس في عهد معاوية يراها لا تشبه من كل الوجوه ما كانت عليه الحال في عهد الخلفاء الراشدين قبل الفتنة فقد كانت الناس تساس بالامانة الشرعي تماماً يأخذ كل انسان ماله ويعطى ما عليه فان تأخر في واجب مما عليه دأقته الدرة درة عمر وكان الناس أنفسهم متحدين الميل لم تكثر بينهم الاختلافات في الآراء ولم يتأولوا القرآن تأولاً يخرجهم عن حقيقته التي تدعوا الناس الى التآلف والتآزر والتحاب أما في هذا العهد فان الامة اختلفت أهواؤها وسهل عليها شق عصا الطاعة ودخلوا في غمار الفتنة متأولين للقرآن فكانت السياسة التي حكموا

بها شديدة قاهرة حتى سهل اهراق الدماء ألا ترون الى زياد وما كان يفعله
فانه قتل ذلك الاعرابي الذي أخذ مدججا مع اعتقاد زياد صدقه لكنه قال
ان في قتلك صلاحا للردية . لا ننكر أن معاوية نفسه كان سهلا لينايهفو
وينفر ويفيض على الناس من حلمه الواسع ويحب لهم العافية ولكن بعض
عماله اشتدوا على الناس شدة لا نظن انها تصلح القلوب وانما تختف الالم
عن الامة تخفيفا وقتيا

ومما تنقده على هذا العهد اهتمام معاوية بالتشهير بعلى على المنابر مع
أن الرجل قد لحق بربه وانتهى أمره وكان يعلم يقينا أن هذه الاقوال مما
يبيح صدور شيعته وتجعلهم يتأفقون ويتذمرون ولا ندرى ما الذي حمله
على أن جعل ذلك فرضا حتما في كل خطبة كانه ركن من أركانها لا تتم الا به
من المحدثات الجميلة التي حدثت في عهد معاوية البريد ومعنى ذلك
أن تقسم الطرق منازل في كل منزلة دواب مهيأة معدة لحمل كتب الخليفة
الى البلدان المختلفة فتسلم الكتب بالحاضرة فيأخذها صاحب البريد ويمر
مسرعا حتى اذا وصل الى أول منزلة سلمها لصاحب البريد فيها فيفعل بها
كالاول وبذلك كانت تصل الكتب الى الامراء والعمال في اسرع وقت
يمكن وكان بين كل منزلتين أربعة فراسخ أو اثنا عشر ميلا وتسمى هذه المسافة
بريدا . وروي ياقوت في معجم البلدان أنه انما سميت خيل البريد بهذا الاسم
لان بعض ملوك الفرس اعتاق عنه رسل بعض جهات مملكته فلما جاءته الرسل
سألها عن سبب بطئها فشكوا من مروا به من الولاة وأنهم لم يحسنوا معاونتهم
فاحضرهم الملك واراد عقوبتهم فاحتجوا بأنهم لم يعلموا أنهم رسل الملك فامر

أن تكون أذنان خيل الرسل وأعرافها مقطوعة لتكون علامة لمن يمرون به ليزيحوا عنهم في سيرهم فليل يري دأى قطع فمرب فليل خيل البريد . وقال ياقوت انه روي هذا عن بعض من لا يوثق به ولكننه صحيح في القياس والنظر معاوية اول من اتخذ الحرس ولم يكن شيء من ذلك في عهد الخلفاء

الراشدين وإنما اتخذها بعد أن كان ما كان من ارادة الخارجي قتله

اتخذ معاوية ديوان الخاتم وكان سبب ذلك أنه أمر لعمر بن الزبير بمئة الف درهم وكتب له بذلك الى زياد ففتح عمرو الكتاب وصير المئة مئتين فلما رفع زياد حسابه أنكرها معاوية وطلبها من عمرو وجبسه فقضاها عنه أخوه عبد الله بن الزبير فأحدث معاوية عند ذلك ديوان الخاتم وحزم الكتب وكانت قبل لا تحزم

كان كاتب معاوية سرجون الرومي لان ديوان الشام كان لمهده بالرومية ويظهر انه كان كاتب الخراج وكان سرجون صاحب أمره ومدبره ومشيره وكان حاجبه سعد مولاه وقاضيه فضالة بن عبيد الانصاري ثم أبو ادريس الخولاني ومعنى ذلك أنه كان قاضي الشام وكان لكل ولاية قاض خاص

بيت معاوية

تزوج (١) ميسون بنت بحدل وهي أم يزيد ابنه (٢) فاخنة بنت قرظلة النوفلي فولدت له عبد الرحمن وعبد الله ومات عبد الرحمن صغيرا (٣) نائلة بنت عمارة الكلابية وهذه طلقها (٤) كتوة بنت قرظلة أخت

فاختة غزا قبرس فماتت معه هناك

وفاة معاوية

مرض معاوية بدمشق في جمادي الثانية وكان يزيد ابنه خائباً فأحضر معاوية الضحاك بن قيس ومسلم بن عقبة المري وأدي اليهما وصيته الى يزيد وكان فيها (يا بني اني قد كفيتك الشد والترحال ووطأت لك الامور وذلت لك الاعداء وأخضعت لك رقاب العرب وجمعت لك مالم يجمعه أحد فانظر أهل الحجاز فانهم أصلك وأكرم من قدم عليك منهم وتماهد من غاب وانظر أهل العراق فان سألوك أن تعزل عنهم كل يوم عاملاً فافعل فان عزل عامل أسهل من أن يشهر عليك مئة ألف سيف وانظر أهل الشام فليكونو بطانتك وعييتك فان رابك من عدوك شيء فانتصر بهم فاذا أصبتهم فاردد أهل الشام الى بلادهم فانهم ان اقاموا بغير بلادهم تغيرت أخلاقهم واني لست أخاف أن ينارذك في هذا الامر الا اربعة من قریش الحسين بن علي وعبيد الله بن عمر وعبيد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن ابي بكر فأما ابن عمر فانه رجل قد وقذته العبادة فاذا لم يبق أحد غيره بايعك وأما الحسين بن علي فهو رجل خفيف ولن يتركه أهل العراق حتى يخرجوه فان خرج وظفرت به فاصفح عنه فان له رجلاً ماسية وحققاً عظيماً وقراة من محمد صلى الله عليه وسلم . وأما ابن ابي بكر فان رأى اصحابه صنعوا شيئاً صنع مثله ليس له همة الا في النساء واللهو وأما الذي يجثم لك جثوم الاسد ويراوذك مراوغة الثعلب فذاك ابن الزبير فان هو فعلها فظفرت به فقطعه ارباً ارباً واحقن دماء قومك ما استطعت)

ثم مات بدمشق لهلال رجب سنة ٦٠ هـ (٧ ابريل سنة ٦٨٠ م) فخرج الضحاك بن قيس حتى صعد المنبر وأكفان معاوية على يديه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : ان معاوية كان عود العرب وحسد العرب وجد العرب قطع الله به الفتنة وملسكه على العباد وفتح به البلاد ألا انه قد مات وهذه أكفانه ونحن مدرجوه فيها ومدخلوه قبره ومخلون بينه وبين عمله ثم هو الهرج الى يوم القيامة فمن كان يريد يشهده فعند الاولى وصلى عليه الضحاك وكان قد أرسل لخبر الى يزيد فقال في ذلك يزيد

جاء البريد بقرطاس مخب به	فأوجس القلب من قرطاسه فزعا
قلنا لك الويل ماذا في كتابكم	قال الخليفة أمسي مثبتا وجما
ثم انبعثنا الى خوص مزمنة	نرمى الفجاج بها لانا تلى سرعا
فمادت الارض أو كادت تميد بنا	كان أغبر من أركانها انقطعا
من لم تزل نفسه توفي على شرف	توشك مقاليد تلك النفس أن تقعا
لما انتهينا وباب الدار منصفى	وصوت رملة ريع القلب فانصدعا
ثم ارعوى القلب شيئا بعد طيرته	والنفس تعلم أن قد أثبتت جزعا
أودي ابن هندو أودي المجدي تبعه	كانا جميعا فماتا قاطنين معا
أغر أبلج يستسقي الغمام به	لوقارع الناس عن احسابهم قرعا

ثم أقبل يزيد وقد دفن معاوية فأثى قبره نصلى عليه

المحاضرة الرابعة والثلاثون

يزيد الاول — كيفية انتخابه — مقتل الحسين — وقعة الحيرة — حصار مكة — الفتوح في عهد يزيد — ييته ووفاته

٢ ﴿يزيد الاول﴾

هو يزيد بن معاوية بن أبي سفيان وأمه ميسمون بنت بحدل ولد سنة ٢٦ هـ وأبوه أمير الشام لثمان بن عфан قترى فى حجر الامارة ولما شب فى خلافة أبيه كان يرشحه للامارة فولاه الحج مرتين وولاه الصائفة وأرسله فى الجيش الذى غزا القسطنطينية لأول مرة وكان منمرما بالصيد وهذا مما أخذ عليه الناس اذذاك لانهم لم يكونوا فارقوا البداوة العربية والجد الاسلامى بعد

كيفية انتخابه

عهد اليه ابوه بالخلافة من بعده بعد ان استشار فى ذلك وفود الامصار فبايعه الناس ولم يتخلف عن البيعة الا نفر قليل من أهل المدينة وهم الحسين ابن علي وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر : فلما توفى معاوية لم يكن ليزيد هم الا مبايعتهم له فأرسل الى الوليد بن عتبة بن أبي سفيان أمير المدينة يقول له (أما بمد فخذ حسيناً وعبد الله بن عمرو بن الزبير أخذا ليس فيه رخصة حتى يبايعوا والسلام) فلما أتاه نعي معاوية فظم به وكبر عليه فأرسل الى هؤلاء النفر فأما حسين فجاءه فلما عرض عليه البيعة

واخبره بموت معاوية استرجع وترحم علي معاوية وقال أما البيعة فان مثلي لا يباع سرّاً ولا يجتزي بها مني سرا فاذا خرجت الى الناس ودعوتهم الى البيعة ودوتنا معهم كان الامر واحدا فقال له الوليد وكان يحب العافية انصرف فانصرف وأما ابن الزبير فترك المدينة وذهب إلى مكة وقال اني عائد بالبيت ولم يكن يصلي بصلاتهم ولا يفيض في الحج بافاضتهم وكان يقف هو وأصحابه ناحية وخرج من المدينة بعده الحسين بن علي وأخذ معه بنيه واخوته وبني أخيه الا محمد بن الحنفية فانه ابى الخروج معه ونصحه فلم يقبل نصحه

أما ابن عمر فانه قال اذا بايع الناس ايعت فتركوه وكانوا لا يتخوفونه ولما بايع الناس بايع هو وابن عباس
حادثه الحسين

جاء الحسين مكة فكان أهلها يختلفون اليه ويأتونه ومن بها من المعتزين وأهل الآفاق وابن الزبير قد لزم جانب الكعبة فهو قائم يصلي عندها دامة النهار ويطوف ويأتي الحسين فيمن يأتيه ولا يزال يشير إليه بالرأى وهو أثقل خلق الله على ابن الزبير لان اهل الحجاز لا يبايعونه مادام الحسين بالبلد : لما بلغ أهل الكوفة موت معاوية وبيعة يزيد أرجفوا بيزيد واجتمعت الشيعة في منزل كبيرهم سليمان بن صرد الخزاعي واتفقوا أن يكتبوا الى الحسين يستقدمونه ليبايعوه فكتبوا اليه نحواً من ١٥٠ صحيفة ولما اجتمعت الكتب عنده كتب اليهم (أما بعد فقد فهمت كل الذي اقتضصتم وقد بعثت اليكم بأخي وابن عمي وثقتي من أهل بيتي

مسلم بن عقيل وأمرته أن يكتب الى بحالكهم وأمرهم ورأيكم فان كتب
إلى انه قد اجتمع رأي ملثكم وذوى الحجب منكم على مثل ما قدمت به
رسلكم أقدم اليكم وشيكا ان شاء الله فلعمرى ما الامام الا العامل بالكتاب
والقائم بالقسط والدائن بدين الحق والسلام) ثم دنا الحسين مسلم بن
عقيل فسيره نحو الكوفة وأمره بتقوى الله وكتمان أمره والالطف فان
رأى الناس مجتمعين عجل اليه بذلك فسار مسلم نحو الكوفة وأميرها النعمان
ابن بشير الانصارى فأقبلت اليه الشيعة تختلف اليه : ولما بلغ ذلك النعمان
صعد المنبر وقال أما بعد فلا تسارعوا الى الفتنة والفرقة فان فيهما تهلك
الرجال وتسفك الدماء وتغصب الاموال وكان النعمان حليما ناسكا يحب
العافية . ثم قال انى لا أقاتل الا من يقاتلنى ولا أثب على من لا يثب على
ولا أنبه نائمكم ولا أتحرش بكم ولا آخذ بالقرف ولا الضنة ولا التهمة
ولكنكم ان أبديتم صفحتكم ونكثتم بيعتكم وخالفتم امامكم فوالله الذي
لا اله الا هو لا ضربنكم بسيفى ما ثبت قائمه بيدي ولو لم يكن لى منكم ناصر
ولا معين أما انى أرجو ان يكون من يعرف الحق منكم اكثر ممن يرديه
الباطل فقام اليه رجل من شيعة بنى أمية وقال له انه لا يصلح ما ترى الا الغشم
ان هذا الذي انت عليه رأى المستضعفين فقال أكون من المستضعفين فى
طاعة الله أحب الى من أن أكون من الازين فى معصية الله ونزل : فكتب
ذلك الرجل الى يزيد يخبره بقدوم مسلم بن عقيل ومبايعة الناس له ويقول ان كان
لك بالكوفة حاجة فابعث اليها رجلا قويا ينفذ أمرك ويعمل مثل عملك فى عدوك
فان النعمان رجل ضعيف أو يتضعف فعزل يزيد النعمان وولى على الكوفة عبيد

الله بن زياد أمير البصرة فجعله والي المصريين وأمره بطلب مسلم بن عقيل وقتله أو
 نفيه فقام ابن زياد الى الكوفة وخطب في أهلها فقال (أما بعد فإن أمير المؤمنين
 ولاني مصركم وتمرركم وفيثكم وامرني بانصاف مظلومكم وادعاء محرومكم
 وبالا حسان الى سامعكم ومطيعكم وبالشدّة على مريبكم وعاصيكم وأنا متبع فيكم
 امره ومنفذ فيكم عهدہ فانا لمحسنكم كلوالد البر ولمطيعكم كالاخ الشفيق
 وسيفي وسوطي على من ترك أمري وخالف عهدي فليبق امرؤ علي نفسه)
 ثم نزل فأخذ العرفاء والناس أخذاً شديداً وقال اكتبوا الى الغرباء ومن فيكم
 من طلبة أمير المؤمنين ومن فيكم من الحرورية وأهل الريب الذين دأبهم الخلاف
 والشقاق فمن كتبهم الى برىء ومن لم يكتب لنا احداً فليضمن لناني ما في
 عرافته ان لا يخالفنا فيهم مخالف ولا ينبغي علينا منهم باغ فمن لم يفعل برئت منه
 الذمة وحلال لنادمه وماله وأيما عريف وجد في عرافته من بنية أمير المؤمنين
 أحد لم يرفعه الينا صلب على باب داره وألقيت تلك العرافة من المطاء وسير الى
 موضع بعمان الزارة

سمع مسلم بمقال ابن زياد فاستجار بهاني بن عروة المرادي فاجارهم متكرها
 وصارت الشيعة مختلفا فيه هناك فعلم ابن زياد بمقره بدارهاني فاستقدمه هانثا فقدم
 عليه ولما دنا منه قال عبيد الله

أريد حياته ويريد قتلي عنذك من خليلك من مراد
 فقال هاني وما ذاك فقال يا هاني ما هذه الامور التي تربص في دارك
 لا أمير المؤمنين والمسلمين جئت بمسلم فأدخلته دارك وجمعت له السلاح والرجال
 وظننت أن ذلك يخفي لك وقد اراد هاني أن ينكر فلم يجد الى الانكار سبيلا

(٢٣٠)

فطلب منه ابن زياد أن يسلم اليه مسلماً فامتنع خوف السببة والعار فأمر ابن زياد به فضرب وحبسه بالقصر . ولما علم بذلك مسلم نادى في أصحابه بشعارهم يا منصور وكان قد بايعه ثمانية عشر ألفاً وحوله في الدور أربعة آلاف . فاجتمع اليه ناس كثير فعباهم وأقبل الى القصر فأحاط به وامتلا المسجد والسوق من الناس ولم يكن مع ابن زياد الا ثلاثون رجلاً من الشرط وعشرون رجلاً من الاشراف وأهل بيته ومواليه وأقبل أشراف الناس يأتونه فداء كثير بن شهاب الحارثي وأمره أن يخرج فيمن أطاعه من مذحج ويخذل الناس عن ابن عقيل ويخوفهم وأمر محمد بن الاشعث أن يخرج فيمن أطاعه من كندة فيرفع راية أمان لمن جاءه من الناس وأمر بمثل ذلك غيره من الاشراف وأبقى عنده بعضهم استئناساً بهم فخرج الذين أمروا بالخروج يخذلون الناس وأشرف الذين بالقصر على الناس فمنعوا أهل الطاعة وخوفوا أهل المعصية ولما رأى الناس ذلك شرعوا يتفرقون حتى لم يبق مع ابن عقيل في المسجد الا ثلاثون رجلاً فحار في أمره ابن يذهب واختفي فسلم ابن زياد بمكان اختفائه فأرسل اليه محمد بن الاشعث فجاءه فقال مسلم لابن الاشعث اني أراك تعجز عن امانني فهل تستطيع أن تبعث من عندك رسولا يخبر الحسين بحالي ويقول له عني ليرجم بأهل بيته ولا يفره أهل الكوفة فانهم اصحاب ابيه الذين كان يتمنى فراقتهم بالموت أو القتل ففعل ذلك ابن الاشعث : ولما جرى بمسلم الى ابن زياد قتله ثم قتل بعده هاني بن عروة المرادي أما أمر الحسين فانه لما عزم على السير الى الكوفة جاءه عمر بن

عبد الرحمن بن الحارث بن هشام فقال له بلغني انك تريد العراق واني مشفق عليك أن تأتي بلداً فيه عماله وأمرأؤه ومعهم بيوت الاموال وانما الناس عبيد الدرهم والدينار فلا آمن عليك أن يقاتلك من وعدك نصره ومن أنت أحب اليه ممن يقاتلك معه فجزاه الحسين خيراً . وجاءه ابن عباس فقال له قد أرجف الناس أنك تريد العراق فخبّرني ما أنت صانع . فقال قد أجمعت المسير في أحد يومى هذين فقال له ابن عباس أتيذك بالله من ذلك خبرني رحمك الله أتسير الى قوم قتلوا أميرهم وضبطوا بلادهم ونفوا عدوهم فان كانوا فعلوا ذلك فسر اليهم وان كانوا انما دعوك اليهم وأميرهم عليهم قاهر لهم وعماله تبجي بلادهم فاما دعوك الى الحرب ولا آمن عليك أن يفروك ويكذبوك ويخالفوك ويخذلوك ويستنفروا اليك فيكونوا أشد الناس عليك فقال الحسين فاني أستخير والله وأنظر ما يكون : ثم جاءه ابن عباس ثاني يوم فقال يا ابن عم اني أتصبر ولا أصبر اني أتخوف عليك في هذا الوجه الهلاك والاستئصال ان أهل العراق قوم غدر فلا تقربنهم أقم بهذا البلد فانك سيد أهل الحجاز فان كان أهل العراق يريدونك كما زعموا فاكتب اليهم فلينفوا عاملهم وعدوهم ثم اقدم عليهم فان أبيت إلا أن تخرج فسر الى اليمن فان بها حصوناً وشعاباً وهي أرض عريضة طويلة ولا يليك بها شيعة وأنت عن الناس في عزلة فتكتب الى الناس وترسل وتبث دعائك فاني أرجو أن ياتيك عند ذلك الذي تحب في عافية . فلم يسمع منه الحسين فقال له ابن عباس فان كنت سائراً فلا تسر بنسائك وصبيتك فاني لخائف أن تقتل كما قتل عثمان ونسأوة وولده ينظرون اليه فلم يفد كلامه شيئاً : ثم سار بأهله وأولاده

فقاله بالطريق الفرزدق الشاعر فسأله الحسين عن خبر الناس فقال له .
 قلوب الناس معك وسيوفهم مع بني أمية والقضاء ينزل من السماء والله
 يفعل ما يشاء : ثم جاءه كتاب من عبد الله بن جعفر يقسم عليه فيه بالله
 الا ما انصرف ومع كتابه كتاب من عمرو بن سعيد أمير المدينة فيه الا مان
 له ويسأله الرجوع فأبى وتم على وجهه فقال له عبد الله بن مطيع ولما علم
 بوجهه قال له أذكرك الله يا ابن رسول الله وحرمة الاسلام أن تنتهك أنشدك
 الله في حرمة قريش أنشدك الله في حرمة العرب قواله لئن طلبت ما في
 أيدي بني أمية ليقتلنك ولئن قتلوك لايهابون بعدك أحداً والله انها حرمة
 الاسلام وحرمة قريش وحرمة العرب فلا تفعل ولا تأت الكوفة ولا تعرض
 نفسك لبني أمية فأبى الا أن يمضي

ولما كان بالثعلبية جاءه مقتل مسلم بن عقيل فقال له بعض أصحابه ننشدك
 الله الا ما جئت من مكانك فانه ليس لك بالكوفة ناصر ولا شيعة بل نتخوف أن
 يكونوا عليك فوثب بنو عقيل وقالوا والله لا نبرح حتى ندرك نارنا ونذوق كما
 ذاق مسلم فسار حتى نزل بطن العقبة وهناك لقيه رجل من العرب فقال أنشدك الله
 الا ما انصرفت فوالله ما تهدم الا على الاسنة وخذ السيوف ان هؤلاء الذين بعثوا
 اليك لو كانوا كفوك مؤنة القتال ووطئوا لك الاشياء فقدمت عليهم لكان ذلك
 رأياً فاما على هذه الحال التي تذكر فلا أري أن تفعل فأبى أن يرجع : ولما ترك
 شراف قابله خيل عدتها ألف فارس مع الحر بن يزيد التميمي فقال لهم الحسين أيها
 الناس انها معذرة الى الله واليكم اني لم آتكم حتى أتتني كتبكم ورسلكم أن أقدم
 علينا فليس لنا امام لعل الله أن يجعلنا بك علي الهدى فقد جئتكم فان تعطوني

ما أطمئن اليه من عهدكم أقدم . مصركم وان لم تفعلوا أو كنتم لمقدمي كارهين
انصرفت عنكم الى المكان الذي أقبلت منه فلم يجيؤه بشيء في ذلك ثم
قال له الحرانا أمرنا اذا نحن لقيناك أن لا تفارقك حتي تقدمك الكوفة على
عبيد الله بن زياد فقال الحسين الموت أدنى اليك من ذلك ثم أمر أصحابه
فركبوا لينصرفوا فمنعهم الحر من ذلك فقال الحسين ثكلتك أمك ما تريد
فقال له أما والله لو خيرك من الحرب يقولها ما تركت ذكر أمه بالشكل كأننا
من كان ولكني والله مالي الى ذكر أمك من سبيل الا بأحسن ما يقدر
عليه . ثم صار الحريرا قبه حتى لا يتمكن من الانصراف الى المدينة
فسار الحسين يتجه الى الشمال حتي وصل نينوى وحينذاك قدم عليهم
جيش سيره ابن زياد لقتال الحسين يهده عمر بن سعد بن أبي وقاص فلما
قدم أرسل الى الحسين رسولا يسأله ما الذي جاء به فقال الحسين كتب الى أهل
مصركم هذا أن أقدم عليهم فأما اذ كرهوني فاني أنصرف عنهم فكتب
عمر الى ابن زياد بذلك فقال :

الآن اذ عرضت مخالفنا به يرجو النجاة ولالة حين مناص
ثم كتب الى ابن سعد يأمره أن يرض على الحسين بعة يزيد فاذا قبل ذلك
رأينا رأينا وأن يمنعهم هو ومن معه الماء : وكان الحسين يعرض عليهم أن يدعوه يرجع
الى المكان الذي خرج منه وليس بصحيح انه عرض عليهم أن يضع يده في يدي زيد
فلم يقبله امنه تلك المودة ورضوا عليه أن ينزل على حكيم بن زياد ومثل هذا الطلب
لا يقبله الحسين مهما يكن . من الامر فلم يكن الا القتال وفي عاشر المحرم سنة ٦١
انتشب القتال بين هاتين الفتيين جيش العراق الذي لم يكن فيه أحد من أهل

الشام وهذه الفئة القليلة الحسين ومن معه وهم لا يزيدون عن ٨٠ رجلا ولم يكن الا قليل وقت حتي قتل الحسين وسائر من معه وعدة من قتل اثنان وسبعون رجلا وقتل من أصحاب ابن سعد ٨٨ رجلا ثم أخذوا رأس الحسين وحملوها الى ابن زياد ومعها بنات الحسين واخواته ومعهم علي بن الحسين صغير مريض فامر ابن زياد بحمل الرأس ومعها النساء والصبيان الى يزيد فلما بلغوا الشام وأخبر يزيد بالخبر دمعت عيناه وقال كنت أرضي من طاعتكم بدون قتل الحسين لعن الله بن سمية أما والله لو أني صاحبه لعفوت عنه ثم قال لمن عنده أتدرون من أين أتى هذا قال أبي خير من أبيه وأمي خير من أمه وجدى رسول الله خير من جده وأنا خير منه وأحق بهذا الامر فأما قوله أبوه خير من أبي فقد تحتاج أبي وأبوه الى الله وعلم الناس أيهما حكم له وأما قوله أمه خير من أمي فلم يري فاطمة بنت رسول الله خير من أمي وأما قوله جده خير من جدى فلم يري ما أحد يؤمن بالله واليوم الآخر يرى لرسول الله فينا عدلا ولا ندأوا كنهه انما أتى من قبل فقهه ولم يقرأ (قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء) ثم أمر بالنساء فادخلن دور يزيد فلم تبق امرأة من آل يزيد الا اتتهن وأقمن المأتم وسألهن عما أخذ منهن فأضعفنه لهن ثم قرب اليه علي بن الحسين وجهن بهن بعد ذلك الى المدينة وقال لعلي يا بني كاتبنى بكل حاجة تكون لك

بذلك الشكل الحزن انتهت هذه الحادثة التي اثارها عدم الالة والتبصر في العواقب فان الحسين بن علي رمى بقول مشيريه جميعاً عرض الحائط وظن بأهل العراق خيراً وأهم أصحاب أبيه فقد كان أبوه خيراً منه

مواكثر عند الناس وجاهة وكانت له بيعة في الاعناق ومع كل ذلك لم ينفعوه
 حتى تمني في آخر حياته الخلاص منهم : أما الحسين فلم تكن له بيعة وكان
 في العراق عماله وأمرأؤه فاغتر ببعض كتب كتبها دعاة الفتن ومحبو الشر
 فحمل أهله وأولاده وسار الى قوم ليس لهم عهد وانظروا كيف تألف الجيش
 الذي حاربه هل كان الا من أهل العراق وحدهم الذين يرفعون عقيرتهم
 بانهم شيعة علي بن أبي طالب وعلى الجملة فان الحسين اخطأ خطأ عظيما في خروجه
 هذا الذي جر على الامة وبال الفرقة والاختلاف وزعزع عماد الفتها الى يومنا
 هذا وقد اكثر الناس من الكتابة في هذه الحادثة لا يريدون بذلك الا ان
 تستعل النيران في القلوب فيشتد تباعدها : غاية ما في الامر ان الرجل طلب
 أمراً لم يتبها له ولم يعد له عدته فحيل بينه وبين ما يشتهي وقتل دونه وقبل
 ذلك قتل أبوه فلم يجد من أقلام الكتاتين من يشع أمر قتله ويزيد به نار
 العداوة تأجيجا وقد ذهب الجميع الى ردهم بحاسبهم على ما فعلوا : والتاريخ
 يأخذ من ذلك عبرة وهي انه لا ينبغي لمن يريد عظام الامور أن يسير اليها
 بغير عدتها الطبيعية فلا يرفع سيفه الا اذا كان معه من القوة ما يكفل له النجاح
 أو يقرب من ذلك كما انه لا بد أن تكون هناك اسباب حقيقية لمصلحة الامة بان
 يكون هناك جور طاهر لا يحتمل وفسف شديد ينوء الناس بحمل أما الحسين
 فانه خالف علي يزيد وقد بايعه الناس ولم يظهر منه ذلك الجور ولا العسف عند
 اظهار هذا الخلاف

وقعة الحرة

لم تقف مصائب المسلمين عند قتل الحسين ومن معه بل حدثت حادثة هي في نظارنا أدهى واشنع وهي انتهاك حرمة مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ومهبط الوحي الالهي وهي التي حرّمها عليه السلام كما حرّم إبراهيم مكة فصارت هاتان المدينتان مقدستين لا يحل فيها القتال فانتهاك حرمة احدهما من الشرور العظيمة والمصائب الكبرى فكيف بانتهاك حرمة تهما معا في سنة واحدة

أما احادثة المدينة فانه في عهد امارة عثمان بن محمد أبي سفيان عليها أوفد الى يزيد بدمشق وفداً من أشرف أهل المدينة فيهم عبد الله بن حنظلة الانصاري وعبد الله بن أبي عمرو بن حفص بن المغيرة المخزومي والمنذر بن الزير وغيرهم ولما قدموا على يزيد أكرمهم وأحسن اليهم وأعظم جوائزهم فأعطى عبد الله بن حنظلة وكان شريفاً فاضلاً عابداً سيداً مئة ألف درهم وكان معه ثمانية بنين فأعطى كل ولد عشرة آلاف وأعطى المنذر ابن الزير مئة ألف فلما قدموا الى المدينة قاموا في أهلها فأظهروا شتم يزيد وعيبه وأعلنوا أنهم خلعوه فتابعهم الناس وولوا أمرهم عبد الله بن حنظلة ولما علم بذلك يزيد أرسل النعمان بن بشير الانصاري الى المدينة لينصح قومه فجاءهم وأمرهم بلزومهم الطاعة وخوفهم الفتنة وقال لهم انكم لا طاقة لكم باهل الشام فلم تجد نصيحته نفعاً فماد عنهم وحينذاك قام هؤلاء الثائرون وحصروا من في المدينة من بني أمية في دار مروان فكتبوا الى يزيد يستغيثون به فلما جاءه كتابهم قال متمثلاً

لقد بدلوا الحكم الذى فى سجيتى فبدلت قومي غلظة بليان
وحينذاك جهز جيشاً أمر عليه مسلم بن عقبة المري وكان عدة من
تجهز معه اثنا عشر ألفاً وقال له يزيد ادع القوم ثلاثاً فان اجابوك والا
فقاتلهم فان ظهرت عليهم فأبجها ثلاثاً فكل ما فيها من مال أو دابة أو
سلاح أو طعام فهو للجند فاذا مضت الثلاث فاكفف عن الناس وانظر
على بن الحسين فاكفف عنه واستوص به خيراً فانه لم يدخل مع الناس
وانه قد أتاني كتابه . سار مسلم بالجيش فلما بلغ أهل المدينة الخبر شددوا
فى حصار بني أمية ولم يفكوا عنهم الحصار الا بعد أن عاهدوهم ان
لا ييغوهم غائلة ولا يدلوا لهم على عورة ولا يظاهروا عليهم عدواً وبذلك
جعلوهم يخرجون من المدينة فخرجوا وقابلوا مسلماً بوادى القرى فدعا
بعمرو بن عثمان وقال له ما وراءك فقال لا استطيع وقد أخذت علينا اليهود
والموآثيق أن لا ندل على عورة ولا نظاهر عدواً فانتهره وقال والله
لولا انك ابن عثمان لضربت عنقك ثم دخل عليه عبد الملك بن مروان
فقال هات ما عندك فقال نعم أرى أن تسير بمن معك فاذا انتهيت الى
ذي نخلة ترلت فاستظل الناس فى ظله وأكلوا من تمره فاذا أصبحت
من الغد مضيت وتركت المدينة ذات اليسار ثم درت بها حتى تأنيهم من
قبل الحرة مشرقاً ثم تستقبل القوم فاذا استقبلتهم وقد أشرقت عليهم
الشمس طلعت بين أكتاف أصحابك فلا تؤذيهم ويصيبهم أذاها ويرون
من اثتلاق بيضكم وأسنة رماحكم وسيوفكم ودروعكم مالا ترونه أنتم ما
داموا مغربين ثم قاتلهم واستعن بالله عليهم . ثم دخل عليه مروان فقال

ايه فقال مروان أليس قد دخل عليك عبد الملك قال بلى وأى رجل عبد الملك قلما
كلمت من رجال قریش رجالا شبيها به قال مروان اذا لقيت عبد الملك فقد لقيتني
ثم سار مسلم حسب وصية عبد الملك فلما ورد المدينة ددا أهلها وقال
ان أمير المؤمنين يزعم انكم الاصل وانى اكره اراقة دماءكم وانى أو جلكم
ثلاثا فمن ارعوى وراجع الحق قبلنا منه وانصرفت عنكم وسرت الى هذا
المحل الذى بمكة وان ايتم كنا قد أعذرنا اليكم فلم يبالوا وحاربوا وكان
القتال بين الفريقين شديدا جدا ولكن انتهى بهزيمة أهل المدينة بعد أن
قتلت ساداتهم وأباح مسلم المدينة ثلاثا يقتلون الناس ويأخذون المتاع
والاموال وبمد ذلك دعا مسلم الناس للبيعة ليزيد على انهم خول له يحكم في دمائهم
وأموالهم وأهلهم فمن امتنع عن ذلك قتله ثم أتى بعلی بن الحسين ذاك يومه لوصية
يزيد ولم يلزمه بالبيعة وكانت هذه الواقعة لليلتين بقيتا من ذي الحجة سنة ٦٣
وأن الانسان ليعجب من هذا التهور الغريب والمظهر الذى ظهر به
أهل المدينة في قيامهم وحدهم بخلع خليفة في امكانه أن يجرده عليهم من
الجيوش مالا يمكنهم أن يقفوا في وجهه ولا يدري ما الذى كانوا يريدونه
بعد خلع يزيد أيتكونون مستقلين عن بقية الامصار الاسلامية لهم خليفة
منهم بلى أمرهم أم حمل بقية الامة على الدخول في أمرهم وكيف يكون
هذا وهم منقطعون عن بقية الامصار ولم يكن معهم في هذا الامر أحد
من الجنود الاسلامية . انهم فتقوا فتقاوارتكبوا جرما فعليهم جزء عظيم من
تبعة انتهاك حرمة المدينة وكان من اللازم على يزيد وأمير الجيش أن
لا يسرف في معاملتهم بهذه المعاملة فانه كان من الممكن أن يأخذهم

بالحصار فان المدينة لا تحتل الحصار كثيراً لأنه ليس فيها ما يموت أهلها وماؤها ينجى من الخارج فلو قطعوه عنهم ما استمروا يومين كاملين وربما يقال أن أهل المدينة تعجلوا بحرب أهل الشام لأنه كان لهم خندق تركوه وراء ظهورهم وخرجوا محاربين : بعد الانتصار لم يكن هناك معنى لإباحة ذلك الحرم ثلاثاً احتراماً لرسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا وأنا نفوذ بالله من الرؤوس التي اذا هاجت لا تنظر في عاقبة ولا تفكر في مستقبل حصار مكة

وثلاثة الحوادث التي مظم تبعتها على عبد الله بن الزبير حصار مكة فان مسلماً لما انتهى من أمر المدينة سار قاصداً مكة لحرب ابن الزبير واستخلف على مكة روح بن زنباع الجذامي وقد أدركت المنية مسلماً بالشلل فاستخلف على الجند الحصين بن نمير كما أمر يزيد فصار بالجند الى مكة فقدمها لاربع بقين من المحرم سنة ٦٤ وقد بايع أهلها وأهل الحجاز لعبد الله بن الزبير وقدم عليه نجدة بن عامر الحنفي الخارجي لمع البيت : فخرج ابن الزبير للقاء أهل الشام فحاربهم حرباً أنكشف فيها أصحابه فماد راجعاً الى مكة فأقاموا عليه يقاتلونه بقية المحرم وصفر كله حتى اذا مضت ثلاثة أيام من ربيع الاول رءوا البلد بالمنجنيق ولم يزل الحصار حتى بلغهم نعي يزيد بن معاوية فوقف القتال : هذه ثلاث حوادث كبرى داخلية حصلت في أيام يزيد جعلت اسمه عنده عامة المسلمين مكروهاً حتى استحل بعضهم لعنه ونحن بعد أن بسطنا أمامكم هذه الحوادث ومن أثارها لا نرى من العدل أن يتحمل يزيد كل تبعاتها بل ان الذي يتحمله جزء

صغير منها لأنه خليفة بايعه معظم المسلمين وخالف عليه قليل منهم فليس من المعقول أن يتركهم وما يشتهون لتتفرق الكلمة وليس من السهل أن ينزل لهم عماتة ملده فهو فيما نرى مجبور على فعل ما فعل وأما الذي عليه تلك الشدة التي أجرتها جنوده بعد أن تم لهم النصر

الفتوح في عهد يزيد

استعمل يزيد عقبة بن نافع على أفريقية كما وعده معاوية بذلك فسار إليها ولما وصل إلى القيروان قبض على أبي المهاجر وأوثقه في الحديد وترك بالقيروان جنداً مع الذراري والأموال ثم سار في عسكر عظيم حتى دخل مدينة باغاية وقد اجتمع بها كثير من الروم فقاتلوه قتالاً شديداً وانهزموا منه ودخل المنهزمون المدينة فحاصروهم عقبة ثم كره المقام عليهم فسار إلى بلاد الزاب وهي بلاد واسعة فيها عدة مدن وقري كثيرة فقصده مدينتها العظمى واسمها أربة فامتنع من بها من الروم فقاتلتهم الجنود الإسلامية حتى هزمتهم ثم رحل إلى تاهرت : فلما بلغ الروم خبره استعانوا بالبربر فأجابوهم ونصروهم فاجتمعوا في جمع كبير واشتد الأمر على المسلمين لكثرة العدو ولكن العاقبة كانت لهم فانهزمت الروم والبربر وغنم المسلمون أموالهم وسلاحهم ثم سار حتى نزل على طنجة فلقية بطريق رومي اسمه يليان فأهدى له هدية حسنة ونزل على حكمه ثم سار نحو السوس الأدنى وهو مغرب طنجة فلقية البربر في جموع كثيرة فقاتلهم وهزمهم هزيمة منكرة ثم سار نحو السوس الأقصى وقد اجتمع له جمع عظيم من البربر فقاتلهم وهزمهم وسار بعد ذلك حتى بلغ بحر الظلمات فقال يارب لولا

هذا البحر لمضيت في البلاد مجاهداً في سبيلك ثم عاد فنفّر الروم والبربر من طريقه خوفاً منه ولما وصل إلى مدينة طبنة وبينها وبين القيروان ثمانية أيام أمر أصحابه أن يتقدموا فوجاً فوجاً ثقة منه بما نال من العدو وأنه لم يبق أحد يخشاه وسار إلى تهوذا لينظر إليها في تريسير فلما رآه الروم في قلة طمعوا فيه فأغلقوا باب الحصن وشتموه وقتلوه وهو يدعوهم إلى الإسلام فلم يقبلوا منه كان في الجيش كبير من البربر اسمه كسيلة قد أسلم في أيام أبي المهاجر فلما جاء عقبة وأساء إلى أبي المهاجر استخف بكسيلة وصار يحتقره فقال له أبو المهاجر أوثق الرجل فاني أخاف عليك منه فتهاون به عقبة فلما رأى الروم قلة من مع عقبة راسلوا كسيلة في أن ينضم إليهم فقبل وجمع أهله وبنى عمه وقصد عقبة فقال له أبو المهاجر عاجله قبل أن يقوى جمعه فزحف عقبة إلى كسيلة فتحي هذا عن طريقه ليكثر جمعه ولما كثر اتفق مع الروم فهاجموا المسلمين وقتلوه فقتل المسلمون جميعهم لم يفلت منهم أحد وقتل عقبة وأبو المهاجر وكان في القيروان قيس بن زهير البلوي خليفة عليها فأراد القتال فلم يطعه الجيش فاضطر إلى مبارحة القيروان والمسير إلى برقة والمقام بها أما كسيلة فانه جاء القيروان وامتلكها وآمن من فيها من أصحاب الانتفال والذراوى من المسلمين واستولى على أفريقية وسنين ما كان من أمره بعد

وفاة يزيد

لاربعة عشرة خلت من شهر ربيع الأول سنة ٦٤ (١٠ نوفمبر سنة ٦٨٣)
توفي يزيد بن معاوية بحوران من أرض الشام سنة تسع وثلاثون سنة ومدة

(٢٤٢)

خلافته ثلاث سنوات وثمانية أشهر وأربعة عشر يوماً

بيت يزيد

تزوج يزيد أم هاشم بنت عتبة بن ربيعة وكان له منها معاوية و خالد
ويكنى أبا هاشم وتزوج أم كلثوم بنت عبد الله بن عامر وكان له منها عبد الله
وكان أرمى العرب وكان له من الأولاد عبد الله الأصغر وعمر وأبو بكر وعتبة
وحرب وعبد الرحمن لامهات أولاد شتي

الحاضرة الخامسة والثلاثون

معاوية الثاني — عبد الله بن الزبير — حال الشام — مروان الاول — عبد
الملك — تغلبه على ابن الزبير وقتله — الحجاج بالعراق

٣ ﴿ معاوية الثاني — عبد الله بن الزبير ﴾

بعد موت يزيد كانت بيعتان احدهما بالشام لمعاوية بن يزيد والثانية
بمكة والحجاز لعبد الله بن الزبير

فأما معاوية فكانت سنة احدى وعشرين سنة اختاره أهل الشام للخلافة
بعد موت أبيه الا أنه بعد قليل من خلافته نادى الصلاة جامعة فاجتمع الناس
فحمد الله واثنى عليه ثم قال (أما بعد فاني قد ضمنت عن أمركم فابتغيت لكم مثل
عمر بن الخطاب حين استخلفه أبو بكر فلم أجده فابتغيت ستة مثل ستة الشوري
فلم أجدهم فأنتم أولى بأمركم فاختروا له من أحببتم) ثم دخل منزله وتغيب حتى
مات بعد ثلاثة أشهر من خلافته

هكذا فعل ذلك الشاب الضعيف حينما رأى عصا المسلمين منشقة ولم

(٢٤٣)

ير من نفسه القدرة على لم شعثها واصلاح أمرها

أما ابن الزبير فان يزيد مات وحضين بن نمير محاصر له وقد اشتد
الحصار عليه فجاءه الخبر قبل أن يصل لرئيس الجند المحاصر فناده عمام
تقاتلون وقد هلك طائفتكم فلم يصدقوه ولما وصل الخبر الحضين بعث الى
ابن الزبير يريد محادثته فجاءه فكان فيما قال له أنت أحق بهذا الامر هلم
فلنبايعك ثم اخرج معنا الى الشام فان هذا الجند الذين معي هم وجوه الشام
وفرسانه فوالله لا يختلف عليك اثنان وتؤمن الناس وتهدر هذه الدماء التي
كانت بيننا وبينك وبين أهل الحرم فقال له انا لأهدر الدماء والله
لا أرضي أن أقتل بكل رجل منهم عشرة منكم وأخذ الحضين يكلمه سرا
وهو يجهر ويقول والله لا أفعل فقال له الحضين قد كنت أظن لك رأيا وأنا
أكلمك سرا وتكلمني جهرا وأدعوك الى الخلافة وأنت لا تريد الا القتل
والهلكة ثم فارقه ورحل الى المدينة فالشام فوصلوها وقد بويع لمعاوية بن يزيد
هذا حال الشام لامام فيه والحجاز فيه ابن الزبير . أما العراق فان
عبيد الله بن زياد لما بلغه نعي يزيد نادى الصلاة جامعة فلما اجتمع الناس
قال يا أهل البصرة ان مهاجرنا اليكم وذارنا فيكم ومولدي فيكم ولقد وليتكم
وما يحصي ديوان مقاتلكم الا سبعين ألفا ولقد أحصى اليوم مئة ألف
وما كان يحصى ديوان عمالكم الا تسعين ألفا ولقد أحصى اليوم مئة
وأربعين ألفا وماتت لكم قاطبة من أخافه عليكم الا وهو في سجنكم
وان يزيد قد توفي وقد اختلف الناس بالشام وأتم اليوم أكثر الناس
عددا وأعرضهم فناء وأغني عن الناس وأوسعهم بلادا فاختروا لا تفسمكم رجلا

ترضونه لدينكم وجماعتكم فأنأول راض من رضيتموه فان اجتمع أهل الشام على رجل ترضونه لدينكم وجماعتكم دخلتم فيما دخل فيه المسلمون وان كرهتم ذلك كنتم على أحد يليكم حتى تقضوا حاجتكم فما بكم إلى أحد من أهل البلدان حاجة ولا يستغنى الناس عنكم : فقالوا له قد سمعنا مقاتلك وما نعلم أحداً أقوي عليها منك فهلم فلنبايعك فأبى عليهم ذلك ثلاثاً ثم بسط يده فبايعوه ثم انصرفوا عنه يمسحون أيديهم بالحيطان ويقولون أياظن ابن مرجانة أنانقاده في الجماعة والفرقة ثم أرسل إلى أهل الكوفة من يطلب بيعتهم له فأبوا عليه : ولما علم أهل البصرة بابائهم أظهروا النفرة منه وخلصوه ودعوا بعضهم إلى بيعة ابن الزبير فأجابه إلى ذلك أكثرهم وضعف أمر ابن زياد وخاف أهل البصرة على نفسه فاستجار بالحرث بن قيس الأزدي ثم بمسعود بن عمرو سيد الأزد فأجاراه حتى هرب إلى الشام : واختار أهل البصرة واليائهم عبد الله بن الحرث بن نوفل الملقب ببيبة فبايعوه وأقبلوا به إلى دار الأمارة وذلك أول جمادى الآخرة سنة ٦٤ وكذلك اختار أهل الكوفة لهم أميراً وكتب أهل المصر إلى ابن الزبير بالبيعة فأرسل لهم العمال من عنده : وكذلك دخل في بيعة ابن الزبير أهل مصر ولم يبق إلا الشام

حال الشام

كان رأس بني أمية بالشام مروان بن الحكم : وكان أمير دمشق الضحاک ابن قيس وكان هواه في ابن الزبير يدعوه وأمير حمص النعمان بن بشير وأمير قنسرین زفر بن الحارث الكلبي : وهو أهم كلهم في ابن الزبير يدعونه وكان أمير فلسطين حسان بن مالك الكلبي وهو اه في بني أمية وقد بايعه على الدعوة

لهم أهل الأردن على شرط أن يجنبهم هذين الغلامين عبد الله وخالد ابني يزيد لانهم قالوا اننا نكره أن يأتينا الناس بشيخ وأناتهم بعلام فكتب حسان الى الضحاك بن قيس كتابا يعظم فيه حق بني أمية وحسن بلائهم عنده ويذم ابن الزبير وانه خلع خليفتين وأمره أن يقرأ كتابه على الناس وكتب كتاباً آخر سلمه لرسوله وقال له ان قرأ الضحاك كتابي على الناس والافقم واقراءهم فلما ورد كتابه على الضحاك لم يقرأه على الناس فقام رسول حسان وقرأ عليهم الكتاب فقال الوليد بن دثبة بن أبي سفيان صدق حسان وقام غيره فقالوا مثل مقاله فأمر بهم حسان فحبسوا ولكن عشائهم أخرجوهم من الحبس وكان الذين في دمشق فر يقين قيس تدعو الى ابن الزبير وكاب تدعو الى بني أمية

خرج الضحاك بجموعه فنزل مرج راهط ودمشق بيده واجتمع بنو أمية وحسان بالجابية فتشاور وافيمن بلى أمر المسلمين واتفق رأيهم أخيراً على تولية مروان بن الحكم فبايعوه اثلاث خلون من ذي القعدة سنة ٦٤

ولما تمت بيعته سار بالناس من الجابية الى مرج راهط وبه الضحاك بن قيس ومن على رأيه واجتمع على مروان كلب وغسان والسكاسك والسكون وكانت بين الفريقين مواقع هائلة دثر بن ايلة في مرج راهط وكانت الغلبة أخيراً لمروان فقتل الضحاك وقتل من قيس مقتلة عظيمة لم يقتل مثلهافي موطن قط وكانت الواقعة في المحرم سنة ٦٥ : ولما بلغ خبر الهزيمة النعمان بن بشير خرج من حمص هارباً فبقيته جماعة من أهلها فقتلوه : ولما بلغت الهزيمة زفر بن الحارث بقنسر بن هرب فلحق بقنسر قيسياً وغلب عليه وتحصن بها واجتمعت اليه قيس وقد صحبه في هزيمة شابان من بني سليم فجاءت خيل مروان يطلبه فقال الشابان لزفر

أنج بنفسك فانا نحن نقتل فمضي وتركما فقتلا وقال زفر في ذلك

أرني سلاحي لا أبالك اني
أتاني عن مروان بالغيث أنه
ففي العيس منجاة وفي الارض مهرب
فلا تحسبوني ان تفيت غافلاً
فقد ينبت المرعي على دمن الثرى
أذهب كلب لم تلهها رماحنا
لعمري لقد أبقت وقعة راهط
أبعد ابن عمرو وابن معن تتابعا
فلم تر مني نبوة قبل هذه
عشية أعدو بالقران فلا أري
أذهب يوم واحد ان أسأته
فلا صلح حتى تنحط الخيل بالقنا
ألا ليت شعري هل تصيبن ذارتي
ولما تم الامر لم روان بالشام سار إلى مصر فافتتحها وبايعه أهلها ثم عاد
إلى دمشق فأقام بها

لم تطل مدة مروان في سلطانه فانه توفي في رمضان سنة ٦٥ وكان
قد عهد بالخلافة من بعده لابنيه عبد الملك ثم عبد العزيز

ترجمة مروان

هو مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية وأمه آمنه بنت علقمة بن صفوان الكنانى ولد فى السنة الثانية من الهجرة وأسلم أبوه الحكم يوم الفتح فنشأ مروان مسلماً وكان فى عهد عثمان بن عفان كاتباً له ومدبراً وولى لمعاوية المدينة جملة مرات ولما مات يزيد أوشك أن يذهب الى ابن الزبير فيبايعه لولا عبد الله بن زياد فانه أشار عليه ان يطلب الخلافة لنفسه لانه شيخ بنى أمية فاستشرف لها ووجد من ينصره على ذلك وتم له الامر بعد وقعة مرج راهط وكان أمره فى الشام وصر لم يتجاوزها حتى مات وولى أمر الامة من بعده ابنه

• (عبد الملك)

هو عبد الملك بن مروان بن الحكم ولد سنة ٢٦ هـ بالمدينة وأمه عائشة بنت معاوية بن الوليد بن المغيرة بن أبى العاص بن أمية ولما شب كان عاقلاً حازماً أديباً ليلاً وكان معدوداً من فقهاء المدينة يقرن بسعيد بن المسيب وعروة بن الزبير وقال الشعبي ماذا كرت أحداً إلا وجدت لى الفضل عليه إلا عبد الملك فانى ماذا كرت حديثاً إلا زادنى فيه ولا شعراً إلا زادنى فيه

ولى الخلافة بعد أبيه بعهد منه وكانت الحال فى البلاد الإسلامية على غاية الاضطراب فان الحجاز به عبد الله بن الزبير وقد بايعه أهله وبلاد العراق أهلها ثلاث فرق زيرية قد بايعوا ابن الزبير ودخلوا فى طاعته وشيعة تدعو الى آل البيت وخوارج وهم من عرفهم حديثهم قبل

فتلقي الامر بقلب ثابت وعزيمة صادقة حتى دان الناس له واجتمعت الكلمة عليه

كان مروان قبل وفاته قد جهز جيشاً يقوده عبيد الله بن زياد الى الجزيرة ومحاربة زفر بن الحارث بقرقيسيا واستعمله على كل ما يفتحه فاذا فرغ من الجزيرة توجه الى العراق وأخذه بن ابن الزبير فلما كان بالجزيرة بلغه موت مروان وأتاه كتاب عبيد الملك يستعمله على ما استعمله عليه أبوه ويحثه على المسير الى العراق فسار حتى اذا كان بعين الوردة قابلته جنود مقبلة من العراق لم يبعثهم أمير ولكنهم خرجوا للمطالبة بدم الحسين وسموا انفسهم التوايين وهم جماعة من الشيعة ندموا على خذلانهم الحسين ابن علي ولم يروا أنهم يخرجون من هذا الذنب الا اذا قاموا للمطالبة بثاره وقتلوا قتله وكان رئيسهم كبير الشيعة بالكوفة سليمان بن صرد الخزاعي فما زالوا يجمعون آلة الحرب ويدعون الناس سرّاً الى ماعز واعليه حتى تم لهم ما أرادوا سنة ٦٥ فخرجوا حتى اذا كانوا بعين الوردة قابلتهم جنود الشام فكان بين الفريقين موقعة عظيمة قتل فيها سليمان بن صرد رئيس الشيعة ومعظم من معه ونجا قليل منهم وكانوا نحواً من ستة آلاف ولما بلغ عبد الملك قتل سليمان قام خطيباً في أهل الشام فقال ان الله قد أهلك من رءوس أهل العراق ملة حقتنة ورأس ضلالة سليمان ابن صرد ألا وان السيوف قد تركت رأس المسيب خذاريق وقد قتل الله منهم رؤس عظيمين ضالين مضلين عبد الله بن سعد الازدي وعبد الله بن وال البكري ولم يبق بعدهم من عنده امتناع بعد مقتل هؤلاء ثار بالكوفة رجل الفتنة الكبير المختار بن أبي عبيد

الثقفي وكان وثوبه بها رابع عشر ربيع الاول سنة ٦٦ فأخرج عنها عامل ابن الزبير وهو عبد الله بن مطيع وكان وثوبه باسم محمد بن الحنفية زاعماً أنه هو الذي أرسله للاخذ بشار الحسين واقبه بالامام المهدي وكان هذا التلقيب أول ظهور كلمة المهدي في عالم الوجود كان يود أن يتبعه على رأيه إبراهيم ابن الاشر ل قوة بطشه وسمو شرفه فأرسل اليه المختار من يعرض عليه ذلك فقبل على شرط أن يكون هو ولي الامر فتأواله ان المختار قد جاء من قبل المهدي وهو المأمور بالقتال وقد أمرنا بطاعته فسكت ولما كان بعد ثلاث توجه اليه المختار بكتاب مفتعل من ابن الحنفية الى ابن الاشر يسأله فيه أن يكون مع المختار وعنوان الكتاب (هذا كتاب من محمد المهدي الى إبراهيم ابن مالك الاشر) فقال إبراهيم قد كتبت الى ابن الحنفية قبل اليوم وكتب الى فلم يكتب الى الا باسمه واسم ابيه قال المختار ذلك زمان وهذا زمان قال ابن الاشر فمن يعلم أن هذا كتابه فشهد جماعة ممن مع المختار أنه كتابه فتأخر إبراهيم عن صدر الفراش وأجاس المختار عليه وباعه واتفقوا على الوثوب في التاريخ الذي يتناه ولما حاز الموعد وثبوا وذلوا على الكوفة وكانوا ينادون بالثارات الحسين وكانت بيمة أهل الكوفة على كتاب الله وسنة رسوله والطلب بدماء أهل البيت وقاتل المحلين والدفع عن الضعفاء وقاتل من قاتلنا وسلم من سلمنا ثم بعث العمال الى أمصار الكوفة وكان من أهم الامور لديه انتخاب جيش يوجهه الى قتال ابن زياد الذي أرسله عبد الملك لافتح العراق وقبل ذلك تتبع قتلة الحسين بالكوفة فقتلهم قتلاً ذريعاً ومنهم عمر بن سعد وغيره ممن كان في ذلك البعث ثم دخلت في بيعته البصرة

وكان عمل المختار سببا لتغير ابن الزبير على محمد ابن الحنفية ومن معه من أهل بيته فدعاهم ليبياعوه فأبوا عليه فحبسهم فأرسل اليهم المختار من خلصهم من سجنه ثم خرج الى الشام نحو عبد الملك ولما وصل أيلة بداله فعاد الى مكة ونزل شعب أبي طالب فأمره ابن الزبير بالرحيل فذهب الى الطائف وأقام بها

ثم ان المختار تخير الجند لمحاربة ابن زياد وجعل قائدهم ابراهيم بن الاشر فصار حتى التقى بجنود الشام على نهر الخازر فكان بين الفريقين موقعة هائلة انتصر فيها ابن الاشر وقتل عبيد الله بن زياد بعد ان ذهب من جند الشام عدد وافر قتلا وغرقا في نهر الخازر ولما انتهت الموقعة أرسل ابن الاشر العمال الى البلاد الجزرية

بعد أن تم الامر للمختار ولى ابن الزبير اخاه مصعبا على البصرة فجاءها وصعد منبرها وقال للناس بعد أن حمد الله وأثنى عليه (طسم تلك آيات الكتاب المبين تلو اعليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون ان فرعون علا في الارض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم انه كان من المفسدين) — وأشار نحو الشام — (ونريد أن نمن علي الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم في الارض — وأشار نحو الحجاز — (ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون) وأشار نحو الكوفة — وقال يا أهل البصرة بلغني أنكم تلقبون أمراءكم وقد لقبت نفسي بالجزار

وجاءه وهو بالبصرة أشرف من أهل الكوفة وهم الذين ليسوا

راضين عن المختار وطلبوا منه أن يسير لتخليص الكوفة منه فجند مصعب
جنداً عظيماً قاده بنفسه ومعه أشراف المصريين وسار نحو الكوفة فبلغ خبره
المختار فانتدب له جنداً قايلاً مصعباً عند المذار وكان النصر لمصعب فانهزم
جند الكوفة فسار مصعب يتبعهم حتى وصل الكوفة وقاتل بها أصحاب المختار
حتى قهرهم وخرج المختار من القصر مستقلاً فقتل وقتل جميع من كانوا معه
بالقصر صبراً ومن غريب ما وقع أنهم قتلوا امرأة المختار عمرة بنت النعمان بن
بشير فقال في ذلك عمر بن أبي ربيعة

ان من أعجب العجائب عندي قتل بيضاء حرة عطبول
قتلت هكذا على غير جرم ان لله درها من قتيل
كتب القتل والقتال علينا وعلى الغايات جر الذبول

وبذلك عاد أمر العراق لابن الزبير وكان الأمر بالشام ومصر لعبد
الملك بن مروان فأراد أن يجمع كلمة الناس عليه فتجهز لقصد العراق ولما أراد
الخروج ودع زوجته عائكة بنت يزيد بن معاوية فبكت فقال قاتل الله كثير
عزة لكانه يشاهدنا حيث يقول

إذا ما أراد الغزولم يثن همه حصان دليها عقد دريزينها
نهته فلما لم تر النهي عاقه بكى وبكى مما عناها قطينها

ثم سار عبد الملك إلى العراق فبلغ خبره مصعباً فتجهز له وجعل على مقدمته
إبراهيم ابن الأشتر فتقابل الجيشان بمسكن وكان كثير من أهل العراق كاتبوا
عبد الملك وكاتبهم فكانت نياتهم فاسدة فلما حصلت الموقعة انهزم أهل العراق
وبقي مصعب مع قليل من المخلصين له فأنشد

وان الاولى بالطف من آل هاشم تأسوا فسنوا للكرام التأسيا
وما زال يقاتل حتى قتل ودخل عبد الملك الكوفة فوعد المحسن وتوعد
المسيء وولى على المصريين عمالا من قبله . قال بعض الشعراء فى مقتل مصعب
حمى ألقه أن يقبل الضيم مصعب فمات كريماً لم تدم خلائقه
ولو شاء أعطي الضيم من رام هضمه فعاش ملوماً فى الرجال طرائقه
ولكن مضي والبرق يبرق خاله يشاوره مرأً ومرأً يعانقه
فولى كريماً لم تنله مذمة ولم يك وذداً تطيبه نمارقه
بذلك لم يبق خارجاً عن سلطان عبد الملك الا الحجاز فوجه وهو بالكوفة
جنداً الى مكة يقوده الحجاج بن يوسف الثقفى لقتال عبد الله بن الزبير فسار
اليه فى جمادى الاولى سنة ٧٢ فلما وصل مكة حصر ابن الزبيرهاورماها بالجهانيق
ولم يزل الامر على ذلك حتى اشتدت الحال على أهل مكة . من الحصار ففرقوا عن
ابن الزبير وخرجوا بالاعمان الى الحجاج وكان ممن فارقه ابنه حمزة وخبيب
ولما رأى ابن الزبير أنه لم يبق معه الا قليل لا يغنون عنه شيئاً دخل دلى أمه أسماء
بنت أبي بكر فقال يا أمه خذني الناس حتى ولدي وأهلي ولم يبق معي الا اليسير
ومن ليس عنده أكثر من صبر ساءة والقوم يعطوننى ما أردت . من الدنيا فمأرايك
فقات أنت أعلم بنفسك ان كنت تعلم أنك على حق واليه تدعو فامض له فقد
قتل عليه أصحابك ولا تمكن . من رقبته يتلعب بها غلمان بنى أمية وان كنت
انما أردت الدنيا فبئس العبد أنت أهلكت نفسك ومن قتل معك وان قلت
كنت على حق فلما أدهن أصحابي ضعفت فهذا ليس فعل الاحرار
ولا أهل الدين كم خلودك فى الدنيا القتل أحسن . فقال

ياأماه أخاف ان قتلي أهل الشام أن يمثلوا بي ويصلبوني : قالت يا بني أن
 الشاة لاتألم بالسليخ فامض على بصيرتك واستعن بالله فقبل رأسها وقال
 هذا رأيي والذي خرجت به دأباً الى يومي هذا مار كنت الى الدنيا ولا
 أحيت الحياة فيها وما دعاني الى الخروج الا الغضب لله وأن تستحل حرما ته
 ولكني أحيت أن اعلم رأيك فقد زدتنى بصيرة فانظري ياأماه فاني مقتول
 يومي هذا فلا يشتد حزنك وسلى الامر الى الله فان ابنك لم يتعهد ايثار منكر
 ولا عملاً بفاحشة ولم يجر في حكم الله ولم يغدر في أمان ولم يتعهد ظلم مسلم
 أو معاهد ولم يبلغني ظلم عن عمالي فرضيت به بل أنكرته ولم يكن شيء
 آثر عندي من رضائي اللهم لا أقول هذا تركية لنفسي ولكني أقوله تعزية
 لامي حتي تسلو عني فقالت أمه لا رجوا أن يكون عزائي فيك جميلاً ان
 تقدمتنى احتسبتك وان ظفرت سررت بظفرك اخرج حتي أنظر الي
 ما يصير اليه أمرك فقال جزاك الله خيراً فلا تدعي الدعاء لي قالت لا أدعه لك
 أبداً فمن قتل على باطل فقد قتلت على حق ثم خرج فقاتل حتي قتل وكانت
 سنه ثلاثاً وسبعين سنة وبعد قتله صلبت جثته ثم أنزلت بأمر من عبد الملك
 مكث ابن الزبير خليفة بالحجاز تسع سنين لانه بويع له سنة ٦٤ وبقتل
 ابن الزبير صفا الامر لعبد الملك في جميع الامصار الاسلامية واجتمعت
 عليه الكلمة وبقي الحجاج واليأ علي مكة والمدينة حتي سنة ٧٥ وفيها عزله
 عبد الملك عنهما وولاه العراقيين فسار الي الكوفة في اثني عشر راكبا علي
 النجائب حتي دخلها فبدأ بالمسجد فصعد المنبر وهو متلثم بعمامة خزجراء
 فاجمع اليه الناس وهو ساكت قد أطال السكوت حتي أراد بعضهم أن

(٢٥٤)

يحصبه ثم كسف اللثام عن وجهه وقال

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا متى أضع العمامة تعرفوني
يا أهل الكوفة اني لارى رموساً قد أينعت وحان قطافها واني لصاحبها
وكانني أنظر الى الدماء بين العمام واللحي ثم قال

هذا أو ان الشد فاشتدي زيم (١) قد لقمها الليل بسواق حطم (٢)
ليس براعي لابل ولا غنم ولا بجزار على ظهر وضم (٣)
ثم قال

قد لقمها الليل بمصلي (٤) أروع (٥) خراج من الدوى (٦)
مهاجر ليس بأعرابي

وقال

قد شمرت عن ساقها فشدوا وجدت الحرب بكم فجدوا
والقوس فيها وترد عرد (٧) مثل ذراع البكر أو أشد
لا بد مما ليس منه بد

اني والله يا أهل العراق ما يقع لي بالشنان (٨) ولا يغمز جاني
كتغمازالتين ولقد فررت عن ذكاء (٩) وقتشت عن تجربه وان أمير
المؤمنين أطال الله بقاءه شر كنانته بين يديه فعجم (١٠) عيدها فوجدني

(١) يعني فرسا أو ناقة (٢) الحطم الذي لا يبقى من السير شيئا (٣) الوضم
كل ما قطع عليه اللحم (٤) الشديدا (٥) ذكى (٦) الصجراء الواسعة
التي تسرع بها دوا بالليل ويريد بها الغماء الشديدة (٧) شديد (٨) واحدها
شن وهو الجلد اليابس فاذا ضرب به نفرت الابل فضرب ذلك مثلا لنفسه (٩) الذكاء
حدة القلب (١٠) مضطربها لينظر ايها اصلب

أمرها عوداً وأصلبها مكسراً فما كتم بي لانكم ظالماً أو ضمتهم (١) في الفتنة واضطجعتهم في مراقد الضلال والله لا حزم منكم حزم السلة ولا ضرب منكم ضرب غرائب الابل فانكم لكأهل قرية (كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون) واني والله ما أقول الا وفيت ولا أتم الا أمضيت ولا أخلق الا فريت واذ أمير المؤمنين أمرني باعطائكم أعطياتكم وأن أوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب بن أبي صفرة واني أقسم بالله لا أجد رجلاً تخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام الا ضربت عنقه : يا غلام اقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين فقرأ : بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عبد الملك أمير المؤمنين الي من بالكوفة من المسلمين سلام عليكم فلم يقل أحد شيئاً فقال الحجاج اكفف يا غلام ثم أقبل علي الناس فقال أسلم عليكم أمير المؤمنين فلم تردوا عليه شيئاً هذا أدب بن نهية (٢) أما والله لاؤدبنكم غير هذا الألب أو لتستقيمن اقرأ يا غلام كتاب أمير المؤمنين فلما بلغ الي قوله سلام عليكم لم يبق أحد في المسجد الا قال على أمير المؤمنين السلام . ثم نزل فوضع للناس أعطياتهم فجعلوا يأخذون حتي أتاه شيخ يرعش كبراً فقال أيها الأمير اني من الضعف على ما ترى ولى ابن هو أقوى على الاسفار مني فتقبله بدلا عنى فقال الحجاج نفعل أيها الشيخ فلما ولى قال قائل أتدري من هذا أيها الأمير قال لا قال هذا عمير بن ضبابي البرجمي الذي يقول أبوه :

(١) الا يضاع ضرب من السير (٢) رجل كان على الشرطة بالبصرة

همت ولم أفعل وكدت وليتني تركت على عثمان تبسكى حلأله
ودخل هذا الشيخ على عثمان مقتولا فكسر ضلعين من أضلاعه فقال ردوه فلما
رد قال أيها الشيخ هلا بعثت الى أمير المؤمنين عثمان بدلا يوم الدار ان في قتلك أيها
الشيخ صلاحا للمسلمين يا حرسى اضربن عنقه فجعل الرجل يضيق عليه أمره
فيرتحل ويأمر وليه أن يلحقه بزاده فتى ذلك يقول عبدالله بن الزبير الاسدي

تجهز فاما أن تزور ابن ضابي عميرا واما أن تزور المهلبا
هما خطتا خسف نجاؤك منهما ركوبك حولي امن الثالج أشبا
فاضحى ولو كانت خراسان دونه رآها مكان السوق أو هي أقربا

من هذه الخطبة وما تلاها تبيين خطة الحجاج التي أراد أن يسوس بها
أهل العراق وهي خطة العسف والجور التي قدمنا أنها لا تصاح أمة اصلاحا
حقيقيا أبداً وانما تضع على الرجل غطاء لا يلبث البخار أن يقتلعه ويطير به
وتبين حال أهل العراق وسكونهم الى هذه الذلة يجيئهم الحجاج في بضعة
عشر راكبا وفيهم الاشراف والرؤساء فيخطبهم هذه الخطبة وبتوعدهم
بالمصائب وهم ساكتون لا يرد أحد منهم عليه قولا ويوبخهم علي ترك السلام
على أمير المؤمنين فيستكينون ويخضعون وهم هم الذين فتحوا أبواب الشرور
ومع هذا فيظهر مما سنقصه عليكم أن هذا الخضوع وقتي

وبعد ذلك ذهب الى البصرة فخطب فيها خطبة تشابه خطبته
بالكوفة فاتى برجل يشكرى فقال أيها الامير ان بي فتقا وقد رآه بشر بن
مروان فعذرنى وهذا عطائي مردود في بيت المال فلم يقبل منه وقتله ففرع
لذلك أهل البصرة فخرجوا حتى تداركوا على العارض بقنطرة را مرمز وخرج

الحجاج حتي نزل رستقباذ في أول شعبان سنة ٧٥ ومعه وجوه أهل البصرة وكان بينه وبين المهلب ١٨ فرسخا فقام في الناس فقال ان الزيادة التي زادكم ابن الزبير في أعطياتكم لست أجيزها فقام اليه عبد الله بن الجارود والعبدى وقال انها ليست بزيادة ابن الزبير ولكنها زيادة أمير المؤمنين عبد الملك اثبتنا لنا فكذبه وتوعده فخرج عليه ابن الجارود وتابعه وجوه الناس فقاتله الحجاج حتي قتله وقتل جماعة من أصحابه وبعث برعوسهم الى المهلب وهو يقاتل الخوارج وانصرف الى البصرة

في سنة ٧٩ ولى الحجاج عبيد الله بن أبي بكره سجستان فغزار تبديل وقد كان مصالحا وقد كانت العرب قبل ذلك تأخذ منه خراجا وريما امتنع فلم يفعل فبعث الحجاج الى ابن أبي بكره يأمره بنزوه فتوغلوا في بلاده فأصيبوا وهلك عظيمهم ونجا أقلهم فرأى الحجاج أن يجهز اليهم جندا كثيرا فجهز عشرين ألفا من البصرة ومثلهم من الكوفة وجند في ذلك وشمر وأعطى الناس أعطياتهم كملا وأخذهم بالخيول والروائع والسلاح الكامل واستعرض الناس ولا يري رجلا تذكر منه شجاعة الا أحسن معونته ولما استتب أمر دينك الجندين ولى عليهم عبد الرحمن بن الاشعث فسار حتى قدم سجستان فصعد منبرها وقال أيها الناس ان الامير الحجاج ولا ني ثركم وأمرني بجهاد عدوكم الذي استباح بلادكم وأباد أخياركم فأياكم أن يتخلف منكم رجل فيحل بنفسه العقوبة اخرجوا الى معسكركم فمعسكروا به مع الناس فمعسكر الناس في معسكرهم ووضعت لهم الاسواق وأخذ الناس بالجهاز والهيئة لآلة الحرب ثم سار حتي دخل أول بلاد رتبيل وصار كلما حوى بلد آبت اليه عاملا وبعث معه أعوانا ووضع البرد

فيما بين كل بلد وبلد وجعل الارصاد على العقاب والشعاب ووضع المسالحي بكل مكان مخوف حتي اذا حاز من أرضه أرضاً عظيمة وملاً يديه من الغنائم حبس الناس عن الوجود في أرض رتبيل وقال نكتفي بما أصبناه العام من بلادهم حتي نجيبها ونعرفها ويحتريء المسلمون على طرقها ثم تتعاطى في العام المقبل ما وراءها ثم لم نزل ننتقصهم في كل عام طائفة من أرضهم حتي قاتلهم آخر ذلك على كنوزهم وذراريهم وفي أقصى بلادهم وممتنع حصونهم ثم لانزايلى بلادهم حتي يهلكهم الله وكتب الى الحجاج بما كان وبرايه فكتب اليه الحجاج اما بعد فان كتابك اتاني وفهمت ما ذكرت فيه وكتابك كتاب امرى يجب الهدنة ويستريح الى المودة قد صانع عدواً قليلاً ذليلاً قد اصابوا من المسلمين جنداً كان بلاؤهم حسناً وغناؤهم في الاسلام عظيماً العمر كيا ابن أم عبد الرحمن أنك حيث تكف عن ذلك العدو بجندى وحدى لسخي النفس عمن أصيب من المسلمين انى لم أعدد رأيك الذي زعمت أنك رأيته رأى مكيدة ولكنى رأيت أنه لم يملك عليه الاضعفك واليائس رأيك فامض لما أمرتك به من الوجود في أرضهم والهدم لحصونهم وقتل مقاتلتهم وسبي ذراريهم وقال في كتاب آخر ان لم تفعل فان اسحاق بن محمد أخاك أمير الناس فخله وما وليته فلما جاءه هذا الكتاب جمع الناس واخبرهم بما جاء من عند الحجاج واستشارهم أيضي أم يخالف فزينوا له المخالفة واستقر أمرهم على عصيان الحجاج وخلعه فخلعوه وبايعوا على ذلك عبد الرحمن فبعث الي رتبيل فصالحه وعاد من سجستان الى العراق مصمماً على منازلة الحجاج ونفيه من العراق وبين يديه أعشى همدان يقول

شطت نوي من داره بالايوان ايوان كسرى ذى القرى والريحان
 من عاشق أمسى بزا بلستان ان ثقيفاً منهم الكذابان
 كذابها الماضي وكذاب ثان أمكن ربي من ثقيف همدان
 يوما الى الليل يسلي ما كان انا سمونا للكفور الفتان
 حين طغى بالكفر بعد الايمان بالسيد العطر يف عبد الرحمن
 سار بجمع كالديء من قحطان ومن معد قد أتى ابن عدنان
 بمخفل جم شديد الارنان فقل لحجاج ولى الشيطان
 يثبت لجمع مذبح وهمدان فأنهم ساقوه كاس الذيفان
 وملحقوه بقرى ابن مروان

ولما دخل الناس فارس قال بعضهم لبعض انا اذا خلعنا الحجاج فقد خلعنا
 عبد الملك فخلعوه وبايعوا عبد الرحمن على كتاب الله وسنته وخلق أئمة الضلالة
 وجهاد المحلين . ولما بلغ الحجاج خبره بعث الى عبد الملك يخبره ويسأله أن يوجه
 الجنود اليه فهاله الامر وبادر بارسال الجنود الشامية اليه والحجاج مقيم بالبصرة
 فلما اجتمعت الجنود اليه سار بها حتى نزل تسترو قدم بين يديه مقدمته
 فقابلتها جنود ابن الاشعث فهزمت مقدمة الحجاج يوم الاضحى سنة
 ٨١ وأتت الحجاج الهزيمة فانصرف راجعاً حتى نزل الزاوية وجاءت جنود
 ابن الاشعث حتى نزلت البصرة فبايعه أهلها وكان دخوله اليها في آخر ذى الحجة
 سنة ٨١ : ثم تقابل الجندان بالزاوية فهزمت جنود الحجاج ولما رأى ذلك جثي على
 ركبتيه وانتضى نحو آمن شبر من سيفه وقال لله در مصعب ما كان أكرمه حين نزل به
 ما نزل وكان ذلك العمل مما قوي قلوب جنده حتى هزموا يمينه أهل العراق وقتل

منهم عدد وافر فمضى ابن الاشعث الى الكوفة واستولى على قصرها وسار على أثره الحجاج حتي نزل دير قرة وخرج ابن الاشعث حتي نزل دير الجماجم قبل أن تقع بينهما الموقعة الفاصلة أشار على عبد الملك مشيره أن يعرض على أهل العراق عزل الحجاج عنهم فان قبلوا وثابوا الى الطاعة عزله عنهم فقبل وأرسل أخاه محمد بن مروان وأبنيه عبد الله ليعرضوا ذلك على أهل العراق فان قبلوا نزع الحجاج عنهم وأجرى عليهم أعطياتهم وكان محمد بن مروان أمير العراق وان أبوا فالججاج أمير الناس فجاء الرسولان وعرضا ذلك على أهل العراق قلم يقبلوا وصمموا على خلع عبد الملك وحينئذ قال محمد بن مروان وعبد الله بن عبد الملك للحجاج شأنك بمسرك وجندك فاعمل برأيك فانا أمرنا أن نسمع لك ونطيع ثم كانت بين الفريقين مواقع بدير الجماجم هائلة استمرت مثة يوم وكانت نهايتها في الرابع عشر من جمادي الآخرة سنة ٨٣ فقيه هزم ابن الاشعث وجنوده وأمر الحجاج بعدم اتباعهم ونادي المنادي من رجع فهو آمن : وبعد الهزيمة جاء الحجاج حتى دخل الكوفة وجاء الناس يبايعونه فلا يرضى مبايعتهم الا اذا شهدوا على أنفسهم بالكفر بخروجهم هذا فمن شهد نجا ومن أنى قتله وجاءه رجل فقال الحجاج انى أرى رجلا ما أظنه يشهد على نفسه بالكفر. فقال أخادعي أنت عن نفسي أنا أ كفر أهل الارض وأ كفر من فرعون ذي الاوتاد. كان الحجاج قد أمر فنودى بعد هزيمة دير الجماجم من لحق بقتيبة بن مسلم بالري فهو امانه فلحق به كثيرون منهم عامر الشعبي فقيه العراق فذكره الحجاج يوماً فقيل له انه لحق بقتيبة فأرسل اليه يأمره أن يبعث اليه بالشعبي

فأرسله فلما قدم سلم عليه بالأمرة ثم قال أيها الأمير ان الناس قد أمر وفي أن
أعتذر اليك بغير ما يعلم الله أنه الحق وايم الله لا أقول في هذا المقام الا حقا والله
سودنا عليك وحرصنا وجهدنا عليك كل الجهد فما ألونا فما كئنا بالاقوياء الفجرة
ولا الاتقياء البررة ولقد نصرك الله علينا وأظفرك بنا فان سطوت فبذنو بنا
وما جرت اليه أيدينا وان عفوت عنا فبحلمك وبعد الحجة لك علينا : فقال له الحجاج
أنت والله أحب الى قول لا ممن يدخل علينا يقطر سيفه من دمائنا ثم يقول ما فعات
ولا شهدت قد أمنت عندنا يا شعبي فانصرف : فلما مشي قليلا ناداه ثم قال له
كيف وجدت الناس يا شعبي بعدنا : فقال أصلح الله الأمير اكتحلت والله
بعدك السهر واستوعرت الجناح واستحسنت الخوف وفقدت صالح الاخوان
ولم أجد من الأمير خلفا : قال انصرف يا شعبي : وجيء اليه بأعشي همدان
فقال ايه يا عدو الله انشدني قولك بين الاشيج وبين قيس باذخ : قال بل أنشدك
ما قلته فيك ثم أنشده قصيدة مدحه بها أولها

أبي الله الا أن يتم نوره ويظفيء نور الفاسقين فيخمدوا

ويظهر أهل الحق في كل موطن ويعدل وقع السيف من كان أصيدا

وينزل ذلا بالعراق وأهله لما تمضوا العهد الوثيق المؤكدا

وما أحد ثوا من بدعة وعظيمة من القول لم تصعد الى الله مصعدا

وما نكثوا من بيعة بعد بيعة اذا ضمنوها اليوم خاسوا بها غدا

وهي قصيدة طويلة فرجاله الناس الخير ولكنهم تنفعه عند الحجاج فأمر

به فقتل وعلي الجملة فان فتنة ابن الاشعث ذهب فيها أشرف أهل العراق ورؤساؤهم

فكانت تلك الواقعة آخر فتنة

أما ابن الأشعث فقد تقلبت به الاحوال وانتهى أمره إلى أن توجه إلى
رتبيل مستغيثاً به فكتب الحجاج إلى رتبيل يأمره أن يرسل إليه ابن الأشعث
و يتوعده ان لم يفعل فأراد رتبيل أن يرسله فقتل ابن الأشعث نفسه بأن ألقى
نفسه من فوق قصر فمات ثم ضرب رتبيل عنق بضعة عشر رجلاً من أقاربه
وأرسل بالرءوس إلى الحجاج

مضي على الأمة اثنتان وعشر ون سنة من سنة ٦٤ إلى سنة ٨٦ وهي مصابة
بالفتن والاضطرابات في معظم الجهات الاسلامية يقتل بعضهم بعضاً كل عظيم
يريد السلطان لنفسه لا يخشون عاقبة ولا يراعون لله في أمتهم عهداً كما هم لم
يقرءوا كتاب الله ولم يعلموا المأثور عن رسوله في كراهة الفتن والدخول
في غمارها ولا تخلي ولا لاة أمرها من تبعة تلك الحوادث فانهم أرادوا أن يسوسوها
بالعنف ويكرهوها على الطاعة كراهة من غير أن يتقربوا إلى قلوبها بشيء مما تحبه
من الضروري أن نقص عليكم شيئاً من أخبار الخوارج في هذه المدة
لتكون صورة الامة كلها ممثلة امام أنظاركم في ذلك العهد

الحوارج

لما وردت جنود الشام الى مكة لقتال ابن الزبير في عهد يزيد رأى جماعة الخوارج منهم نجدة بن - امر الحنفى ونافع بن الازرق الحنفى أن يذهبوا الى ابن الزبير ليمنعوا مكة وليعرفوا ما عند ابن الزبير أيوافقهم على أقاويلهم أم يخالفهم فلما جاءوه عرفوه بأنفسهم فأظهر لهم أنه على رأيهم ثم تناظر وا فيما بينهم فقالوا ندخل إلى هذا الرجل فننظر ما عنده فدخلوا إليه وهو متبذل فقالوا إنا جئناك لتخبرنا رأيك ما تقول في الشيخين قال خيراً قالوا فما تقول في عثمان الذي أحى الحمى وآوى الطريد وأظهر لأهل مصر شيئاً وكتب بخلافه وأوطأ آل أبي معيط رقاب الناس وآثرهم بنفى المسلمين وفي الذي بعده الذي حكم في دين الله الرجال وأقام على ذلك ذير نائب ولا نادم وفي أبيك وصاحبه وقد بايعا علياً وهو امام عادل مرضي لم يظهر منه كفر نادم ثم نكثا بعرض من أعراض الدنيا وأخرجا عائشة تقاتل وقد أمرها الله وصواحبها أن يقرن في بيوتهن وكان لك في ذلك ما يدعوك إلى التوبة فإن أنت قلت كما نقول فلك الزلفى عند الله والنصر على أيدينا ونسأل الله لك التوفيق وإن أنت أبيت إلا نصر رأيك الأول وتصويب أبيك وصاحبه والتحقيق بعثمان والتولى في السنين الست التي أحلت دمه ونقضت بيعته وأفسدت امامته خذل الله وانصر منك بأيدينا . فقال ابن الزبير إن الله أمر وله العزة والقدرة في مخاطبة أكفر

الكافرين وأعتى العتاة بأرأف من هذا فقال لموسي ولا أخيه صلى الله عليهما في
 فرعون (فقلوا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى) وقال رسول الله صلى الله عليه
 وسلم لا تؤذوا الأحياء بسب الأَمْوات فنهى عن سب أبي جهل من أجل
 عكرمة ابنه وأبوجهل عدو الله وعدو الرسول والمقيم على الشرك والجاد في المحاربة
 والمتبغض إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الهجرة والمحارب له بعدها وكفى
 بالشرك ذنباً وقد كان يغنيكم عن هذا القول الذي سميت فيه طلحة والزبير أن
 تقولوا أتبرأ من الظالمين فإن كانوا منهم دخلاً في غمار الناس وإن لم يكونا منهم لم
 تحفظوني بسب أبي وأنتم تعلمون أن الله جل وعز قال للمؤمن في أبيه (وإن
 جاهدك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً)
 وقال جل ثناؤه (وقولوا للناس حسناً) وهذا الذي دعوتهم إليه أمر له ما بعده وليس
 يقنعكم إلا التصريح والتوقيف ولعمري أن ذلك لا حرج قطع الحرج وأوضح
 لمنهاج الحق وأولى بأن يعرف كل صاحبه من عدوه فرحوا إلى من شئتكم
 هذه اكشف لكم ما أئاء عليه

فلما كان العشي راكعوا إليه فخرج إليهم وقد لبس سلاحه وخطبهم خطبة
 أثني فيها على عثمان والزبير وطلحة وأجاب عن كل ما يعتد به عليهم فنظر بعضهم إلى
 بعض ثم انصرفوا وتفرقوا فصارت طائفة إلى البصرة وطائفة إلى اليمامة فكان
 ممن سار إلى البصرة نافع ابن الأزرق في أصحابه وقد أمر به عليهم ثم مضى بهم
 إلى الأهواز فأقاموا بها لا يهيجون أحداً وينظرون الناس وطردها عمال السلطان
 عنها وجبوا الفداء : ولم يزل الخوارج على رأي واحد حتى ظهر من نافع بن

الأزرق القول بالكفر القعد وقتل الاطفال واستحلال الأمانة وقال الداردار
كفر الآ من أظهر إيمانه ولا يحل أكل ذبائحهم ولا تناكحهم ولا توارثهم ومتي
جاء منهم جاء فعلياً أن تمتحنه وهم ككفار العرب لا تقبل منهم إلا الإسلام أو
السيف والتعد بمنزاتهم والتقية لا تحل ولم اعرف عنه هذه المقالة خالفه نجدة بن
عامر وكانت بينهما في ذلك مكاتبات وخالفه أيضاً أبو بهس هيصم بن جابر
الضبي وعبد الله بن اباض المري : أما ابن اباض ومن نحائحوه من النجدية فانهم
كانوا يقولون ان عدونا كعدو رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكننا لا نحرم
مناكحتهم وموارثهم لأن معهم التوحيد والاقرار بالكتاب والرسول
فأرى معهم دعوة المسلمين تجمعهم وأراهم كفاراً للنعم وأما الصفرية فقالوا ألين
من هذا القول في أمر القعد حتى صار عامتهم قعداً وسموا صفرية باسم رئيس
لهم اسد عبد الله بن صفار أو بصفرية ملتهم من العبادة وأما أبو بهس فانه قال اعداؤنا
كأعداء رسول الله صلى الله عليه وسلم نحل انسا الاقامة فيهم كما فعل المسلمون في
إقامتهم بمكة وأحكام المشركين تجري عليهم وأزعم أن: ناكحهم وموارثهم تجوز
لأنهم منافقون يظهرن الإسلام وان حكمهم عند الله حكم المشركين : وبذلك
افترقوا على أربع فرق أزرقية أصحاب نافع بن الأزرق واباضية أصحاب ابن
أباض وبهسية أصحاب أبي بهس وصفرية وكفر بعضهم بعضاً

أقام نافع بن الأزرق بالاهواز يعترض الناس ويقتل الاطفال فاذا أجيب
الى المقالة جبال الخراج وفشا أعماله في السواد فارتاع لذلك أهل البصرة فاجتمعوا
الى الأحنف بن قيس وقالوا ايس بيننا وبين العدو الأليتان وسيرتهم مآثر
فقال الأحنف ان فعلهم في مصر كم ان ظفر وابتكم كفعلهم في سوادكم فجدوا في

جهاد عدوكم فاجتمع اليه عشرة آلاف مقاتل اختير لقيادتهم سليم بن عيسى بن كرز وكان ديناً شجاعاً فقاد الجيش وسار به حتى وصل دولاب وهناك قابله الخوارج فاقتتلوا قتالاً شديداً حتى تكسرت الرماح وعمرت الخيل وكثرت الجراح والقتل وتضاربوا بالسيوف والعمد فقتل في المعركة ابن عيسى ونافع ابن الأزرقي فولى أمراً أهل البصرة الربيع بن عمر الغداني وولى أمراً الخوارج عبيد الله بن بشير بن الماحوز السليطي فكان الرئيسان من بني ربوع فاقتتلوا قتالاً شديداً نيفاً وعشرين ليلة قتل في آخرها الربيع بن عمرو فأخذ الراية بعده الحجاج بن باب الحميري فلم يزل يقاتل الخوارج بدولاب والخوارج أعد بالآلات والدروع والجواشن حتى أمسوا وقد كره بعضهم بعضاً وملوا القتال فانهم لم يوافقوا متعاجزون حتى جاءت الخوارج سرية فحملت على الناس فانهم زم الناس وأخذوا أهل البصرة حارثة بن بدر فقاتل ساعة وقد ذهب عنه الناس فقاتل من ورائهم في حماهم وأهل الصبر منهم ثم أقبل بالناس حتى نزل بهم منزلاً بالاهواز : ومما قاله بعض الخوارج وهو قطري بن الفجاءة في ذلك اليوم من الشعر

لعمرك اني في الحياة لزاهد	وفي العيش مالم ألق أم حكيم
من الخمرات البيض لم ير منلها	شفاء لذي بث ولا لسقيم
لعمرك اني يوم ألطم وجهها	على نائبات الدهر جدّ لثيم
ولو شهدتني يوم دولاب أبصرت	طعان فتى في الحرب غير ذميم
خداة طفت علماء بكر بن وائل	وعجنا صدور الخيل نحو تميم
وكان لعبد القيس أول جدها	وأحلافها من يحصب وسليم

وظلت شيوخ الازد في حومة الوغى تبوم وظلنا في الجلاد نعوم
 فلم أر يوماً كان أكثر مقعصا يبيع دما من فائظ وكليم
 وضاربة خدّاً كريماً على فتى أغر نجيب الامهات كريم
 أصيب بدولاب ولم تك موطننا له أرض دولاب ودير حميم
 فلو شهدتنا يوم ذاك وخيلنا تبيح من الكفار كل حريم
 رأيت فتية باعوا الاله نفوسهم بجنات عدن عنده ونعيم
 ولما بلغ خبر تلك الهزيمة أهل البصرة فزعوا وام يروا الامر الخوارج الا
 المهلب بن أبي صفرة فعرضوا عليه ذلك فرضى بشرط أن يكون له ولاية
 ما غلب عليه وأن يعطى من بيت المال ما يقوى به من معه وأن ينتخب من فرسان
 الناس ووجوههم وذوي الشرف من أحب فأجابوه الى ما شرط فانتخب الناس
 وسار اليهم وكانوا قد قربوا من البصرة فصار يزيمهم عنهما رحلة بعد رحلة حتي
 انتهوا الى منزل من الاهواز يقال له صلى وسلبرى فأقاموا به وأقبل المهلب بجنوده
 فافتلواهم والخوارج حتى كاد أهل البصرة ينهزمون لو لا ثبات المهلب وقوة
 جأشه فان ذلك قواهم حتي قتل أمير الخوارج عبيد الله بن الماحوز وانهمزوا هزيمة
 منكرة فارتفعوا الى كرمان وجانب أصفهان . وكتب المهلب الى أمير البصرة
 من قبل ابن الزبير الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة : بسم الله الرحمن الرحيم
 أما بعد فانا قد لقينا الازارقة المارقة بمجد وجد فكانت الناس جولة ثم تاب
 أهل الحفاظ والصبر بنيات صادقة وأبدان شداد وسيوف حداد فأعقب
 الله خير عاقبة وجاوز بالنعمة مقدار الامل فصاروا درة رماحنا وضرائب
 سيوفنا وقتل الله أميرهم ابن الماحوز وأرجوا أن يكون آخر هذه النعمة

كأولها والسلام. فكتب إليه الحارث : قد قرأت كتابك يا أخا الازد فرائيتك قد
 وهب الله لك شرف الدنيا وعزها وذر لك ثواب الآخرة ان شاء الله وأجرها
 ورأيتك أوثق حصون المسلمين وهادأركان المشر كين وأخا السياسة والرياسة
 فاستدم الله بشكره يتم عليك نعمه والسلام. فلما قرأ المهلب كتابه ضحك ثم قال
 أما تظنونه يعرفني إلا بأخ الازد: ما أهل مكة إلا أعراب ولم يزل المهلب يطارد
 الخوارج مدة الحارث بن عبيد الله : فلما ولي مصعب العراق استقدم المهلب
 وأمره أن يستخلف ابنه المغيرة وقد ولي مصعب المهلب على الموصل وولى
 على حرب الخوارج عمر بن عبيد الله بن معمر والخوارج بارجان وعليهم الزبير
 ابن عني السليطي فشخص اليهم فقاتلهم وألح عليهم حتى أخرجهم عنها فالحقهم
 بأصبهان فجمعوا له وأعدوا واسعدوا: ثم أتوا سبورفسار اليهم ونزل قريبا منهم
 فقال له مالك بن حسان ان المهلب كان يذكي العيون ويخاف البيات ويرتب الغفلة
 وهو على أبعد من هذه المسافة منهم فقال له عمر اسكت خلع الله قلبك أتراك تموت
 قبل أجلك فأقام هناك وفي ذات ليلة بيته الخوارج فلم يظفروا منه بشيء فقال للمالك
 كيف رأيت قال قد سلم الله ولم يكونوا يطعمون من المهلب بمثلها فقال أيا أنكم لو
 ناصحتهموني مناصحتكم المهلب لرجوت أن أنقذ هذا العدو ولاكنكم تقولون
 قرشي حجازي بعيد الدار خيره لغير نافتما تلون معي تعذيرا ثم زحف الى الخوارج
 فقاتلهم قتالا شديدا حتى انهزموا وقتل في الواقعة ابنه عبيد الله فكتب الى مصعب
 : أما بعد فاني قد لقيت الازارقة فرزق الله عبيد الله بن عمر الشهادة ووهب له
 السعادة ورزقنا عليهم الظفر ففرقوا واشذر منذر وبلغتني عنهم عودة فيممتهم

وبالله أستعين وعليه أتوكل : ثم سار اليهم وكانوا قد عادوا الى فارس فألح عليهم حتى أخرجهم الى أصفهان فأقاموا برهة ثم عادوا الى الاهواز وقد ارتحل تمر الى اصطخر : وما زالوا يروحون ويغدون ويعيشون في الارض فساداً فشاور مصعب الناس فأجمعوا رأيهم على اعادة المهلب الى حربهم وكانوا قد ولوا أمرهم قطري بن الفجاءة المازني فخرج اليهم المهلب ولما أحس به قطري تميم نحو كرمان فأقام المهلب بالاهواز. ولما استمد الخوارج كروا عليه فحاربهم المهلب ونفاهم الى رامهرمز وفي تلك الآونة قتل مصعب بن الزبير في حربه مع عبد الملك فبلغ الخبر الخوارج قبل أن يبلغ المهلب وجنده فناداهم الخوارج ما تقولون في مصعب قالوا الإمام هدي قالوا فما تقولون في عبد الملك قالوا ضال مضل : ولما كان بعد يومين أتى المهلب الخبر فبايع الناس لعبد الملك فناداهم الخوارج ما تقولون في مصعب فسكتوا قالوا فما تقولون في عبد الملك قالوا إمام هدي فقال الخوارج يا أعداء الله بالامس ضال مضل واليوم إمام هدي يا عبيد الدنيا عليكم لعنة الله

ولي عبد الملك على البصرة خالد بن عبد الله بن أسيد فأراد عزل المهلب فأشير عليه أن لا يفعل وقيل له إنما أمن أهل هذا المصر بأن المهلب بالاهواز وعمر بن عبيد الله بفارس فاذا نحييت المهلب لم تأمن على البصرة فأبى الا زله وولى حرب الخوارج أخاه عبد العزيز بن عبد الله فسار اليهم حتى قابلهم بدار بجرد فهزموه هزيمة منكرة ولما بلغ ذلك خالد كتب الى عبد الملك به فكتب اليه عبد الملك أما بعد فقد قدم رسولك بكتابك تعلمني فيه بمبتك أخاك على قتال

الخوارج وبهزيمة من هزم وقتل من قتل وسألت رسولك عن مكان المهلب فحدثني انه عامل لك علي الا هو زفقيح الله رأيك حين تبعث أخاك اعرابيا من أهل مكة على القتال وتدع المهلب الى جنبك يجيى الخراج وهو الميمون النقببة الحسن السياسة البصير بالحرب المقاسي لها ابنها وابن أبنائها انظر أن ينهض بالناس حتى تستقبلهم بالا هو ازوم من وراء الا هو از وقد بعثت الى بشر أن يمدك بجيش من أهل الكوفة فاذا أنت لقيت عدوك فلا تعمل فيهم برأي حتى تحضره المهلب وتستشيره فيه ان شاء الله: فشق عليه أن فيل رأيه في بعثة أخيه وترك المهلب وفي أنه لم يرض رأي خالصا حتى قال احضره المهلب واستشره فيه وكتب عبد الملك الى أخيه بشر أمير الكوفة أن يعدم بالجنود فاختر لهم خمسة آلاف عليهم عبد الرحمن بن محمد بن الاشعث وخرج خالد باهل البصرة حتى جاء الا هو از فاجتمع الجندان علي الخوارج فرأوا ما هالهم فانصرفوا منهزمين كانهم على حامية وأتبعهم خالد داود بن قحزم في جيش من أهل البصرة ومدهم بشر بأربعة آلاف من أهل الكوفة فاتبعوا القوم حتى تفقت خيول عامتهم وأصابهم الجهد والجوع ورجع عامة ذينك الجيشين مشاة إلى الا هو از

وفي ذلك الوقت خرج بالبحرين أبو فديك الخارجي فغلب علي البحرين وقتل نجدة بن عامر الحنفي فاجتمع علي خالد بن عبد الله نزول قطري الا هو از وأمر أبي فديك فبعث أخاه أمية بن عبد الله على جند كثيف الى أبي فديك فانهزم

لما رأى عبد الملك ذلك عزل خالد وأولى أخاه بشر مكانه وكتب إليه أما بعد قابض المهلب في أهل مصره الي الازارقة واينتخب من اهل

مصره وجوهمهم وفرسانهم وأولى الفضل والتجربة منهم فإنه أعرف بهم وخله
ورأيه في الحرب فاني أوثق شيء بتجربته ونصيحته للمسلمين وأبعث من أهل
الكوفة بعثاً كثيفاً وأبعث عليهم رجلاً معروفاً شريفاً حسيباً صليبا يعرف
بالبأس والنجدة والتجربة للحرب ثم انهض اليهم أهل المصرين فليقبعهم أي
وجه ما توجهوا حتي يبيدهم الله ويستأصلهم والسلام عليك . فداء بشر المهلب
فأقرأه كتاب عبد الملك وأمره أن ينتخب من شاء وشق على بشر أن امرأه المهلب
جاءت من قبل عبد الملك فلا يستطيع أن يبعث غيره فأوغرت صدره عليه حتى
كأنه كان إليه ذنب ثم دعا عبد الرحمن بن مخنف فبعثه على أهل الكوفة وقال له
انك قد عرفت منزلتك مني وأترتك عندي وقد رأيت أن أوليك هذا الجيش
للذي عرفت من جزئك وغنائك وشرفك وبأسك فكن عند حسن ظني بك
أنظر إلي هذا الكذا والكذا يقيم في المهلب فاستبد عليه بالأمم ولا تقبلن له
مشورة ولا رأياً وتنقصه وقصر به — فترك أن يوصيه بالجند وقتال العدو
والنظر إلى أهل الاسلام وأقبل ينريه بآبن عمه كأنه من السفهاء أو ممن
يستصبي ويستجمل : وهكذا في كل زمان وفي كل أمة من يدوس المصالح العامة
ارضاء لشهواته النفسية واهوائه الفاسدة ولا تهمة الا مة سمعت أو شقيت : رجل
يكرمه جلا في مال مصالح الناس وداومة المسلمين تكون ميدان الانتقام إن هذا البلاء
عظيم نسأل الله الخلاص منه خرج الجيشان حتى وصل رامهرمز وبها الخوارج
فترأى العسكران ولم يلبث الناس الا عشراً حتى بلغهم نعي بشر بن مروان
وتوفي بالبصرة فأرفض ناس كثير من أهل البصرة والكوفة فجاءهم كتاب من

خليفة بشر على البصرة وهو خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد يأمرهم فيه بالعودة
 ويحذرهم العصيان والمخالفة وسطوة عبد الملك فلم يجد ذلك فيهم نفعا حتى جاءهم
 الاسد المصور الحجاج بن يوسف فأخذهم أخذاً شديداً ووجههم الى المهلب
 مقهورين كما علمتم ذلك من تازيخ دخوله البصرة والكوفة فلما تابعت مسير الجنود
 الى المهلب وابن مخنف ناهضا الا زارقة حتى أجسروهم عن رامهرمز فساروا
 الى كازرون بسابور او على أثرهم الجنندان : كان المهلب يخندق دائما على جنده
 كلما واجه الخوارج وقد أمر بذلك ابن مخنف فأبى فيده الخوارج فهزموا
 جنده وقتلوه وأقام المهلب بسابور يقاتلهم نحواً من سنة
 ثم انه زاحنهم يوم البستان فقاتلهم قتالا شديداً وكانت كرمان في
 أيدي الخوارج وفارس في يد المهلب فكان قد ضاق عليهم مكانهم الذي هم
 به لا يأتهم من فارس مادة فخرجوا حتى أتوا كرمان وتبعهم المهلب حتى
 نزل بجيرفت وهي مدينة كرمان فقاتلهم بها أكثر من سنة قتالا شديداً
 وحازهم عن فارس كلها فبعث اليه الحجاج مع البراء بن قبيصة كتاباً يقول
 فيه : أما بعد فانك والله لو شئت فيما أرى لقد اصطلمت هذه الخارجة المارقة
 ولكنك تحب طول بقائهم لتأكل الارض حولك : وقد بعثت اليك
 البراء بن قبيصة لينهضك اليهم فانهض اليهم اذا قدم عليك بجميع المسلمين
 ثم جاهدهم أشد الجهاد واياك والعلل والباطيل والامور التي ليست لك
 عندي بسائفة ولا جائزة والسلام فأخرج المهلب بنيه كل ابن في كتيبة
 واخرج الناس وجاء البراء فوقف على تل قريب منهم حيث يراهم فأخذت
 بالكتائب تحمل على الكتائب والرجال على الرجال فيقتلون أشد قتال

الناس من صلاة الغداة إلى انتصاف النهار . ثم انصرفوا فجاء البراء بن قبيصة إلى المهلب فقال لا والله ما رأيت كبنيك فرسانا قط ولا كفرسانك من فرسان العرب فرسانا قط ولا رأيت مثل قوم يقاتلونك أصبر ولا بأس أنت والله المعذور فرجع بالناس المهلب حتى إذا كان عند العصر خرج اليهم بالناس وبنيه في كتابهم فقاتلوه كقتالهم أول مرة فانصرف البراء إلى الحجاج فأخبره الخبر على جليته ثم استمر المهلب يقاتلهم ثمانية عشر شهرا لا يقدر منهم على شيء

حدث في معسكر الخوارج أمر لم يكن لهم في حساب أن رجلا من فرسانهم يقال له المقطر قتل رجلا كان ذا بأس من الخوارج فطلبوا من قطري أن يملكهم من القاتل ليقتلوه قصاصا فقال لهم ما أرى أن أفعل رجل تأول فأخطأ في التأويل ما أرى أن تقتلوه وهو من ذوى الفضل منكم والسابقة فيكم فوقع بينهم اختلاف فخلعوا قطريا وولوا عبد رب الكبير وبقي على بيعة قطري منهم عصابة فقاتل بعضهم بعضا وكان من رأى الحجاج أن يناهضهم في وقت اختلافهم ولم يكن ذلك من رأى المهلب فتركه الحجاج ورأيه : استمر الخوارج يقتلون نحواً من شهر ثم أن قطر ياً خرج بمن اتبعه نحو طبرستان وبايع عامتهم عبد رب الكبير فناهضهم المهلب حتى قتلهم فلم ينج منهم الا قليل وأخذ عسكرهم وما فيه وسبوا لانهم كانوا يسيون المسلمين : ولكب الا شفرى قصيدة طويلة يذكر فيها يوم رامهرمز وأيام سابور وأيام جيرفت وأولها

يا حفص انى عدانى عنكم السفر وقد سهرت فأودي نومي السهر
وهى من غر الشعر العربى وقد أنشدها بين يدي الحجاج فقال له أشاعر
أنت أم خطيب قال كلاهما فقال له أخبرنى عن بنى المهلب قال المغيرة فارسهم وسيدهم

وكنى يزيد فارساً شجاعاً وجواداً وسخياً قبيصة ولا يستحيي الشجاع أن يفر من مدرك وعبد الملك سم ناعم وحيب موت زعاف ومحمد ليث غاب وكفاك بالفضل نجدة قال فكيف خلفت جماعة الناس قال بخير أدر كوا ما أملوا وأمنوا ما خافوا قال فكيف بنو المهلب فيكم قال كانوا حماة السرح نهاراً فاذا أليلوا فقرسان البيات قال فأيهم كان أن نجد قال كانوا كالحلقة المفردة لا يدري أين طرفها قال فكيف كنتم أنتم وعدوكم قال كنا إذا أخذنا عفونا وإذا أخذوا يشننا منهم وإذا اجتهدوا واجتهدنا طمعنا فيهم فقال الحجاج إن العاقبة للمتقين كيف أفلتكم قطري قال كدناه ببيعض ما كادنا فصرنا منه إلى الذي تحب قال فهل أتبعتموه قال كان الحد عندنا آثر من الفل قال فكيف كان لكم المهلب وكنتم له قال كان لنا منه شفقة الوالد وله منابر الولد قال فكيف اغتباط الناس قال فشافيهم إلا من وشملهم النفل قال أكنت أعددت لي هذا الجواب قال لا يعلم الغيب إلا الله فقال هكذا تكون والله الرجال المهلب كان أعلم بك حيث وجهك وكان كتاب المهلب إلى الحجاج الحمد لله الكافي بالاسلام فقدموا له الذي حكم بأن لا ينقطع المزيده منه حتى ينقطع الشكر من عباة ما بعد فقد كان من أمرنا ما قد بلغك وكننا نحن وعدونا على حالين مختلفين يسرنا منهم أكثر مما يسوءنا ويسوءهم منا أكثر مما يسرهم على اشتداد شوكتهم فقد كان تمكن أمرهم حتى ارتاعت له الفتاة ونوم به الرضيع فانهزت منهم الفرصة في وقت امكانها وأدنت السواد من السواد حتى تعانقت الوجوه فلم نزل كذلك حتى بلغ الكتاب أجله (فقطعت دابر القوم الذين ظلموا

والحمد لله رب العالمين): فكتب اليه الحجاج أما بعد فقد فعل الله عز وجل بالمسلمين خيراً وأراحهم من حد الجهاد فكانت أعلم عن قبلك والحمد لله رب العالمين فاذا ورد عليك كتابي فاقسم في الناس فيئهم على قدر بلائهم وفضل من رأيت تفضيله وان كانت بقيت من القوم بقية فخلف خيلاً تقوم بازائهم واستعمل على كرمان من رأيت وول الخيل شهماً من ولدك ولا ترخص لاحد في اللحاق بمنزله دون أن تقدم بهم على وعجل القدوم ان شاء الله . فولى المهلب ابنه يزيد كرمان وقال يا بني انك اليوم لست كما كنت اتمالك من مال كرمان ما فضل عن الحجاج وان يحتمل لك الاعلى ما احتمل عليه أبوك : فأحسن إلى من معك واذا أنكرت من انسان شيئاً فوجهه الى وتفضل على قومك وقد المهلب على الحجاج فأجلسه الى جانبه وأظهر اكرامه وبره وقال يا أهل العراق انكم عبيد المهلب ثم قال أنت والله كما قال لقيط الايادي

وقلدوا أمركم الله دركم	رحب الذراع بأمر الحرب مضطلماً
لا يطعم النوم الا ريث يبعثه	هم يكاد حشاه يقصم الضلماً
لا مترفاً ان رخاء العيش ساعده	ولا اذا عض مكره به خشماً
ما زال يحلب هذا الدهر أشطره	يكون متبغاً طوراً ومتبغاً
حتى استمرت علي شزمريرته	مستحكم الرأي لا قحماً ولا ضرعاً (١)

فقام اليه رجل فقال أصالح الله الا يروا الله لك اني أسمع الساعة قطر يا وهو يقول المهلب كما لقيط الايادي ثم أنشد الشعر فسر الحجاج حتى امتلاً سروراً فقال المهلب اننا والله ما كننا أشد على عدونا ولكن دمع الله الباطل وقهرت الجماعة

الفتنة والعاقبة للمتقين وكان ما كرهناه من المطاولة خيراً مما أحييناه من العجلة فقال له الحجاج اذكر لي القوم الذين أبلوا وصف لي بلاءهم فأمر الناس فكتبوا ذلك للحجاج فقال لهم المهلب ما ذخر الله لكم خير لكم من عاجل الدنيا ان شاء الله ثم ذكرهم للحجاج على مراتبهم في البلاء وتفاضلهم في الغناء وقدم بنيه وقال انه والله لو تقدمهم أحد في البلاء لقد مته عليهم ولولا أن أظلمهم لأخرتهم : قال الحجاج صدقت وما أنت بأعلم بهم مني وان حضرت وغبت انهم لسيوف من سيوف الله ثم ذكر معن بن المغيرة بن أبي صفرة وأشباهه : فقال الحجاج أين الرقاد فدخل رجل طويل أجناً فقال المهلب هذا فارس العرب فقال الرقاد أيها الامير اني كنت اقاتل مع غير المهلب فكنت كبعض الناس فلم اصرت مع من يلزمني الصبر ويجعلني أسوة نفسه وولده ويجازيني على البلاء صرت أنا وأصحابي فرساناً فأمر الحجاج بتفضيل قوم على قوم على قدر بلاءهم وزاد ولد المهلب ألفين وفعل بالرقاد وجماعة شبيهاً بذلك : قال المغيرة بن حنبل من أصحاب المهلب :

اني امرؤا كفى ربي واكرمني	عن الامور التي في رعبها وخم
وانما أنا انسان اعيش كما	عاشت رجال وعاشت قبلها أمم
ما عافني عن قفول الجند اذ قفلوا	عني بما صنعوا عجز ولا يكتم
ولو أردت قفولا ما تجهمني	اذن الاثمير ولا الكتاب اذ رقعوا
ان المهلب ان اشتق لرؤيته	أو امتدحه فان الناس قد علموا
ان الاريب الذي ترجى نوافله	والمستعان الذي تجلى به الظلم
القاتل الفاعل الميمون طائره	أبو سعيد اذا ماعدت النعم

أزمان أزمان اذعض الحديد بهم واذا تمنى رجال انهم هزموا
وقد أرسلت بعد ذلك جنود لتتبع قطرى فلاحقوه بشعاب طبرستان
فقاتلوه حتى تفرق عنه أصحابه ووقع عن دابته في أسفل الشعب فتدهدى حتى خر
الى أسفل فقتل ثم ساروا حتى لحقوا بقيتهم فحاصروهم في قصر قومس حتى
جهدوا ثم خرجوا فقاتلوا حتى قتلوا وكان ذلك سنة ٧٧

وبذلك انتهى أمر الازارقة بعد ان ذاق الناس منهم مر الحرب وشغلوا المسلمين عن
مصالحتهم مدة من الزمن من غير نتيجة

وممن له ذكر من الخوارج وليس من الازارقة صالح بن مسرح التميمي
ورفيقه شبيب بن يزيد كان صالح رجلا ناسكا مخبئا صفرا الوجه صاحب عبادة
وكان بدارا من أرض الموصل والجزيرة وله أصحاب يقرئهم القرآن ويفقههم ويتص
بهم فقال لهم ذات يوم ما أدري ما تأتظرون وحتى متى أنتم قبيحون هذا الجور
قد فشا وهذا العدل قد فاولا تزداد هذه الولاية على الناس الا دلوأ وعتوا وتباعدا
عن الحق وجرأة على الرب فاستعدوا وابعثوا الى اخوانكم الذين يريدون من
انكار الباطل والدعاء الى الحق مثل الذى تريدون فيأتونكم فنلتقى وننظر
فيما نحن صانعون وفي اى وقت ان خرجنا نحن خارجون فتراسلوا وأرسل شبيب
الى صالح يستنهضه للخروج وقدم عليه فاتعدوا أن يخرجوا في هلال صفر ليلة
الاربعاء سنة ٧٨ وقال صالح لمن معه اتقوا الله عباد الله ولا تعجلوا الى قتال أحد من
الناس الا أن يكونوا قوما يريدونكم وينصبون لكم فانكم انما خرجتم غضبا لله
حيث انهم كتمت محارمه وعصى في الارض ففسدت الدماء بغير حلها وأخذت
الاموال بغير حقها فلا تعيبوا على قوم أعمالا ثم تعملوا بها فان كل ما أنتم عاملون

أنتم عنه مسئولون : ثم أقاموا بأرض دارا ثلاث عشرة ليلة وتحصن منهم أهل
 دارا ونصيبيين وسنجار فبلغ أمير الجزيرة محمد بن مروان مخرجهم فبعث اليهم
 جنداً عدتهم ألف رجل فهم الخوارج من ذير كبير قتال ثم بعث جنداً آخر
 عدته ثلاثة آلاف فأشجوا الخوارج حتى تركوا مكانهم وساروا فقطعوا أرض
 الجزيرة ودخلوا أرض الموصل فقطعوها ومضوا حتى قطعوا الدسكرة فأرسل
 اليهم الحجاج جنداً عدته ثلاثة آلاف فقاتلهم الخوارج حتى قتل أميرهم صالح
 ابن مسرح فجمعهم شبيب وبايعوه وساروا من موقفهم حتى نزلوا المدائن
 وما زالوا ينتقلون من جهة إلى أخرى والجند يرسل اليهم تلوا الجند
 فيهمزمون جنود الحجاج وهم في عدد لا يتجاوز المئتين عدداً وأخيراً جاء شبيب
 فدخل الكوفة غير هائب سلطان الحجاج وعاتوا فيها فساداً وقتلوا من أهلها
 جماعة والحجاج بقصر الكوفة فدعا الناس إلى إخراجهم فاجتمع إليه القواد ولما
 رأى ذلك شبيب ترك الكوفة وخرج فسارت الجنود وراءه ولكنهم لم تنل منه
 منالاً وهو في كل مرة يهزمها حتى استغاث الحجاج بعبد الملك وأخبره بمجزأ أهل
 الكوفة عن قتال الخوارج وطلب إليه أن يرسل إليه جنداً من أهل الشام فوجه
 إليه أربعة آلاف ووجه الحجاج اليهم نحواً من خمسين ألفاً من الكوفة وكان جيش
 شبيب قد بلغ ألفاً ومن الغريب أن الألف هزمت الخمسين : وكان شبيب بعد
 ذلك رحلة ثانية إلى الكوفة فبنى بها مسجداً فخرج اليهم الحجاج وقد جاءه جند
 الشام فتقوي بهم وقال لهم يا أهل الشام أنتم أهل السمع والطاعة والصبر
 واليقين لا يغلبن باطل هؤلاء الأبرجاس حتى غصوا الأبصار واجشوا على

الركب واستقبلوا القوم بأطراف الاسنة فجثوا على الركب وأشرعوا
الرماح وكانهم حرة سوداء وأقبل اليهم شبيب في تعبئة فثبتوا له حتى اذا
غشى أطراف الاسنة وثبوا في وجهه ووجوه أصحابه فطعنوهم قدماً وما
زال القتال بينهم عامة اليوم وقتل في هذا اليوم مصاد أخو شبيب وانتهى
الامر بهزيمة شبيب وهذه أول مرة هزم فيها وترك أمراًته غزاة فقتلت
ثم أرسل الحجاج في أثره جنود الشام حتى قابلوه بالانبار وكانت بين
الفرقتين مواقع هائلة جدا وانتهى أمر الخوارج بفرق شبيب في النهر
وتفصيل الوقائع التي جرت بين شبيب وبين جنود الحجاج يطول أمرها
والنتيجة أن المسلمين استراحوا من الازارقة ومن شبيب في سنة واحدة

المحاضرة السابعة والثلاثون

بناء الكعبة - الفتوح في الشرق - الفتوح في الشمال - الحج

السكة - ولاية العهد - وفاة عبد الملك وبيته وصفته

الوليد الاول - الاصلاح الداخلي

بناء الكعبة

من الحوادث الكبرى التي حدثت ابان هذه الاضطرابات وهدم
الكعبة وبنائها ففى سنة ٦٥ هـ : هدم عبد الله بن الزبير الكعبة وكانت قد
مالت حيطانها مما رميت به من حجارة المجانيق فهدمها حتى سواها
بالارض وحفر أساسها وأدخل الحجر فيها وكان الناس يطوفون من وراء
الاساس ويصلون الى موضعه وجعل الحجر الاسود عنده في تابوت في
سرقة من حرير وجعل ما كان من حلى البيت وما وجد فيه من ثياب أو

طيب عند الحجة في خزانة البيت حتى أعادها لمعاد بناءها وكان السبب في ادخاله الحجر ضمن البيت ماروته أمه أسماء عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لها لولا قومك حديثو عهد بكفر لنقضت الكعبة وجعلتها على قواعد اسماعيل وجعلت لها بابين . فلما قتل ابن الزبير وولى الحجاج نقض ذلك الركن الذي فيه الحجر وأعاد بناءها على ما كانت عليه في عهد قريش فالبناء الموجود الآن مؤلف من بناء ابن الزبير والحجاج

الاحوال الخارجية

لم يكن زمن الفتنة يسمح للمسلمين بمد فتوحهم وانتقاص أرض عدوهم لان الاممة اذا كان بأسها يندأ فحسبها ان تحافظ على ما بأيديها من البلاد ولكن هذه الاممة القوية مع ما نالها من المصائب والفتن لم تقصر يدها عن الفتح ولم تظهر أمام الامم الاخرى بمظهر الضعف الا في بعض الاحيان

الفتوح في الشرق

بعد ان انتهى المهلب من أمر الخوارج ولاء الحجاج خراسان فقى سنة ٨٠ قطع نهر بلخ ونزل على كس وأتاه وهو نازل عليها ابن عم ملك الختل فدعاه الى غزو الختل فوجه معه ابنه يزيد فنزل في عسكره وكان الملك يومئذ اسمه السبل في عسكره على ناحية في بيت السبل ابن عمه فكبر في عسكره فظن ابن العم أن العرب قد غدروا به وأنهم خافوه على القدر حين اعتزل عسكرهم فأسره الملك وقتله في قلعته فأتي يزيد بن المهلب القلعة وأحاط بها فصالحه الملك على فدية حملها اليه ورجع الى المهلب ووجه

المهلب ابنه حبيباً إلى ربنجن فوافى صاحب بخاري في أربعين ألفاً فكانت
بينهم مناوشات لم تنته بنتيجة وانصرف حبيب

ومكس المهلب بكس سنتين فقبل له لو تقدمت إلى السغد وما وراء
ذلك قال ليت حظي من هذه الغزوة سلامة هذا الجند حتى يرجعوا إلى
مرو سالمين ثم صالح المهلب أهل كس على فدية وأتاه وهو بكس وفاة ابنه
المنيرة وكان خليفته على مرو فجزع جزاً شديداً وولى مكانه ابنه يزيد ولما
أخذ الفدية عاد إلى مرو فتوفي بها ولما شعر بدنو أجله دعا من حضر من
ولده ودعا بسهمهم فحزمت وقال أترونكم كاسريها مجتمعة قالوا لا قال
أفرونكم كاسريها متفرقة قالوا نعم قال فهكذا الجماعة فأوصيكم بتقوي
الله وصلة الرحم فإن صلة الرحم تنسي في الأجل وتبقي المال وتكثر
العدد وأنها لكم عن القطيعة فإن القطيعة تمقّب النار وتورث الذلة والقلّة
فتحابوا وتوصلوا وأجمعوا أمركم ولا تختلفوا وتباروا تجتمع أموركم . ان
بنى الام يختلفون فكيف بينى العلات وعليكم بالطاعة والجماعة وليكن
فعالكم أفضل من قولكم فاني أحب للرجل أن يكون لعمله فضل على
لسانه واتقوا الجواب وزلة اللسان فإن الرجل تزل قدمه فينتعش من زلته ويزل
تسانه فيهلك اعرفوا لمن يغشاكم حقه فكفي بغدوا الرجل ودواحه اليكم
لذكرة له وآثروا الجود على البخل وأحبوا العرب واصطنعوا العرب فإن
الرجل من العرب تعدد المدة فيموت دونك فكيف الصنعة عنده عليكم في
الحرب بالاناة والمكيدة فانها أنعم في الحرب من الشجاعة وإذا كان اللقاء
نزل القضاء : فإن أخذ رجل بالحزم فظهر على عدوه قيل أتي الأمر من

وجهه ثم ظفر فحمدوا ان لم يظفر بعد الاناة قيل ما فرط ولا ضيع ولكن القضاء
غالب وعليكم بقراءة القرآن وتعليم السنة وأدب الصالحين واياكم والخفة
وكثرة الكلام في مجالسكم وقد استخلفت عليكم يزيد وجعلت حبيباً على
الجند حتى يقدم بهم على يزيد فلا تخالفوا يزيد فقال له المفضل لو لم تقدمه
لقد مناه ومات المهلب وأوصي إلى حبيب فصلى عليه وكتب يزيد إلى عبد
الملك بالخبر وباستخلاف المهلب اياه فأقره وتوفي في ذي الحجة سنة ٨٣ فقال
نهارين توسعة التميمي

ألا ذهب الغزوا المقرب للنفي	ومات الندي والجود بعد المهلب
أقاما بمرور الروث رهن ضريحه	وقد غيبا عن كل شرق ومغرب
إذا قيل اي الناس أولي بنعمة	علي الناس قلناه ولم نتهيب
أباح لنا سهل البلاد وحزنها	بخيل كارسال القطا المتدرب
يعرضها للطمن حتى كأنما	يجللها بالارجوان المخضب
تطيف به قحطان قد عصبت به	وأحلاها من حي بكر وتغلب
وحيا معد عوذ بلوائه	يفدون به بالنفس والام والاب

وفي ولاية يزيد لخراسان فتح قلعة نيرك ببادغيس واحتلها وكان ملكها
قد خرج منها فلما جاء صالحه على ان يدفع اليه ما في القلعة من الخزائن
ويرتحل عنها بعياله وكتب يزيد إلى الحجاج بالفتح وكان كاتبه يحيى بن
عمر العدواني ونص كتابه إنا لقينا العدو فمنحنا الله أكتافهم فقتلنا طائفة
وأسرنا طائفة ولحق طائفة برءوس الجبال وعراعر الادوية وأهضام
الفيضان وأثناء الانهار : فلما جاء الكتاب الحجاج سأل عمن يكتب ليزيد

فقليل له يحيى بن يعمر فسكتب الى يزيد فحمله على البريد فقدم اليه أفصح الناس فقال له أين ولدت قال بالاهواز قال فهذه الفصاحة قال حفظت كلام أبي وكان فصيحاً قال من هناك قال فأخبرني هل يلحن بنبسة بن سعيد قال نعم كثيراً قال فقلان قال نعم قال فأخبرني عني ألحن قال نعم تلحن لحناً خفياً تزيد حرفاً وتنقص حرفاً وتعمل أن في موضع إن وإن في موضع أن قال أجلتك ثلاثاً فإن أجسدك بعد ثلاث بارض العراق قتلتك فرجع الى خراسان وفي سنة ٨٥ عزل الحجاج يزيد عن خراسان وولى مكانه أخاه المفضل : وفي عهد المفضل نزلت باذغيس وفتحت ثم نزل آخرون وشومان فظفر . ولم يكن للمفضل بيت مال كان يعطى الناس كما جاءه شيء وإن ذم شيئاً قسمه بينهم . ولم يلبث الحجاج أن عزل المفضل وولى مكانه قتيبة بن مسلم الباهلي وسيكون له ذكر جميل في خلافة الوليد

الفتوح في الشمال

لم يكن من الممكن في عهد الاضطراب الشديد أن تكون للمسلمين قوة أمام الروم الذين لا يتركون المسلمين وفي سنة ٧٠ ثار الروم واستجاشوا على من بالشام من المسلمين وذلك في الوقت الذي يتجهز فيه عبد الملك لحرب مصعب فاضطر أن يصالح ملك الروم على أن يؤدي عبد الملك اليه كل جمعة ألف دينار خوفاً على المسلمين ولما انقضت هذه السجادة واستقر الأمر لعبد الملك عادت الغزوات الى بلاد الروم فنظمت الشواتي والصوائف وافتتح عبد الملك قيسارية وفي سنة ٨١ فتحت قاليقلا وكان

أمير جندها عبيد الله بن عبد الملك وفي سنة ٨٤ غزا عبيد الله بن
عبد الملك ففتح المصيصة
الحج

كان الذي يقيم الحج عبد الله بن الزبير في عهد خلافته وفي سنة ٦٨
وافت عرفات أربعة أوية : ابن الحنفية في أصحابه في لواء وابن الزبير في
لواء ونجدة الحروري في لواء ولواء بني أمية قال محمد بن جبير خفت الفتنة
فمشيت اليهم جميعا فجئت محمد بن علي في الشعب فقلت يا أبا القاسم اتق
الله فلنا في مشعر حرام وبلد حرام والناس وقد الله الى هذا البيت فلا تفسد عليهم
حجهم فقال والله ما أريد ذلك وما أحول بين أحد وبين هذا البيت ولا يؤتى أحد
من الحجاج من قبلي ولكني رجل أدفع عن نفسي من ابن الزبير وما يروم مني
وما أطلب هذا الامر الآن لا يختلف على فيه اثنان ولكن ائت ابن الزبير
فكلمه وعليك بنجدة قال فجئت ابن الزبير فكلمته بنحو ما كلمت به ابن الحنفية فقال
أنا رجل قد اجتمع على الناس وبايعوني وهؤلاء أهل خلاف فقلت أري لك
خيرا الكف قال أفعل ثم جئت نجدة الحروري فأجده في أصحابه فعضمت
عليه وكلمته كما كلمت الرجلين فقال اما أن أبتدىء أحدا بقتال فلا ولكن
من بدأ بقتال قاتلته قلت فاني رأيت الرجلين لا يريدان قتالك : ثم جئت
شعبة بن أمية فكلمتهم بنحو ما كلمت به القوم فقالوا نحن على أن لا نقاتل
أحدا الا ان قاتلنا. ثم كان أول لواء انقض لواء ابن الحنفية ثم تبعه نجدة
ثم لواء بني أمية ثم لواء ابن الزبير وتبعه الناس : وهذه حادثة غريبة في تاريخ

الحج وبعد قتله كان بقيمة عمال بني أمية السكة الاسلامية

لم يكن للمسلمين سكة يضربون عليها دراهمهم ودنانيرهم وإنما كانوا يستعملون ما يضرب من الدراهم في بلاد الفرس وما يضرب من الدنانير في بلاد الروم حتى كانت سنة ٧٤ من الهجرة وهي سنة الجماعة ضرب عبد الملك الدراهم والدنانير الاسلامية وجعل وزن الدرهم أربعة عشر قيرطاً والدينار عشرين قيرطاً فكل عشرة دراهم سبعة مثاقيل وقد نقش عليها نقش إسلامي وأمر عبد الملك الحجاج أن يضربها بالعراق وقد نقش عليها أولاً باسم الله الحجاج ثم كتب عليها بعد سنة الله أحد الله الصمد فكره ذلك الفقهاء فسميت مكروهة وكانت له دار ضرب جمع فيها الطبايعين فكان يضرب المال للسلطان مما يجتمع له من التبر وخالصة الزيوف والستوقة والبهرجة ثم ضربت الدراهم والدنانير بعد ذلك في بقية الامصار الاسلامية وكانوا يعاقبون من ضرب على ذير سكة السلطان غتوبة شديدة . وسنوضح أمر السكة بعد

ولاية العهد

كان مروان قد ولي بعده عبد الملك ثم من بعده عبد العزيز بن مروان ففى سنة ٨٥ أراد عبد الملك ان يعزل عبد العزيز ويولى مكانه الوليد بن عبد الملك فاستشار قبيصة بن ذؤيب فنهاه عن ذلك واستشار روح بن زنباع الجذامى فقال لو خلعت ما انتطح فيه عنزان فبينما هو على ذلك اذ

(٢٨٦)

جاء الخبر بوفاة عبد العزيز فقال لروح كفانا الله يا بأزرعة ما كنا فيه وما
أجمعنا عليه

وعهد الى ابنه الوليد ثم من بعده لسليمان وكتب ببيعته لهما الى البلدان
فبايع الناس وامتنع من ذلك سعيد بن المسيب فضربه أمير المدينة هشام
ابن اسماعيل المخزومي وطاف به وحبسه فكتب عبد الملك الى هشام يلومه
على ما فعل ويقول سعيد والله كان أحوج أن تصل رحمه من أن تضربه وأنا لنعلم
ما عنده من شقاق ولا خلاف

وفاة عبد الملك

في يوم الخميس منتصف شوال سنة ٨٦ (٩ أكتوبر سنة ٧٠٥) توفي
عبد الملك بدمشق فكانت مدة خلافته منذ بويج بالشام احدى وعشرين
سنة وشهرا ونصفا من مستهل رمضان سنة ٦٥ الى منتصف شوال سنة ٨٦
وكانت خلافته مذ قتل ابن الزبير واجتمعت عليه الكلمة ثلاث عشرة سنة
 وخمسة أشهر بناء على أن ابن الزبير قتل في ١٧ جمادى الاولى سنة ٧٣ وكان
عمر عبد الملك ستين سنة لانه ولد سنة ٢٦

بيت عبد الملك

تزوج عبد الملك (١) ولادة بنت العباس بن جزء العبسي فولدت
له الوليد وساميات ومروان الأكبر (٢) عائكة بنت يزيد بن معاوية
فولدت له يزيد ومروان ومعاوية وأم كلثوم (٣) أم هشام بنت هشام
ابن اسماعيل المخزومي فولدت له هشاماً (٤) عائشة بنت موسى بن
طلحة التيمي فولدت له أبا بكر واسمه بكار (٥) أم أيوب بنت عمرو بن

ثمان بن عفان فولدت له الحكم (٦) أم المغيرة بنت المغيرة بن خالد المخزومي فولدت له فاطمة (٧) شقراء بنت سلمة بن حلبس الطائي (٨) ابنة لعلى ابن أبي طالب (٩) أم أبيها بنت عبد الله بن جعفر . وله من الاولاد عبد الله ومسلمة والمنذر وعنبسة ومحمد وسعيد الخير والحجاج لامهات الاولاد
صفة عبد الملك

كان عبد الملك قوى العزيمة ثابت النفس لا تزعزعه الشدائد ولى أمر الامة وهى فى غاية الاضطراب والاختلاف فما زال حتى جمعها وصيرها أمة واحدة تدين لخليفة واحد وسلمها لابنه الوليد وهى على غاية من الهدو والطمانينة ولكن الضحايا التى ذهبت فى سبيل ذلك كثيرة جدا لان الامة حية نشيطة لا تدين الا للقوة القاهرة التى هي فوق طاقتها والاهواء متشعبة وذلك مما يجعل المأزق ضيقاً لا يمر منه الا الكيس ذو العزم الثابت وكذلك كان عبد الملك يقول ما أظلم مكان أحد أقوى على هذا الامر مني وان ابن الزبير لطويل الصلاة طويل الصيام ولكن لبخله لا يصلح أن يكون سائساً : ومما عدا من مساوى عبد الملك انه قال مرة وهو على المنبر من قال لى بعد مقامي هذا اتق الله ضربت عنقه وقد أعتذر عن ذلك بأن كثيراً من الناس كانوا يقفون هذه المواقف قصد الشهرة حتى اذا أصابهم من جراء ذلك شر اشتبهوا بقوة القلب ومصادرة الخلفاء ولكن ذلك لا يصلح على أية حال عذرا ومما عدا من مساويه وهو قبيح غدره بعمر و بن سعيد وقتله اياه بعد أن أمنه وقالوا ان هذا أول غدر حصل فى الاسلام ومن

سن سنة سيئة فعليه انهما وانهم من عمل بها الى يوم القيامة
والتاريخ يدلنا على ان كبار الرجال الذين أقدموا على العزائم لم يسلموا
من الهنات في سبيل تأييد مطالبهم فلكل جواد كبوة ولكل صارم نبوة
وكان عبد الملك فصيحاً عالماً بالاخبار فقيهاً وقد قدمنا شيئاً من ذلك في
أول خلافته

٦ ﴿ الوليد الاول ﴾

هو الوليد بن عبد الملك بن مروان وأمه ولادة بنت العباس بن جزء
العبسي ولد سنة ٥٠ من الهجرة ولم تكن له ولاية العهد الا بعد وفاة عمه
عبد العزيز بن مروان ولما توفي أبوه عبد الملك ببيع بالخلافة في اليوم الذي
مات فيه لما رجع من دفنه بدمشق لم يدخل منزله حتي صعد على منبر دمشق
فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال أيها الناس انه لا مقدم لما أخر الله ولا
مؤخر لما قدم الله وقد كان من قضايا الله وسابق علمه وما كتب على أنبيائه
وحملته عرشه الموت وقد صار الى منازل الارار ولى هذه الامه بالذي يحق
عليه لله من الشدة على المريب واللين لاهل الحق والفضل واقامة ما أقام الله
من منار الاسلام وأعلامه من حج هذا البيت وغزو هذه الثغور وشن
هذه الغارة على اعداء الله فلم يكن عاجز ولا مفرطاً أيها الناس عليكم بالطاعة
ولزوم الجماعة فان الشيطان مع الفردأيها من ابدى الناس لنا ذات نفسه ضربنا
الذي فيه عيناه ومن سكت مات بدائه : ثم قام اليه الناس فبايعوه

الحال في عهد الوليد

كانت مدة الوليد غرة في جبين الدولة الاموية ففيها قام باصلاح داخلي عظيم واشتهر في الامة قواد نظام فتحوا الفتوح العظيمة وأضافوا الى المملكة الاسلامية بلادا واسعة واستردوا هيبتها في أنفاس الامم المجاورة لها وسبب ذلك أن الوليد تولى بعد أن وطأ عبد الملك الامور ومهدا فاستلمها الوليد والامة هادئة مطمئنة مجتمعة الكلمة وخبث نار الاهواء فان الخوارج ذهبت حدتهم وشوكتهم وقلت جموعهم وشيعة آل البيت نالهم ما جعلهم يهتمون بأنفسهم فلم يحركوا ساكنا ولم يوقظوا فتنة

الاصلاح الداخلى

كان الوليد ميالا الى العماره فاهتم في زمنه باصلاح الطرق وتسهيل السبل في الحجاز وغيره ففي سنة ٨٨ كتب الي عامله بالمدينة عمر بن عبد العزيز في تسهيل الشيا وحفر الآبار في البلدان وكتب الي سائر البلاد بذلك فعمل عمر بالمدينة الفوارة التي يستقى منها أهل المدينة وأجرى اليها الماء وأمر لها بقوام يقومون عليها : واصلاح الطرق من أهم ما يذكر لولاه الامر في اصلاح البلاد . ومن أعماله العظيمة بناء ذينك المسجدين العظيمين مسجد المدينة وجامع دمشق : ففي السنة المتقدمة مر عمر بن عبد العزيز بهدم المسجد النبوي وهدم بيوت أزواج الرسول وادخلها في المسجد وأن يشتري دورا في مؤخره ونواحيه ليتسع حتي يكون مثنى فراع في مثلها ومن أبي فلتقوم داره قيمة عدل وتهدم ويدفع اليهم تمنها فان لك في ذلك

سلف صدق عمر وعثمان وأرسل اليه الوليد بالفضلة والبنائين من الشام فعمل في ذلك عمر مع فقهاء المدينة وبعث الوليد إلى ملك الروم يعلمه أنه أمر بهدم مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ويطلب منه أن يعينه فيه فبعث اليه بمئة ألف مثقال ذهب وبعث اليه بمئة دامل وبعث اليه من الفسيفسا بأربعين جملاً فابتديء بعمارتها وأدخلت فيه جميع الحجر التي لازواج رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبق إلا حجرة عائشة التي فيها القبور الثلاثة وكان من رأي بعض أهل المدينة أن لا تكون في المسجد حذر أن يستقبلها بعض المسلمين في صلاتهم يشبهونها بالكعبة ففكر في ذلك عمر وقد هداه الفكر أن يثلث جهتها الشمالية حتى تنتهي بزاوية لا يمكن استقبالها فصار شكل الحجرة خمساً أما جامع دمشق وهو المعروف بالجامع الأموي فإن الوليد احتفل له احتفالاً عظيماً حتى خرج مناسباً لعظمة المملكة الإسلامية ولا يزال شيء من آثاره شاهداً بتلك العظمة وكان الناس في حياته قد شغفوا بالعمارة تبعاً له حتى كانت مسألتهم عنها إذا تقابلوا: وبني الوليد المصانع في الشام لتسهيل الاستقاء ومن الإصلاح العظيم حججه على المجذمين أن يسألوا الناس وجعل لهم من العطاء ما يقوم بحياتهم وأعطى كل مقعد خادماً وكل قائد ضرياً وعلى الجملة فكان الوليد محسناً إلى رعيته . ومما يدل على حسن معاملته للعلماء أنه حج سنة ٩١ وعمر بن عبد العزيز أمير على المدينة فلما وصل المدينة دخل إلى المسجد ينظر إلى بنائه فأخرج الناس منه فما ترك فيه أحد وبقي سعيد بن المسيب ما يجترىء أحد من الحرس أن يخرج به وما عليه إلا ريطتان ماتساويان خمسة دارهم فقبل له لو قمت فأبى أن يقوم قبل

الوقت الذي كان يقوم فيه قيل فلو سلمت على أمير المؤمنين فأبى أن يقوم إليه قال عمر بن عبد العزيز فجعلت أعدل بالوليد في ناحية المسجد رجاء أن لا يري سعيداً حتى يقوم فحانت من الوليد نظرة الى القبلة فقال من ذلك الجالس أهو الشيخ سعيد بن المسيب فجعل عمر يقول نعم يا أمير المؤمنين ومن حاله ولو علم بمكانك لقام فسلم عليك وهو ضعيف البصر قال الوليد قد علمت حاله ونحن نأتيه فنسلم عليه فدار في المسجد حتى وقف على المنبر ثم أقبل حتى وقف على سعيد فقال فقال كيف أنت ايها الشيخ فلم يتحرك سعيد ولم يقم فقال بخير والحمد لله فكيف أمير المؤمنين وكيف حاله قال الوليد خير والحمد لله فانصرف وهو يقول لعمر هذا بقية الناس فقال أجل يا أمير المؤمنين وقليل من ذوى السلطان من يعرف لمثل سعيد من العلماء ذوى الاسنان حقهم وسبب ذلك فيما نظن من قبل العلماء كثير أو من قبل ذوى السلطان قليلاً أما العلماء فانهم رضوا لا تقسمهم الذلة والمهانة بعبادتهم الدرهم والدينار حتى صار كل ما يصيبهم في الحصول عليهما سهلاً ولم بذلك ذو السلطان فاشترى منهم دينهم بما أفاضوا عليهم من الدنيا وحينذاك يضعف احترامهم وتقتل مكانتهم وأما ذو السلطان فانهم أحياناً يأخذ منهم الجبروت فلا يحبون أن يكون لأحد من رعييتهم كلمة فوق كلمتهم فيتجهزون لمن يبدي لهم نصيحة أو يعرفهم واجباً فيحاربونهم اقصد اذلالهم وخطط درجتهم ولكن الذي يريد الله ومصاحبة المسلمين بنصيحة فانه لا يضره شيء من ذلك والتاريخ شاهد صدق على ذلك

ومن حسنات الوليد استعانته في عمله بعمر بن عبد العزيز الذي

أعاد سيرة سلف هذه الامة الصالح فقد ولاه المدينة سنة ٨٧ فقدمها وسنه ٢٥ سنة فنزل دار مروان ولما صلى الظهر دعا عشرة من فقهاء المدينة عروة ابن الزبير وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة وأبابكر بن عبد الرحمن وأبابكر ابن سليمان بن أبي خيثمة وسليمان بن يسار والقاسم بن محمد بن أبي بكر وسالم ابن عبد الله بن عمر وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عامر بن ربيعة وخارجة بن زيد وهم اذذاك سادة فقهاء الدنيا فلما دخلوا عليه اجلسهم ثم حمد الله وأثنى عليه ثم قال انى انما دعوتكم لامتور تجرون عليه وتكونون فيه أعوانا على الحق ما أريد أن أقطع أمراً الا برأيكم أو برأى من حضر منكم فان رأيتم أحداً يتعدى أو يبلغكم عن عامل لى ظلامة فأخرج الله على من بلغه ذلك الا يلقى فخرجوا يمجرونه خيراً وأفترقوا وبهذا العمل جدد فيهم سيرة عمر بن الخطاب وهو جده من قبل أمه وقد عزله الوليد عن المدينة سنة ٩٣ بسبب شكوى من الحجاج أن مرقأ أهل العراق وأهل الشقاق قد جلوا عن العراق ولجأوا الى المدينة ومكة وان ذلك وهن فاستشاره فيمن يولىه على المدينة فإشار بشمان بن حيان المري فولاه المدينة

الحاضرة الثامنة والثلاثون

الفتوح فى عهد الوليد — ولاية العهد — وفاة الحجاج —

وفاة الوليد — سليمان

الفتوح فى عهد الوليد

اشتهر فى زمن الوليد أربعة قواد عظام كان لهم أجمل الأثر فى الفتح الاسلامي وهم (١) محمد بن القاسم بن محمد الثقفى (٢) قتيبة بن مسلم الباهلى (٣)

موسى بن نصير (٤) مسلمة بن عبد الملك بن مروان

فأما القاسم بن محمد فانه كان أيرأ على ثغر السند من قبل الحجاج بن يوسف وكان الحجاج قد ضم اليه ستة آلاف من جند أهل الشام وجهزه بكل ما احتاج اليه فسار القاسم إلى بلاد السند حتى أتى الديبل (١) فنزل عليه وكان به بدء عظيم والبدء منارة عظيمة تتخذ في بناء لهم فيه صنم أو أصنام لهم وكل شيء أعظموه من طريق العبادة فهو عندهم بدء وكانت كتب الحجاج ترد على محمد وكتب محمد ترد على الحجاج بصفة ما قبله واستطلاع رأيه فيما يعمل به كل ثلاثة : ولم يزل القاسم حاصراً للديبل حتى خرج العدو اليه مرة فهزمهم ثم أمر بالسلام فوضعت وصعد عليها الرجال ففتحت عنوة وقتل عامل داهر عليها ثم بني بها مسجداً وأنزلها أربعة آلاف . ثم أتى البيرون فأقام أهل العلوقة للقاسم وأدخلوه مدينتهم وكانوا قد بعثوا سمنيين منهم إلى الحجاج فصالحوه ذوفي لهم محمد بن القاسم بالصلح ثم جعل لا يمر بمدينة الافتحها حتى عبر نهر آدون مهران (٢) فأناء سمنية سر يبدس فصالحوه على من خلفهم ووظف إليهم الخراج وسار إلى سبهان ففتحتها ثم إلى مهران فبلغ ذلك داهر ملك السند فاستعد لمحاربتة : ثم إن محمداً عبر مهران وهو نهر السند على جسر قد قد فالتقي بداهر في جنوده السككيرة وهو على فيل وحوله الفيلة فاقتتلوا قتالاً شديداً لم يسمع بمثله وترجل داهر وقاتل فقتل عند المساء وانهزم المشركون فقال في ذلك قاتل داهر

الخيل تشهد يوم داهر والتمنا ومحمد بن القاسم بن محمد

(١) مدينة على ساحل نهر الهند

(٢) نهر السند يصب في خليج فارس وهو نهر بقدر دجلة

انى فرجت الجمع غير مغرّد حتى علوت عنائهم بمهند
 فتركتته نحت العجاج مجدلاً متعفر الخدين غير وسد
 ولما قتل داهر غلب محمد بنى بلاد السند . ثم فتح راور عنوة ثم أتى برهنا
 باذالعتيقة فقاتله بها فل داهر ولكنهم انهزوا فخلف بهاء لا ثم سار فلتقاه
 أهل ساوندرى وسألوا الأمان فأعطاهم إياه واشترط عليهم ضيافة المسلمين
 ودلائلهم : ثم تقدم إلى بسند فصالح أهلها على مثل صالح ساوندرى : ثم انتهى
 إلى الرور (١) وهي من مدائن السند فحصر أهلها ثم فتحها صلحاً إلى أن لا يقتلهم
 ولا يعرض لبدنهم وقال ما البد إلا ككنائس النصاري واليهود ويوت نيران
 المجوس ووضع عليهم الخراج وبنى بالرور مسجداً : ثم سار حتى قطع نهر بباس
 إلى الملتان فقاتله أهل الملتان فهزمهم حتى أدخلهم المدينة وحصرهم ثم نزلوا على
 حكمه فقتل كثير منهم وأصاب فيهم ما غنم كثيرة وافرّة وكان بد الملتان تهدي إليه
 الأموال وتنذر له النذور ويحج إليه السند في طوفون به ويحلقون رءوسهم ولحاهم
 عنده فحاز محمد ذلك كله : وفي ذلك الوقت بلغته وفاة الحجاج فرجع عن الملتان إلى
 الرور وبغور وكان قد فتحها فأعطى الناس ووجه إلى البيلمان جيشاً فلم يقاتلوا
 وأعطوا الطاعة وسأله أهل سرست ثم أتى الكيرج فخرج إليه دهر فقاتله
 فانهزم العدو وهرب دهر : بمدائع هذه الفتوح العظيمة التي نشرت ظل
 الاسلام على جميع بلاد السند مات الوليد بن عبد الملك فوقف أمر محمد وسنتكم

(١) ناحية بالسند تقرب من الملتان في الكبر وعابها سوران وهي على شاطئ
 نهر هيران على البحر وهي متجرو وفرضة بهذه البلاد وبينهم وبين الملتان أربع
 أميال وبالقرب من الرور مدينة بغور

بعد على خاتمة حياته وأما قتيبة بن مسلم فكان أميراً على خراسان للحجاج بن يوسف
ولاه عليها بعد الفضل بن المهلب سنة ٨٦ فلما قدمها خطب الناس وقال لهم إن الله قد
أحكم هذا المحل أيعز دينه ويذب بكم عن الحرمات ويزيد بكم المال استفاضة والعدو
وقمّا ووعد نبيه صلى الله عليه وسلم النصر بحديث صادق وكتاب ناطق فقال (هو
الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون)
ووعد المجاهدين في سبيله أحسن الثواب وأعظم الذخر عنده فقال (ذلك بأنهم
لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يطئون موطئاً يغيظ الكفار
ولا ينالون من عدو نيلاً إلا كتب لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين
ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً إلا كتب لهم ليجزيهم الله
أحسن ما كانوا يعملون) ثم أخبر عن قتل في سبيله أنه حي مرزوق فقال (ولا
تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أموالاً بل أحياء عند ربهم يرزقون) فتنجز وأموه وود
ربكم ووطنوا أنفسكم على أقصى أثر وأمضى ألم وإياي والهوينا
ثم عرض الجند في السلاح والكرراع وسار واستخلف على مرو فلما كان
بالطالقان تلقاه دهاقين بلغ وعظماؤهم فساروا معه ولما قطع النهر تلقاه ملك الصغانيان
بهدايا ومفتاح من ذهب فدعاه إلى بلاده فأثاء وأتي ملك كفتان بهدايا وأموال
ودعاه إلى بلاده فمضي مع ملك الصغانيان فسلم إليه بلاده وكان ملك آخر ون
وشومان قد أساء جواره وضيق عليه فسار قتيبة إلى آخر ون وشومان وهما من
طخارستان فجاءه الملك فصالحه على فدية أداها فقبلها قتيبة ورضي ثم عاد إلى مرو
واستخلف على الجند ولما لم بذلك الحجاج كتب إليه يلومه ويعجز رأيه في
تخليفه الجند وكتب إليه إذا غزوت فكن في مقدم الناس وإذا قلت فكن في

آخر يأتهم وساقهم

وفي سنة ٨٧ قدم على قتيبة نيزك وصالحه وكان سبب ذلك انه كان في يد نيزك أسري من المسلمين فكاتب اليه قتيبة يأمره باطلاقهم ويهدده فخافه نيزك فأطلق الأسري فوجه اليه قتيبة يطلب منه القدوم عليه وحلف بالله لئن لم يفعل ليغزونه وليطلبه حيث كان لا يقطع عنه حتي يظفر به أو يموت قبل ذلك فقدم عليه نيزك وصالحه على أهل باذغيس على أن لا يدخلها

بعد ذلك غزا قتيبة بيكند وهي أدنى مدائن بخارى الي النهر فلما نزل بهم استنصروا الصنف واستمدوا من حولهم فأتوهم في جمع كثير وأخذوا بالطريق فلم ينفذ لقتيبة رسول ولم يصل اليه رسول ولم يجزله خبر شهرين وأبطأ خبره على الحجاج فأشفق على الجند والقتال دائر بين قتيبة وبين عدوه وفي ذات يوم لقي المسلمون عدوهم بجد حتى أنزل الله عليهم نصره فانهزم العدو عنهم يريدون دخول المدينة فحال المسلمون بينهم وبينها ففرقوا وركب المسلمون اكتافهم واعتصم بالمدينة عدد قليل دخلها ولما رأوا قتيبة ابتدأ بهدمها سألوا الصلح فصالحهم وولى عليهم أميراً وسار عنهم فلما كان على خمسة فراسخ بلغه أن أهل بيكند غدروا بالعامل فقتلوه وأصحابه فرجع اليهم وفتح المدينة عنوة فقتل مقاتليها وأصاب فيها مغنم كثيرة ثم عاد إلى مرو : ولما كان الربيع سار عن مرو وفي عدة حسنة من الدواب والسلاح وعبر النهر حتى أتى نومشكت وهي من بخارى فصالحه أهلها ثم سار إلى راميشنة فصالحه أهلها فانصرف عنهم وزحف اليه الترك معهم السفند وأهل فرغانة فاعترضوا المسلمين في طريقهم فقاتلهم المسلمون قتالاً شديداً أبلى فيه نيزك بلاء حسناً وهو مع قتيبة حتى انهزم الترك وفض جمعهم ثم رجع إلى مرو

وقطع النهر من ترمذير يدا بلخ ثم أتى مرو.

ثم أراد أن يفتح بخارى فعبر النهر ومضى إلى بخارى فنزل خرقة السفلي فلقيته جموع كثيرة فقاتلهم وهزمهم ولما وصل بخارى استعدله ملكها فلم يظفر من البلد بشئ فرجع إلى مرو وكتب إلى الحجاج بذلك فكتب إليه الحجاج أن صورها لي فبعث إليه بصورتها فكتب إليه الحجاج أن أرجع إلى مراغتك فتب إلى الله مما كان منك وإني أمان كان كذا فخرج قتيبة عن مرو سنة ٩٠٠ فاستنصر ملك بخارى بالسند والترك ومن حولهم ولكن قتيبة سبقهم إلى بخارى فحصرها وفي أثناء الحصار جاء أهل بخارى المدد فخرجوا لقتال المسلمين فصبروا ولهم ثم جال المسلمون وركبهم المشركون فخطموهم حتى دخلوا عسكر قتيبة في القلب وجازوه حتى ضرب النساء وجوه الخيل وبكين فكر الناس راجعين وانطوت مجنتا المسلمين على الترك فقاتلهم حتى ردوهم إلى مواقفهم فوقف الترك على نشز فقال قتيبة من يزيلاهم لناسن هذا الموضع فلم يجبه أحد فمشي إلى بني تميم وقال لهم يوم كأيامكم أبي اسكم الفداء فأخذوكيم وهو رأسهم اللواء بيده وقال يا بني تميم أتسلموني اليوم قالوا لا يا أبا مطرف وكان هزيم بن أبي طحمة المجاشعي على خيل بني تميم فقال وكيم قدم ياهريم ورفع إليه الراية وقال قدم خيلك فتقدم هريم ودب وكيع في الرجال فانتهى هريم إلى نهريته وبين العدو فوقف فقال له وكيع أقحم ياهريم فنظر إليه هريم نظر الجمل الصؤول وقال أنا أقحم خيلي هذا النهر فان انكشفت كان هلاكها والله أنك لاحق فقال وكيع مغضباً تخالفتني وحذفتي بعمود كان معه فضرب هريم فرسه ذات حمة وقال ما بعد هذا أشد منه وذهب هريم في الخيل وانتهى وكيع إلى النهر فدعا بنخشب فتنظر النهر وقال أصحابه من

وطن منكم نفسه على الموت فليبرو من لا قليثبت مكانه نعيم معه ٨٠٠ راجل فدب
فيهم حتى اذا اعيوا اقمدهم فأراحوا ثم دنا من العدو فجعل الخيل مجنبيه وقال لهرير
اني مطاعن القوم فاشغلهم عنا بالخيل وقال للناس شددوا ان حملوا فمما نشوا حتى
خالطوهم وحمل هريم خيله عليهم فطاء: وهم بالروح فما كفوا عنهم حتى حذروهم
عن موقفهم وهزمهم وجرح في هذا اليوم خاقان ملك الترك ولابنه: ولما تم الفتح
كتب به قتيبة الى الحجاج ولما تم اقتيبة: اراد من بخارى اهل الصغد فطلبوا
صلحه فصالحهم على فدية يؤدونها

وفي سنة ٩٣ فتح قتيبة مدائن خوارزم صلحاً وكانت مدينة الفيل اُحصن
ثم غزا سمرقند وهي مدينة السغد ففتحها بعد قتال شديد وبني بها مسجداً وصلى
فيه وكان معه في هذه الغزوة اهل بخارى وخوارزم ولما فتح اذعانها بن توسعة
فقال يانهاراين قولك

الاذهب الغزو المقرب للغنى ومات الندى والجود بعد المهلب
أقام بمرور الروذ رهن ضريبة وقد ثيبا عن كل شرق ومنرب
أفغزو اهذا يانهار قال لا هذا أحسن وأنا الذي أقول

وما كان مذكنا ولا كان قبلما ولا هو فيما بعدنا كابن مسلم
أعم لاهل الترك قتلا بسينه واكثر فينا مقسما بعد مقسم
ثم ارتحل قتيبة راجعاً الى مرو واستخلف على سمرقند عبد الله بن مسلم وخلف
عنده جنداً كثيفاً وآله من آلات الحرب كثيرة. ثم انصرف الى مرو فأقام بها
وفي سنة ٩٤ غزا قتيبة شاش (١) وفرغانة (٢) حتى بلغ خجندة وكاشان

(١) اقليم متاخم لبلاد الترك واقليمها الكبر اقليم ما وراء النهر وخراسان وقصبتها
بنكث وله مدن كثيرة خربت (٢) مدينة وكورة ما وراء النهر متاخمة

مدينتي فرغانة وقاتله أهل خجندة قتلا شديداً فزعمهم ثم أتى كاشان
فافتتحها وفي سنة ٩٦٠ افتتح مدينة كاشغر (١) وهي أدنى مدائن الصين
سار اليها من مرو و فر بفرغانة وجاءه وهو بها وت الوليد بن عبد الملك فلم
يقعده ذلك من الغزو وسار الى كاشغر فافتتحها وكان يده وبين ملك الصين
هناك مراسلات وأرسل اليه قتيبة وفداً عليهم هبيرة بن المشمرج الكلابي فلما
كلمهم ملك الصين قال لهم قولوا لقتيبة ينصرف فاني قد عرفت حرصه وقلة أصحابه
والأبعث اليكم من يهلككم ويهلكه فقال له هبيرة كيف يكون قليل الأصحاب
من أول خيله في بلادك وآخرها في منابت الزيتون وكيف يكون حريصاً من
خلف الدنيا قادراً عليها وغزالك وأمانخوينك ايانا باقتل فان انا آجالا اذا حضرت
فاكرمها بالقتل فلما نكرهه ولا نخافه قال فما الذي يرضى صاحبك قال انه
قد حلف أن لا ينصرف حتى يطاء أرضكم ويختم ملوككم ويعطى الجزية قال فانا
نخرجه من يمينه نبعث اليه تراب من تراب أرضنا فيطؤه ونبعث ببعض أبنائنا
فيختتمهم ونبعث اليه بجزية يرضاهم ثم دعا بصحاف من ذهب فيها تراب وبعث
بحريرو ذهب وأربعة غلمان من أبناء ملوكهم ثم أجاز الوغد فساروا حتى قدموا
على قتيبة فقبل الجزية وختم الغلطة وردهم ووطىء التراب ثم عاد الى مرو

هكذا فتح هذا القائد العظيم تلك البلاد الواسعة وضربها الى المملكة
الاسلامية فانتشر فيها الاسلام حتى أخرجت العظماء من كتاب المسلمين وفقهاءهم
ومحدثيهم وعلمائهم: كانت اقمقبة هممة لم تعرف عن الكثير من قواد الجنود

لبلاد تركستان في زاوية من ناحية هيطل بينها وبين سمرقند ٥٠ ف ومن ولايتها خجندة
(١) مدينة يسافر اليها من سمرقند وهي في وسط بلاد الترك

(٣٠٠)

وكان له في سياسة جنده الغاية فأحبهم وأحبوه وساتهم الى الموت فلم يبالوا
وسنتكم بعد على خاتمة حياته

وأما موسى بن نصير فانه ذلك القائد العظيم الذي فتح بلاد الاندلس
وأدخل الاسلام في قارة أوروبا ولما كنا عازمين أن نفرّد تاريخ الاندلس بفصل
خاص نعقده له فيما نستقبل من محاضراتنا ان شاء الله فانا نؤجل الكلام
عن فتحه الآن

وأما مسلمة بن عبد الملك فان عزمته ظهرت في حروب الروم فكان
في كل سنة يسير اليهم الجنود فيفتح ما أمامه من الحصون العظيمة التي أقامها
الروم لحفظ بلادهم وربما كان يغزو معه العباس بن الوليد بن عبد الملك
ومن الحصون التي افتتحوها حصن طوانة وحصن عمورية واذا ورالية وهرقله
وقمونية وسبسطية والمرزبانين وطرسوس وكثير غيرها حتى هاجم الروم
ولاية العهد

كان عبد الملك قد ولي عهده ابنه الوليد ثم سليمان ولم يعتبر بما
كان منه في حق أخيه عبد العزيز وقد أباد الوليد عمل أبيه فاراد عزل
سليمان وتولية عبد العزيز بن الوليد ودعا الناس الى ذلك فلم يجبه الا
الحجاج بن يوسف وقتيبة بن مسلم وخواص من الناس فأشار على الوليد
بعض خاصته أن يستقدم سليمان ويريده على خلع نفسه وبيعة عبد العزيز
فكتب اليه فاعتل فأراد الوليد أن يسير اليه فأمر الناس بالتأهب ولكن
منيته حالت دون ذلك : ومن هذا كان الجفاء الشديد بين سليمان والحجاج
ومن على رأيه

وفاة الحجاج

في شوال سنة ٦٥ توفى بالعراق الحجاج بن يوسف الثقفي أمير
العراقيين وما بينهما من المشرق كله وكانت سنة ٤٥٥هـ سنة واستخلف على
الصلاة ابنه عبد الله بن الحجاج وعلى حرب الكوفة والبصرة يزيد بن
أبي كبشة وعلى خراجهما يزيد بن أبي مسلم وكانت ولايته على العراقيين
عشرين سنة

كانت للحجاج نفس تحب العلو في الارض ولا تقبل أن يقف في طريقها
عظيم من العظماء أو سيد من السادات فان فعل أحد شيئاً من ذلك
هاجت تلك النفس ولم تبال بما فعلت في سبيل تأييد سلطانها ونفاذ كামتها
واذا كان لتلك النفس قوة فهناك المذاب الا كبر والعسف الشديد واذا كانت
تلك النفس ضميقة استعملت ما يمكنها من فتنة الناس والسعي بينهم بالانباء
الكاذبة حتي تكبهم على وجوههم وكان الحجاج من القسم الاول فعسف
أهل العراق وأذل عظماءهم حتى لم يكن عندهم امتناع : اسرف في القتل
والجور لتأييد سلطانه وسلطان من ولاه حتى انتهى أمره الى السلطان القاهر
والكلمة التي لا ترد : قال له عبد الملك يوماً كل امرئ يعرف عيوب
نفسه فعب نفسك ولا تنجأ عنى شيئاً . قال أنا لجوج حقوق حاسوب : ومتي
كانت هذه الصفات في ذى سلطان أهلك الحرث والنسل الا أن يدين
له الناس ويذلوهاوه كذا فعل الحجاج

لم يكن الحجاج خالياً من الفضائل بل كان يعجبه الصدق والكلمة
الحسنة تبدر من صاحبها وربما كفته شراً عظيماً : وكان فصيحاً لا يكاد

يمادله أحد في الفصاحة من أهل زمنه وكانوا يقرنون به الحسن البصري
 وكان من قراء القرآن وحفاظه المعدودين : وعلى الجملة فإن الرجل مهد بلاد
 العراق بعد أن ضحى في سبيل ذلك أنفسا كثيرة وكان الخراج العراقي
 في زمن الفتن والعسف قد قل جدا : وأنا كما علمت لست ممن يجبه
 الإصلاح بطريقة الحجاج ولا أعدها أصلا حقة قويا وإنما هي طريقة
 اذلال واخضاع لا يدوم أثرها كثيرا لأن النفوس تنطوي على ما فيها من
 البغض والكراهة حتى إذا حانت لها الفرصة وثبت

وفاة الوليد بن عبد الملك

في منتصف جمادي الآخرة سنة ٩٦ توفي بدير مران الوليد بن عبد
 الملك (٢٥ فبراير سنة ٧١٥) بعد أن مكث في الخلافة تسع سنين وثمانية
 أشهر (من منتصف شوال سنة ٨٦ الى منتصف جمادى الثانية سنة ٩٦)
 وكانت سنه اذ توفي ستا وأربعين سنة وكان له من الاولاد تسعة عشر ابنا

(سليمان)

هو سليمان بن عبد الملك بن مروان ولد سنة ٥٤ من الهجرة
 بويوم بالخلافة بعد موت أخيه وكان بالرملة من أرض فلسطين وكانت
 لاول عهده أحداث خير وشر

كان سليمان يبغض الحجاج وأهله وولاته وكان الحجاج يخشى أن يموت
 الوليد قبله فيقع في يد سليمان فمجل الله به وكان على العكس من ذلك يميل
 الى يزيد بن المهلب عدو الحجاج الاله : فلما ولي سليمان كان أول عمل بدأ به
 أن ولي يزيد بن أبي كبشة السكسكى السند فأخذ محمد ابن القاسم وقيسده

وحمله الى العراق فقال محمد متمثلاً

أضأوني وأني فتي أضأوا ليوم كريمة وسداد ثمر
فبكى أهل السند على محمد فلما وصل الى العراق حبس بواسطة فقال

فلئن ثويت بواسطة وبارضها رهن الحديد مكبلاً مغلولاً

فلرب قينة فارس قدرعتها ولرب قرن قد تركت قتيلاً

ثم عذبه صالح بن عبد الرحمن في رجال من آل أبي عقيل حتى قتلهم
بذلك انتهت حياة هذا القائد ارضاء لاهواء الخليفة حتى تقر نفسه بالانتقام
وتناسى ما فعله ذلك القائد من عظيم الاعمال ولا ندرى كيف تنبغ القواد
وتخلص قلوبهم اذا رأوا أن نتيجة أعمالهم تكون على مثل ذلك

أما القائد الثاني قتيبة بن مسلم فانه كان ممن وافق الوايد على خرضه
في عزل سليمان وتولية ابنه عبد العزيز فاضطغنهما عليه سليمان وهو بعد من
صنائع الحجاج فلما ولي سليمان أشفق منه قتيبة وخاف أن يولى خراسان
يزيد بن المهلب فكتب اليه كتاباً يهنئه بالخلافة ويمزيه عن الوليد ويعلمه
بلاءه وطاعته لعبد الملك والوايد وأنه له على مثل ما كان لهما عليه من الطاعة
والنصيحة ان لم يعزله عن خراسان وكتب كتاباً ثانياً يعلمه فيه فتوحه
ونكايته وعظم قدره عند ملوك العجم وهيئته في صدورهم وعظم صوته
فيهم ويذم المهلب وآل المهلب ويحلف بالله لئن استعمل يزيد على خراسان
ليخلعنه وكتب كتاباً ثالثاً فيه خلمه وأرسل الكتب الثلاثة مع رجل باهلي
وقال له ادفع اليه الكتاب الاول فان كان يزيد بن المهلب حاضراً فقرأ الكتاب
ورماه اليه فادفع اليه الثاني فان قرأ دورماه اليه فادفع اليه الثالث فان قرأ الكتاب

الاول ولم يرمه اليه فاحتبس الكتابين الاخرين فقدم رسول قتيبة على سليمان وعنده يزيد بن المهلب فدفع اليه الكتاب الاول فقرأه ورماه الى يزيد فدفع اليه الثاني فقرأه ورماه الى يزيد فاعطاه الثالث، فقرأه فتعمر وجهه واحتبس الكتاب في يده وحول الرسول الى دار الضيافة ولما أسي اجاز الرسول وأعطاه همد قتيبة علي خراسان فخرج حتى اذا كان بحلول ان بلغه ما كان من أمر قتيبة كان قتيبة غير مطمئن الى سليمان فأجمع رأييه على خلعه فدعا الناس الذين معه الى ذلك فأبى عليه الناس وولوا أمرهم وكيما سيد بني تميم فثار على قتيبة حتى قتلوه هو واخوته واكثر بنييه قال رجل من عجم خراسان يا معشر العرب قتلتم قتيبة والله لو كان منا فمات فينا جعلنا في تابوت فكنا نستفتح به اذا غزونا وما صنع أحد قط بخراسان ما صنع قتيبة الا انه قد غدر وذلك أن الحجاج كتب اليه أن اختلهم واقتلهم وكانوا يسمون قتيبة هناك ملك العرب فانظروا كيف كانت قوة قتيبة وسيادته في الجماعة وكيف ضاع ذلك كله بسبب هذه الفتنة التي تعجلها قتيبة وما كان ضرره لو تأني قال عبد الرحمن ابن جمانة الباهلي يرثيه

كان أبا حفص قتيبة لم يسر	بجيش الى جيش ولم يعمل منبرا
ولم تخفق الرايات والقوم حوله	وقوف ولم يشهد له الناس سكرًا
دعته المنايا فاستجاب لربه	وراح الى الجنات دفنًا مطهرًا
فما رزيء الاسلام بعد محمد	بمثل أبي حفص فيكيه عبهرًا

وكانت قيس تزعم ان قتيبة لم يخلع وانما تنجني عليه وكيه وعلى كل حال فان الذي حصل كان موافقًا لهوى سليمان بن عبد الملك

وأما القائد الثالث وهو موسى بن نصير فان خاتمة حياته كانت أتعس من صاحبيه فانه قبل أن يتوفى الوليد استقدمه الى دمشق فقدم وقدمات الوليد وكان سليمان منحرفاً عنه فعزله عن جميع الاعمال وحبسه وأغرمره مالا عظيماً لم يقدر على وفائه فكان يسأل العرب في معونته وعلى الجملة فان فاتحة عهد سليمان لم تكن مما يسر لما أصاب هؤلاء القواد العظام من التعس بعد حسن بلائهم

أما العامة فانهم استبشروا به لانه أزاح عنهم عمال الجور والعسف الذين كانوا عليهم في عهد أخيه وأطلق الاسارى وخلي أهل السجون وأحسن إلى الناس الفتوح في عهده

في عهد اماره يزيد بن المهلب خراسان فتح دهستان بعد أن حاصرها مدة طويلة ثم اتى جرجان فصالحه أهلها وخلف فيهم جنداً وسار الى طبرستان فقاتله بها الاصيبه بقتالا شديداً ثم صالحه أخيراً وبينا هو محاصر طبرستان بلغه أن أهل جرجان غدروا بهامله وقتلوه هو ومن معه فعاد اليهم وفتح جرجان الفتح الاخير وقتل من أهلها مقتلة عظيمة وكان فتحه لهذه البلاد فتحاً عظيماً لانها كانت ارتدت وقطعت الطريق على المسلمين وكتب يزيد الى سليمان بن عبد الملك (أما بعد فان الله قد فتح لامير المؤمنين فتحاً عظيماً وصنع للمسلمين أحسن الصنع فلربنا الحمد على نعمه واحسانه في خلافة أمير المؤمنين على جرجان وطبرستان وقد أعيا ذلك سابور ذا الاكتاف وكسرى ابن قباذ وكسرى بن هرمز وأعيا الفاروق عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان ومن بعدهما من خلفاء الله حتى فتح الله ذلك لامير المؤمنين كرامة من الله له

(٣٠٦)

وزيادة في نعمه عليه وقد صار عندي من خمس ما أفاء الله على المسلمين بعد ان صار الى كل ذى حق حقه من الفىء والغنيمة ستة آلاف ألف وأنا حامل ذلك لا مير المؤمنين ان شاء الله

في بلاد الروم

في عهد سليمان سنة ٩٨ جهز أخاه مسلمة بن عبد الملك بجند عظيم لفتح القسطنطينية وأمره أن يقيم عليها حتي يفتحها أو يأتيه بها أمره فجاءها وحاصرها وشتى بها وصاف ومات سليمان وهو لها محاصر ولاية العهد

كان سليمان بن عبد الملك قد عهد لابنه أيوب فمات وهو ولي عهده فلما مرض سليمان استشار رجاء بن حيوة في تولية عمر بن عبد العزيز فوافقه على ذلك وكتب (بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من عبد الله سليمان أمير المؤمنين لعمر بن عبد العزيز إني قد وليتك الخلافة من بعدى ومن بعدك يزيد ابن عبد الملك فاسمعوا له وأطيعوا واتقوا الله ولا تختلفوا فيضع فيكم) وختم الكتاب وأمر بجمع أهل بيته فاجتمعوا قال لرجاء اذهب بكتابي هذا اليهم فاخبرهم أن هذا كتابي وأمرهم فليبايعوا من وليت فبايعوا كلهم من غير أن يعلموا من سماه

وفاة سليمان

في يوم الجمعة لعشر بقين من صفر سنة ٩٩ توفي سليمان بن عبد الملك بدابق من أرض قنسرين بعد أن حكم سنتين وثمانية أشهر وخمسة أيام وكانت سنة اذ توفي ٤٥ سنة

(٣٠٧)

المحاضرة التاسعة والثلاثون

عمر - يزيد الثاني

٨ (عمر)

هو عمر بن عبد العزيز بن مروان ولد سنة ٦٢ هجرية وأمه أم عاصم بنت عاصم ابن عمر بن الخطاب ولي الخلافة بعد سليمان بن عبد الملك باستخلافه إياه لما مات سليمان خرج رجاء بمعهده الذي لم يكن فتح وجمع بنى أمية في مسجد دابق وطلب منهم المبايعة مرة ثالثة لمن سماه سليمان في كتابه فلما تمت بيعتهم أخبرهم بوفاة أمير المؤمنين وقرأ عليهم الكتاب ولما انتهى أخذ بضبعي عمر فاجلسه على المنبر وهو يسترجع لما وقع فيه وهشام بن عبد الملك يسترجع لما أخطأ.

ولما تمت البيعة أتى بمراكب الخلافة البراذين والخيول والبغال ولكل دابة سائس فقال ما هذا قالوا مركب الخلافة قال دابتى أوفق لى وركب دابته فصرفت تلك الدواب ثم أقبل سائرا فقبل له منزل الخلافة فقال فيه عيال أبي أيوب وفي فساطى كفاية حتى يتحولوا فأقام في منزله حتى فرغوه بعد كان عمر بن عبد العزيز بعيداً عن كبرياء الملوك وجبروتهم فأعاد إلى الناس سيرة الخلفاء الراشدين الذين كانوا ينظرون إلى أمتهم نظراً بالبر ويعدلون بينهم في الحقوق ويعفون عن أموال الرعية والدنيا عندهم أهون من أن يهتم بجمعها : كذلك كان عمر بن العزيز

في أول خلافته أرسل كتاباً عاماً إلى جميع العمال بالامصار هذه نسخته (أما بعد فان سليمان بن عبد الملك كان عبداً من عبيد الله أنعم الله عليه ثم قبضه واستخلفني

وزيد بن عبد الملك من بعدى ان كان وان الذى ولا ني الله من ذلك وقد رلى ليس
على بهين ولو كانت رغبتي فى اتخاذا زواج وأتمتقاد أموال كان فى الذى أعطانى من
ذلك ما قد بلغ بى أفضل ما بلغ بأحد من خلقه وأنا أخاف فيما ابتليت به حسا بأشديداً
ومسئلة شليظة الاما فى الله ورحم وقد بايع من قبلنا فبايع من قبلك) .
وهذا الكتاب ينبي عن حقيقة الرجل وتواضعه وبعده عن الزهو والكبرياء
وشعوره بعظيم ما ألقى عليه من أ. ر المسلمين

مما يدل على حبه للعدل والوفاء أن أهل سمرقند قالوا لعاملهم سليمان بن أبي
السر أن قتيبة غدر بنا وظلمنا وأخذ بلادنا وقد أظهر الله العدل والانصاف
فأذن لنا فليقدمنا وفد الى أمير المؤمنين يشكون ظلامتنا فإن كان لنا حق أعطينا
فإن بنا الى ذلك حاجة فأذن لهم فوجهوا منهم قوماً الى عمر فلما علم عمر ظلامتهم
كتب الى سليمان يقول له ان أهل سمرقند قد شكوا الى ظلمنا أصابهم ونحاملنا من
قتيبة عليهم حتى أخرجهم من أرضهم فاذا أناك كتابى فأجلس لهم القاضى فلينظر
فى أمرهم فإن قضى لهم فأخرجهم الى معسكرهم كما كانوا وكنتم قبل أن ظهر عليهم
قتيبة فأجلس لهم سليمان جميع بن حاضر القاضى فقضى أن يخرج عرب سمرقند
الى معسكرهم وينابذوهم على سواء فيكون صلحاً جديداً أو ظفراً تنوة : فقال
أهل السغد بل نرضى بما كان ولا نجد حرباً إلا نذوى رأيهم قالوا قد خالطنا هؤلاء
القوم وأقمنا معهم وأمنونا وأمناهم فان عدنا الى الحرب لا ندرى لمن يكون الظفر
وان لم يكن لنا كتنا قد اجتلبنا عداوة فى المنازعة فتركوا الأمر على ما كان ورضوا
ولم ينزعوا : وهذا عمل لم نعلم أن أحداً وصل فى العدل اليه

ومما بين رفته بالامة وميله الى جمع كلمتها أن خارجة خرجت عليه بالعراق

فكتب إلى عامله يأمره أن لا يحركهم الا أن يسفكوا دماً أو يفسدوا في الارض
فان فعلوا فحل بينهم وبين ذلك وانظر رجلاً صليبا حازماً فوجه اليهم ووجه معه
جنداً وأوصه بما أمرتك به فجهز لهم ألفين دليهم محمد بن جرير بن عبد الله البجلي
وكتب عمر إلى رئيس الخارجة واسمه بسطام بن نبيشكر يدعوه ويسأله عن
سبب خروجه فجاء كتاب عمر ومحمد بن جرير . وكان كتاب عمر يلغني
أنك خرجت غضباً لله ولنبيه ولست بأولى بذلك مني فهل انظرك فان كان الحق
بأيدينا دخلت فيما دخل فيه الناس وان كان في يدك نظرنا في أمرنا : فكتب بسطام
إلى عمر قد أنصفت وقد بعثت اليك رجلاين يدارسانك وينظرانك : ولما
وصل هذان الرجلان إلى عمر ناظراده فقال لهما عمر ما أخرجكما هذا المخرج وما الذي
نقمتم : فقالا المتكلم ما نتمنا سيرتك انك لا تتحرى العدل والاحسان فأخبرنا
عن قيامك بهذا الأمر أن رضا من الناس وشور دأبنا بزمت أمرهم : فقال عمر
ما سألتهم الولاية دليهم ولا غلبتهم عايلها وهدى إلى رجل كان قبلي فقامت ولم ينكره
على أحد ولم يكرهه غيركم وأنتم ترون الرضا بكل من عدل وأنصف من كان من
الناس فاتركوني ذلك الرجل وان خالفت الحق ورغبت عنه فلا طاعة لي عليكم :
فقالا يبتنا وبينك أمر واحد رأيناك خالفت أعمال أهل بيته وسميتهم مظالم
فان كنت على هدى وهم على ضلالة فالعنهم وابرأ منهم : فقال عمر قد علمت أنكم
لم تخرجوا طلباً للدين ولا لخدمة الآخرة فأخذناكم طريقهما ان الله عز وجل
لم يبعث رسوله صلى الله عليه وسلم لماناً وقال ابراهيم (فمن تبعني فانه مني ومن
عاداني فاني فانك ذنور رحيم) وقال الله عز وجل (أولئك الذين هداهم الله فبهم اهداهم اقتده)
وقد سميت أعمالهم ظلماً وكفى بذلك ذمًا ونقصاً وليس لعن أهل الذنوب فرية

لا بد منها فان قلتهم انها فرضة فأخبرني متى لعنت فرعون قال ما أذكركم متى لعنته
قال أفيسمعك أن لا تلعن فرعون وهو أخبث الخلق وشرهم ولا يسمعي إلا أن ألعن
أهل بيتي وهم مصلون صائمون — قال أما هم كفار بظلمهم قال لا لأن رسول الله
صلى الله عليه وسلم دعا الناس إلى الإيمان فكان من أقربيه وبشرائه قبل منه فان
أحدث حدثاً أقيم عليه الحد فقال الخارجي ان رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا
الناس إلى توحيد الله والاقرار بما نزل من عنده قال عمر فليس أحد منهم يقول
لا أعمل بسنة رسول الله ولكن القوم أسرفوا على أنفسهم حتى ظلم منهم أنه محرم
عليهم ولكن غلب عليهم الشقاء — قال الخارجي فأبرأ مما خالف عملك ورد
أحكامهم قال عمر أخبرني عن أبي بكر وعمر أليسا على حق قال بلى قال أن تعلم أن
أبا بكر حين قاتل أهل الردة سفك دماءهم وسبي الذراري وأخذ الأموال قال
بلى قال أن تعلم أن عمر رد السبايا بعده إلى عشائريهم بفدية قال نعم قال فهل يرى عمر من
أبي بكر قال لا قال أفترءون أنتم من واحد منهما قال لا قال فأخبرني عن أهل
النهر وان وهم أسلافكم هل تعلم أن أهل الكوفة خرجوا فلم يفسكوا دماً ولم
يأخذوا مالاً وأن من خرج اليهم من أهل البصرة قتلوا عبد الله بن خباب
وجاريته وهي حامل قال نعم — قال فهل يرى من لم يقتل ممن قتل واستعرض
قال لا قال أفترءون أنتم من إحدى الطائفتين قال لا قال أفيسمعكم أن تتولوا أبا بكر
وعمر وأهل البصرة وأهل الكوفة وقد علمتم اختلاف أهلهم ولا يسمعي
إلا البراءة من أهل بيتي والدين واحد فاتقوا الله فانكم جهال تقبلون من الناس
مارد عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وتردون عليهم ما قبل ويأمن عندكم من

خاف عنده ويخاف عندكم من أمن عنده فانكم يخاف عندكم من يشهد أن لا إله الا الله وأن محمد أعبد ورسوله وكان من فعل ذلك عند رسول الله آمناً وحقن دمه وماله واتم تقتلونه ويأمن عندكم سائر أهل الأديان فتحرمون دماءهم وأموالهم فقال الخارجي أرايت رجلا ولي قوماً وأموالهم فعدل فيها ثم صيرها بعدد إلى رجل غير مأمون أترأه أدي الحق الذي يازمه الله عز وجل أوترأه قد سلم قال عمر لا قال أفتسلم هذا الأمر إلى يزيد من بعدك وأنت تعرف أنه لا يقوم فيه بالحق قال انما ولاء ذيرى والمسلمون أولى بما يكون منهم فيه بعدي قال أفتري ذلك من صنع من ولاء حقا : وكان هذا السؤال الأخير محرراً لعمر فطلب النظرة في الإجابة عنه

وكانت هذه المناظرة سبباً لآذان أحد الرسولين شهد أن عمر على حق وأقام عنده فأمر له بالعطاء : أما الثاني فقال ما أحسن ما وصفت ولكني لا أفقات على المسلمين بأمر أعرض عليهم ما قلت وأعلم ما حاجتهم فانظر وا كيف فعل عمر مع هؤلاء الناس لما علم أنهم انما خرجوا طلباً للآخرة ولكنهم أخطأوا طريقها فانه طالبهم وناظرهم ليعلمهم الحق ويكشف لهم عن أمره وهذا من نهاية الرفق بأمتة ومن أعماله العظيمة تركه لسب علي بن أبي طالب على المنابر وكان بنو أمية يفعلونه فتركه وكتب إلى الامصار بتركه وكان الذي وقر ذلك في قلبه أنه لما ولي المدينة كان من خاصته عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود من فقهاء المدينة فبلغه عن عمر شي عما يقوله بنو أمية فقال له عبيد الله متي علمت أن الله غضب على أهل بدر وبيعة الرضوان بعد أن رضي عنهم فقال لم أسمع ذلك قال فما الذي بلغني عنك في علي فقال عمر معذرة إلى الله واليك وترك ما كان عليه فلما استخلف وضع

مكان ذلك (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون) فأى شر رفع وأى خير وضع وقال فى ذلك كثيرة عزة

وليت فلم تشتم علياً ولم تخف برياً ولم تتبع مقالة مجرم
تكلمت بالحق المبين وانما تبين آيات الهدى بالتكلم
وصدقت معروف الذى قلت بالذى فعلت فأضحى راضياً كل مسلم
ألا انما يكفي الفقى بعد زيغته من الاءود البادى ثقاف المقوم
ومن اصلاحه أمره بعمل الخانات فى البلدان القاصية فقد كتب الى سليمان
ابن أبى السري أن أعمل خانات فمن مرّ بك من المسلمين فاقروه يومه وليلة
وتعهدوا دوابهم ومن كانت به علة فاقروه يومين وليلتين وان كان منقطعاً به
فأبلغه بلده

ومما يذكر به أنه أبطل مغارم كثيرة كانت قد استحدثت فى عهد الحجاج
ابن يوسف فقد كتب الى أمير العراق (أما بعد فإن أهل الكوفة قد أصابهم بلاء
وشدة وجور فى أحكام الله وسنة خيثة سنّها عليهم عمال السوء وان قوام الدين العدل
والإحسان فلا يكون شيء أهم اليك من نفسك فلا تحملها قليلاً من الأثم ولا تحمل
خراً باعلى حامر وخدمته ما طاق وأصلحه حتى يعمر ولا يؤخذ من العامر الا
وظيفة الخراج فى رفق وتسكين لاهل الارض ولا تأخذن أجور الضرايين ولا
هدية النور وز والمهرجان ولا ثمن الصحف ولا أجور الفتوح ولا أجور البيوت
ولا درهم النكاح ولا خراج على من أسلم من اهل الذمة فاتبع فى ذلك

أمرى فاني قد وليتك من ذلك ما ولانى الله) : ومما فعله انه نهى عن تنفيذ حكم بقتل
أو قطع الا بعد أن يراجع فيه بعد ان كانت الدماء قبله تراق من غير حساب بل على
حسب هوى الاءير وما ذكر الحجاج . نكم يبيعدو من الحكمة أن لا يتساهل
في مثل هذه الحدود وضم رأي الخليفة الى رأي القاضي الذي حكم ضمان كبير
لان يكون الحكم قد وقع موقعه

رده المظالم لاهلها — لماولى الخلافة أحضر قريشا وجوه الناس فقال لهم
ان فذك : كانت بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان يضعها حيث أراه الله ثم
وليها أبو بكر وعمر كذلك ثم أقطعها مروان ثم انها قد صارت الى ولم تكن من
مالى أعود . نها على واني أشهدكم أي قدر دنتها على ما كانت عليه في عهد رسول
الله صلى الله عليه وسلم : وقال لمولاه : مزاحم ان أهلى أقطعوني مالهم يكن لي
أن آخذوا لهم أن يعطونه واني قد همت برده على أربابه قال فكيف تصنع بولدك
فجرت دمه . وقال أتكلهم الى الله فخرج مزاحم حتى دخل على عبد الملك بن عمر
فقال له ان أمير المؤمنين قد زعم على كذا وكذا وهذا أمر يضركم وقد نهيت عنه
فقال عبد الملك بش وسير الخليفة أنت ثم قام فدخل على أبيه وقال ان مزاحما أخبرني
بكذا وكذا فمارأيك قال إني أردت أن أقوم به العشية وقال عجله فما يؤمنك أن
يحدث لك حدث أو يحدث بقلبك حدث فرفع عمر يديه وقال الحمد لله الذي جعل
من ذريتي من يعينني على ديني ثم قام من ساعته في الاس فردها . وأخذ من أهله
ما بأيديهم وسمى ذلك مظالم ففرع بنو أمية الى عمته فاطمة بنت مروان فأنته
فقال تكلم يا أمير المؤمنين فقال ان الله بعث محمدا صلى الله عليه وسلم رحمة وام
يبعنه عذا بالي الناس كافة ثم اختار له ما عنده وترك للناس نهرا شربهم سواء ثم

ولى أبو بكر ترك النهر على حاله ثم ولى عمر فعمل عملها ثم لم يزل النهر يستقى منه يزيد و مروان وعبد الملك ابنه والوايدوس ليما حتى أفضى الامر الى وقد يبس النهر الاعظم فلم يرد أصحابه حتى يعود الى ما كان عليه فقالت حسبك قد أردت كلامك فاما اذا كانت مقالاتك هذه فلا أذكر شيئاً أبداً فرجعت اليهم فأخبرتهم كلامه وقالت أنتم فعلتم هذا بانفسكم تزوجتم باولاد عمر بن الخطاب فجاء يشبه جده فذكروا

لما ولى عمر قال للناس في خطبة من صحبتنا فليصحبنا بخمس والاف لا يقر بنا يرفع اليها حاجة من لا يستطيع رفعها ويعيننا على الخير بجمده : ويدلنا من الخير على ما نهتدي اليه : ولا يغتابن أحدا : ولا يعترض فيما لا يعينه . فانقشع الشعراء والخطباء وثبت عنده الفقهاء وازهادوا وقالوا ما يسعنا أن نفارق هذا الرجل حتى يخالف قوله فعلمه

كان عمر غير مترف فكا . . . صرفه كل يوم درهمين وكان يتقشف في ملبسه كجده عمر بن الخطاب ولم يتزوج عمر غير فاطمة بنت عبد الملك بن مروان وكان أولاده يعينونه على الخير وكان أشدهم معونة له ابنه عبد الملك فلما مرض مرضه الذي توفي فيه دخل عليه عمر فقال يا بني كيف تجدك قال أجدني في الحق قال يا بني أن تكون في ميزاني أحب الى من أن أكون في ميزانك فقال يا أباه لان يكون ما تحب أحب الى من أن يكون ما أحب فمات في مرضه وله سبع عشرة سنة قال مرة لا يبيها أمير المؤمنين ما تقول لربك اذا أتيتته وقد تركت حقاً لم تحبه أو باطلا لم تتركه فقال يا بني ان أجداك قد دعوا الناس عن الحق فانهت الامور الى وقد أقبل شرها وأدبر خيرها ولكن أليس حسنا وجميلا الا تطلع الشمس

على في يوم الأحييت فيه حقاً وأوت باطلا حتى يأتي الموت وأنا على ذلك
 ويلي الجملة فان عمر بن عبد العزيز من أفراد الخلفاء الذين لا يسمع بهم القدر
 كثيراً . ويرى المسلمون أن عمر هو الذي بعث على رأس المثة اثنتا عشرة ايجدد
 للأمة أمر دينها كما جاء في حديث « ان الله يبعث علي رأس كل مئة سنة من يجدد
 لهذه الامة أمر دينها »

ربما يسأل عن اكتسب عمر هذه الاخلاق وهو في بيئة المترفين
 والاخلاق انما تكتسب من البيئة التي يعيش فيها الانسان فنقول ان عمر بن عبد
 العزيز أرسل أبوه الى المدينة وهو صغير فربي فيها بين فقهاءها وصالحاتها فاكسب
 منهم حسن الخلق ومحبة الامة والعفة عن أموالها والرافة بها . قال شمد بن علي
 الباقر ان لكل قوم نجبية وان نجبية بنى أمة عمر بن عبد العزيز وانه يبعث يوم
 القيامة أمة وحده وقال مجاهد أتينا عمر نعلمه فلم نبرح حتى تعلمنا منه وقال
 ميمون كانت العلماء عند عمر تلامذة وقال عمر ما كذبت مذملت ان
 الكذب يضر أهله

لم يحدث في عهد عمر شئ من الحوادث الداخلية المهمة الا ما كان من القبض
 علي يزيد بن المهلب واحضاره الى عمر فسأله عن الاموال التي كتبها الى سليمان
 ابن عبد الملك فقال كنت من سليمان بالمكان الذي قد رأيت وانما كتبت الى
 سليمان لاسمع انتاس وقد علمت أن سليمان لم يكن ليأخذني به فقال لا أجد
 في أمرك الا حبسك فأتق الله وأدما قبلك فانها حقوق المسلمين ولا يسمنى تركها
 وحبس بحصن حلب فجاء عمر مخلص بن يزيد بن المهلب فقال يا أمير المؤمنين ان

الله منح هذه الامة بولايتك وقد ابتليناك فلان كن نحن أشقي الناس بولايتك
 علام تجبس هذا الشيخ أنا حمل ما عليه فصالحني علي ما تسأل فقال عمر لا إلا أن تحمل
 الجميع فقال يا أمير المؤمنين ان كانت لك يينة فخذها والا فصدق مقالة يزيد واستحلفه
 فان لم يفعل فصالحه فقال عمر ما آخذة الا بجميع المال فخرج مخاضة من عنده ولم يلبث
 أن مات فصلى عليه عمر بن عبدالعزيز واستمر المهلب في سجنه حتى اذا أحس بقرب
 موت عمر أمد لله رب عدته خوفا من يزيد بن عبد الملك لانه كان قد عرب آل أبي
 عقيل وهم أصهار يزيد لانه كان متزوجا ببنات أخي الحجاج وهرب بن المهلب
 قاصداً البصرة وكتب الى عمر اني والله لو وثقت بحياتك لم اخرج من محبسك
 ولكني خفت أن يلي يزيد فيقتلني شر قتلة فورد الكتاب وعمر روى فقال اللهم
 ان كان يريد بالمسلمين سوءاً فالحق به وهضمه نقدها ضني

ومن الحوادث الخارجية في هذه انه كتب الى ملوك السند يدعهم
 الى الاسلام وقد كانت سيرته بلغتهم فأسلم ملوك السند وتسموا
 باسماء العرب

واستقدم مسلمة بن عبد الملك من حصار القسطنطينية وأمر أهل طرندة
 بالقول عنها الى ملطية وطرندة داخلة في البلاد الرومية من ملطية بثلاث
 مراحل وكان عبد الله بن عبد الملك قد أسكنها المسلمين بعد أن غزاها سنة
 ٨٣ و ملطية يومئذ خراب وكان يأتيهم جند من الجزيرة يقيمون عندهم
 الى أن ينزل الثلج ويعودون الى بلادهم فلم يزالوا كذلك الى أن ولي عمر فأمروهم
 بالعود الى ملطية واخلي طرندة خوفا على المسلمين من العدو
 وأخرب طرندة

وفاة عمر بن عبد العزيز

في ٢٥ رجب سنة ١٠١ توفى عمر بن عبد العزيز بدير سيمان وكانت مدته سنتين وخمسة أشهر وأربعة أيام وجاء خطأي تقويم مختار باشا المصري أربعة عشر يوماً بدل أربعة أيام لانه ذكر وفاة سليمان في ٢١ صفر سنة ٩٩ وبين هذا التاريخ ووفاته ممر ما ذكرناه الا انه ذكر في بعض الروايات ان سليمان توفي لعشر ماضين من صفر بدل بقين منه واذا كان ذلك صحيح أن تكون الايام أربعة عشر ولكن مختار باشا لم يتبع هذه الرواية في موت سليمان بل ذكر وفاته في ٢١ صفر

٩ ﴿يزيد الثاني﴾

هو يزيد بن عبد الملك بن مروان ولد سنة ٦٥ وعهد اليه سليمان بن عبد الملك بالخلافة بعد عمر بن عبد العزيز فلما توفي عمر ببيع بها فلما تولى عهد الى كل صالح فعله عمر فأعاده الى ما كان عليه وهو أول خليفة من بني أمية عرف بالشراب وقتل الوقت في معاشرة القيان

وفي أول عهده كانت فتنة يزيد بن المهلب فانه لما هرب من محبس عمر وبلغه موته وخلافة يزيد بن عبد الملك قصد البصرة وعليها عدي ابن أرطاة فاستولى عليها وعلى ما يليها من فارس والاهواز فبعث اليه يزيد بن عبد الملك جيشاً عظيمًا يقوده أخوه مسلمة بن عبد الملك. خطب ابن المهلب أهل البصرة وأخبرهم انه يدعوهم الى كتاب الله وسنته وحشهم على الجهاد وزعم ان جهاد أهل الشام أعظم ثواباً من جهاد الترك والديلم فسمعه الحسن البصري سيد فقهاء أهل البصرة فقال والله لقد رأيتك واليا وموليا عليك فما ينبغي لك ذلك فقام اليه

أناس فأسكتوه خوفاً من أن يسمعه ابن المهلب :

وروى الطبرى أن الحسن مر على الناس وقد اصطفوا صفيين وقد نصبوا الرايات والرماح وهم ينتظرون خروج ابن المهلب وهم يقولون يدعوننا الى سنة العمرين فقال الحسن إنما كان يزيد بالأمس يضرب أعناق هؤلاء الذين ترون ثم يسرح بها الى بنى مروان يريد بهلاك هؤلاء القوم رضاهم فلما غضب غضبة نصب قصباً ثم وضع عليها خرقاتاً ثم قال انى قد خالفتم نخالقوهم قال هؤلاء القوم نعم وقال انى أدعوكم الى سنة العمرين وان من سنة العمرين أن يوضع قيد فى رجله ثم يرد الى محبس عمر الذى فيه حبسه

ثم ان يزيد خرج من البصرة حتى أتى واسطاً فأقام بها أياماً ثم سار منها حتى التقى بمجنود مسلمة فكانت بين الفريقين موقعة هائلة قتل فيها يزيد بن المهلب وأخوه حبيب وانكشف من كان معه من الجنود ولما تم ذلك سار آل المهلب عن البصرة وحملوا عيالاتهم وأموالهم فى السفن البحرية حتى اذا كانوا حيال كرمان خرجوا من سفنهم وحملوا عيالاتهم وأموالهم على الدواب حتى اذا انتهوا الى قنديل لحقهم الجند الذى امر باتباعهم فقاتلوا حتى قتلوا من عند آخرهم الأبأ عبيدة بن المهلب وعثمان بن المفضل بن المهلب فانهما نجوا : وبهذا انتهت أسيرة عظيمة كان فيها من قواد الجند بالدولة الاموية من تتباهى الامم بهم ولما تم على يدى مسلمة بن عبد الملك اخماد هذه الفتنة ولاء أخوه العراقيين ثم عزله بعد بعمر بن هبيرة الفزارى فقال فى ذلك الفرزدق الشاعر

راحت بمسلمة الركاب مودعا فارعى فزارة لا هناك المرتع
عزل ابن بشر وابن عمرو قبله وأخو هراة لمثلها يتوقع

ولقد علمت أن فزارة أمرت أن سوف تطمع في الامارة اشجع
 من خلق ربك ما هم ولمثلهم في مثل ما نالت فزارة تطمع
 يعني بابن بشر عبد الملك بن بشر بن مروان وبابن عمرو ومحمد بن عمرو
 ابن الوليد وأخي هراة سعيد خذينة بن عبد العزيز وكان عاملاً لمسلمة
 على خراسان

وولي ابن هيرة سعيداً الحرشي على خراسان وكانت له مع السفد أهل
 سمرقند وقائع عظيمة من كثرة ما نقضوا كاد يستأصلهم فيها
 وفي عهده دخل جيش للمسلمين بلاد الخزر من أرمينية وعليهم ثبيت النهراني
 فاجتمعت الخزر في جمع كثير وأعانهم قفجاق وغيرهم من أنواع الترك فلقوا المسلمين
 بمكان يعرف بمرج الحجارة فاقتتلوا هناك قتالاً شديداً فقتل من المسلمين بشر كثير
 واحتوت الخزر على عسكرهم وذنموا جميع ما فيه واقتبل المنهزمون إلى الشام فقدموا
 على يزيد بن عبد الملك وفيهم ثبيت فوبخهم يزيد على الهزيمة فقال يا أمير المؤمنين
 ما جئنا ولا نكبت عن انفاء العدو واتدأ صقت الخيل بالخيول والرجل بالرجل
 ولقد طاعت حتى انقص رمي وضاربت حتى انقطع سيفي عير أن الله تبارك
 وتعالى يفعل ما يريد ولما غلب الخزر هذه المرة طمعوا في بلاد المسلمين فجمعوا
 وحشدوا واستعمل يزيد الجراح بن عبد الله الحكمي حينئذ على أرمينية واهله
 بجيش كثيف وأمره بخزو الخزر وغيرهم من الأعداء فسار الجراح حتى وصل
 برذعة وبعد أن استراح سار نحو الخزر فبهرنهر الكرو ولما وصل إلى مدينة الباب
 والابواب لم يجد فيها أحداً من الخزر فدخلها بغير قتال ثم أقبل إليه الخزر وعليهم ابن
 ملكهم فقاتلهم الجراح وظفربهم ظفراً عظيماً ثم سار حتى نزل على حصن يعرف

(٢٢٠)

بالحصين فنزل اهله بالامان على مال يحملونه فأمنهم وسلم حصنهم ونهلهم عنه
ثم سار الى بلنجر وهو حصن عظيم من حصونهم فنأزله وافتتحه عنوة بعد
قتال زاعث فيه الابصار ثم ان الجراح أخذ اولاد صاحب بلنجر وأهله وأرسل
اليه فحضر ورد اليه امواله وأهله وحصنه وجعله تيناً لهم يخبره بما يفعل العدو
ثم سار عن بلنجر فنزل على حصن الويسندر وبه نحو أربعين ألفاً من الترك
فصالحوا الجراح على مال يؤدونه وعلى الجملة فقد كانت الجراح أعظم الولاة
أثراً وفتحاً في تلك البلاد القاصية

ولاية العهد

كان يزيد يريد تولية ابنه الوليد من بعده فقيس له انه صغير فولى أخاه
هشاماً ومن بعده ابنه الوليد

وفاة يزيد

لخمس ليال بقين من شعبان سنة ١٠٥ توفى يزيد بن عبد الملك بالبلقاء من
ارض دمشق وسنه يومئذ ثمان وثلاثون سنة وقد أقام خليفة أربع سنين وشهر آمن
٢٥ رجب سنة ١١ الى ٢٥ شعبان سنة ١٥٠

المحاضرة الاربعون

دشام — الاحوال الداخلية في عهده — صفته ووفاته — الوليد الثاني

يزيد الثالث — مروان الثاني

١٠ ﴿ هشام ﴾

هو هشام بن عبد الملك بن مروان عاشر الأمويين وسابع المروانيين
ولد سنة ٩٢ من الهجرة وكان أبوه عبد الملك اذ ذاك محارب مصعب بن

الزير واهله عائشة بنت هشام بن اسماعيل الخزومية
 وكان حين مات اخوه يزيد مقيماً بمحصر وهناك جاءه البريد بالعصا
 والخاتم وسلم عليه بالخلافة فأقبل حتى أتى دمشق وتمت له البيعة فأقام خليفة الى
 سادس ربيع الاول سنة ١٢٥ أى تسع عشرة سنة وستة أشهر واحد عشر يوماً
 وكان هشام معدوداً من خير خلفاء بني أمية ولعمري ان من كان من خلقه الحلم
 والعفة لجدير بذلك

الاحوال الداخلية في هذه

في العراق والشرق — كان أمير العراق حين ولي هشام عمر بن
 هبيرة وكان لهشام فكر حسن في أهل اليمن فمزل ابن هبيرة وولى بدله
 خالد بن عبد الله القسري وهو قحطاني . فاختاره لولاية خراسان أخاه
 أسد بن عبد الله واستعمل الجنيد بن عبد الرحمن على السند

فأما أسد بن عبد الله فقد كان هماً مأمداً ما غزا في اول ولايته الغور وهو
 جبال هراة فغنم . وفي سنة ١٠٧ نقل من كان بالبروقان من الجند الى بلخ واقطع
 كل من كان له بالبروقان مسكناً بقدر مسكنه ومن لم يكن له مسكن اقطعه مسكناً
 وتولى بناء مدينة بلخ بركمك ابو خالد بن ريمك وينها وبين البروقان فرسخان :
 وكان من عيوب أسد انه تعصب لقومه من قحطان على مضر فأفسد الناس ضرب
 نصر بن سيار وقرأه بالسياط منهم عبد الرحمن بن نعيم وسورة بن الحر
 والبختري بن ابي درهم وحلق رءوسهم وسيرهم الى اخيه خالد وهو لاءم قروم
 مضر فقال في ذلك الفرزدق الشاعر وهو تميمي من مضر

أخالد لولا الله لم تعط طاعة ولولا بنو مروان لم يوثقون نصراً

اذاً للقيتم عند شد وثاقه بنى الحرب لا كشف اللقاء ولا ضجراً
 وخطب أسديوماً فقال قبح الله هذه الوجوه وجوه أهل الشقاق والنفاق
 والشغب والفساد اللهم فرق بيني وبينهم وأخرجني الى مهاجري ووطني
 فبلغ فعله ذلك هشاماً فكتب الى خالد أعزل أخاك فعزله ثم ولي هشام
 خراسان أشرس بن عبد الله السلمي وأمره أن يكاتب خالداً وكان أشرس فاضلاً
 خيراً وكانوا يسمونه الكامل لفضله فلما قدم خراسان فرحوا به : ولأول
 عهده أرسل الى أهل سمرقند وما وراء النهر يدعوهم الى الاسلام
 على أن توضع عنهم الجزية فسارع الناس هناك الي الاسلام فكتب
 صاحب الخراج الى أشرس ان الخراج قد انكسر فكتب اشرس الي
 أمير سمرقند ان في الخراج قوة للمسلمين وقد بلغني أن أهل الصفد
 وأشباههم لم يسلموا رغبة انما اسلموا تموداً من الجزية فانظر من اختن
 وأقام الفرائض وقرأ سورة من القرآن فارفع اخراجه : كان رسول أشرس
 الى الصفد بدعوة الاسلام أبا الصيداء صالح بن طريف فلما رأى أعمال
 يطالبون من أسلم بالجزية منعهم من ذلك فلجوا واج وكانت النتيجة ان
 عصى أهل الصفد وأعانهم أبو الصيداء ومن كان معه فاحتال أمير جند
 أشرس على أبي الصيداء وبقية الرؤساء الذين ساعدوه حتي جيء بهم
 فحبسهم واستخف بعد ذلك بمظالم العجم والدهاقين فكفر أهل الصفد
 واستجاشوا الترك فاعانواهم . لما علم بذلك أشرس خرج غازياً في جنوده
 حتى عبر النهر من عند آمل فاقتبل اليه الصفد والترك وكان بين الفريقين
 موقعة عظيمة كاد المسلمون يهزمون فيها لولا ان رجعوا فثبتوا حتى هزموا

عدوهم : ثم سار أشرس حتى نزل يكند فقطع العدو عنهم الماء وكادوا
بهلاكهم عطشاً لولا أن انتدب شجعانهم إلى الترك فأزالوهم من الماء واستقى
الناس ثم ذلبوهم على مواقعهم فأزالوهم عنها وهزموهم

فذهب خاقان إلى مدينة كمرجة وهي من أعظم بلدان خراسان وبها
جمع من المسلمين ومع خاقان أهل فرغانة وأفشينة ونسف وطوائف من
أهل بخاري فألقى المسلمون الباب وقطعوا القنطرة التي على الخندق
واستماتوا في المدافعة عن حصنهم مع قلة عددهم وساعدتهم على الدفاع
نساؤهم وصبيانهم ولما رأى ذلك خاقان أرسل إلى من بالمدينة يقول لهم أنه
ليس من رأينا أن نرحل عن مدينة محاصرها حتى نفتتحها فرحلوا أتم
عنها فقالوا له ليس من ديننا أن نعطي بأيدينا حتى نقتل فاصنعوا ما بدا لكم
ثم اتفق معهم خاقان أخيراً على أن يرحل عنهم ثم يرحلوا هم عن
كمرجة إلى سمرقند أو الدبوسية فأخذ المسلمون من الترك رهائن أن
لا يعرضوا لهم وأخذ الترك رهائن من المسلمين فخرج أهل كمرجة إلى
الدبوسية ثم أطلقوا رهائن الترك وأطلق الترك رهائن المسلمين

وفي سنة ١١١ عزل هشام أشرس بن عبد الله عن خراسان
واستعمل بدله الجنيد بن عبد الرحمن المروزي فلما جاء خراسان نزل عماله
ولم يستعمل إلا مضرياً

وفي سنة ١١٢ خرج غازيا يريد طخارستان فوجه جنده عدده
ثمانية عشر ألفاً إلى طخارستان وجنداً عدده عشرة آلاف إلى وجه آخر
فكتب إليه أمير سمرقند أن خاقان ملك الترك قد جاش فخرجت إليهم فلم

أطلق ان أمتنع حائط سمرقند فالغوث الغوث فأمر الجنيد الجند بعبور
 النهر . فقال له ذوو الرأي ممن معه ان أمير خراسان لا يعبر النهر في أقل
 من خمسين ألفاً وأنت قد فرقت جندك : قال فكيف بسورة (أمير سمرقند)
 ومن معه من المسلمين لو لم أكن الا في بني مرة أو من طلوع معي من الشام لعبرت
 ثم عبر فنزل كس وتأهب للمسير فبلغ الترك خبره فغوروا الآبار فسار الجنيد
 بالناس حتى صار بينه وبين سمرقند أربع فراسخ ودخل الشعب فصبحه خاقان
 في جمع عظيم وزحف اليه أهل الصغد وفرغانة والشاش وطائفة من الترك وهنا
 ظهرت العزائم الثابتة من قواد المسلمين فأبلاوا بلاء حسناً مع قلة عددهم وكثرة
 عدوهم ولما اشتد القتال ورأى الجنيد شدة الأمر استشار أصحابه فقال له عبد الله
 ابن حبيب اخترا ما أن تهلك أنت أو سورة بن الحر : قال هلاك سورة أهون على
 قال فاكتب اليه فليأتك في أهل سمرقند فانه اذا بلغ الترك اقباله توجهوا اليه
 فقاتلوه : فكتب الجنيد إلى سورة يأمره بالقدوم : فرحل سورة عن سمرقند
 في اثني عشر ألفاً لما كان بينه وبين الجنود فرسخ واحد لقيه الترك فقاتلهم أشد
 قتال فانكشف الترك ونار الغبار فلم يبصروا وكان من وراء الترك لهب فسقطوا
 فيه وسقط العدو والمسلمون وسقط سورة فاندقت فخذه وتفرق الناس فقتلهم
 الترك ولم ينج منهم الا القليل

وكانت هذه الواقعة قد نفست عن الجنيد ومن معه فعزم على المسير إلى
 سمرقند فأعاد الترك عليه الكرة واكن الواقعة الاولى قد أضعفت من قوتهم فهزمهم
 المسلمون ومضى الجنيد فنزل سمرقند وحمل عيال من كان مع سورة الى مرو وأقام
 بالصغد أربع أشهر ثم بلغه ان خاقان قصد بخارى فسار بالجنود من سمرقند محترساً

على تسمية فلقيته بالطريق جنود خاقان فوزمها : ولم يزل سائر آحقى ورد بخاري :
والمسلمون بخراسان يعدون يوم الشعب هذا من مفاخرهم لما كان من مقاومتهم
لهذا العدو الكثير العدد مع ما ظهر من خطأ الجنيد في تدبيره

وفي سنة ١١٦ عزل الجنيد عن خراسان وولى بدله عاصم بن عبد الله الهلالي
وكان هشام قد غضب على الجنيد لانه تزوج الفاصلة بنت يزيد بن المهلب فقال
لعاصم ان أدركته وبه رمق فأر هق نفسه فجاء عاصم وقدمات الجنيد فأراحه الله من
هذا الشر الذي صار عادة في هذه الدولة ولم يكتف عاصم بذلك بل أخذ عمال الجنيد
وذهبهم وفي هذه خرج عليه الحارث بن سر ببح لا بسا السواد داعياً الى كتاب الله
وسنة نبويه والبيعة للرضا وتبعه خلق كثير فاستولى على بلخ والجوزجان ثم قصد
مرو وبها عاصم فقابلته عاصم على أبوابها فهزمه هزيمة منكرة وغرق من جنده
بشر كثير في أنهار مرو وفي النهر الاثني عشر ألفاً وهرب الحارث

لما رأى عاصم حال خراسان كتب الى هشام بن عبد الملك يقول له (أما بعد
فان الرائد لا يكذب أهله وان خراسان لا تصاح الا أن تضم الى العراق وتكون
موادها وموتنها في الاحداث والنوائب من قريب لتبادد أير المؤمنين عنها
وتباطوء غيائثها) فعزل هشام عاصماً عن خراسان وولاهها أسد بن عبد الله
القسري وجعلها من ضمن ولاية خالده : ولما بلغ عاصماً اقبال أسد صاح الحارث
ابن سر ببح على أن ينزل الحارث أى كور خراسان شاء وان يكتب جميعاً الى هشام
يسألانه العمل بكتاب الله وسنة نبويه صلى الله عليه وسلم فان أبى اجتمعوا عليه فختم
الكتاب ببض الرؤساء وأبى آخرون وقالوا هذا اخاع لأمير المؤمنين فلم يتم أمر
الصاح وحصلت موقعة أخرى بين الحارث وعاصم انهزم فيها الحارث هو واصحابه

ولما قدم أسد حبس عاصماً وحاسبه وطلب منه مائة ألف درهم وأطلق بهما الجنيد وعمل أسد في تأمين البلاد ومحاربة الخارجين جهده وله وقعة مع خاقان ملك الترك بالقرب من مدينة الجوزجان انهزم فيها الترك وغنم المسلمون كل ما كان في معسكرهم ثم رجع إلى بلخ وكانت قائدة عمله : ثم ان خاقان قتل عتب هذه الواقعة فاشتغلت الترك بأنفسها بعد هلاكه وأقبلوا يغير بعضهم إلى بعض : وأرسل أسد مبشراً إلى هشام بما فتح الله عليهم وبقتل خاقان فسجد هشام شكراً وفي سنة ١١٩ غزا أسد الختل وطلب على قلعته العظمى وفرق العسكر في أودية الختل فمئثوا أيديهم من الغنائم والسبي وهرب أهلها إلى الصين : وفي سنة ١٢٠ توفي أسد ببلخ وكان من خيرة الولاة بخراسان وأبعدهم همة وأشدهم شكيمة

وفي هذه السنة عزل هشام بن عبد الملك خالد القسري عن العراق لوشاية أثرت في نفسه وولي مكانه يوسف بن عمر الثقفي وكان عادلاً على اليمن فسار حتى أتى الكوفة في جمادى الآخرة سنة ١٢٠ وكان من أول عمله أنه قبض على خالد وحبسه وقبض على عماله حسب تلك السنة القبيحة المشؤمة

وكان يوسف بن عمر هذا من ذوي الأخلاق المتناقضة كان طويل الصلاة ملازماً للمسجد ضابطاً لحشمه وأهله من الناس ابن الكلام متواضعاً حسن الملكة كثير التضرع والدعاء فكان يصلي الصبح ولا يكلم أحداً حتى يصلي الضحى ومع هذا كان شديد العقوبة سرفاً في ضرب الإبرار فكان يأخذ الثوب الجديد فيمر ظفروه عليه فان تعلق به طاقاً ضرب صاحبه ور بما قطع يده وله في الحق نواذر كثيرة

ولى خراسان نصر بن سيار ولاء هشام وأمره أن يكتب يوسف ابن عمر
وفي ولاية يوسف خرج بالكوفة زيد بن علي بن الحسين وسبب خروجه
ظلم يوسف بن عمر وسوء تدبيره وكان زيد قد بايعه كثير من أهل الكوفة سرا
قيل ١٥ ألفاً وقيل أربعون وقد نصحه بعض بني عمه بعدم الخروج لأن أهل
الكوفة لا يعتمد عليهم فلم يصغ: وبلغت الأخبار يوسف بن عمر وهو بالحيرة
فتهايله ولم يعلم بذلك أهل الكوفة جاؤا زيدا وقالوا له : ما قولك في أبي بكر
وعمر قال رحمهما الله وغفر لهما ما سمعت أحداً من أهل بيتي يقول فيهما إلا خيراً وإن
أشد ما أقول فيما ذكرتم أنما كنا أحق بسلطان ما ذكرتم من رسول الله صلى الله
عليه وسلم ومن الناس أجمعين ندفعو ناعنه ولم يبلغ ذلك عندنا بهم كفر أو قدولوا
فعدلوا في الناس وعملوا بالكتاب والسنة: قالوا فلم يظلمك هؤلاء إذا كان أولئك
لم يظلموك فلم تدعو إلى قتالهم : فقال إن هؤلاء ليسوا كأولئك هؤلاء ظالمون
لي ولكم ولا نفسهم وإنما ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وإلى
السنن أن تحيا وإلى البدع أن تظنوا أن أجبتهمو ناسعدتم وإن أبيتهم فليست عليكم بوكيل
فقد أقوه ونكشوا بيعته وقالوا سبق الإمام يعنون محمداً الباقر وكان قد مات
فما هم زيد الرافضة . وفي الليلة التي كان قد اتفق معهم على الخروج فيها لم يأتها أكثر
من مئتي نفس ولم يكن القتال الذي قاموا به مما يورثهم دولة لقلة عددهم وانتهى
الامر بقتل زيد ودفنه أصحابه فدل يوسف على موضع قبره فأخرجه وأمر أن
يصلب بالكناسة وسير رأسه إلى هشام فصلب على باب دمشق : وإلى زيد هذا
تنسب الشيعة الزيدية وهم كثيرون ببلاد اليمن

مانصر بن سيار عامل خراسان فله غزوات إلى ما وراء النهر كان له فيها

النصر دائماً : ووضع الجزية عن أسلم من العجم ، وانتهت مدة هشام و يوسف ابن عمر على العراق ونصر على خراسان

في أرمينية وأذربيجان — كان أمير أرمينية وأذربيجان الجراح بن عبد الله الحكمي وكان له غزوات الى ماوراء بلنجر وفي سنة ١٠٧ عزل هشام وولي بدله مسلمة بن عبد الملك فارسل مسلمة نائباً عنه وهو الحارث ابن عمر الطائي فافتتح من بلاد الترك رستاقا وقرى كثيرة وأثر فيها أثر أحسنًا وفي سنة ١١٠ سار مسلمة الى الترك من باب اللان فلقى ملكهم في جموعه فاقتتلوا قريباً من شهر وكانت الهزيمة على الترك

وفي سنة ١١١ عزل هشام مسلمة ورد الجراح فدخل بلاد الخزر من ناحية قليس ففتح مدينتهم البيضاء وانصرف سالماً فجمعت الخزر جموعها واحتشدت وساعدتهم الترك من ناحية اللان فلقبهم الجراح فيمن معه من أهل الشام فاقتتلوا أشد قتال رآه الناس فصبر الفريقان وتكاثرت الخزر والترك على المسلمين فقتل الجراح ومن معه بمرج أردبيل : وبذلك طمع الخزر في البلاد وأوغلوا فيها حتى قاربوا الموصل وعظم الخطب فلما علم ذلك هشام استعمل على تلك البلاد سعيداً الحرشي واتبعه بالجنود ولما وصل أرزن لقيته فلول الجراح فأخذهم معه حتى وصل الى خلاط فاقتتحها عنوة ثم سارعها وفتح القلاع والحصون شيئاً بمدشي : الى أن وصل برذعة فنزها : كان ابن ملك الترك بأذربيجان ينير على بلادها وهو يحاضر مدينة ورنان ولما بلغه وصول الحرشي رحل عنها فوصل الى الحرشي وليس به أحد فارتحل حتى أتى أردبيل وهناك بلغه أن الخزر على قرب منه ومعه خمسة آلاف من المسلمين أساري وسبائا فساد اليهم ليلا فوافاهم آخر الليل وهم نيام ففرق اصحابه

في أربع جهات فكبسهم مع الفجر فما برزت الشمس حتى جاءوا على آخرهم وأطلق
الحرشي من معهم من المسلمين وأخذهم إلى باجروان: ثم تجمعت الخزر مرة أخرى
ولقيها الحرشي بجهة برزندواقتلواقتلوا شديداً انهزم فيه الخزر هزيمة منكرة
وعلى الجملة فإن الحرشي أذل الخزر اذلاً شديداً واستنقذ منهم كل ما كانوا قد
استولوا عليه

وأرسل الحرشي بأخبار انتصاه إلى هشام فكتب إليه هشام يأمره بالقدوم عليه
وولي أرمينية وأذربيجان أخاه. سلمة ثانياً فسار إلى الترك في شتاء شديد حتى جاز
البلاد في آثارهم وفتح مدائن وحصوناً ودان له من وراء بلنجرجاجتمعت تلك الأمم
جميعها الخزر وغيرهم عليه في جمع كثير فلم يعلم سلمة ذلك أمراً أصحابه فأوقدوا
النيران ثم تركوا أخيائهم وأثقالهم وعادهم وعسكره جريدة وقدم الضعفاء وآخر
الشجعان وطووا المراحل كل مرحلة في مرحلة حتى وصل إلى الباب والابواب
في آخر روق

وفي سنة ١١٤ قدم على هشام مروان بن محمد فشكا إليه سلمة وأنه
لم يفعل شيئاً مع هذا العدو الشديد وطلب إليه أن يوليه أرمينية وأن يمدّه بمئة
وعشرين ألف مقاتل ليوقع بالخزر والترك وقعة يؤدبهم بها فاجابه إلى ذلك
هشام وعزل سلمة وولي مروان الجزيرة وأرمينية وأذربيجان وسير
الجنود إليه فدخل مروان بلاد الخزر وسار فيها حتى انتهى إلى آخرها وملك
الخزر ينفض بمجموعه أمامه ذايلاً فاقام مروان في تلك البلاد أياماً ودخل بلاد
ملك السرير فأوقع بأهله وفتح اقلاء ودان له الملك ولما رأى أهل تلك البلاد
ما عليه مروان من القوة صالحوه فعاد عنهم وكان مروان يلح على أهل تلك

(٢٣٠)

البلاد باظهار القوة حتي لم يكونوا يحدثون أنفسهم بحربه وخافه الترك خوفا
شديداً ودانت له جميع البلاد التي على شاطئ بحر الخزر
في الشمال

كانت الحرب لا تقطع بين المسلمين والروم من جهة الحسد الشمالى
للبلاد الاسلامية ولذلك كانت حمايه اشغور مما يهتم به الخلفاء جد الاهتمام
ويولون أمرها كبار القواد وكانت الشواتي والصوائف دائمة الحركة وممن اشتهر
بقيادة الجيوش في تلك الاصقاع مروان بن محمد (قبل أن يولى أرمينية)
ومسلمة بن عبد الملك ومعاوية بن هشام وسعيد بن هشام وسليمان بن هشام
وقد افتتحوا في ذواتهم بلدانا كثيرة رومية منها قونية وخرشنة وقيسارية
وكثيرا من الحصون والقلاع

وكانت مراكب البحر لا تزال تنير على الروم من البحر وكان أمير
البحر في عهد هشام عبد الرحمن بن معاوية بن حديج ومن أكابر القواد
عبد الله بن عتبة

ومما ينبغي ذكره في حروب الروم قتل عبد الوهاب بن بخت سنة
١١٣ وكان يغزو مع عبد الله البطال أرض الروم فانهزم الناس عن البطال فحمل
عبد الوهاب وصاح أناعبد الوهاب بن بخت أمن الجنة تفرون ثم تقدم
في نحر العدو فمر برجل يقول واعطشاه فقال تقدم الرى أملك فخالط
القوم فقتل: وفي سنة ١٢٢ قتل عبد الله البطال وكان كثير الغزو الى بلاد
الروم والاغارة على بلادهم وله عندهم ذكر عظيم وكانوا يخافونه خوفا شديداً
وسيره عبد الملك بن مروان مع ابنه مسلمة الى بلاد الروم وأمره على رءوس

أهل الجزيرة والشام وأمره أن يجعله على مقدمته وطلابعه وقال انه ثقة شجاع
مقدام فجعله مسلمة على عشرة آلاف فارس فكان بينه وبين الروم
وانما اشرنا الى ذكر عبد الوهاب والبطال لانهما بطلا رواية كبيرة
ألفت في عصر لانعله بالتحقيق وعرفت بسيرة ذات الهمة والهمة يلفظونها
(الدهمة) وهي أم عبد الوهاب وقد كنا في صفرنا نسمة معها من بعض
(المحدثين) وتفكه بقراءتها واليوم لا نرى أحدا يقرأ منها شيئاً : وخيالها
يشبه خيال سيرة الطاهر يبرس فيظهر انهما أتما في عصر واحد

في الحجاز

كان والى الحجاز محمد بن هشام المخزومي خال عبد الملك بن مروان
وفي سنة ١٠٦ حج هشام بن عبد الملك : ومما يروي عنه في حجه هذا أنه
لقيه سعيد بن عبد الله بن الوليد بن عثمان بن عفان فسار الى جنبه يقول يا أمير
المؤمنين ان الله لم يزل ينعم على أهل بيت أمير المؤمنين وينصر خليفته
المظلوم ولم يزالوا يلعنون في هذه المواطن أبا تراب فانها مواطن صالحة
وأمر المؤمنين ينبغي له ان يلعنه فيها : فسق على هشام قوله وقال لا قدمنا
لشتم أحد ولا للعنه قدمنا حجاجاً ثم قطع كلامه وأقبل على أبي الزناد
راوى هذا الحديث يسأله عن الحج ومناسكه

ولما دخل مكة كالمه ابراهيم بن محمد بن طلحة وهو في الحجر فقال له
أمالك بالله وبجرمة هذا البيت الذي خرجت ممظماً الى الارددت على ظلامي
قال أى ظلامه قال دارى قال فأين كنت عن أمير المؤمنين عبد الملك
قال ظلمنى : قال فالوايد وسايان قال ظلمانى قال فعمر : قال رحمه الله

ردها على قال فيزید بن عبد الملك . قال ظهني وقبضها مني من بعد قبضى لها وهي في يدك فقال هشام لو كان فيك ضرب لضربتك قال في والله ضرب بالسيف والسوط فانصرف هشام وهو يقول لا يزال في الناس بقايا ما رأيت مثل هذا

واستمر أمير الحجاز محمد بن هشام وهو الذي يقيم للناس حجهم الا في سنة ١١٦ فان الذي أقام الحج هو الوليد بن يزيد بن عبد الملك ولي العهد وفي سنة ١٢٣ حج يزيد بن هشام بن عبد الملك

ولم يحصل في الحجاز حوادث ولا ثورات في عهد هشام أما أمر مصر والمغرب فستكلم عليه ان شاء الله وحدد في تاريخ مصر هذا مجمل حال الامّة العربية في عهد هشام الذي طال ومنه يعرف ما كانت عليه من القوة وثبات العزيمة أمام من يجاورها من الاعداء الا أن الذي يؤخذ عليها هو ظهور عصبية الجاهلية بين العرب المقيمين بخراسان فكانت ثلاث فرق ينفس بعضهم على بعض كل خير وهم القحطانية والقيسية والربعية ومن عيوب الامم الكبرى ان تكون شعبا جنسية فان هذا مما يؤذن بانحلالها وذللة عدوها عليها وقد يكون الدين أو ما يقوم مقامه من الجامعات مزيلا لهذا العيب متى كان سلطانها على النفوس قويا فاذا ضعف اثره قليلا ونبض عرق التعصب الذميمة فمن المؤكد انه لا بقاء للأمة معه وهكذا كان حال الامّة العربية بعد هذا العهد بقليل

ولاية العهد

كان ولي العهد بحسب وصية يزيد بن عبد الملك وهو الوليد بن يزيد فبدا لهشام ان يعزله ويولي بدله ابنه مسلمة واحتال لذلك فلم يفلح وأن كان قد أجابه بعض القواد الى ما أراد : وقد انتهى زمن هشام والوليد بماعد له نازل بالازرق على ماء له بالاردن

وفاة هشام

استخلون من شهر ربيع الآخر سنة ١٢٥ توفى هشام بن عبد الملك وكانت خلافته تسع عشرة سنة وستة أشهر وأحد عشر يوماً (من ٢٥ شعبان سنة ١٠٥ الى ربيع الاول سنة ١٢٥)

صفته

كان هشام مشهوراً بالحلم والعفة : شتم مرة رجلاً من الاشراف فقال له الرجل أما تستحي أن تشتمني وانت خليفة الله في الارض : فاستحيامن هشام وقال اقتص مني قال اذاً انا فيه مثلك قال فخدمني عوضاً من المال قال ما كنت لا فعل : قال فهم الله : قال هي لله ثم لك : فنكث هشام رأسه واستحيا وقال والله لا أعود لمثلها ابداً

قال عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس جمعت دواوين بني أمية فلم أر ديواناً صحيح ولا أصاح للعامة والسلطان من ديوان هشام وصلاح الديوان وصحته من أعظم ما يمتاز به الخلفاء بعضهم على بعض : والمراد بالديوان ديوان الخراج أو هو بعبارة جديدة المزانة التي بها يعرف ما يرد على الدولة وما يصرف :

ولعل هذا هو الذي جعل الناس يصومونه بوصمة البخل لان ذا الديوان الصحيح لا يكون مسرفاً حتى يحبه الشعراء والكتاب ويشيدوا بذكراه . ومما يؤخذ عليه ما فعله مع الوليد بن يزيد فانه اساء اليه كثير حتى ساء خلقه : ودعا القواد إلى خلع الوليد فأجابته كثير منهم ثم لم ينفذ ما أراده فجعلهم عرضة لا انتقام الوليد بعد موته

١١ ﴿ الوليد الثاني ﴾

هو الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان وأمه أم الحجاج بنت محمد بن يوسف الثقفي كان والياً للمهد بعد هشام وكان مغاضباً له في حياته حتى خرج وأقام في البرية كما ذكرنا

ولم يزل مقيماً في تلك البرية حتى مات هشام فجاءه الكتاب بموته وببيعة الناس له فكان أول ما فعله أن كتب إلى العباس بن عبد الملك بن مروان أن يأتي الرصافة فيحمي ما فيها من أموال هشام وولده وعياله وحشمه الامسدة بن هشام فانه كلم أباه في الرفق بالوليد فقدم العباس الرصافة ففعل ما كتب به الوليد . وقد أترعن الوليد شعر كثير في الشماتة بهشام فمن ذلك قوله

هلاك الاحول المش	ثوم وقد أرسل المطر
وملكننا من بعد ذا	لك فقد أورد الشجر
فاشكر الله انه	زائد كل من شكر

وقوله

ليت هشاماً كان حياً فيرى	محبته الاوفر قد أترعا
ليت هشاماً عاش حتى يري	مكياله الاوفر قد طبعا

(٣٣٥)

كلناه بالصاع الذي كله وما ظلمناه به اصبعنا
وما ألفنا ذاك عن بدعة أحله الفرقان لي أجمعنا
كان مما يهم الوليد أن ينتقم من كل من أعان هشاماً عليه وهم كثير من
سادة الامة وأفراد البيت الاموي .

كان ممن أجاب هشاماً الى خلق الوليد محمد و ابراهيم بن هشام بن
اسماعيل المخزوميان فوجه الوليد الى المدينة يوسف بن محمد الثقفي واليا
عليهما ودفع اليه محمد و ابراهيم موثقين في عباء تبين فقدم بهما المدينة فاقامهما للناس
ثم حملا الى الشام فأحضرا عند الوليد فأمر بجلدهما فقال محمد أسألك
بالقرابة . قال أي قرابة بيننا قال فقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم
عن ضرب بسوط الا في حد . قال فتى حد أضربك وقود أنت أول من
فعل بالعرجي وهو ابن عمي وابن أمير المؤمنين عثمان (وكان محمد قد اخذه
وقيده وأقامه للناس وجلده وسجنه الى أن مات بعد تسع سنين لهجاء
العرجي اياه) ثم أمر به الوليد فجلد هو وأخوه ابراهيم ثم أوثقهما حديداً
وأمر أن يبعث بهما الى يوسف بن عمر وهو على العراق فلما قدم بهما عليه
عذبها حتي ماتا

وأخذ سليمان بن هشام بن عبد الملك فضربه مئة سوط وحلق رأسه
ولحيته وغربه الي عمان من أرض الشام وحبس يزيد بن هشام وفرق بين
روح بن الوليد وبين امرأته وحبس عدة من ولد الوليد وهؤلاء الثلاثة
من أفراد البيت المالک

وكان خالد بن عبد القسري سيد آمن سادات اليمن فطلب اليه الوليد أن يبايع
 لابنيه الحكم وعثمان بولاية العهد من بعده فأبى فغضب عليه الوليد وكان ذلك سبباً
 في أن أرسله الى يوسف بن عمر الثقفي والى العراق فتزعم ثيابه وألبسه عباءة وحمله
 في محل بغير وطاء وعذبه عذاباً شديداً وهو لا يكلمه كلمة ثم حمله الى الكوفة
 فمذبه عذاباً شديداً حتى مات فأفسد ذلك على الوليد قلوب اليمانية وفسدت عليه
 قضاة وهم اليمن أكثر جند الشام

وصار بنو أمية يشيعون عن الوليد بين الناس القبائح ورموه بالكفر وكان
 أكثرهم فيه يزيد بن عبد الملك وكان الناس الى قوله أميل لانه كان يظهر النسك
 بذلك كله نفرت من الوليد قلوب الخاصة والعامة وما سبب ذلك كله
 الشهوة الانتقام التي لا يستقيم بها ملك ولا يكون معها صلاح واذا كان الانتقام
 يقبح بالناس فهو من الملوك أقبح وبذهاب ملكهم أسرع أتت اليمانية يزيد بن
 الوليد فأرادوه على البيعة فاستشار في ذلك أخاه العباس بن الوليد فنهاه عن ذلك
 ولكنه لم ينته وبايع الناس سرا وبث دعائهم فدعوا اليه الناس وبلغ الخبره مروان بن
 محمد بن مروان وهو بأرمينية فكتب الى سعيد بن عبد الملك يأمره أن ينهي
 الناس ويكفهم ويحذرهم الفتنة ويخوفهم خروج الامر عنهم فأعظم سعيد ذلك وبث
 بكتاب مروان بن محمد الى العباس بن الوليد فاستدعي العباس يزيد وتهدده
 فكتبه يزيد الخبر فصدقه : ولما اجتمع ليزيد أمره أقبل الى دمشق وقد بايع له أكثر
 أهلها سرا وكان واليه عبد الملك بن محمد بن الحجاج فاستولى يزيد على دمشق وجهاز
 جيشا لمقاتلة الوليد عليه عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك فذهب اليه وهو
 بالاعدف من أرض عمان فقاتله ولما أحس الوليد بالغلبة دخل قصره وأذاق عليه بابه

(٣٣٧)

وجلس وأخذ مصحفاً فنشره يقرأ فيه وقال يوم كيوم تمان فصعدوا على الحائط ودخلوا عليه فقتلوه وحزوا رأسه وذهبوا به إلى يزيد فصبه على رمح وطيف به في دمشق

وكان قتله لليلتين بقيتا من جمادى الآخرة سنة ١٢٦ وكانت مدة خلافته سنة وثلاثة أشهر : وبقتله افتتح باب الشؤم على بني أمية
﴿ يزيد الثالث ﴾ ١٢

هو يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان وأمه أم ولد اسمها شاه أفريد بنت فيروز بن يزدجرد بن شهريار بن كسري وفي ذلك يقول
أنا ابن كسري وأبي مروان وقيصر جدى وجدى خاقان

بويح بالخلافة بعد مقتل الوليد بن يزيد بن عبد الملك لليلتين بقيتا من جمادى الآخرة سنة ١٣٦ وكان يسمى يزيد الناقص قيل لانه نقص من أعطيات الناس مازاده الوليد بن يزيد وردّها إلى ما كانت عليه زمن هشام : وكانت ولاية يزيد فائحة الاضطراب في البيت الاموى ومبدأ انحلاله وذهاب سعادته

وأول ما كان من الاضطراب بالشام قيام أهل حمص ليأخذوا بثأر الوليد من قتله وأمروا إليهم معاوية بن يزيد بن حصين وتابعهم على ما أرادوا من ذلك مروان بن عبد الله بن عبد الملك وكان عاملاً للوليد على حمص وهو من سادة بني مروان نبلا وكرماً وعقلاً وجمالاً : فلما بلغ يزيد خبرهم أرسل اليهم رسلاً فيهم يعقوب بن هاني وكتب اليهم أنه ليس يدعو إلى نفسه وانما يدعو إلى الشورى فلم يرض بذلك أهل حمص وطرّدوا رسل يزيد وحيثئذ جهز لهم جيشاً عليه سليمان بن هشام فسار ذلك الجيش حتى نزل حواريين : كان أهل حمص يزيدون الذهاب إلى

دمشق فشرع عليهم مروان بن عبد الله أن يبدعوا بقتال هذا الجيش فاتهموه قتلوه
 هو وابنه وولوا أبا محمد السفيناني وتركوا جيش سليمان ذات اليسار وساروا إلى
 دمشق فسار سليمان مجداً في أثرهم فلحقهم بالسليمانية وكان يزيد قد أرسل جنداً
 آخر يقدمه عبد العزيز بن الحجاج فاجتمع الجندان على أهل حمص فهزمواهم وقتلوا
 منهم عدداً عظيماً وأغاروا ذلك دانوا ليزيد وبايعوه . وكما فعل أهل حمص فعل
 أهل فلسطين فانهم طردوا عاملهم وولوا أمرهم يزيد بن سليمان بن عبد الملك
 وكذلك فعل أهل الأردن وولوا أمرهم محمد بن عبد الملك واجتمعوا مع أهل
 فلسطين على قتال يزيد بن عبد الملك فسير اليهم يزيد سليمان بن هشام في أهل
 دمشق وأهل حمص الذين كانوا مع السفيناني وكانت عدتهم أربعة وثمانين ألفاً ولم
 تتم لأهل فلسطين والأردن لأنهم اختلفوا ففترق أمرهم وانتهوا بالبيعة ليزيد
 وكما كان هذا الخلاف والشقاق بالشام كان الأمر على أشد من ذلك بالعراق
 والمشرق فان يزيد ولي العراق منصور بن جمهور وعزل عنه يوسف بن عمر
 فذهب منصور إلى الكوفة وأخذ البيعة بها ليزيد ثم أرسل العمال إلى خراسان
 فامتنع نصر بن سيار من تسليم عمله إلى عمال منصور وضبط البلاد وأعطى الناس
 بعض أعطياتهم فطالبوه ببقية العطاء فأبى ذلك عليهم : قام في وجهه رجل من كبار
 اليمن هو جديع بن علي الأزدي المعنى ويلقب بالكرماني لانه ولد بكرمان وقام
 معه اليمانية يريدون افساد الأمر على نصر فقامت النزارية مع نصر عصبية
 له وبذلك نبض عرق العصبية الجاهلية بين الحيين العظميين من العرب وهما
 اليمانية والنزارية فاستحضر نصر الكرماني وحاسه فاحتالت الأزدي حتى
 أخرجوه من محبسه وجمع الناس لحرب نصر وكادت الحرب تقع بينهما لولا

أن سعى الناس بالصلح بينهما ولكنه صالح على فساد لان كلا منهما كان يخاف الآخر وبهذا صارت بلاد خراسان مرعى هنيئاً لدعاة بنى العباس : ولم يكن عند ولاية الامر من بنى أمية بالشام ما يمكنهم من سد هذه الثلة التي أثاروها على أنفسهم بهذا الانشقاق المؤذن بالانحلال

لم تطل مدة يزيد في الخلافة فانه توفي لعشر بقين من ذى الحجة سنة ١٢٦ بعد خمسة اشهر واثنين وعشرين يوماً من استخلافه : وكان قد عهد بالولاية من بعده لاختيه ابراهيم بن الوليد ثم لعبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك : فلما توفي يزيد قام بالامر من بعده أخوه ابراهيم ذيراً أنه لم يتم له الامر فكان تارة يسلم عليه بالخلافة وتارة بالامارة وتارة لا يسلم عليه بواحدة منهما

وسبب ذلك أن مروان بن محمد بن مروان والى الجزيرة وأرمينية لم يرض ولاية ابراهيم فسار الى الشام في جنود الجزيرة فاستولى على قنسرين وحمص ولما وصل دين الحر قابله جنود أرسلت لحربه من قبل ابراهيم بن الوليد فالتصروا عليهم مروان وهزمهم هزيمة منكرة ثم أخذ عليهم مروان البيعة له ثم سار حتى أتى دمشق فاستولى عليها وبايعه أهلها وهرب ابراهيم بن الوليد فأمنه مروان ولعدم تمام الامر لا ابراهيم لم يعده المؤرخون من الخلفاء

١٣ ﴿ مروان الثاني ﴾

هو مروان بن محمد بن مروان بن الحكم وأمه أم ولد كردية كانت لابراهيم بن الاشر فاخذها محمد بن مروان يوم قتل ابراهيم فولدت له مروان سنة ٧٠ من الهجرة وكان والياً على الجزيرة وأرمينيا كما كان أبوه قبل ذلك وكان الناس يلقبونه بالجمدى لانه تعلم من الجعد بن درهم مذهبه

في القول بخلق القرآن والقدر وغير ذلك . وبويع بالخلافة في دمشق بعد انتصاره على أهلها سنة ١٢٧

كانت مدة مروان كلها مملوءة بالفتن والاضطرابات منذ بويع الى أن قتل

وأول ما كان من ذلك خروج عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب بالكوفة داعياً الى نفسه وكان معه من الشيعة عدد عظيم جداً وكان والي العراق عبد الله بن عمر بن عبد العزيز في حربه وكانت العامة تميل اليه لمحبتهم لآبيه فساعدوه ذلك على أن غلب عبد الله ابن معاوية ونفاه عن العراق

ثم كان بالشام ما هو أفظع من ذلك وهو الخلاف المتوالي على مروان من أهل الأمصار الكبرى فانتقض عليه أهل حمص وكان له معهم واقعة هائلة انتصر فيها عليهم وقتل منهم مقتلة عظيمة . ثم خالف عليه أهل النوبة فحاربهم وانتصر عليهم . ثم خالف عليه أهل فلسطين فكانت له معهم وقائع انتصر فيها عليهم : ثم ثار عليه سليمان بن هشام بن عبد الملك فانه قد حسن له بعض دعاة الشر والفتنة خلع مروان وقالوا له أنت أوضأ عند الناس من مروان وأولى بالخلافة . فأجابهم الى ذلك وسار باخوته ومواليه معهم فمسكروا بقنسرين وكاتب أهل الشام فاتوه من كل وجه وبلغ الخبر مروان وكان بقرقيسياً فاقبل اليه بالجنود ولاقاه بقرية خساف من أرض قنسرين وكانت النتيجة ان انهزم سليمان وجنوده وأسر مروان منهم عدداً عظيماً فقتلهم ويقال انه أحصيت القتلى من جند سليمان يومئذ فبلغت

ثلاثين ألفاً ومضى سليمان في هزيمته حتى وصل حمص فاجتمعت عليه الفلول فتصد به مروان وفي الطريق قابله جنود سليمان فانهزموا ولما ظلم سليمان بهن يمتهم ترك حمص وسار الى تدمر فاقام بها ما مروان فاتي حمص واستولى عليها فانتقم تروان ان القوة التي كان يرتكز عليها ملك بني أمية وهي جنود الشام قد انشقت انشقا فاحزننا تبعاً لانشقاق البيت المالك وهذا أعظم ما يساعد العدو الذي يعرف كيف ينتهز الفرص لم تقف الاضطرابات عندها هذا الحد بل وجدت بقايا الخوارج الفرصة لاظهار ما في أنفسهم فخرج الضحاك بن قيس الشيباني وأتى الكوفة واستولى عليها من يد أميرها عبد الله بن عمر بن عبد العزيز فهرب عبد الله الى واسط فقبضوه ولما اشتدت الحرب سلم عبد الله الامر الى الضحاك وبايعه وصار من عدادا الحواريين وكذلك دخل في هذه البيعة سليمان بن هشام بن عبد الملك ولما تم ذلك للضحاك عاد الى الموصل فافتتحها واستولى على كورها وكان مروان اذذاك محاصراً الحمص فلما بلغه الخبر كتب الى ابنه عبد الله وهو خليفته بالجزيرة يأمره أن يسير الى نصيبين فيمن معه ليمنع الضحاك عن توسط الجزيرة فسار اليها في سبعة آلاف فسار اليه الضحاك وحصره في نصيبين وكان مع الضحاك نحو من مئة ألف ولما انتهي مروان من أمر حمص سار لمقابلة الضحاك فالتقي به في نواحي كفر توثا فحصلت بين الفريقين موقعة عظيمة قتل فيها الضحاك فولي الخوارج عليهم سعيد بن بهدل الخيري أحد قواد الضحاك وأعادوا الكرة على جنود مروان فانهزم القلب وفيه مروان ووصل الخيري الى خيمته وثبتت الميمنة والميسرة ولما رأى أهل العسكر قلة من مع الخيري ثار اليه العبيد بعمد الخيم فقتلوه هو ومن معه وبلغ الخبر مروان وقد جاز بالعسكر بخمسة أميال منهم ما فأنصرف الى عسكره ورد خيوله الى

مواقعها وبات ليلته في عسكره

ولما علم الخوارج بقتل الخيبري ولوا بدله شيبيان بن عبد العزيز اليشكري فأقام يقاتل مروان ولكنه لما رأى ان الناس يتفرقون عنه انصرف بمن معه الي الموصل فتبعهم مروان وأقام يقاتلهم ستة أشهر

في أثناء ذلك سير مروان يزيد بن عمر بن هيرة الي العراق بالجنود فأجلى الخوارج عن أمصاره وضبطها ولما تم له ذلك سير جند المساعدة مروان فلما علم شيبيان بذلك كره أن يكون بين عدوين فرحل عن الموصل فسير مروان في أثره جندا وأمر القائد أن يقيم حيث يقيم شيبيان وأن لا يبدأه بقتال فان قاتله شيبيان قاتله فلم يزل يتبعه حتى لاقاه بجيرفت وهزمه هزيمة منكرة فمضى شيبيان الي سجستان فهلك بها وذلك سنة ١٣٠

ومن الذين خرجوا على مروان وشغلوه المختار بن عوف الازدي الشهير بابي حمزة وكان يوافي الموسم كل سنة يدعو الناس الي خلاف مروان بن محمد ولم يزل على ذلك حتى وافى عبد الله بن يحيى في آخر سنة ١٢٨ فقال له يارجل أسمع كلاما حسنا أراك تدعو الي حق فانطلق معي فاني رجل مطاع في قومي فخرج حتى ورد حضرموت فبايعه أبو حمزة على الخلافة ودعا الي خلاف مروان وآل مروان

وبينا الناس بعرفة سنة ١٢٩ اذا طلعت عليهم أعلام وعمائم سود على رؤوس الرماح وهم سبعة ففرغ الناس حين رأوهم وسألوهم عن حالهم فأخبروهم بخلافهم مروان وآل مروان فرأسلهم عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك وهو يومئذ على مكة والمدينة وطلب منهم الهدنة فقاتلوا نحن بجند أضي وعليه

أشع فصالحهم على أنهم جميعاً آمنون بعضهم من بعض حتي ينفر الناس
النفر الاخير

فوقفوا بعرفة على حدة ولما كان النفر الاول نقر عبد الواحد فيه وخلي
مكة فدخلها أبو حمزة بنغير قتال . ثم مضى عبد الواحد حتى دخل المدينة
فضرب على أهلها البعث وزادهم في المعطاء عشرة واستعمل عليهم عبدالعزيز
ابن عبد الله بن عمرو بن عثمان فمضوا حتى اذا كانوا بقديد لقيتهم جنود أبي
حمزة فاوقعت بهم وقتلت منهم مقتلة عظيمة وذلك لسبع بقين من صفر سنة
١٣٠ ثم سار أبو حمزة حتى دخل المدينة من غير أن يلقي فيها حرباً فرقي منبرها
وقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه تعلمون يا أهل المدينة اننا لم نخرج من ديارنا وأموالنا
أشراً ولا بطراً ولا عبثاً ولا لدولة ملك نريد أن نخوض فيه ولا لثأر قديم نيل منا
ولكننا لما رأينا صايح الحق قد عطلت وعنف القاتل بالحق وقتل القائم بالقسط
ضائق علينا الأرض بما رحبت وسمعنا داعياً يدعو الى طاعة الرحمن وحكم
القرآن فأجبنا داعي الله (ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض) أقبلنا من
قبائل شتى النفر منا على بئر واحد عليه زادهم وانقسم يتعاورون لحافاً واحداً
قليلون مستضعفون في الأرض فأنا وأيدنا بنصره فاصبحنا والله جميعاً بنعمته
أخواناً ثم لقينا رجالكم بقديد فدعوناهم الى طاعة الرحمن وحكم القرآن
ودعونا الى طاعة الشيطان وحكم آل مروان فشتان لعمر الله ما بين الرشد والني
ثم أقبلوا ليهربون يزفون قد ضرب الشيطان فيهم بجرانه وغلّت بدمائهم مراحله
وصدق عليهم ظنه وأقبل أنصار الله عز وجل عصائب وكتائب بكل مهند
ذى روق نذارت رحانا واستدارت رحاهم بضرب ياتاب منه المبطون

وَأَنْتُمْ يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ إِنْ تَنْصَرُوا مَرْوَانَ وَآلَ مَرْوَانَ يَسْحَتِكُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ
بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بَايَدِينَا وَيَشْفِ صُدُورُ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ
أَوَلَكُمْ خَيْرٌ أَوْلٍ وَآخِرُكُمْ شَرٌّ آخِرُ يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ النَّاسُ مَنَاوَنُحْنُ مِنْهُمْ إِلَّا مُشْرِكًا
أَوْ عَابِدَ وَثْنٍ أَوْ مُشْرِكٍ أَهْلَ الْكِتَابِ أَوْ أَمَامًا جَائِرًا يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ مَنْ زَعَمَ
أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ كَلَّفَ تَقْسًا فَوْقَ طَاقَتِهَا أَوْ سَأَلَهَا مَا لَمْ يُؤْتَهَا فَهُوَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ
عَدُوٌّ وَلَنَا حَرْبُ يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ أَخْبِرُونِي عَنْ ثَمَانِيَةِ أَشْهُمٍ فَرَضَهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي كِتَابِهِ
عَلَى الْقَوَى وَالضَّعِيفِ فَجَاءَ تَاسِعٌ لَيْسَ لَهُ مِنْهَا وَلَا سَهْمٌ وَاحِدٌ فَخَذَهَا لِنَفْسِهِ مَكَابِرًا
مَحَارِبًا بِالرَّبِّ يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ بَلِّغْنِي أَنْكُمْ تَنْتَقِصُونَ أَصْحَابِي قُلْتُمْ شِبَابَ أَحْدَاثٍ
وَأَعْرَابَ جَفَاءَ وَيَلَكُمْ يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ وَهَلْ كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ الْأَشْيَابَ أَحْدَاثًا شِبَابَ وَاللَّهُ مَكْتَهَلُونَ فِي شِبَابِهِمْ غَضِيَّةٌ عَنِ الشَّرِّ أَعْيَنَهُمْ
ثَقِيلَةٌ عَنِ الْبَاطِلِ أَقْدَامُهُمْ قَدْ بَاعُوا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَنْفُسًا تَمُوتُ بِأَنْفُسٍ لَا تَمُوتُ
قَدْ خَالَطُوا كَلَالَهُمْ بِكَلَالِهِمْ وَقِيَامَ لَيْلِهِمْ بِصِيَامِ نَهَارِهِمْ مَنْحَنِيَّةٌ أَصْلَابُهُمْ عَلَى أَجْزَاءِ
الْقُرْآنِ كُلِّهَا مَرْوَابًا يَتَشَوَّقُ شَهْقًا شَوْقًا إِلَى الْجَنَّةِ فَلَمَّا نَظَرُوا إِلَى السِّیُوفِ قَدْ
اتَّضَيْتِ وَالرِّمَاحُ قَدْ شَرَعَتْ وَالْيَسْهَامُ قَدْ فُوقَتْ وَارْعَدَتِ الْكِتَابَةُ بِصَوَاعِقِ
الْمَوْتِ وَاسْتَخَفُّوا وَعِيدَ الْكِتَابَةِ لَوْ عِيدَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَلَمْ يَسْتَخَفُّوا وَعِيدَ اللَّهِ
لَوْ عِيدَ الْكِتَابَةِ فَطُوبَى لَهُمْ وَحَسَنَ مَا بَ فِكُمْ مِنْ عَيْنٍ فِي مَنْقَارِ طَائِرٍ
طَالَمَا فَاضَتْ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ مِنْ خَوْفِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَكَمْ مِنْ يَدِ زَالَتْ عَنْ
مِفْصَلِهَا طَالَمَا اعْتَمَدَ بِهَا صَاحِبُهَا أَقُولُ قَوْلِي هَذَا وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ مِنْ تَقْصِيرِنَا
(وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ)

ثم ان أبا حمزة ودع أهل المدينة وسار نحو الشام وكان مروان قد

انتخب من عسكره أربعة آلاف فارس واستعمل عليهم عبد الملك بن محمد ابن عطية السعدي وأمره أن يمد في السير ويقاتل الخوارج فاذا ظفروهم سار حتى يبلغ اليمن ويقاتل عبد الله بن يحيى فسار ابن عطية حتى لقي أباجزة بوادي القري فقاتله حتى قتله وهزم أصحابه ثم سار الى المدينة فأقام بها شهراً وبعد ذلك سار الى اليمن وبلغ عبد الله بن يحيى مسيره اليه وهو بصنعاء فأقبل اليه بمن معه ولما التقيا قتل عبد الله وحمل رأسه الى الشام كل هذه المشاغل والفتن التي كانت بالشام والحجاز شغلت مروان عن خراسان وما كان يجري فيها فكان ذلك أعظم مساعد لشيعه بني العباس ورئيسهم المتقدم أبي مسلم الخراساني دلي أخذ خراسان ومبايعة أهلها على الرضا من بني العباس ثم مدوا سلطانهم الى العراق فاستولوا عليه من عمال بني أمية (وسنفضل حديثهم وما كان منهم حينما نشغل بتاريخ الدعوة العباسية) وفي شهر ربيع الاول سنة ١٣٢ بويع بالكوفة لأبي العباس السفاح أول الدولة العباسية وبعد أن تم له الأمر بالعراق فكر في إرسال الجند لمروان حتى يقضي عليه القضاء الاخير فاختر عمه عبد الله بن علي قائداً لذلك الجند فسار حتى التقى بمروان وجنده على نهر الزاب ليلتين خلتا من جمادى الآخرة سنة ١٢٣ وهناك كانت الموقعة العظمى بين الجندين وانهت بهزيمة مروان بن محمد بعد أن قتل ممن معه مقتلة عظيمة وكانت الهزيمة لاحدى عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة صار مروان ينتقل من بلد الى آخر وعبد الله بن علي يتبعه ولما جاز مروان أرض الشام قاصداً مصر أرسل عبد الله في أثره أخاه صالح بن علي فلم يزل وراءه حتى عثر به نازلاً في كنيسة

يقرية بوصير وبعد قتل خفيف قتل مروان لليلتين بقيتا من ذى الحجة سنة ١٣٢ وبقتله انتهت أيام الدولة الاموية وابتدأ عصر الخلافة العباسية (قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتمزج من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شيء قدير)

الخلافة

في مدنية الاسلام في عهد الدولة الاموية وأسباب سقوطها
الخلافة الاسلامية

لبست الخلافة في عهد الدولة الاموية مظهر الملك وأبهته واستقرت سطوة الحكم وعظمته فبعد أن كان الخلفاء الراشدون للناس كافة لا يمنعهم دون الخليفة حجاب ولا يصدهم عنه باب وجد في العهد الاموي الحجاب والمقاصير في المساجد الجامعة . وبعد أن كان يقول عمر بن الخطاب على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم من رأى منكم فى اءوجاجاً فليقومه قال عبد الملك بن مروان فى خطبته بعد قتل ابن الزبير ولا يأمرني احد بتقوي الله بعد مقامى هذا الا ضربت عنقه وبعد أن كان الخليفة يختلط بالناس كاحدهم فى الاسواق والمجامع يأمر وينهى ويربى ويؤدب رأينا الوليد بن عبد الملك تصرف له الناس من المسجد النبوي حينما أراد مشاهدته وأثر الصنعة فيه وكادوا يصرفون سعيد بن المسيب شيخ الفقهاء بالمدينة لولا جلال سنه واحترام الامير عمر بن عبد العزيز له وبعد أن لم يكن للخليفة شارة يمتاز بها صرنا نروى الروايات عن قضيب الخلافة وخاتمها وننشد للوليد بن يزيد ابن عبد الملك حينما جاءه نعي عمه هشام بن عبد الملك

(٣٤٧)

طاب يومي ولذة شرب السلافة وأتانا نعي من بالرصافة
وأتانا البريد ينعي هشاماً وأتانا بنحائم للخلافة
وبعد أن كان الخلفاء بعيدين عن مظاهر الترف يجتريء أحدهم بأقل
ما يجتري به الضعفاء من رعييتهم ويتمنى بعد ذلك أن يخرج من الدنيا كفافاً
لأعليه ولاله صرنا نرى بعض بني مروان قد اتعمسوا في الترف فاخترت
لهم الألوان وتبسطوا بما لذ وطاب فسمعوا الاغانى من القيان كما يروى عن
يزيد بن عبد الملك وابنه الوليد بن يزيد : وبعد أن كانت الخلفاء تختار
من بيوت متعددة رأينا الخلافة في هذه الدولة قد انحصرت في بيت واحد
يختار كل خليفة منهم ولي عهده من أهل بيته اما ابنه أو أخاه أو ابن عمه شأن
الملك العقيم وبعد أن كانت الامة تساس بوازع الدين وأثره في النفس رأيناها
تساس بقوة البطش وحد السيف حتى كان عبد الملك يقول للناس تطلبون
منا أن نسير فيكم بسيرة الشيخين أبي بكر وعمر ولا تسيرون أنتم بسيرة
الناس في عهد أبي بكر وعمر فكانه يعتذر لهم عن فسوته في معاملتهم بأنهم هم
الذين حملوه على ذلك بما ظهر فيهم من بدع الاخلاق وكما تمثل يزيد بن معاوية
حينما جاءه الخبر بمخلم أهل المدينة له

هم بدلوا الحكم الذي في سجيتي فبدلت قومي غلظة بليان
واذا كسنا على رأى من يقول ان الامة هي التي تخلق ملوكها (وهو قول حق
ظهر لنا صدق عبد الملك ويزيد فيما قالاه

وعلى الجملة فان مظاهر الملك قد ظهرت على هذه الدولة من أول وجودها كما أن
الترف قد لحقها في آخر أمرها وهو نتيجة طبيعية لا نحصر الخلافة في بيت واحد

الانتخاب والبيعة

جرى خلفاء بني أمية على اختيار أولياء المهد في حياتهم فكلهم كان مختاراً من سلفه ما عدا رأس هذه الدولة معاوية بن أبي سفيان ومروان بن الحكم ويزيد بن الوليد بن عبد الملك ومروان بن محمد فان أربعتهم قد أخذوها بالقوة فمعاوية اختاره أهل الشام فغالب بهم حتى استقر له الأمر واجتمعت عليه الكلمة : ومروان اختاره بعض أهل الشام عتب موت معاوية الثاني فغالب بهم حتى فاز بعض الفوز وتم الأمر لبني أمية على يد ابنه عبد الملك : ويزيد الثالث خرج إلي ابن عمه الوليد بن يزيد الثاني حتى قتله وحل محله : ومروان بن محمد دعا إلى نفسه عقب موت يزيد الثالث فبايعه قوم وكرهه آخرون ولم يزل في أخذ ورد حتى دالت دولتهم على يده امامن عدا هؤلاء الأربعة وهم تسعة الخلفاء فقد كانوا مختارين من قبل أسلافهم فيزيد الأول اختاره أبوه معاوية . ومعاوية الثاني اختاره أبوه يزيد : وعبد الملك اختاره أبوه مروان : والوليد وسليمان اختارهما أبوهما عبد الملك وعمر ويزيد اختارهما سليمان الأول ابن عمه والثاني أخوه وهشام والوليد الثاني اختارهما يزيد الأول أخوه والثاني ابنه

ولم يحصل في عهد بني أمية أن يختار أحد منهم واحداً لولا يه يهده بل كانوا دائماً يختارون من يلي عهدهم ومن بعده وهذه من أغلاطهم التي جرى بها سوء نتائجها ولم يرعوا عنها فكانت سبباً مهماً من أسباب القضاء على دولتهم كما سيأتي توضيحه وكانوا يأخذون البيعة في حياتهم لولاة عهدهم فإذا مات الخليفة جددت البيعة مرة ثانية تأكيذاً للعهد والميثاق : وأول من كان يبايع أمراء البيت الأموي ثم يليهم القواد ثم أمراء الأئمة مصر وهؤلاء يأخذون البيعة على من تحت أمرتهم

وكانت البيعة على السمع والطاعة والعمل بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وقد شدوا أحياناً عن نص هذه البيعة اذا كانت عقب ثورة فقد أخذ مسلم بن عقبة المري البيعة على أهل المدينة بعد وقعة الحرة على أنهم خول ليزيد يحكم في أنفسهم وأموا لهم وأبنائهم وكان الحجاج بعد هزيمة ابن الأشعث لا يبايع الا من أقرّ علي نفسه بالكفر بخروجه

ادارة البلاد

كانت البلاد اسلامية تدار بمعرفة أمراء يختارهم الخلفاء وهم نواب عنهم

وكانت مقسمة الى أمارات كبرى وهي

(١) الحجاز وينتظم المدينة ومكة والطائف ويقم الامير بالمدينة وكان ضاف الى ذلك أحياناً بلاد اليمن وأحياناً تكون مستقلة بأمير

(٢) العراق وينتظم الكوفة والبصرة وخراسان والامير يقيم في الكوفة بعض السنة وفي البصرة بعضها وكانت خراسان تستقل أحياناً بأمير يخاطب الخليفة رأساً : وقد يضاف أحياناً الى امارة العراق بلاد الهامة

(٣) الجزيرة وأرمينية وتنتظم بلاد الموصل وأذربيجان وولايات أرمينية

(٤) أجناد الشام وكانت خمسة وهي فلسطين — والاردن — ودمشق

وحمص — وقنسرين وكانت قنسرين وكورهاة مضمومة الى حمص حتي كان يزيد

ابن معاوية فجعل قنسرين وانطاكية ومنبجاً جنداً برأسه وانما سمي كل منها جند

لانه يجمع كوراً والتجند التجمع وقيل سميت كل ناحية بجند كانوا يقبضون

أعطياتهم فيه والا قرب أن هذا هو أصل التسمية

(٣٥٠)

(٥) مصر وأفريقية وتنتظم بلاد مصر وشمال أفريقية وكانت أفريقية في بعض الاحيان تستقل بوال عن مصر

(٦) بلاد الاندلس بعد فتحها وتارة كانت تضم الى أفريقية وكل أمير كان يختار من رجاله أمراء على الكور التي هي في حدود أمارته

كانت الاعمال التي ترجع الى الخلفاء هي (١) اقامة الصلاة (٢) قيادة الجيش (٣) جباية الخراج والصدقات ووضع ذلك مواضعه (٤) القضاء بين الناس في منازعاتهم: وقد كان الامير يقوم مقام الخليفة أحياناً في جميع ذلك يقيم للمسلمين صلاتهم بنفسه ويقود الجند أو يختار من رجاله قائداً للجيش ويعين جانياً للخراج فيصرف منه حاجات الامارة وأعطيات الجنود ويرسل بما يبقى الى الخليفة ويعين من شاء للقضاء بين الناس وتارة كانوا يقصرون الولاية على الصلاة والحرب والقضاء ويعين الخليفة عاملاً للخراج يرجع اليه رأساً

والامراء الذين كانت اليهم النيابة العامة كانوا متمتعين بما يسمى في العرف الحاضر بالاستقلال الاداري فكانوا يتصرفون في كل شيء ويعلمون الخليفة بما عندهم من الامور العظيمة . وأظهر ما كان هذا الاستقلال في بلاد العراق في عهد زياد بن أبي سفيان وابنه عبيد الله . والحجاج بن يوسف وعمر بن هبيرة وخالد بن عبد الله القسري الا أن الحجاج كان أكثرهم استقلالاً للثقة التي حازها عند عبد الملك وابنه الوليد

كانت المشاكل تحل والمنازعات تهضي في حواضر الامارات الا انه لا مانع تمنع اذا ظلامه من أن يرفع أمره الى الخليفة وقد ترفع عنه ظلامته وقد ضيق على

الامراء عمر بن عبد العزيز بعض التضيق لان ثقته كانت بهم قليلة وقد حتم عليهم ان لا ينفذوا احدا من الحدود من قتل أو قطع الا اذا عرض عليه وأمر بتنفيذه : أما في عهد غيره فكان الامراء يفعلون ما فوق ذلك من غير أن يعلم الخليفة بما يفعلون فكان أحدهم يأمر بقتل الرجل على أيسر الذنوب أو يضربه بالضرب المبرح من غير أن يكون هناك اعتراض عليه لا من الخليفة ولا من الناس

والذي دعا الى تمتع الامراء بهذا الاستقلال هو صعوبة المواصلات بين حاضرة الخلافة دمشق وبين حواضر الولايات فلما أُلزم الأمير أن يستشير في كل ما يقع في دائرة ولايته لطال عليهم الزمن وبقيت المشاكل من غير حل زمنا طويلا وهذا مسبب للاضطراب الكثير

ومن أعظم ما يؤخذ على بني أمية في النصف الثاني من أيام خلافتهم لإذلال الامراء ومصادرتهم في أموالهم وأحياناً الاتيان على أنفسهم بعد أن يمزقوا وقد ابتداء هذا في عهد سلجمن بن عبد الملك فانه أذل عمال الحجاج ومن كانوا يلوذون به بعد أن مهدوا لهم السبل ووطئوا لهم المنابر واستمر الامر على ذلك من بعد عمر بن عبد العزيز الى أن انتهى أمرهم وقد كان هذا سبباً من أسباب فناء البيت الاموي ومن أغرب ما حصل لهم أن يوسف بن عمر الثقفي الذي ولي العراق بعد خالد بن عبد الله القسري اشترى من الوليد بن يزيد خالد أو عماله بخمسين ألف ألف فدفعه اليه فنزع يوسف ثيابه وألبسه عباءة وحمله في حمل بغير وطاء وعذبه عذاباً شديداً وهو لا يكلمه كلمة ثم حمله الى الكوفة فعذبه ووضع المضرس على صدره فقتله من الليل ودفنه من وقته بالحيرة في عباءته التي كان فيها وذلك بعد ان ولي

خاله العراق خمس عشرة سنة وهو بعد هذا سيد من سادات اليمن
وعظيم من عظمائهم
قيادة الجنود

تمتاز هذه الدولة بأن عصرها كله كان زمن فتح ففيه اتسعت
حدود المملكة الإسلامية من الجهة الشرقية في السند والصفد وبلاد الترك
ومن الجهة الشمالية في أذربيجان وأرمينية وبلاد الروم ومن الجهة الغربية في
ريقية والاندلس

وكان عصرها مع هذا من حروب داخلية عظام حيناً مع الخوارج وحيناً
مع طلاب الخلافة من بني علي ولم يخل عصر خليفة أموي من حروب داخلية إلا
عصر الوليد بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز . فهي إذاً دولة حربية . ولا جرم
أن امتاز فيها أفراد كثيرون بقيادة الجنود إلى حومة الوغي واشتهروا بالثبات
ومضاء العزيمة وحسن التدبير في الحرب وهانحن نورد على أسماعكم جملة من
اولئك الافراد العظام الذين مر ذكرهم

ممن اشتهر بالشرق (١) المهلب بن أبي صفرة الأزدي وكان علمه تاماً
بمكيدة الحرب والاحتراس من غوائلها واشتهر في حروبه مع الخوارج
ببلاد فارس وله حروب قليلة بما وراء النهر وامتاز المهلب بمحبته للجماعة
وبعضه للفتن والثورات (٢) قتيبة بن مسلم الباهلي وكان شجاعاً مقداماً
لا يردده شيء عن قصده واشتهر بحروبه بما وراء النهر فانه دوح تلك البلاد
وأذل أهامها وقد أخذ عليه خلع لسلیمان بن عبد الملك عقب خلافته وكان
ذلك سبب هلاك قتيبة وأهل بيته وفقد الدولة صالح خدمتهم (٣) يزيد
ابن المهلب بن أبي صفرة الأزدي وكان شجاعاً لا يختر له الفرار على بال

واشتهر بحروبه في جرجان وطبرستان فانه رد أهلها الى الطاعة بعد غدرهم وقطعهم الطريق طريق خراسان وله حروب بعد ذلك بما وراء النهر وأخذ عليه خلعه ليزيد بن عبد الملك عقب خلافته وكان ذلك سبباً لهلاكه وهلاك أهل بيته الذين كانوا آثره في جبين الدولة الاموية (٤) أسد بن عبد الله القسرى اشتهر بحروبه العظيمة بما وراء النهر وكان الناس هناك يسمونه ملك العرب وها بوه هيبة لم يهابوها قائداً قبله وأخذ عليه عصبية لقومه من اليمن على غيرهم من نزار حتى كان ذلك سبباً في فساد أهل خراسان واختلافهم (٥) محمد بن القاسم بن محمد الثقفى اشتهر بحروبه في بلاد السند على عهد الحجاج بن يوسف وافتتح من السند أعظم بلدانهم وأحكم الأمر بها حتى دانت له وقد قتل في أول خلافة سليمان بن عبد الملك

واشتهر في أرمينية وأذربيجان (٦) محمد بن مروان بن الحكم الاموي كان شجاعاً أيداً ذا عزيمة ثابتة حتى كان أخوه عبد الملك يحسده على ذلك وله غزوات وفتوح في شمال أرمينية وأذربيجان (٧) مروان ابن محمد بن مروان كان كأييه بطلاً مقداماً سد ثغوراً أرمينية وأذربيجان وأبلى فيها البلاء الحسن (٨) الجراح بن عبد الله الحكيم وقد قتل في بعض حروبه مع الخزر

واشتهر في بلاد الروم (٩) مسلمة بن عبد الملك كان أشجع أولاد عبد الملك بن مروان غزا القسطنطينية المرة الثانية وافتتح كثيراً من الحصون الرومية وقد قصر به عن الخلافة أن أمه كانت أمة ولم يكن بنوا أمية في أول أمرهم يولون إلا أولاد الجرائر (١٠) أبو محمد عبد الله البطال كان

رئيسا على عرب الجزيرة الذين يغزون ثغور الروم وكانت الروم تهابه هبة شديدة (١١) العباس بن الوليد بن عبد الملك كان يسامي مسلمة في نباهة الشأن وقوة العزيمة وكان كثيرا ما يقود الشواتي والصوائف الى البلاد الرومية واشتهر في الغرب وأفريقية (١٢) عقبة بن نافع وهو مؤسس القيروان وله مع البربر وقائع كثيرة انتصر في معظمها وكانت نهاية أمره أنه قتل في احدي تلك الوقائع (١٣ و ١٤) موسى بن نصير وطارق بن زياد وهما اللذان فتحا بلاد الاندلس وادخلا الاسلام في قارة أوروبا

وهناك غيرهم من القواد لكن لم يكن لهم من رفعة القدر ما لهؤلاء ولم تكن همّة الدولة الاسلامية قاصرة على تقوية الجيوش البرية بل كان لهم اسطول قوى في البحر الابيض المتوسط يحمي البلاد الاسلامية من غارات الروم المتواصلة ويغير على بلادهم : وكان لهم من غابات لبنان مورد عظيم لصنع مراكبهم فضلا عما كانوا يغنمونه من مراكب الروم ولم تكن أمراء البحر في الدولة الاموية تقل مهارة واقداما عن أمراء البحر الروميين وعلى الجملة فان الدولة الاموية ظهرت بمظهر القوة القاهرة أمام الامم التي تجاوزها من الشرق والشمال والغرب في جميع أدوارها : وكانت السيادة في الجيوش للعنصر العربي لان الدولة كانت عربية محضة لم ينازعها دخيل ولذلك لم نر من بين قوادها أعجميا

القضاء والاحكام

لم يزل القضاء في عهد هذه الدولة على بساطته التي كان عليها في عهد الخلفاء الراشدين الا ان تناكر الخصوم أرشدتهم الى تسجيل الاحكام

قال محمد بن يوسف الكندي في كتاب القضاة الذين ولوا مصر ص ١٠
 اختصم الى سليم بن عنز (قاضي مصر من قبل معاوية بن أبي سفيان) في ميراث
 فقضي بين الورثة ثم تناكروا فعادوا اليه فقضي بينهم وكتب كتابا بقضائه
 وأشهد فيه شيوخ الجند قال فكان أول القضاة بمصر سجل سجلا بقضائه
 ولم يكن القضاة يتقيدون برأى في أحكامهم اذ لم تدون اذذاك أحكامهم
 فقهية يقر عليها الخلفاء ويحتمون العمل على مقتضاها فكان الامر راجعا الى اجتهاد
 القضاة أنفسهم أو الى ما يشير به المفتون من كبار المجتهدين في أمصارهم
 كان توبة بن نمر لا يملك شيئا الا وهبه ووصل به اخوانه وأفضل به عليهم
 فلما ولي القضاء بمصر في عهد هشام بن عبد الملك كان يرى أن
 يحجر على السفية والبذر فرفع اليه غلام من حمير لا تحوى يده شيئا الا
 وهبه وبذره فقال توبة أرى أن أحجر عليك يا بني : قال فمن يحجر عليك أيها القاضي
 والله ما نبلغ في أموالنا عشر معشار من تبذرك فسكت توبة ولم يحجر على سفية
 بعد . فهذا الخبر يدل على مقدار ما كان للقضاة من الحرية في اختيار الآراء التي
 يقضون بها . وكانوا أحيانا يطلبون من الخلفاء بيان آرائهم في الحوادث المختلفة
 اذا اشتبه عليهم الامر فيها كما كتب عياض بن عبيد الله الأزدي قاضي مصر من
 قبل عمر بن عبد العزيز اليه يسأله في أمر الشفعة وأن سلفه كانوا يقضون فيها
 للأول فالأول من الجيران فكتب اليه أن يجعلها للشريك وحده وقال فاذا وقعت
 الحدود بين أهل الشرك في الميراث أو غيره وضربت مداخل الناس التي يدخلون
 منها دورهم وأرضهم فقد انقضت الشفعة
 وبذلك كانت الأحكام يخالف بعضها بعضا في الأمصار المختلفة لأن

المجتهدين لم يكونوا على رأى واحد ولم تلتفت الدولة الى التفكير فيما يجمع كلمة المجتهدين على شيء يقضي به قضائهم أو يحمل مجتهدي كل مصر على عمل ما يصلح لذلك المصر مستمدين من أصول الدين : لم يفعلوا هذا ولا ذاك بل تركوا لكل قاض تمام حريته في الحكم بما يراه

وكان الى القضاة مراقبة أموال اليتامى وأول قاض نظر فيها عبد الرحمن ابن معاوية بن حديج قاضي مصر من قبل عبد العزيز بن مروان فإنه ضمن حريص كل قوم أموال يتامى تلك القبيلة وكتب بذلك كتاباً وكان عنده قال الكندي فجري الامر على ذلك

وكانوا يتولون الاحباس وأول قاض بمصر وضع يده على الاحباس توبة بن نمر في زمن هشام بن عبد الملك وانما كانت الاحباس في أيدي أهلها وفي أيدي أوصيائهم فلما كان توبة قال ما أرى مرجع هذه الصدقات الا الى الفقراء والمساكين فأرى أن أضع يدي عليها حفظاً لها من الالتواء والتوارث فلم يمت توبة حتى صار الاحباس ديواناً عظيماً وكان ذلك سنة ١١٨ فذلك أول انشاء ديوان الاوقاف بمصر

كان اختيار القضاة يرجع غالباً الى أمراء الامصار فهم الذين يعينون من يقوم بالقضاء بين الناس وأحياناً كانوا يولون من قبل الخلفاء أنفسهم وقاضى حاضرة الخلافة يختاره الخليفة وليس له أدنى امتياز عن سائر القضاة ولا رأى في اختيارهم ويظهر أن مرتبات القضاة لم تكن مما يحوجهم الى مدا لا يدي الى السحت رأيت أن عبد الرحمن بن حجية كان يتولى القضاء بمصر ومعه القصص وبيت المال فكان رزقه في السنة من القضاء مئتي دينار ومن القصص مئتي دينار ورزقه في بيت المال

مئتي دينار وكان عطاؤه مئتي دينار وكانت جائزته مئتي دينار فكان يأخذ ألف دينار في السنة . ورأيت في الكندي أمرًا بصرف مرتب قاض في عهد مروان الثاني هدا نصه (بسم الله الرحمن الرحيم من عيسى بن أبي عطاء إلى خزان بيت المال أعطوا عبد الرحمن بن سالم القاضي رزقه شهر ربيع الأول و ربيع الآخر سنة ١٣١ عشرين ديناراً واكتبوا بذلك البراءة وكتب يوم الأربعاء ليلة خات من ربيع الأول سنة ١٣١) وبذلك يظهر أن الأثر زاق كانت تصرف مقدماً الدواوين

كانت الدواوين لعهد بني أمية ثلاثة

(١) ديوان الجند (٢) ديوان الخراج (٣) ديوان الرسائل فأما ديوان الجند فانه مذووع كان بالعربية لان عمر انما كاف بوضعه نابغين من العرب وهم عقيل بن أبي طالب ومخرمة بن نوفل وجبير بن مطعم وكانوا اكتبوا قريش : وكان هذا الديوان يحصر جند كل اماردة وأعطياتهم وكل ما يختص بهم فهو ديوان (الحربية)

وأما ديوان الخراج فانه كان بالعراق باللغة الفارسية وبلاد الشام باللغة الرومية وبتصر باللغة القبطية لأن العمال الذين يشتغلون فيه هم من أمم تلك اللغات اثلاث ولم يكن المسلمون قدمهروا بعده فيه : فلما ولي الحجاج العراق كازرئيس الديوان في هذه زاذان فروخ واتفق أن انضم إلى الديوان صالح بن عبد الرحمن وكان أبوه من سبي سجستان فرآه الحجاج يكتب بالفارسية والعربية فخف على قلبه شعر صالح بذلك فخاف من زاذان وقال له أنت الذي رقيتني حتى وصلت إلى الأمير وأراه قد استخفني ولا آمن أن يقدمني عليك فتسقط . نزلتلك فقال زاذان لا تخن

ذلك هو أحوج إلى منى إليه لأنه لا يجد من يكفيه حسابه غيري فقال صالح والله لو شئت أن أحول الحساب إلى العربية لحولته قال فحول منه أسطر آحتى أرى فقعل فقال له زاذان تمارض قمارض فبعث إليه الحجاج بطيبيه فشق ذلك على زاذان وأمره أن لا يظهر للحجاج فاتفق عقيب ذلك أن قتل زاذان في فتنة عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث فاستكتب الحجاج بعده صالحاً فأعلم الحجاج بما جرى له مع زاذان في قل الديوان فأعجبه ذلك وعزم عليه في امضائه فنقله من الفارسية إلى العربية وشن ذلك على الفرس وبدلوا له مئة ألف درهم على أن لا يظهر النقل فأبى عليهم وكان عبد الحميد بن يحيى الكاتب يقول لله در صالح ما أعظم منته على الكتاب : وأما ديوان الشام فان الذي نقله من الرومية إلى العربية أبو ثابت سليمان بن سعد كاتب الرسائل في خلافة الوايد بن عبد الملك وكان الذي يليه في عهد معاوية سرجون بن منصور الرومي ثم كتب بعده ابنه منصور ابن سرجون

وأما ديوان مصر فقد نقل في عهد عبد الله بن عبد الملك أمير مصر من قبل الوليد بن عبد الملك سنة ٨٧ ووليه ابن يربوع الفزارى من حمص هكذا نقلت هذه الدواوين الثلاثة إلى اللغة العربية وتخلصت الدولة من هذه الحاجة إلى الكتاب من الأمم الأخرى

وكان ديوان الخراج ينتظم جميع حساب الدولة من دخل ومصرف أو هو ديوان (المالية)

وأما ديوان الرسائل فهو الديوان الذي كانت تصدر منه الرسائل إلى الأمراء والعمال في الإمارات المختلفة وكان هذا بالعربية طبعاً

وكان عندهم ما يسمى بديوان الخاتم وهو الديوان الذي تحتم فيه الكتب بعد أن تكتب وكان الخلفاء يختارون من ثقاتهم والامناء من مواليهم من يكون بيده الخاتم خاتم الخلافة وقد ذكر الطبري في حوادث سنة ١٧٢ أسماء من ولوا كتابة الدواوين للخلفاء ومن اشتهر منهم عبد الحميد بن يحيى قال الطبري وكان من البلاغة في مكان مكين ومما اختير له من الشعر

ترحل ما ليس بالقافل	واعقب ما ليس بالزائل
فلهمنى على الخلف النازل	ولهمنى على السلف الراحل
أبكى على ذا وأبكى لذا	بكاء مولهة ثاكل
تبكى من ابن لها قاطع	وتبكي على ابن لها واصل
فليست تفتر عن عبدة	لها في الضمير ومن هامل
تقضت غوايات سكر الصبي	ورد التقى عن الباطل

السكة الاسلامية

قد بينا أن عمر بن الخطاب ضرب الدراهم على نقش الكسروية وشكلها بأعيانها غير أنه زاد في بعضها الحمد لله وفي بعضها محمد رسول الله وفي بعضها لا اله الا الله وحده وفي آخر مدة عمر ووزن كل عشرة دراهم ستة مثاقيل وأن عثمان ضرب في خلافته دراهم نقشها الله أكبر

قال المقرئ فلما اجتمع الامر لمعاوية بن أبي سفيان وجمع لزياد بن أبيه الكوفة والبصرة قال يا أمير المؤمنين ان العبد الصالح أمير المؤمنين عمر بن الخطاب صغر الدرهم وكبر القفيز وصارت تؤخذ عليه ضريبة أرزاق الجند وترزق عليه الذرية طلب الاحسان الى الرعية فلو جمعت أنت عيار أدون ذلك العيار

ازدادت به الرعية مرفقا ومضت لك به السنة الصالحة فضرب معاوية تلك الدراهم السود الناقصة من ستة دوانيق فتكون خمسة عشر قيراطا تنقص حبة أو حبتين وضرب منها زياد وجعل وزن كل عشرة دراهم سبعة مثاقيل وكتب عليها فكانت تجري مجرى الدراهم وضرب معاوية أيضا دنانير عليها تمثال متقلد سيفيا

فلما قام عبد الله بن الزبير بمكة ضرب دراهم مدورة وكان أول من ضرب الدراهم المستديرة وكان ما ضرب منها قبل ذلك ممسوحا غليظا قصيرا فدورها عبد الله ونقش على احد وجهي الدرهم محمد رسول الله ولى الآخر أمر الله بالوفاء والعدل وضرب أخوه مصعب بن الزبير دراهم بالعراق وجعل كل عشرة منها سبعة مثاقيل وأعطاهم الناس في العطاء

فلما استوسق الأمر لعبد الملك بن مروان بعد مقتل عبد الله ومصعب ابني الزبير فحص من النقود والاوزان والمكايل وضرب الدنانير والدراهم في سنة ٧٦ فجعل وزن الدينارين وعشرين قيراطا حبة بالشامي وجعل وزن الدرهم خمسة عشر قيراطا سوى والقيراط أربع حبات وكل دانق قيراطان نصف وكتب الى الحجاج وهو بالعراق أن اضربها قبلك فضربها وقدمت مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم وبها بقية الصحابة رضى الله عنهم أجمعين فلم ينكروا منها سوى نقشها فان فيه صورة وكان سعيد بن المسيب يبيع بها ويشتري ولا يعيب من أمرها شيئا : وجعل عبد الملك الذهب الذي ضربه دنانير على الميثقال الشامي وهي الميالة الوازنة كل مئة دينارين أى ان النسبة بين الميثقالين كالنسبة بين ١٠٠ و ١٠٢

ثم قال وكان الذي ضرب الدراهم رجلا يهوديا من تيماء يقال له سمير

نسبت الدراهم اذذاك اليه وقيل لها الدراهم السميرية . وبعث عبد الملك بالسكة الى الحجاج فسيرها الحجاج الى الآفاق لتضرب الدراهم بها وتقدم الى الامصار كلها أن يكتب اليه . منها في كل شهر بما يجتمع قبلهم من المال كي يحصيه تندهم وان تضرب الدراهم في الآفاق على السكة الاسلامية وتحمل اليه أولا فاولا وقدر في كل مئة درهم درهما عن ثمن الحطب وأجر ضرب ونقش على أحد وجهي الدرهم قل هو الله أحد وعلي الآخر لا اله الا الله وطوق الدرهم على وجهيه بطوق وكتب في الطوق الواحد ضرب هذا الدرهم بمدينة كذا وفي الطوق الآخر محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله

ثم قال وكان الذي دنا عبد الملك الى ذلك انه نظر للامة وقال هذه الدراهم السوداء والوافية والطبرية العتق تبقى مع الدهر وقد جاء في الزكاة أن في كل مئتين أوفي كل خمسة اواق خمسة دراهم وأشفق ان جعلتها كلها على . كان السود العظام مئتين عدداً أن يكون قد نقص من الزكاة وان عملتها كلها على مثال الطبرية ويحمل المني على انها اذا بلغت مئتين تعدداً وجبت الزكاة فيها فان فيه حيفاً وشططاً على أرباب الاموال فانخذ منزلة بين منزلتين يجمع فيها كمال الزكاة من خير بخس ولا اضرار بالناس مع موافقة ما سنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وحده من ذلك وكان الناس قبل عبد الملك يؤدون زكاة أموالهم شطرين من الكبار والصغار فلما اجتمعوا مع عبد الملك على ما عزم عليه عهد الى درهم واف فوزنه فاذا هو ثمانية دوانيق والى درهم من الصغار فاذا هو اربعة دوانيق فجمعهما وكمل زيادة الاكبر على نقص الاصغر وجعلهما درهمين

متساويين زنة كل منهما ستة دوانيق سوى واعتبر المثلثان أيضا قاذوا هوام
يرح في آباد الدهرموفي محدودا كل عشرة دراهم منها ستة دوانيق فانها
سبعة مثاقيل سوى فأقر ذلك وأمضاه من غير أن يعرض لتغييره

ثم قال ومات عبد الملك والامر دلى ماتقدم فلم يزل من بعده في خلافة
الوليد ثم سليمان ثم عمر الى ان استخلف يزيد بن عبد الملك فغضب الهبيرة
بالعراق عمر بن هبيرة على عيار ستة دوانيق فلما قام هشام بن عبد الملك وكان
جموعا للعمال أمر خالد بن عبد الله القسري في سنة ١٠٦ أن يعيد العيار الى
وزن سبعة وان يبطل السكك من كل بلد الا واسطا فغضب الدراهم بواسط
فقط وكبر السكة فغضبت الدراهم على السكة الخالدية حتى نزل خالد سنة
١٢٠ وتولي من بعده يوسف بن عمر التقي فغضبت السكة وأجراها على وزن ستة
وضربها بواسط وحدها فلما استخلف مروان بن محمد ضرب الدراهم بالجزيرة
على السكة بجران الى أن قتل

وقد نقل المرحوم على مبارك باشا في الجزء الاخير من الخطط وضيعات
نافعة في أمر الدرهم والدينار في الدول الاسلامية وأتبعها بجدول يعرف منه
وزن الدراهم والدينار في الازمنة المختلفة : وحقق أن المثلثان والدينار ليسا
مترادفين وأن المثلثان سدس الاوقية والاوقية المصرية الرومانية التي يطلب على
الظن أن العرب اعتبرتها قدرها ٣٢, ٢٨ جراما فسدسها الذي هو المثلثان ٤, ٧٢
جرام وهناك مثلثان آخر يقل عن هذا شيئا يسيرا إذ أن وزنه ٦٩, ٤ وأن
الدينار كان وزنه ٢٥٠, ٤

ومن الجدول الذي ذكره يتبين أن وزن الدرهم يساوي وزن القطعة

ذات القرشين تقريرا لان وزنها ٣٥٠ جرامات وكان الدرهم في عهد
عبد الملك يتراوح وزنه بين ٢٦٩٤ ج وبين ٢٦٧٠ ج وأن وزن الدينار كان
يساوي في الوزن نصف الجنيه الانكليزي لان وزنه ٢٥٢٠٤ و قد كان وزن
الدينار في عهد عبد الملك يتراوح بين ٢٦٤٠٤ ج وبين ٢٥٢٠٤

ومما بين يظهر فضل عبد الملك بن مروان في ضربه نقودا اسلامية
لان هذا أول علامة من علامات استقلال الدولة المالي وما كان يصح
لمثل الدولة الاموية مع اتساع سلطانها أن تبقى عالة على الروم والفرس في
الدرهم والدينار

أسباب السقوط

استولى البيت الاموي على خلافة المسلمين بالقهر والغلبة لا عن رضا
ومشورة فان معاوية بن أبي سفيان استعان بأهل الشام الذين كانوا شيعته
على من خالفه من أهل العراق والحجاز حتى تم له الامر ورضي الناس عنه
والقلوب منطوية على ما فيها من كراهة ولايته كان في الامة العربية طريقتان
عظيمتان لا يرضون عنه وهم الخوارج وشيعة بني هاشم والاولون ذوو اقدام
بسالة والدد لا يقف في أوجههم عما أرادوا شيئا الا أن يكون الفناء والآخر
عددهم عظيم ومن السهل تحريك القلوب نحو نصرتهم لما لهم من شرف النسبة
الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وبيت هداشأنه لا يصفوله الملك الا اذا
اتكأ على حسن السياسة والتأمت حوله القلوب التي تشايه والتي سلت سيوفها
لنصرته فاذا حل الخرق محل الرفق والقسوة محل اللين فسرعان ماتت تلك
القلوب من مكانها فان صادفت قوة عادت بالفشل وانتظرت فرصة أخرى

وان صادفت شمل خصمها متفرقا قهرته وقضت عليه

عرف ذلك معاوية فاستعمل من ضروب السياسة مع رؤساء العشائر وكبار الشيعة ما ألان شكيمتهم وأسكن ثورتهم فكان يفضي عن الزلات ويعفو عن السيئات يسمع كلمة السوء توجه اليه فيحملها على أحسن محاملها ويجعل من الجسد مزحاً ومن العداة تقرباً ويخلط ذلك بالكرم الفياض الذي يذلل النفوس الجامحة ويقرب القلوب النافرة الا انه نرى فيما زل زلة كبري قللت من قيمة عمله وهي اهتمامه بالنعص من علي بن أبي طالب على منابر الامصار فكان هو وأمرأؤه يفعلون ذلك حتي جعل الزيران تتأجج في صدور شيعته وكان كثير منهم يظهرون ذلك امتعاضاً ورمياً الجري منهم على الامير وجهه فيكون من وراء ذلك اسراف في العقوبة يزيد الامر شرأ كما حصل من زياد في أمر حجر الكندي ظهر من ذلك أن خلفاء البيت الاموي كانوا في حاجة لتأييد سلطانهم الى ما لا يحتاج اليه غيرهم ولكنهم لم يهتموا بذلك كثير أفزعهم ت لهم جملة عيوب كانت سبباً في القضاء عليهم وهي

(أولاً) ولاية العهد

كانت ولاية العهد سبباً كبيراً في انشقاق البيت الاموي وذلك أن بني مروان اعتادوا أن يولوا عهدهم اثنين الى أحدهما الآخر : وأول من فعل ذلك مروان فانه ولي هذه عبد الملك ثم عبد العزيز فكانت بد الملك يبدأ بشق هذا البيت حيث أراد تحويل ولاية هذه الى ابنه الوليد وعزل أخيه عبد العزيز لولا أن ساعد القضاء المحتوم بوفاة عبد العزيز فلم تبدأ الأزمة : ولكنه وهو الذي رأى ذلك وعلمه لم يستفد من تلك التجربة بل ولي الوليد وسليمان . خطر يبال الوليد أنه

يعزل سليمان ويولي ابنه فعاجله القضاء وأخرا الأمر إلى حين لم يستفد سليمان مما حصل له فولي عهده عمر بن عبد العزيز ثم يزيد بن عبد الملك . ولم يكن عمر يميل إلى يزيد فخيف منه فعوجل حتى قيل أنه سم : أعاد يزيد هذه الغلطة فولي عهده هشام أخاه ثم الوليد ابنه فأراد هشام أن يخلع الوليد وليج في ذلك حتى تباعد ما بين هشام والوليد : وكان كثير من كبار القواد وذوي الكلمة المسموعة في الدولة الأموية صرحوا بمالأة هشام على رأيه ولكنه مات قبل أن ينفذ ما رأي فجاء الوليد مشمرا عن ساعد الجد في الانتقام من أولئك الخصوم الذين عليهم المعول في اشادة بيتهم ومنهم بنو عمه وكبار أهل بيته فكان ذلك نذير الخراب فان البيت انشق وتجزأت القوي التي كان يستند عليها فكان من وراء ذلك مجال واسع لخصومهم الذين هبت أعاصيرهم من المشرق فأخذت منهم الأنفاس وجعلتهم أتراب بعدة (ثانياً) أحياء العصبية الجاهلية التي جاء الإسلام مغيياً لأثرها ومشدداً في النعي عليها لانه رأي أن حياة الأمة العربية لا تستقيم مع هذه العصبيات التي أضعفت قواهم في جاهليتهم

وقد نبض عرقها في أول الدولة المروانية فان وقعت مرج راهط التي تلاها قيام مروان بالامر كانت بين شعبين متناظرين وهما قيس التي كانت تشايح الضحاك وكلب التي كانت تشايح مروان يقدمها حسان بن مجدل الكلبي وقال في ذلك مروان

لما رأيت الأمر أمراً نهياً	يسرت غسان لهم وكلبا
والسكسكين رجالاتاً غلبا	وطيثاً تأباه إلا ضربا
والقين تمشى في الحديد نكبا	ومن تنوخ مشغراً أصعبا

لا يأخذون الملك الاغصبا وان دنت قيس فقل لا قربا

وكان من نتيجة ذلك أن الجند الذي أرسل بقيادة عبيد الله بن زياد لحرب المختار بن أبي عبيد الثقفي كاد يستأصل فان عمر بن الحباب السلمي كان على ميسرة ذلك الجيش وهو من قيس عيلان فلما قامت رحا الحرب على نهر الخازر كان أول من نكس لواءه ونادي بالثارات قتلي المريج وبذلك تمت الهزيمة على جند الشام وقتل عبيد الله وكثير من جند الشام : في الوقت الذي نبض فيه عرق العصبية الجاهلية بين قيس واليمن في الشام كان ما هو أشد منه في خراسان فان سلم بن زياد أميرها لما علم بموت يزيد سارع عنها واستخاف المهلب بن أبي صفرة وهو أزدي والآخر من اليمن فلما كان بسر خس لقيه سليمان بن مرثد وهو من ربيعة فقال له ضاقت عليك نزار حتى خلفت على خراسان رجلاً من أهل اليمن فولاه مرو الروذ والفارياب والطارقان والجوزجان وولى أوس بن ثعلبة هراة فلما وصل نيسابور لقيه عبد الله بن خازم فقال من وليت خراسان فأخبره فقال أما وجدت في المصر من تستعمله حتى فرقت خراسان بين ربيعة واليمن أكتب لي عهداً على خراسان فكتب له فسار ابن خازم الي مرو وملكها وأخرج من بها من ربيعة فتوجهوا إلى أوس بن ثعلبة بهراة وقالوا له نبايعك على أن تسير إلى ابن خازم وتخرج مضر من خراسان فبايعهم على ذلك وسار اليهم ابن خازم واقتل الفريقان بهراة وكانت الهزيمة على ربيعة بعد أن قتلوا قتلاً ذريعاً ثم عاد ابن خازم إلى مرو وكان بنو تميم قد أعانوا ابن خازم لانهم من مضر فلما صفت له خراسان جفام فتنكروا له وكانت بينهم مواقع بذلك كانت العرب بخراسان منقسمة أقساماً أربعة اليمن وربيعة وقيس

عيلان وتميم وهؤلاء الثلاثة يجمعهم نزار ويجمع الأخيران مضر
كانت الامراء تساعد على انماء هذه الروح الخبيثة فاذا ولي يمان رفع رءوس
أهل اليمن واستعملهم عمالا على الامصار فاذا تلاه مضرى تكس الامر وانتقم
من سلفه ومن عماله

ولم يكن ذلك العرق يسكن الا اذا كانت حروب خارجية مع
العنعد أو الترك فهناك تجتمع كرامتهم ويلتئم صدعهم للدفاع عن أنفسهم فاذا عادوا
عاد الفساد وكان من هذا الاختلاف مجال واسع لخصوم البيت الاموي
الذين يطالبونه بما في يده مما ليس له فان أبامسلم الخراساني أنكأ على ذلك فضرب
كل شعب بالآخر حتى تم له الظفر بجميعهم . ولا ننسى ان لشعراء العرب الذين
نبغوا في هذه الدولة يدا كبرى في انماء هذه العصبية فمن قرأ أشعار الاخطل
والفرزدق وجريرو وغيرهم من شعراء القبائل المختلفة يتجلى له ذلك لاشيء أضر على
الامم من أن تنقسم طوائف تنتمي الى عناصر مختلفة وكل طائفة تتعصب لعنصرها
فاذا كان مع ذلك الانقسام جهالة فان الكلمة تحق على الامة ويقرب منها
الفناء فان الجهل يجعل روح العصبية موجهة الى معاكسة المخالفين فتكون الامة
قوى متنافرة لا قبل لها بمن ينازعها بقاءها . لم ينتج من انماء العصبية الجاهلية
في قلب الامة العربية ذهاب البيت الاموي وحده بل كانت من ذلك ضعف
لامة العربية نفسها وتغلب الاعاجم على أمرها حتى كان منهم ما كان في عهد
الدولة العباسية مما سيأتي تفصيله ان شاء الله

(ثالثا) تحكيم بعض الخلفاء من بني أمية أهواءهم في امر قوادهم وفؤادهم
الاثر الصالح من شجاعتهم دولتهم وهذا السبب متفرع عن السبب الاول

والثاني فان سليمان بن عبد الملك لما ولى بعد ان كان الوليد يريد اخراجه من ولاية العهد عمد الى كل من كان هواه مع الوليد فاذلهم وحرّم نفسه وأُمته من الانتفاع بتجارهم فقد أهلك محمد بن القاسم وقتيبة بن مسلم وهما قائدان عظيمان من قيس بن عيلان ولا ذنب لهما الا أنهما من صنائع الحجاج الذي كان هواه مع الوليد ولا يميل الى سليمان. ولما جاء يزيد بن عبد الملك كان هواه مع آل الحجاج لانه صهرهم وكان يزيد بن المهلب قد عزب آل الحجاج فخاف وخلم وكانت نتيجة ذلك أن فقدت الدولة بيت المهلب بن أبي صفرة وهو بيت طاعة من قديم وطالما كان له أعظم الآثار في خدمة بني أمية والامة الاسلامية وكان بعد من هذا شيء كثير ففسدت قلوب الناس حتى كانوا ينتظرون من يجمع كلمتهم على الانتقام من بني أمية ومن يؤازرهم

الامة التي ينتقم خلفها من عمال السلف لانهم كانوا على وفاق معه تفقد صالح الاعوان ونحرم الاستفادة من تجارب العقلاء فلا يحتّم لها رأى ولا ينضج فيها عمل تمر عليها الامم سائرة الى الامام وهي في موقفها أولها حركة لا تتبين فيها مواقع أقدامها فلا تكاد تخرج من مزلة الاصادفتها أخرى حتى يهديها التاريخ بعبره فتعتبر أو تساق الى الفناء فتكون عبرة من العبر

تنبيه — لما كان اكثر الذين دونوا في عهد بني أمية قد عاشوا في الدولة العباسية استحسنوا ان يجعل الكلام عن العلم والتدوين بعد انتهاء الدولة العباسية